

www.ibtesama.com
بحر الكتب
bahr.alktob
مع دبي الثقافية
نسخة معالجة ومخفضة
كتاب
85
دبي الثقافية
يونيو 2013
بحر الكتب
رواية
مملكة الفراشة
واسيني الأعرج
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com



كتاب



يصدر عن مجلة دبي الثقافية

ويوزع مجاناً مع المجلة

الإصدار 85

رواية

مملكة الفراشة

نَحنُ أيضاً نُحِبُّ التانغو وَنَرقُصُ مَعَ المَوتَى

واسيني الأعرج

■ الطبعة الأولى، يونيو ٢٠١٣

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار



للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/‏+٩٧١٤
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ /‏+٩٧١٤
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/‏+٩٧١٢
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٢/‏+٩٧١٢

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/‏+٩٧١٤
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/‏+٩٧١٤

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/‏+٩٧١٤
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/‏+٩٧١٤

تقديم

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «مملكة الفراشة» للروائي الجزائري الأستاذ واسيني الأعرج، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاريعنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

الحَرْبُ ليْستْ فقط هي ما يَحرِقُ حَاضِرَنا، ولكن
أيْضاً ما يستمرُّ فينا منْ رَمَادِ حتى بعد خُمودِ
حرائقِ المَوْتِ. لكلِّ فراشةِ احترقتْ أجنحتُها
الهَشَّة، وهي تحاول أن تحْفظَ ألوانَها، وتبْحثَ
عن النُّور في ظِلِّ ظلمةِ كلَّ يومِ تَتَّسِعُ قليلاً.

واسيني

Lire m'était prétexte à rester seul, ou peut-être donner un sens à la solitude qui m'était imposée[1].
Alberto Manguel, Une histoire de la lecture 1996.

«Je ne me suis pas battu, je n'ai pas été déporté, je n'ai pas collaboré, je suis resté quatre ans durant un imbécile sous-alimenté parmi tant d'autres.[2]»

Boris Vian, 1936.

(١) وحدها القراءة كانت مبرري للبقاء، أو ربما لإعطاء معنى للعزلة التي فُرِضَتْ عليَّ.
(٢) لم أقاتل، ولم أهجّر ولم أكن عميلاً، بقيت على مدى أربع سنوات غبياً، مصاباً بسوء التغذية مثل الكثيرين.



I

مُصَابَةٌ بِكَ حتَّى العَظْم

-١-

هذه المرة لم أجد صعوبة كبيرة في فتح الباب منذ أن غيّرت المفاتيح القديمة التي تصدأ بعضها أو على الأقل هكذا بدا لي، إذ كلما كنت متسرعة في الوصول إلى البيت، تثبّت المفتاح على وضعية واحدة ولا يتحرك إلا بصعوبة كبيرة وبعد محاولات يائسة، يكون قد تجمد فيها دمي، وتحوّل إلى قطعة ثلج من شدة الخوف الذي يجتاحني كليّاً. لا يمكنني أن لا أتساءل وأنا داخل رعشة الريبة: ماذا لو كان قاتل، مجنون، معتوه، يتعقبني؟ يبدو أن أمي نقلت إليَّ كل خوفها وذعرها من الأصوات التي لم يكن أحد يسمعها غيرها.

كنت جدّ متشنجة، لكن بمجرد أن دخلت إلى عمق البيت أحسست بأمان غريب وذهبت كل ارتباكاتي التي كانت تعتريني وأنا في الطريق، وجفّفت حلقي، ومسحت ملامح وجهي كلها.

وأنا أتخطّى العتبة، لم أنتبه للرسالة الموضوعة تحت الباب إلاّ حينما أحسست بها تحت رجلي اليمنى. عرفت مصدرها من غلافها الأخضر. قرأت. التهديد نفسه. وزارة الصحة. آخر إنذار لفتح الصيدلية. بعد شهرين إذا لم تسوّ وضعيتكم الإدارية، سيتم سحب رخصة التسيير وتمنح لغيركم. ويرفقتها أربع صفحات من الجريدة الرسمية التي تذكر بالقوانين المتبعة

في حالة الغلق المستمر بلا سبب. هههههه لا أدري لماذا ضحكت في أعماقي على كلمتي بلا سبب. كنت متأكدة من أنّ الإداري الذي صاغ الرسالة على مهل، كان يقف على رأسه أحد أصدقائه الذي ينتظر منذ مدة طويلة أن يُمنح له حق فتح صيدليته في مكاني. أزمة كبيرة يعاني منها الصيادلة الجدد. لا حظ لهم في فتح صيدلية. مع أن الصيدليات التي فتحت في الآونة الأخيرة كثيرة، متحدية القانون نفسه الذي يمنع فتحها إلا في أمكنة يتجاوز عدد سكانها ٥٠ ألف نسمة، بمعدل صيدلية لكل خمسة آلاف ساكن. طبعاً عندما تفرض المصلحة الصحية العامة، تسمح وزارة الصحة بفتح صيدلية حتى عندما لا يتوفر عدد السكان المطلوب قانوناً. ويبدو أن بلادنا لا تسير بالقانون ولكن بالاستثناءات.

وضعت الإنذار على المكتب، ثم أغمضت عيني قليلاً لكي أتنفس خارج هذا الخوف المؤذي. كل شيء صامت في البيت. الأواني. آلاتي الموسيقية. الصور واللوحات. إلا أنفاس أمي المتقطعة التي كانت تأتي من غرفة أختي ماريا أو كوزيت كما أسميتها. هذه عادتي السيئة. كان يُفترض أن لا أكون صيدلانية أو قارئة روايات ومسرحيات، ولكن موظفة في



الحالة المدنية. ربما كنتُ مفيدة أكثر. كوزيت غادرت البلاد إلى مُونْتريَال في ظروف قاسية، منذ اصطدامها العنيف مع أخي رايان. قصة طويلة.

عودتي إلى فرقة ديبّو- جاز Dépôt-Jazz أراحتني كثيراً. هي بيتي وذاكرتي حتى ولو غاب اليوم عن الفرقة الكثير ممن كنت أحبهم. كانت لحظات جميلة في مخزن الجاز، أنستني همَّ الركض بين مختلف الإدارات لتوقيف قرار غلق الصيدلية التي أحرقتها حريهم الصامتة، وتحمّل ثقل البيت، ومتاعب أمي فيرجي التي تعيش بين الوهم والنوم. هي أيضاً غيرت اسمها الأصلي الذي بدا لي ثقيلاً: فريجة.

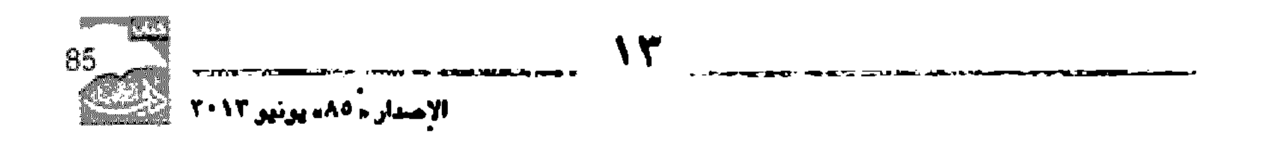
نسمي المكان الذي تتدرب فيه فرقة الجاز بالمخزن، لأنه في الأصل كان مكاناً غير مستعمل فأعطيناه روحاً نحن المهابيل السبعة، قبل أن يُقتل داوود، ديف كما أسميته، عازف الهارمونيكا والقيثارة الكهربائية، في ظروف غامضة. إلى اليوم لا يزال أصدقاؤه يضعون قيثارته وشاله الطوارقي[٣] الأحمر في مكانه المعتاد وكأنه حاضر معهم، وعلى الكرسي الصغير الذي كان يضع رجله اليمنى عليه لحظة العزف، يوم اغتياله.

---

(٣) الشال الطوارقي، من الطوراق. وهو عبارة عن كوفيه يضعونها على أفواههم درءاً لرمال الصحراء وهي جزء من عاداتهم اللباسية الصحراوية التقليدية.

منذ مقتله لم أعد إلى الفرقة إلا في الآونة الأخيرة. غادرت المكان كمداً لأنه كان من الصعب عليَّ تحمل تحول ديف إلى مجرد قطعة صغيرة من الأثاث. حتى أشياءه النادرة التي كانت معي، دفنتها في خزانتي لكي لا أراها ثانية، لكن في كل لحظة يفاجئني شيء منه ليذكرني بأنه لا يزال هنا، بالضبط حيث ذاكرة القلب الخفية. كان ديف مثل فراشة، عندما احترق لم يخلف وراءه شيئاً منه إلا ظلالاً هارية تنزلق متخفية بين أشواق من عرفوه، وبياضاً متماهياً في الأضواء، كلما حاولنا القبض عليها، انطفأت بسرعة. ومع ذلك، فقد علَّقتُ الهارمونيكا مثلاً على الحائط، كاللوحة الفنية. فهي ميراثي الوحيد. كان يدهشني بعزفه وهبله الموسيقي. كيف تستطيع آلة صغيرة تسكن بين كفَّيه، أن تغير كل مزاج الحضور، وتصنع عالماً موازياً غريباً. كان أحياناً يعزف عليها، وفي الوقت نفسه لا يترك أوتار القيثارة الكهربائية، على الرغم من أنه لم يكن يحبّذ هذه المزاوجة. له قناعة غريبة وهي أن الهارمونيكا آلة باذخة وغيورة، ولا تحتمل غيرها في لحظة العزف. مثل المعشوقة، يجب أن لا تؤخذ بيد واحدة، ولكن بكل الحواس.

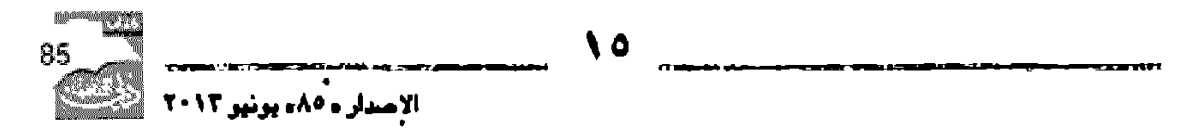
كانت فرقة ديبو- جاز Dépôt-Jaz مكونة من سبعة شباب



مولعين بحاضرهم ويعطر المدينة. أنا على الكلارينات. جواد أو دْجُو على الساكسو. أنيس على القيثارة الجافة. شادي على الكلافية. رشيد أو راستا على الباس. حميدو أو ميدو على الباتري والطبل الأفريقي، داوود أو ديف على الهارمونيكا والقيثارة الكهربائية. ويصبحون ثمانية إذا أضفنا عازفة البيانو صفية أو صافو، ذات الصوت الشجي، التي هاجرت مع والديها بمجرد اشتعال نار الحرب الأهلية. جمعية شبابية هولندية مركزها في هآرلم، تعرّف عليها ديف، هي من ساعدنا على شراء بعض الآلات الموسيقية وتأثيث المكان لاحقاً. كان علينا فقط أن نجد مكاناً ثابتاً نتدرب فيه. عندما انغلقت علينا السبل وبعدما أنهكتنا الاتصالات مع البلدية بلا جدوى، جمعنا كل الوثائق عن المخزن المغلق الذي نبهنا إليه ديف، وشكلنا وفداً اتجه نحو البلدية. كان المخزن ملكاً لرجل إسباني هو الجد الأخير لديف، وبقي مهملاً ومغلقاً مدة طويلة، حتى اقتحمناه وانتظرنا أن تسجننا الشرطة أو فرق الدرك الوطني أو جهاز المخابرات السري المطلع حتى على أنفاسنا. لكنهم لم يفعلوا أي شيء. كنا مسلحين بوثائق جد ديف، لأن المخزن كان مِلكاً له. جده اختار البقاء والموت على هذه الأرض.

عندما اقتحمناه كدنا ندوخ من شدة العفن. كان المخزن مهملاً

كلياً ومليئاً بالرطوبة. وفي ظرف أسبوعين، أصبح عملياً بعد أن تجندنا له جميعاً لإعادة تأهيله. أبي ساعدنا بقسط من المال. أم ديف منحتنا البيانو القديم الذي اشتراه لها والدها لتعزف له أناشيد الحرية التي كان يحبها الجمهوريون الإسبان. صلّحناه وضبط لنا عمي مُوحَا، العازف العجوز، كل خيوطه، حتى أصبحت نوتاته جميلة وممتلئة. كان ديف هو من أخذ المهمة على عاتقه وظل يركض في كل الاتجاهات حتى عثر على عمي موحَا الذي كان يزور جدّ ديف من حين لآخر. أول ما رأى البيانو شعر بسعادة كبيرة، تلمسه طويلاً قبل أن يتنهد بعمق: هذا البيانو أعرفه جيداً. أعدنا تنظيم المخزن من جديد وطليناه باللون الأبيض من أجل المزيد من الضوء. فتحنا في حائطه الخشن، المطل على الشارع والبحر، نافذتين كبيرتين. سمّيناه ديبو- جاز **Dépôt-Jazz** لأنّ كلمة ديبو تعني المخزن في اللغة الفرنسية، وجاز مرتبطة بعملنا الفني. فاستطعنا أخيراً أن نتجمع بحرية بدل التجمعات المقلقة، في بيوت أهالينا أو في بيت ديف. تنقلنا كثيراً عبر مدن الجمهورية بما فيها مدينتنا، وأحيينا نشاطات كثيرة. يبدو أن اسم الفرقة علق بسرعة في رؤوس عشاق الموسيقا في زمن الخوف، بالخصوص الشباب، قبل أن تبدأ حرب التقتيل اليومي، وتعقبها عشر سنوات من الحرب الصامتة، ونخسر



ديف الذي كان أنشطنا، ليتحول إلى جرح مفتوح صعب أن ينغلق في مقبرتي الداخلية التي تكاثر عدد سكانها.

أحب جداً آلة الكلارينات. أشعر أن بيني وبينها نفساً من أنفاس الآلهة. مع أن الأمر في البداية لم يكن سهلاً. تعلمت العزف عليها محبة في أمي ومجاراة لها. وضعتني في المدرسة الفنية القريبة منا لتعلم الآلات الموسيقية بعد الانتهاء من دروسي الاعتيادية في المدرسة الفرنسية ألكسندر دوما، كانت أمي تريدني خارج الناس، أن لا أشبه أحداً. كانت تكرر عليَّ جملتها الدائمة: من شابه الآخرين أصبح لا شيء في النهاية. تبدو أمي بورجوازية في كل شيء. في مخّها، في كلامها وحركات أصابعها وهندامها. عائلة أمي ذات الأصول البربرية الأندلسية التركية، كانت تقودها حتى سليمان القانوني. ظلت أمي معلقة بهذا الوهم لكي تعلن اختلافها عن بقية سكان المدينة. كانت عندما تراني، وأنا صغيرة، تصرخ في وجهي.

– لا تكوني مجنونة. الرب خلق وفرّق. ولست أنا من ركب العالم على هذه الشاكلة. جدي سليمان، سلطان تركي كبير لا يقبل بهذه البدلات المدرسية البائسة التي تفرض على الجميع. أحب العدالة، ولكني أرفض أن يتسطح كل شيء. أريد لابنتي أن

---

(4) Alexandre Dumas.

تكون الأجمل والأبهى.

لم أر أبي يوماً جاداً في البيت إلاّ في لحظة عمله. كان يساير أمي دائماً لكي يتفادى ثورتها.

- أمك معها حق حبيبي. الله خلق وفرّق. لا يتساوى الذين يملكون والذين لا يملكون.

تلتفت أمي نحوه. لا تكاد تصدق ما كانت تسمعه. بمجرد أن تواصل حديثها معي، يغمزني من ورائها، قبل أن ينهمك في أعماله. أفهم قصده جيداً. فلا أرد عليها، وأهز رأسي بالموافقة.

على الرغم من العزلة التي فرضتها عليَّ أمي، فهي من أعادني نحو الناس. أحد معلمي العربية نصحها بأن تجبرني على ترك فكرة تعلم الكلارينات لأن شكلها الطولي غير مريح، وتحتاج إلى نفس قوى للنفخ لم أكن أملكه. وأتعلم آلة أدفأ وأسهل تتواءم معي كالدف والطّار والطبل والبندير. لكن أمي أصرت على الكلارينات التي كانت هي أيضاً تحبها، بالخصوص عندما بدأت تكتشف حبيبها بوريس فيان(٥) الذي أصبح كل شيء في حياتها. أنا أيضاً، كان تعلُّم العزف بالنسبة لي، على هذه الآلة، رهاناً حقيقياً لأثبت لأستاذي الغبي أني كنت قادرة على كل شيء، وأملك نفساً أقوى من نفسه. وأني لم أكن في حاجة لتعلم الضَّرب على الطار، أو الطبل أو الدف لأن يديَّ

(٥) Boris Vian

صغيرتـان. لم يقتنع أستاذ اللغة العربية بمبرري، لكنه بلع كل شيء وأصبح يكرهني. كان يسمّيني المطيَّرة[٦].

كبرت مع الكلارينات حتى صعب عليَّ الانفصال عنها. كانت وجداني العميق ووسيلتي الانتقامية من الجلافة والموت ومن أستاذ اللغة العربية الذي كلما تذكرته، انتابتني كلمات الموسيقي الفرنسي البلجيكي، أندريه غريتي[٧] وهو يقول: الكلارينات هي التعبير الأرق عن الألم. عندما تنبعث منها أنغام الفرح، تضفي على ذلك لمسة من الحزن. لو كان يُسمح بالرقص في السجون، كنت طلبتُ أن يتمّ ذلك على أنغام الكلارينات[٨]. ظللت زمناً طويلاً أحمل غضباً من أستاذ اللغة العربية. في مرة من المرّات ذهبت نحوه بنص صغير لهكتور برليوز[٩] مأخوذ من كتابه: دليل الآلات الموسيقية والأوركسترالية الحديثة. وسألته فقط ليدرك أنّ منعه لي تعلم الكلارينات لم يكن في محله:

---

(٦) تذير الشؤم.

(٧) André Grétry (1741-1813

(٨) La clarinette en si bémol est un instrument qui exprime la douleur. Lorsqu›elle exécute des airs gais, il y mêle encore une certaine teinte de tristesse. Si l›on dansait dans les prisons, je voudrais que ce fût au son de la clarinette.

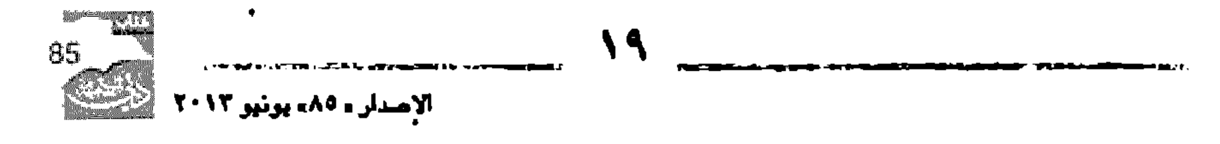
(٩) Hector Berlioz : Grand traité d'instrumentation et d'orchestration modernes.

- لماذا تكره هذه الآلة يا أستاذ؟ مع أن صوتها جميل.
- لأنها غير مريحة. طولها ومنقارها وهيأتها لا تعجبني.
- مع أنها آلة ناعمة ولذيذة وناعمة.
- من قال هذا الكلام الفارغ.

ردّ بشيء من العنف على التحدّي الذي أبديته أمامه. واصلت وأنا أستلذّ في أعماقي لأني أخرجته قليلاً من جلده الثقيل. فتحت الورقة التي كانت في يدي. كنت أعرف أنه لا يتقن الفرنسية ومع ذلك قرأتها له باللغة التي كان يكرهها على الرغم من أنه كان يدرس في مدرسة ألكسندر دوما.

- اسمع ماذا يقول موسيقي اسمه برليوز عن الكلارينات:

" La clarinette est peu propre à l'idylle, c'est un instrument épique, comme les cors, les trompettes et les trombones. Sa voix est celle de l'héroïque amour ; et si les masses d'instruments de cuivre, dans les grandes symphonies militaires éveillent l'idée d'une troupe guerrière couverte d'armures étincelantes, marchant à la gloire ou à la mort, les nombreux unissons de clarinettes, entendus en même temps, semblent représenter les femmes aimées, les amantes à l'œil fier, à la



passion profonde, que le bruit des armes exalte, qui chantent en combattant, qui couronnent les vainqueurs ou meurent avec les vaincus. Je n'ai jamais pu entendre de loin une musique militaire sans être vivement ému par ce timbre féminin des clarinettes, et préoccupé d'images de cette nature, comme après la lecture des antiques épopées. Ce beau soprano instrumental, si retentissant, si riche d'accents pénétrants quand on l'emploie par masses, gagne dans le solo en délicatesse, en nuances fugitives, en affectivités mystérieuses ce qu'il perd en force et en puissants éclats. Rien de virginal, rien de pur comme le coloris donné à certaines mélodies par le timbre d'une clarinette jouée dans le médium par un virtuose habile. C'est celui, de tous les instruments à vent, qui peut le mieux faire naître, enfler, diminuer et perdre le son. De là la faculté précieuse de produire le lointain, l'écho, l'écho de l'écho, le son crépusculaire. N'est-ce pas la vierge isolée, la blonde fiancée du chasseur, qui, les yeux au ciel, mêle sa tendre plainte au bruit des

bois profonds agités par l'orage[10]

- ... ...

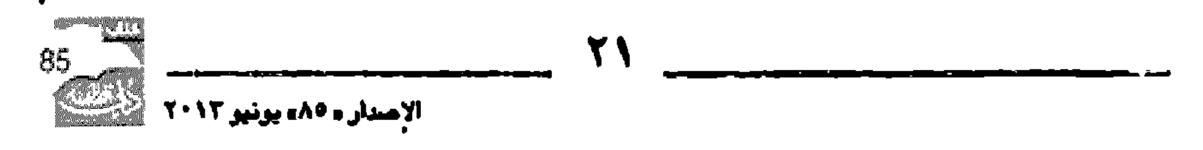
- فهمت يا سيدي كم كان برليوز يحب هذه الآلة؟ «

لم يقل ولا كلمة، لكنني أعتقد أنه لعنني في أعماقه. فهمت ذلك من حركة شفتيه، ثم انسحب. إلى اليوم لا أعرف لماذا ذهبت نحوه وأنا أدرك سلفاً أنه لن يقبل مني أي شيء. أعتقد أنه من يومها وضعني في كفه وعركني بقوة، ثم رمى بي في قنديل الزيت مثل الفراشة، وتأمل احتراقي بمتعة حتى النهاية.

لكن عندما قُتِل ديف الذي كنت متعلقة به، تغير كل شيء. انفصلت عن فرقة ديبو- جان، وذهب كل واحد منا في اتجاه. غضبنا في البداية من خروج صافو، فتبعناها كلنا في

---

(١٠) الكلارينات مناسبة للتعبير عن المبهر. آلة ملحمية مثل الصناجات والترومبيت والطيبول. صوتها هو صوت الحب البطولي. وإذا كانت مجموعة الآلات النحاسية في السمفونيات العسكرية الكبرى توقظ فكرة الإحساس بفرقة عسكرية مغطاة بالواقيات المعدنية اللمّاعة، متجهة نحو النصر أو الموت، فمجموع أصوات الكلارينات التي تسمع في الوقت نفسه تبدو كأنها التعبير عن النساء المحبوبات والعشيقات الفخورات اللواتي تشعرهن أصوات الأسلحة بالانتشاء وهنّ ينشدن في غمار المعركة ويكللن المنتصرين أو يمتن برفقة المهزومين. لم أسمع في حياتي من بعيد موسيقا عسكرية دون أن أصاب بالذهول بهذا الصوت الأنثوي للكلارينات وامتلئ بالصور الناتجة عن ذلك، مثلما يحدث عادة بعد الانتهاء من قراءة الملاحم القديمة. هذه الآلة الأنيقة القوية والغنية في أصواتها النادرة عندما تستعمل ضمن المجموعة، تستعيد في حالة الانفراد النعومة والانخطاف والعذوبة الغامضة وكل ما ضيعته من قوة ودهشة وهي في المجموعة. لا عذرية ولا صفاء مثل التدرجات التي يمنحها صوت الكلارينات عندما تأتي من عازف ماهر وذكي. من بين كل الآلات النفخية، وحدها الكلارينات بإمكانها أن تنشئ وتضخم وتقلل الأصوات. من هنا قدرتها الثمينة على إنتاج الأصوات المتأتية من بعيد، الصدى، وصدى الصدى والصوت الغسقي. أليست هي العذراء المعزولة، الشقراء خطيبة الصياد التي بنظرتها المرتشقة نحو السماء، تخلط أنينها الناعم بصوت هسيس الغابات التي تحركها العواصف؟



النهاية. قبل أن يحاول دْجُو، أكبرنا سناً، إعادة تركيب الفرقة من جديد، من خلال بعض شباب الحي الشمالي والجنوبي من المدينة الذين يحبون موسيقا الجاز. أضاف لها عازفاً صحراوياً، بالي، على آلتي الإمزاد والقمبري. دْجُو لم يستسلم أبداً لقدر الموت اليومي الذي أصابنا جميعاً في الصميم. فقد كان أكثرنا إصراراً على المواصلة والحفاظ على ديبو- جاز:

- يحبوا يقتلونا إيجوا. يعرفون مكاننا.

- لكن يجب أن تحذر يا عزيزي دْجُو.

- هنا يموت قاسي[11]. لن أرحل من هنا، انتهت هذه الحرب الصامتة البائسة أم لم تنته. لست أفضل ممن فضل البقاء وكان بإمكانه الخروج النهائي من هذه الأرض. تعرفين ياما بماذا رَدَّ عليَّ ديف يوم طلبتُ منه أن يغادر البلاد نحو إسبانيا أو غيرها حفاظاً على حياته؟ قال: هذه أرضي، لا أعرف تربة أخرى. هنا مات جدي وأمي وجزء مهمّ من أهلي. وهنا أموت. راوغت الحرب الأهلية طوال عشر سنوات، وليس الآن أوان الموت بعدما نامت السكاكين قليلاً، وهدأت البغضاء.

---

(11) مثل شعبي جزائري يعني الإصرار على البقاء في المكان نفسه مهما كان الثمن الذي يتوجّب دفعه.

رميت محفظتي والكلارينات باس[١٢] على الصوفا، ثم استلقيت بظهري على كرسي مكتب والدي المريح، الذي نقلت نحوه كل أغراضي الحميمة والثمينة، مباشرة بعد مقتله. لم أغير شيئاً في ترتيبه الذي اختاره هو، سوى أني أضفت إلى اللوحات التي اقتناها من معارض كثيرة، قبل الحرب الأهلية، وصورته الكبيرة، «بعويناته» الطبية، هارمونيكا ديف، التي علقتها على حائط والدي زبير أو بابا زوريا كما أسميته، فبدت كتحفة نادرة، على ارتفاع متر من على رأسي. كلما التفت نحوها، رأيتها في استكانتها الجميلة ورأيت وجه ديف الطفولي، ولوحة عازف الكلارينات، وهي نسخة مرقمة من لوحة بيكاسو بالعنوان نفسه، التي اشتريتها من سوق العتيق في كاتالونيا. يبدو أنه أنجزها أثناء إقامته في سيريت[١٣] وأنجز معها الرجل ذو الغليون، والتوريرو، وقنينة الروم[١٤]. أما القيثارة الكهربائية التي احتفظت بها زمناً طويلاً، فقد سلمتها في النهاية لأصدقائه في ديبو- جان، لأنهم كانوا بحاجة لها ولحضوره الرمزي ليستمروا.

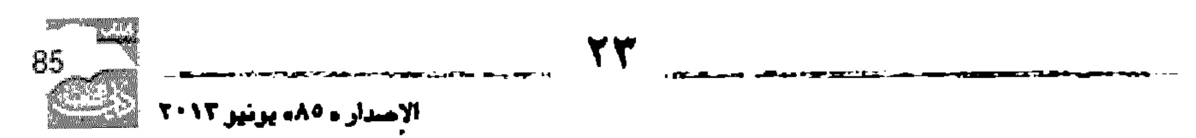
فتحت الكمبيوتر ولكني لم أستطع كتابة حرف واحد.

---

(١٢) Clarinette basse.

(١٣) Céret.

(١٤) Pablo Picasso : «l'Homme à la pipe», «L'Homme à la clarinette», «Le torero», «La bouteille de rhum»



كنت متعبة وسعيدة في داخلي وأنا لا أعلم لماذا. نهاري كان ثقيلاً. لم أفكر في شيء سوى في أن أتواصل على الفيسبوك، كالعادة، مع حبيبي فادي أو فاوست، تحت الرقابة الصارمة لعيني والدي الذي لا ينام أبداً. لقد استقر في إطار معلق على رأسي، وهو الرجل المليء بالحياة. أصبح فجأة جزءاً من أثاث البيت. كنت في البداية أتكلم معه. من حين لآخر أسأله عن صمته، عن علاقته بماما التي لم تكن جيدة. مما دفع بأمي إلى التعلق بسلسلة من الأوهام. لكنني مع الزمن، أوقفت الحديث معه نهائياً، فقد بدا لي كقبر معلق في الفضاء. خفت. مع أن الصورة كانت ترسم والدي في بشاشته التي سرقتها منه الحرب الصامتة. كانت من الصور القليلة التي هربتها من غضب أمي الحارق يوم أضرمت النار في كل ما يمت بصلة لوالدي. ووضعتها في مكتبه الذي لا تدخله أبداً لأنه يذكرها بشجنها. هذه التفاصيل الصغيرة كانت تحميني من جنون مؤكد بما في ذلك جنون أمي فيرجي.

أنا لا أملك الأسلحة الجبارة التي أقاوم بها خوفي ووحدتي إلا هذه المملكة الزرقاء التي تسمى الفيسبوك.

قلت لحبيبي فاوست ذات مرة ونحن في محادثة حميمية واشتد بي الحنين له:

- فاوست. حبيبي لك كل شيء، ما أملك بلا استثناء، ولي فقط وردة من يديك وقبلة مسروقة، في غفلة من القتلة، والركض معك في مدن التيه قبل الموت بسكرة العاشقة بين ذراعيك.

ضحك مني كعادته.

- هههههههه....

واصلت جنوني وأحلامي الهارية.

- خليني نشوفك على الأقل وأتأكد من أنك حقيقة ولست حلماً هارباً. حتى في السكايب إذا أحببتَ، قبل أن يداهمني الموت في مدينة أصبحت توفره بسخاء. أرجووووك. دلعك هذا يقتلني. صحيح لي منك صور كثيرة، في المسرح. في لاخيرالدا في إشبيلية. في غرناطة التي تعشقها حتى الموت. لكنها كلها صور متوفرة في الفيسبوك. أريدك لي، أنت بلحمك ودمك. أريد أن أقتل هذا الرجل الافتراضي وأؤمن برجل يمنحني الحب. أشم عطره وعرقه وأسمع قهقهاته العالية وأشعر بكل لمسة من لمساته.

- أنت معي حبيبتي في كل لحظاتي.

- أينك الآن؟

- في منفاي؟ تعرفينه جيداً.

- مؤشر المكان في الفيسبوك لا يظهرك في أي مكان.

أريد أن أراك. أن أركض نحوك. أن أضمك إلى صدري. أن أشبع من أنفاسك القلقة وهي تتقطع على صدري لذة وجنوناً.

- كلما طال الغياب، كان اللقاء أروع وأجمل.

- حبيبي فاوست، أصبحت هشة جداً لدرجة أني لم أعد أعرف نفسي. من يضمن لي أني سأعيش طويلاً حتى أراك. أخاف أن يسرقني الموت قبل الأوان في وضع اللاحرب واللاسلم التي تعيشها مدينتنا، وهو الأقسى. غيابك حبيبي طال، وطاقتي على التحمل تجاوزت حدها.

- وماذا أقول عن منفاي الذي قارب العشر سنوات؟ في العينين أنت يا أجمل عمر. لم يبق الكثير لكسر هذه الغربة القاتلة. لابد أن يكون وجه البلاد قد تغير كلياً. سنلتقي في عرض مسرحيتي لعنة غرناطة. انتهينا من الترتيبات الأخيرة مع وزارة الثقافة والسياحة وحتى وزارة الداخلية. لقد تعبت. سأعود إلى وطني، وسأعرف كيف أضعك في العينين وأهرب بك نحو كل الأمكنة السحرية. بلادنا واسعة مثل سماء ودافئة كشمس، ينقصها فقط من يذكّرها بذلك من حين لآخر.

- لكنّي تعبت يا عمري.

- شهور قليلة فقط. ستكون عودة جميلة إلى أرضي ووطني. يااااه يا ياما الحبيبة. تعرفين أني أحب الخريف لأنه

يمنحنا فرصة غريبة للاستيقاظ التدريجي بعد غفوة الموت في الصيف والخمول مثل بقية الكائنات الحية التي يصوم بعضها فيها مثل الحلزون.

-لكني لست حلزوناً يا فاوست. أنا امرأة من لحم ودم وكثير من الهبل الذي قتلته الحرب الصامتة بعد أن فككته الحرب الأهلية.

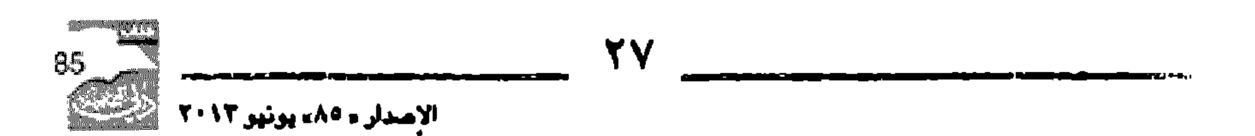
-أنت مُتعبة اليوم. من الأفضل أن ترتاحي الآن. سنتحدث لاحقاً. هل عدتِ للديبو- جاز؟

-كنت أريد أن أحدثك طويلاً عن ذلك. أجد صعوبة كبيرة. كل الذين هناك أكاد لا أعرفهم. ولكن إرادتهم كبيرة للمواصلة. متعبون مما يحدث، لكنهم مصرون وذجو على رأسهم. ينوون تنظيم سهرة فنية لاختراق الخوف وإدانة الحرب الصامتة، ويريدونني أن أكون معهم. لا أعرف.

-المهم ارتاحي الآن. ونتحدث لاحقاً عن الموضوع.

كنت فعلاً مهيأة مثل مراهقة لأن أحكي لفاوست عن كل شيء. حتى عن رسائلي الملونة التي أكتبها كل ليلة بحثاً عنه، وأخبئها في درجي السحري حتى تراكمت وأصبحت كثيرة. هبلي الأول كان ليلة ميلاده. ليلتها اقترفت أول رسالة له:

"لو فقط تعلم كم أنت في قلبي. ولكنك لا تعلم. غداً عيد ميلادك



يا مسيحي الصغير. سيأتي وأنت بعيد عني. ستمضيه مع أية امرأة غيري. فيليسيا. أورورا. إزميرالدا. ولا أدري كم من الأسماء مرت على قلبك؟ ستقول لك إحداهن، أو كلهن، بكل لغات الحب التي تجيد: عيد ميلاد سعيد مهبولي الغالي. لا أعلم إذا ما كنتَ تتذكر أم لا، أخبرتك يوماً بأنَّ دخولك حياتي هدية سماوية، هبة أقدار مجنونة، مقابل ابتسامات ساذجة هي كل ما استطعت أن أرسمه على واجهة حائط أزرق يتماوج في داخلي كبحر هارب في كل ليلة. أنت رجلي الذي أمضيت ساعات خلوتي منذ سنوات المراهقة الأولى أرسم خطوط وجهه. أعدل طوله. وشكله وعاداته. أحلم بما يمكن أن أمنحه له من حب وما يمكن أن يمنحه لي من بهاء. لا تضحك حبيبي من سذاجتي القلقة التي تشبه رسوماتي الأولى على كراساتي المدرسية حيث تفقد الأشياء منطقها وأشكالها المعهودة ولا تبقى إلا ملامحها الجوهرية. لا أدري كيف تهنئ امرأة عاشقة رجلها الذي يسكنها، بعيد ميلاده وهو في دنيا بعيدة من الألوان المستحيلة. ومع ذلك أستعير شجاعتي من بحرك ومنفاك فقط لأقول لك: عيد ميلاد سعيد حبيبي. العيد الأول لحبنا أكثر منه عيد ميلادك. كل الآمال والجمال والهبل. هل أخبرك عن أمنياتي لهذا اليوم؟ لا شيء وكل شيء. أن تقبلني

دون أن أطلب ذلك منك. أن تهمس في أذني: نحبك ونموت عليك. أن تأخذني من يدي وتطوح بي في السماوات العالية وأنا مغمضة العينين وعندما أفتحهما أجدني بين ذراعيك. أن تداعب خصلات شعري وكل حواسي النائمة وتوقظها من غفوتها التي طالت منذ وفاة ديف. أن تستلقي على صدري كطفل لم يكمل سنواته الثلاث، لا يجيد إلا الهرب نحو امرأته الأولى، أمه. وعندما أفاجئه بسؤالي الملعون وأنا أختبر جنونه الصغير: قداش تحبني؟ يصاب بالحيرة إذ يبدو له كل شيء قليلاً وصغيراً، وعندما يفاجئه البحر باتساعه. يبتسم كمن وجد سره: قد البحر نحبك. فأجيبه دون تفكير: وأنا حبيبي قد الحياة نحبك... طول العمر يا غالي".

كنت بالفعل مهيأة أيضاً لأن أحكي له عن علاقتي الطفولية مع ديف. رجلي الصغير الذي سرق نفسه مني وذهب ليموت تحت ظل بناية خادع. ديف نفسه لم يكن أكثر من طفل عاشق لكل شيء. منه عرفت قصة جده الإسباني وكيف جاء من بعيد نحو أرض سمع بها ولم يرها أبداً. كيف ترك حقوله في منطقة روندا وجاء إلى وهران بعد مجازر الحرب الأهلية في ١٩٣٦. التحق ببعض أعمامه وأبنائهم الذين جاؤوا إلى المنطقة في وقت مبكر، في نهايات القرن التاسع عشر عندما بدأ المعمّرون

في استصلاح المرجات والأراضي المهملة لغرسها بأشجار الكرم التي نجحت بشكل كبير. كانوا يملكون حقول الكروم الواسعة. تعرف على الحرفة جيداً ولكنه فضل عليها العمل في بيادر البرتقال. انتقل بعدها إلى المتيجة[15] بدعوة من صديقه ليون بيتون[16] المولود في مدينة بوفاريك، الذي كان قد استفاد من اكتشاف الدكتور تريكو[17] واشترى اكتشافه. فأضاف الماء الغازي لعصير البرتقال الذي كان ينتجه، وسمّى مشروبه نرانخينا[18] في البداية قبل أن يستقر على اسم أورنجينا. ثم اشتغل مع ابنه جون كلود بيتون الذي واصل مشروع والده وأسس الشركة الفرنسية لمنتجات أورنجينا. قبل أن يشتري مخزناً في العاصمة، في المرتفع المطل على البحر، ويصبح واحداً من الموزعين المعتمدين لشركة أورنجينا. بقي في مخزنه حتى مرضه وموته. عندما اقترح عليه جون كلود بيتون الانتقال إلى مرسيليا، رفض وفضل البقاء بمحاذاة زوجته وابنته. لم يبق له أي شخص من العائلة المباشرة إلا ابنته التي ولدت في وهران وسماها كليمونتين[19] على نوع

(١٥) منطقة تقع على أطراف الجزائر العاصمة، معروفة بزراعاتها وحمضياتها.

(١٦) Léon Beton.

(١٧) Docteur Trigo.

(١٨) Naranjina من الكلمة الإسبانية naranja التي تعني البرتقال

(١٩) يسمى هذا النوع اليوسفي. وكلمة كليمونتين تحمل معاني الرحمة أيضاً.

من البرتقال الطيب الذي اشتغل عليه مع معلمه حتى أصبح بلا حبوب. بعد وفاة والدها، لم تستطع كليمونتين مغادرة الجزائر ولا وهران، فقد ظلت معلقة بين المدينتين وقبورأهلها. بالخصوص قبر والدها الذي نقلته من العاصمة ليدفن في وهران مع بقية الأهل. نفذت وصيته حرفياً كما أرادها.

ويقي المخزن مغلقاً بعد الاستقلال. حاولت أن تسترجعه ولكنه لم يكن باسمها ولكن باسم والدها. وحتى عندما توفيت هي أيضاً، طلبت أن تدفن بجانب قبر والدها وأمها. ونقلها ديف إلى وهران، نحو بقايا مقبرة يهودية أصبحت خراباً. محفورة في كل الأماكن. رأى شاهدة جده التي كتب عليها: هنا يرتاح خمينيث دالمدو... المولود في ١٩... في منط.. اتكأ على ركبتيه وبدأ يجمّع قطع الشاهدة المكسورة ويركبها. طلبنا يومها من حارس المقبرة الجديد أن يأتينا بقليل من الإسمنت وقمنا بلصق القطع مع بعضها، وأعدنا قراءة الشاهدة: هنا يرتاح خمينيث دالمدوفار، المولود في ١٩٠٦ في منطقة روندا. توفي بالعاصمة في ١٠ أكتوبر ١٩٧٥. يومها بكيت بمرارة مع ديف. ظل صامتاً طوال الرحلة بين وهران والعاصمة. وعندما تكلم كان مقهوراً:

– ألا يرتاح الإنسان حتى في قبره؟



- أعتقد أن الوضع تغير بعد أن التزمت الدولة بحراسة المقابر اليهودية والمسيحية.
- أتمنى من قلبي. لم أعرف أرضاً غير هذه. فكرت حقيقة أن تنقل جثة أمي إلى منطقة روندا في لحظة من اللحظات، نحو أرض أجدادها. فكرت في موتي أيضاً.
- ولكنك مازلت شاباً...
- شاب وخائف؟ شيئان لا يستقيمان

ونحن في الطائرة، شعرت بنعومة أصابعه وهي تتعمق في شعري وبحرارة قلبه ودمعه. لم يكن يريد أن أراه يبكي. نمت على صدره دون أن أرفع عيني حتى سمعت المضيفة وهي تعلن عن وصولنا إلى مطار العاصمة. الكثير من أحلامي الصغيرة تنكسر بسرعة. تمنيته أن يبقى معي طويلاً وأن لا يعود إلى بيته، ولكنه قال لي إن عليه أن يقطع الجسر نحو الجهة الجنوبية من المدينة، الذي لم يعد آمنا في الليل. لم أصرّ عليه. نظر إلي في اللحظة التي مست فيها عجلات الطائرة أرضية المطار، ثم تمتم وهو يرسم ابتسامة هارية أعتقد أنها أهم ما يذكرني فيه.

– لازم تخافي. الحزن مثل الحب معدٍ، ولا أريدك أن تقضي معي أمسية كئيبة.

- أريدك فقط أن ترتاح قليلاً. أعرف جرحك. أمك كانت كل ما يربطك بهذه الأرض القاسية.
- ليست الأرض هي القاسية. فنحن نصنع بها ما نشاء. مساحة أبهى من الجنة نحسد عليها، أو جهنم الموت المجاني. البشر والجهل هما السبب في كل شيء، في الخير والشر.

في المطار عانقته ثم غادرته دون أن ألتفت نحوه. كان يومها حزيناً وكنت منكسرة.

-٢-

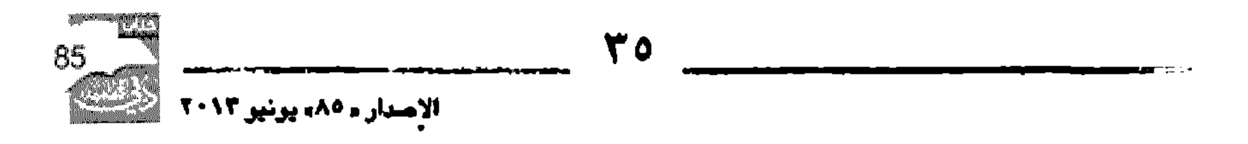
يحدث أن أغرق في أحلامي وهبلي.

أحاول أن أنسى كل شيء وأعبر مثل الفراشة فوق ألسنة النار. أن أنام وسط ألوان يخلقها قلبي ويؤثثها جنوني الخفي. أراني أحياناً طفلة صغيرة تركض وسط قوس قزح، تسير في التيه الجميل، في خط مستقيم قبل أن تعبث بالألوان بمتعة غريبة ويعبثية مطلقة. في أحيان أخرى أراني في فراش من أشعة الشمس الدافئة التي تحيط بي في شكل ستائر نورانية، قبل أن أتسلى بها مثل لونجا السجينة، وأظفّر بها أجمل الجدائل الرائعة وأهديها لمن أحب كما كنا نهدي، عندما كنا صغاراً، باقات نوار النرجس للطفل الذي استقرت عليه أعيننا من بين كل الأطفال. لا أدري يومها إذا كان الذكاء وحده المقياس أو الجمال؟ كنت أذهب دوماً نحو الأطيب ومن يشعرني بالأمان ويمنحني فرصة أن أكون مجنونة الحلم، ولا يسخر من هبلي. وأحياناً أغرق في عرس الفراشات التي تستحم في ألوان الشجر والنوار والهواء، وأسابقها في هشاشاتها القلقة، فقط لأتحمل غيابه الذي استمر ثلاث سنوات وشهرين وخمسة أيام وثلاث ساعات وعشر دقائق وسبع ثوان بالضبط في

اللحظة التي تأملت فيها عقرب الساعة وهو يركض نحو منتصف الليل. الدقائق والثواني أيضاً مهمة في حسابات الموت والحياة والحب. أنا على يقين من أنه في تلك الثواني السبع، مات الكثيرون، وولد الكثيرون أيضاً، ومرض الكثيرون وتعافى الكثيرون أيضاً، واغتصبت الكثيرات، وانتحر عدد لا يحصى من البشر...

فاوست لا يدري أن امرأة تحب رجلاً تحتاج فقط أحياناً إلى أن تمد رأسها على صدره وتنام قليلاً، ولا تطلب منه أكثر من ذلك. أن يصمت قليلاً ويستمع إلى قلبها المرتعش من شدة برد غريب ينتابها فجأة، يصل أحياناً إلى أن يشبه رعشة الموت الأخيرة. قد يختصر الحب كل مطالبنا الكثيرة فنكتفي بابتسامة أو بلمسة على الوجه المتعب. تغمض عينيها بين ذراعيه، ولا تسأل عن حدة العواصف التي تتكالب في الخارج، ولا عن الخوف الذي ينتظرها عند قدميها ليجرها بعيداً نحو فراغ يستفرد بها بقسوة.

فاوست مثلي. هو أيضاً يعيش في مملكته الزرقاء وإن لم يعترف بذلك. كبرياء الرجل. من بين أصدقائي، هو الوحيد الذي يتجاوز منتصف الليل. أستيقظ أحياناً عند الرابعة فجراً بالصدفة، فأجده لا يزال في عالمه. قلت له ذات مرة لماذا كل



هذا يا فاوست؟ أعرف أن مشاغلك كثيرة، لكن ليس إلى هذا الحد المهلك؟ أنت تقريباً لا تنام. لا ترتاح. ألا يمكنك أن تتحرر من فيض الأصدقاء دفعة واحدة؟ مائة ألف يا إلهي؟ وكل واحد يظن أنك صديقه الأوحد. حاول أن تشتغل خارجاً بحيث ترى الجميع ولا يراك أحد؟ على الأقل لا تتعب. هذه الخديعة الجميلة التي يوفرها الفيسبوك مريحة ولا أعتقد أنك تجهلها، لكن ثمنها غال.

ضحك مني كعادته وهو يردد ببرودة دم:

– يا غيورة.

- لا. ليست الغيرة. ولكني أخاف على صحتك. يقلقني وضعك هذه الأيام.

- لي أصدقاء ولا يمكنني أن أتخفى عنهم أو تفاديهم. يبدو لي الأمر قلة أدب حقيقية.

أخاف على صحته. ولو أنه من حين لآخر، كجميع البشر، تركبني موجة غيرة عارمة مجنونة، من صديقاته الكثيراااااات والجميلات في صورهن المستعارة. تقتلني إجاباته التي تشبه اللغة التي يمنحها لي: حبيبتي... عمري... حنيني... هبلي... فجري.... همسي... روحي... قلبي...غوايتي... أسأل عن لغتي وحنيني نحوه. قلت له يوماً بحنق ظاهر وأنا أحاول أن

أكتم غضباً فاض عليَّ بقوة:

- حبيبتي... روحي... حنيني... ماذا تركت لحبيبتك ياما اذاً؟

- عمري. كلمة عمري لا أمنحها لغيرك لأنها بكل ببساطة من أمي، وأشعر بثقلها حقيقة. كانت لا تقولها إلا لأولادها وربما كنت أكثرهم حظاً لأنها كانت تغرقني بها.

- أنت تستعملها أيضاً مع الأخريات.

- هي لك وحدك. لم أستعملها أبداً مع غيرك وأنا غيور جداً عليها.

الغريب أنه كان محقاً في كل ما قاله. طوال الليلتين اللتين قضيتهما في البحث في إجاباته على معجباته، لم أعثر على أي أثر للكلمة مع امرأة أخرى غيري.

عليَّ أن أعترف بأن مرض الغيرة متأصل فيَّ. لا أدري من أين أتاني؟ من أمّي؟ ربما؟ أغلب الظن. لأن والدي كان يعيش في قارة لا شيء فيها إلا رائحة الأدوية وسلسلة لامتناهية من المعادلات الكثيرة والغريبة، وحياة اختزلتها سفرياته مع مخابر مؤسسته بريستول ميير الأمريكية **Bristol-Myers Squibb (BMS)** لإنتاج الأدوية التي كانت تقوده إلى الطواف عبر العالم باستمرار، قبل إفلاسها وغلق

وبيع جزء مهم من مواقعها الأساسية. حتى علاقتي مع ديف لم أتركها تتدحرج بنا بعيداً، فأنهيتها بقرار أتساءل أحياناً إذا لم تكن أمي وراءه في العمق. كانت دائماً تلح عليَّ بأسئلة غريبة؟ عن اسمه. ديف. دافيد. دودي. داوود. عن أصله. فأصرخ.

– يا يمًا. ما عندوش أصل؟ هو جزائري فقط. وليد العاصمة أكثر مني ومنك.

- لا أسأل عن هذا. يحبك حقيقي؟

- نعم يا يمًا. يموووووت عليّ. المشكلة ليست فيه ولكن فيّ. لا أريد أن أرتبط. مازلت صغيرة ولا أعرف شيئاً عن هذه الحياة.

- مسلم؟

- سؤال غريب يا يمًا. وهل الأمر مفيد إلى هذه الدرجة؟ متى كنت تتكلمين عن الدين يا يمًا؟

- هل هو مسلم؟ أسألك فقط. لا عيب في ذلك.

- لم أسأله ولست مهتمة. ولا أعتقد أن الأمر يهمه. هو مثل جده وأبيه، شيوعيون ثوريون كلهم ولا أعتقد أن الدّين يشكل هاجساً لهم، أكثر من كونه خصوصية فردية. جده مات على هذه الأرض بعد أن جاء إلى وهران هارباً من

مجازر فرانكو. كان مع الجمهوريين. تمنى أن يدفن في مقبرة إسلامية مع الناس الذين استقبلوه وعاش بينهم وأحبهم وأحبّوه. ولكن إماماً صغيراً يتحكم في أنفاس الحيّ، رفضه على الرغم من إلحاح الكثير من أصدقائه من المسلمين الذين ظلوا معه حتى النهاية. وعندما انغلقت السبل دفن بجانب أبناء عمومته في مقبرة وهران المسيحية اليهودية. يحبني يا أمي، وهذا يكفيني.

- كيف تفعلين مع الأولاد؟
- لم نصل بعد إلى هذا.
- ستصلين يوماً إلى هذا.
- يومها سأقول لك.
- خليني نشوف أمه.
- ماتت.
- أبوه.
- عاد إلى مدينة روندا. أرض أجداده، عندما تعقدت أمور بلادنا، وبدأوا يقتلون الأجانب.
- لماذا لم ترحل العائلة كلها معه؟
- أبوه لم يضيع وقته أبداً. انتظرهم شهرين، ثم رحل. قال لهم حياتي غالية عليَّ ولست مستعداً للانتحار. ديف

اختار البقاء مع أمه التي لم يكن لديها من خيار آخر سوى أن تبقى بجانب قبر والدها وبعض أهلها. بينما تزوج أبوه بامرأة أخرى في روندا يبدو أنه كان يعرفها من قبل.

- شهران لينسف حياة بكاملها؟ على كلّ، هذا ليس غريباً. الرجال يتشابهون في كل أراضي الدنيا. حتى واحد ما أفضل من الثاني. يتشابهون في كل التفاصيل. على كل حال حكاية دافيد ما تعجبنيش.

- يمًا. تعجبك. ما تعجبكش. حياتي وتخصني وحدي.

- وأنا. أمك؟ وإلا خضرة فوق طعام؟

- أنت أمي. نقطة على السطر.

لا أدري لماذا كلما تشابكت مع أمي أو اختلفت معها، حضرت صورة والدي بصفاء وسخاء وعبث أحياناً. كلما تعقدت الأمور خففها هو بسخريته المعهودة. يقول دائماً: السخرية ليست شيئاً ضافياً. نحتاج لها لنستمر في الحياة. وسيلتنا الأقل دماراً للداخل لمقاومة وباء الجهل.

كان ديف متفتحاً بشكل يتجاوز أنانيتي العاطفية. ولم أكن أريد أن أنغص عليه خياراته الحياتية، فأضيف له همَّ أمي ومتاعبها. هو ليس مثلي، برغماتي إلى أقصى الحدود. يريد أن يعض على الحياة بأسنانه وأظافره لأنها قصيرة ومن

العبث تضييعها في الأسئلة الفارغة. وُلِد الإنسان حرّاً في كل شيء، مثل الحيوان تماماً، وعليه أن يظل كذلك حتى النهاية ويقبل بكل الخسارات التي تفرض عليه وهو في طريقه إلى الحياة وممارسة الحرية لا كفكرة فقط ولكن كجنون حقيقي. فقد رفضت كل شيء من أجل فاوست. فأنا أرى فيه أبي وأمي وأختي وأخي الذي أكلته هذه المدينة القاسية. ورهنتُ مملكتي كلها بين أصابعه وأوراقه وألوانه. صديقاتي اللواتي يسألن عني وعنه أحياناً وعن لقائنا المؤجل دوماً، لا أجد لهنّ إجابات مقنعة. يضحكن طويلاً قبل أن يعلنَّ: حب الفيسبوك، من الهمّ للشوك هههههه

لا شيء سوى الليل والسكينة وانطفاء أي نجم في السماء. هل هناك سماوات خاصة بالحروب الصامتة وأدخنة الموت اليومية؟ أعتقد ذلك لأن بها رائحة الحرائق وطعم الرماد. سماؤنا القلقة لا تشبه أي سماء أخرى. جوفاء مثل لعبة انتُزِعت عيناها. خوف غريب يعتريني شبيه بخوف اليوم الآخر الذي تتسطح فيه الأشياء وتفقد كل ألوانها لتعود إلى تشكلاتها الهلامية الأولى التي تشبه الماء في ليونته ولونه ورائحته. تماماً مثل اللحظة التي فقدت فيها والدي حيث

تحول كل شيء يومها، من حولي، إلى بياض لم أفهمه مطلقاً، هل كان ما حدث أمام عينيّ، مجرد كابوس أم حقيقة مرة؟ لم أصدق.

زادت آلام الرأس. أشعر بثقل في كل شيء. بعضهم يسمي هذه الحالة: الشقيقة، أي انفلاق الدماغ. لكنّ تسميتها عند طبيبي أخطر.

– هي سلسلة من الإنذارات يطلقها الجسد المتعب ليتفطن إلى أن المسألة أصبحت أكثر جدية.

- الإنذار من أي شيء؟ أسال الطبيب.

- أن جسدك يحتاجك. وأنك قسوتِ عليه كثيراً طوال الأيام الماضية. يجب أن تهتمي به قليلاً. كأن تهوّني عليه بعض الشيء وإلا سيتعقد كل شيء ويصبح ما يمكن استدراكه اليوم، مستحيلاً غداً.

أفضل أكثر كلمة أمي الشقيقة لأنها تمنحني فرصة أن أظل ملتصقة بالحياة في عبثيتها اليومية. لا أخاف ولا أسأل عن الأمراض التي تشكل لها أجسادنا حاضنة سحرية وجميلة.

-٣-

فاوست.

لم أنتظر كثيراً. هو يعرف جيداً وقت راحتي. بمجرد عودتي. أرتاح قليلاً على كرسي أبي. أتفرس في اللوحات والصور قليلاً وكأني أكتشفها للمرة الأولى، لسبب لا أعرفه. ثم أفتح الكمبيوتر، وأتخفى في الحمام فأبقى تحت الماء الدافئ ربع ساعة، ثم أعود بكل حيويتي ونشاطي إلى مكتبي، وأنتظره.

لمع اسمه في المساحة الزرقاء، بالضبط في النافذة الصغيرة الخاصة به، متلألئاً ينبض كما القلب، ووراءه مساحة واسعة لمسرحيته التي ستعرض قريباً: لعنة غرناطة التي يغلب عليها اللون الأحمر في شكل موجة يغرق فيها وجه شبيه بوجه غارسيا لوركا، ويمكن أن يكون وجه أي شخص بما في ذلك وجه فاوست، لأن الصورة لا تبين بدقة ملامح الضحية.

ألوان أجنحتي تتطاير كلما لمع اسم فاوست أمامي. لكن هذه المرة لم يحدث شيء من ذلك، كأن الألوان والدوائر تثبّتت بقوة فجأة لدرجة الاستكانة. إحساسي هذه المرة كان غريباً وملتبساً وغامضاً أيضاً. أحبه. أنتظره. لكن بي إحساساً غريباً بأنه ينساني من حين لآخر لحساب أخريات.

بمجرد ما استويت على كرسي بابا زوربا، بعد الحمام، حتى رأيت الكلمات الأولى وهي ترتسم كالعادة وكأنه كان يراقبني مثل البيغ بروزنر[٢٠] العاشق. مع أني في أعماق أعماقي، تمنيت أن يعطيني فاوست مبرراً للراحة ولا يطلبني كما تعوّد أن يفعل. لأني كنت أرغب في النوم باكراً وأترك الفيسبوك يرتاح مني قليلاً لأستعد لرؤيته بعد عودته، وأنا في كامل إشراقي. أحب الفيسبوك لأنه يربطني بالعالم الخارجي المغلق، وأخافه أيضاً، لأني التصقت به في كل الأوقات لدرجة أني أدمنته بكثرة، وبدأت أكرر نفسي ليس فقط في كلماتي، ولكن أيضاً في حركاتي. تعبت كثيراً. عندما يتكاتف علينا الصمت والعزلة والخيبة، نصبح قريبين من القبر وندرك بعد زمن طويل، أننا لم نكن نحب ولكن كنا نستدرج قدراً أعمى ليجهز على ما تبقى من نفس حرّ فينا.

حاولت أن أتفاداه مرة أخرى ولكني لم أستطع. شيء أكبر مني يدفعني نحوه ونحو هذه الزرقة التي جعل منها مارك زوكيربيرغ سكناً لكل العابرين بلا زاد ولا خوف. بدأتْ كلماته ترتسم أمامي وتناديني ببدائية غريبة لم أعد قادرة على تفاديها.

---

(٢٠) Big brother الأخ الأكبر في رواية 1984

- عمري... كيف حبيبتي ماغي. مارغريت في عزلتها الليلية.

- أنا ياااااااامااااا. هل نسيت؟

- لا. حبيبتي مارغريت التي أنقذتني من خراب أكيد. لولاها لانتهيت بين يدي مفيستوفيليس الذي كاد يقتلني بأن رهن كل حياتي بين مخالبه القاتلة.

- لا حبيبي. إرادتك القوية وحبك للحياة هما من حرَّراك.

شيء ما تغير فيَّ أنا أيضاً. لأول مرة تبدو كلمة ماغي أو مارغريت غريبة عليَّ وباردة جداً، ومنهكة أيضاً على لسانه. كانت الكلمة تهزني وترميني بعيداً في شجن الحب، وتمحو بسرعة اسمي الأصلي ياما، مثل فراشة وتخلط كل ألواني وأحاسيسي وخجلي الطفولي، وحتى خططي الانتقامية الصغيرة التي كثيراً ما باءت بالفشل داخل فوضى أجدني دائماً غارقة فيها. ثم ارتسمت الحروف بسرعة وأنا أتخيل أصابعه الرقيقة، الناعمة التي تشبه أصابع عازفة بيانو بار في ليلة ساحرة.

- هنا. دائماً في مملكة الفراشة؟

- مملكة الفراشة، قدري الصعب أيها الغالي. يبدو أنَّ

الشيطان كان أقوى منك ومني.

- لا. لن أقبل بالعودة إلى أحضانه القاتلة. ميفيستوفيليس Méphistophélès يريدني، وأنا أريدك. ها أنتِ بدأتِ تتخلين عنّي، وها الشيطان الذي اشترى مني روحي يرفرف بأجنحة قوية من جديد ليسرقني منك أو يسرقك مني. أسمع قرقعتها القاسية. هل القلب يتعب بهذه السرعة؟ هل حرية الآخر رهينة بعبودية الثاني؟ لا أعرف.

- لا تخف فاوستي العزيز لقد أنقذتك صلواتي في المرة الأولى. ألم تقل وأنت تستسلم لميفيستوفيليس الذي اشترى منك روحك: الأنوثة الأبدية تسمو بنا «das Ewig-Weibliche zieht uns hinan” سأجعلها كذلك يا قلبي. سأجعلها كذلك...

- نعم. يمكن أخطأنا في حق بعضنا بعضاً، لكن هناك شيئاً واحداً لا نخطئ فيه: حريتنا. نحتاج أحياناً إلى أن نضيِّع الشيء الكثير لندرك ندرتها وقيمتها. الحرية يا ياما الغالية هي كل ما تبقى لنا في وضع فقدنا فيه كل شيء عن سبق إصرار وترصد. لقد تخلّيت عن كلّ المغريات التي تدفع بالكثيرين إلى التعرّي كلياً مقابل أن يربحوا سخافة لا تزيدهم شيئاً سوى الذلّ.

- كأنك غاضب مني؟
- أبـداً. لا ألـومـك يـا عمري وليس ذلـك بذهني. أنـا متعب جداً. حياتي كلها وحياتك أيضاً على كفّ عفريت. عفريت مجنون فـوق ذلـك كله، لا نعرف متى يتخذ قـراره بـالمحو. المسرح وحده ليس منفاي، لكنه منقذي من التلف والعزلة وحتى الانتحار. وحدهـا تستحق الحب والاشتهاء، الأمكنة التي تملأني، والوجوه التي أحب، والمساحات التي تسكنني، والأفراح التي تشبهني، وحتى السخرية التي تجعلني أضحك من الآخرين ومن نفسي وأنا أكتب .أحاول أن أجعل الحياة مستساغة بالكتابة والمسرح. المسرح التراجيدي حالة استثنائية غريبة لأنك في لحظة من اللحظات ترى ما تخيلته بهبلك وحواسك المنتفضة حيًّا أمامك، يتحرك ويتنفس كأنه منك وليس منك. أن تذهب وراء الكلمات والحروف السحرية التي تمنحك حتماً ما هو أجمل وربما أبقى أيضاً، فذاك أبهى جنون. عندما تذهب الحبيبة تبقى الأمّ والأخت والصديقة الحنون وهـذا هو الأهـمّ، لتفادي الموت اختناقاً من كثرة أعطاب الحياة.
- تبدو منشغلاً حبيبي.
- وهل بإمكاني أن أكون غير ذلك.

- ليس هذا قصدي. كل هذا السحر لي وحدي؟. قريباً سأضع حداً لعطش دام أكثر من ثلاث سنوات. سأرمي بنفسي بين ذراعيك ولن أسالك عن أي شيء آخر يمكن أن يربك استكانة اللحظة. سأكتفي بدفئك وحنانك وأمنحك كلي بلا خوف، وبعضي بلا كلل. لا أدري لماذا أشعر، كلما كلمتك، بأمان غريب وسط هذا الخوف الغامض، وكلما ابتعدتَ مع آخرين شعرتُ بوحدتي القاسية.

- أنت قلبي وحبيبتي. كل كلماتي لك وحدك.

فجأة قفز عفريت الغيرة بيني وبينه. كان في قلبي شجن كبير كنت أريد أن يسمع صوته. للحزن في لحظات تمزقه القصوى أنين أيضاً.

- فاوست حبيبي، قل لي الحقيقة. ألا تفعل الشيء نفسه مع غيري. أقرأك يومياً وأنت توزع الكلمات بالإيقاع نفسه وكأنك بائع عواطف بميزان غريب. كل واحدة تمنحها ما تحتاجه لتحبك أكثر وتتعلق بك بجنون. الناس كلهم في ظلمة الحرب الصامتة. أنت تحتاج لأن تتكلم وتبوح بالأسرار التي بدأت تنفجر في داخلك كالقنابل الموقوتة، وهم يحتاجون لمن يكشف عن جراحاتهم ببعض الصدق. ماذا لو اجتمعت كل نسائك وأضربن ضدّك؟ ستموت كمداً في اللحظة نفسها لأنك لا

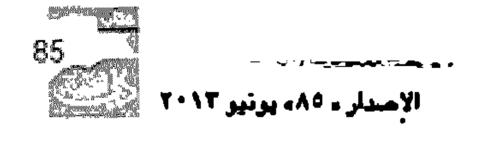
تستطيع أن تعيش بلا امرأة. لقد خرجنا كلنا من ظلمة كبيرة بسرعة لم نكن مهيئين لها، وبدأنا من حيث لا ندري، ندخل نفقاً بلا حدود. بدأنا نصنع موتنا الخاص، كلٌ في عزلته وفي مكانه ومع أداته التي يصنعها لتقتله في النهاية.

- هههه أفهم من هذا أننا عدنا للغيرة القديمة؟ أين أنت الآن؟

- ألا ترى موقعي على جهازك الذي يعرف كل التفاصيل ويحرس المطر والرياح والأمكنة، أكثر من بيغ بروذر؟ أنا حيث تركتني حبيبي في المرة الأخيرة. لا أتحرك إلا قليلاً في دائرتي القلقة. لم أتقدم خطوة واحدة ولم أتراجع خطوة واحدة أيضاً. في مملكة مارك زوكيربيرغ الزرقاء، دائماً. مملكتي. أنتظرك، مع أني كنت مصمّمة الليلة على أن لا أكلمك، وأن أتركك ترتاح قليلاً. أشعر بحرقة داخلية.

- كيف ينتابك هذا وأنا أستعد للقائك؟ لنخرج من الافتراضية القاتلة. أنا أيضاً أريدك امرأة من لحم ودم وشوق لا ينضب أبداً.

- نساؤك حبيبي. نساؤك كثيرات. كيف ستفعل معهن عندما يركضن إلى المطار نحوك، وكل واحدة تظن أنها ستلتقي بحبيبها الأوحد الذي في قلبها، والذي سيطلب من



سائق السيارة الذي سيأخذه إلى فندق خمس نجوم، أن يقودهما نحو أقرب بار، أو أجمل مرقص ليلي يقضيان فيه بعض الليل، ويقضيان البعض المتبقّي في مخمل سرير اللذة حيث يصعُدان الجنون إلى أقاصيه. ممتلئة بك لدرجة الاحتراق. أعتقد أننا كلما امتلأنا كثيراً بمن نحب حدث حريق ما، في مكان ما، تصعب مراقبته من كثرة فيض العواطف.

- غريب. تتحدثين بيقين مخيف. أنت مخطئة يا عمري.

أنا لا آتي فقط لعرض مسرحية لعنة غرناطة، ولا من أجل نساء افتراضيات لا يتعدين عتبة المحبة والمملكة الزرقاء كما تسمينها. ولكن لألقاك وأحبك. أعوّضك سنوات الرعب التي قضيتها وحيدة في بحر الخوف انتظاراً لغودو الذي لا يشبه غودو ولكنه يشبه حلمه.

- أشعر بحزن ثقيل لست وحدك من يتسبَّب فيه.

- أنا أيضاً أشعر بالحزن الثقيل نفسه. انسيه قليلاً. كيف الدنيا من حولك؟

الدنيا من حولي؟ هكذا هو حبيبي فاوست. عندما يريد الانفلات من سؤال يغرقني في سؤال آخر كمن يرمي طعماً لسمكة ويتركها تتخبط فيه، قبل أن يجهز عليها بضربة جافة على الرأس. الذي يريحه في النهاية ليس الإمساك بالسمكة،

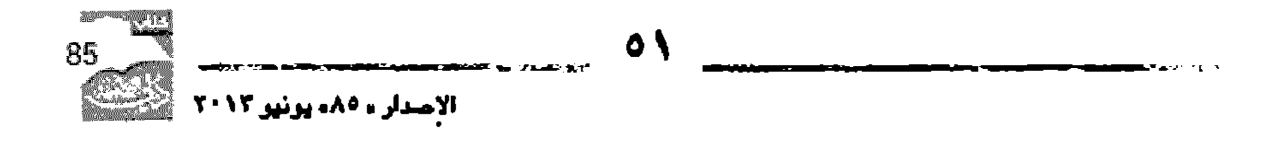
ولكن الوقت الذي تستغرقه في التخبّط وهو يتأملها بسادية غريبة. ليس المهم أن نقبض على السمكة ولكن أن نراها في عزّ رقصة الموت، قال فاوست وهو يرد بشكل آلي على أصدقاء عديدين في اللحظة نفسها، واللغة نفسها تقريباً مع تغيير خفيف في الروابط المنزلقة هنا وهناك. مشكلة الفيسبوك أنه يفضح كل شيء مهما قاومنا غواياته. كان بيننا بحر وجبال وبشر كثيرون، ومع ذلك استطاعت هذه الجنة الغريبة أن تقهر كل المسافات، وتسطح كل شيء حتى أصبحت الكرة الأرضية شفافة مثل قطعة زجاج، وليست إهليليجية، مسطحة هي وبحرها. فاجأني بسؤاله:

- هل سمعت دوي الانفجار اللحظة؟

- لا. غريب حواسك عابرة القارات والبحار؟ شو عرّفك، أنت في إشبيلية؟

- يبدو أنهم أسقطوا الجسر الرابط بين شمال المدينة وجنوبها؟

- الجسر أسقط منذ مدة العديد من المرات، ووضعوا جسراً خشبياً يقاوم الفراغ، مكانه. لا تمر عبره إلا السيارات الخفيفة عند الضرورات القصوى كسيارات الإسعاف التي تأخذ مسؤولاً نحو المستشفى العسكري الذي يوجد في الجهة



الجنوبية من المدينة. الناس يعبرون نحو الجهة الأخرى بالجسر أو بدونه. تعوّدوا على الموت حتى أصبح لا يعنيهم كثيراً. يموتون ولكنهم يعبرون مهما كان الثمن.

- لكن هل سمعتِ الانفجار؟ يهمني ردّك؟

- قلت لك الجسر سقط منذ مدة ليست بالقليلة. أعرف هذا. لكني لم أسمع، لأني ببساطة لا أريد أن أسمع شيئاً. الحرب الأهلية انتهت وأريد أن أؤمن بذلك بقوة لكي أتمكن من العيش. أرفض أن أنغص على نفسي بعودتها أو حتى بعودة بعض مظاهرها، ولو في شكل حرب صامتة.

كنت أكذب. سمعت طبعاً دوياً جافاً من جهة الجسر. كأن فاوست كان يسكن بالقرب من بيتي. الكثير من المواقع والجسور والأمكنة الحيوية التي نُسِفت، أعيد بناؤها أو عُوضت بعض الجسور الاسمنتية بأخرى حديدية متنقلة يمكن تجميعها بسهولة، أو خشبية تقاوم إلى أجل غير مسمى. ربما حتى تسقط هي بدورها مثل بنايات المدينة العتيقة.

- هههههه. من قال إن ربَّ هذه الحرب انتهت مادام الموت حاضراً، وربما أكثر مما كان عليه. على مدار العشر سنوات الحارقة أكلت الحرب الأهلية أكثر من ٢٠٠ ألف إنسان، الجزء الأكبر منهم لم تكن هذه الحرب حربه. لم يكن

هو من أشعلها ولكن كان عليه إخماد نارها بجسده ولحمه؟ وكم أكلت منذ أن توقّفت؟ لا أحد يعرف. معدل المغتالين يومياً أكثر من خمسين شخصاً. في السنة الواحدة كم إذاً؟ لنحسب. ٣٠X٥٠= ١٥٠٠ مقتول شهرياً، غير الذين تفتك بهم أمراض الحروب الأهلية طبعاً من أزمات قلبية وجنون وسكري وتشكيلات السرطان التي تعددت. الحرب توقفت منذ عشر سنوات. في السنة الواحدة يموت ١٢X١٥٠٠= ١٨٠٠٠. وفي عشر سنوات يموت ١٠X١٨٠٠٠= ١٨٠٠٠٠. تقريباً العدد نفسه الذي أكلته الحرب الأهلية. من يعرف هؤلاء الناس وهوياتهم وأهاليهم وأعمالهم وأحلامهم؟ هذه هي التراجيديا عينها التي لا يلتفت لها أحد. نتكلم عن الذين ماتوا دفعة واحدة وجرَّ الكثير منهم نحو الحفر الغامضة، وننسى الذين ماتوا ويموتون بالتقسيط يومياً، في اللحظة السلمية التي نفترض أننا نعيشها.

- معك حق. أعدادك مخيفة لأنها صحيحة. تستطيع من هناك أن تقوم بكل العمليات من ضرب وقسمة وتجميع وغيرها لكن الأمر هنا يختلف. لا أحد هنا يريد أن يعرف. أنا منهم. لا لأننا نكره ذلك، فقط لأن هناك حياة علينا أن نعيشها بكل الهبل الذي تعرفه

ونترك لها حق تحريك البراكين وتفجيرها واختيار الأوقات التي تناسبها متى شاءت ذلك. جيد أن نموت في غفلة منا.

- ومع ذلك لا يتوقف المسؤولون عن الترديد أنها انتهت.
- نعم انتهت لأن الناس قرّروا أنها انتهت. ثم أنها شبعت تقتيلاً.

فجأة تذكرت موت أبي وهو يتدحرج مضرجاً عند العتبة. أغمضت عيني. هو ما يحدث معي كلما أحسست بخوف، لكي لا أسقط من الأعالي التي تسكن رأسي فجأة.

- هههههههههه... يقولون...

سمعت أو تخيلت من وراء الحروف المتسارعة، والرنات الناعمة لملامس الحروف، قهقهات فاوست التي زادت حدة وهي تخترقني راسمة على محياه الجميل وجهاً أنيقاً وناعماً وطيباً، مبرزة أسناناً بيضاء جميلة مصطفة كأسنان طفل جميل. لا أدري وهو على حافة القلب وحافة زمن انتهى وآخر سيأتي، هل عليَّ أن أكرهه كما يحدث معي في حالات عزلتي وغيرتي لدرجة أني فكرت في العديد من المرات في قتله. ثم ألعن الشيطان الوسواس الخناس، فأقسم أن لا أعود إلى هذه الأفكار السوداء، وأن أضع النار للمرة الأخيرة في مملكة مارك

زوكيربيرغ، لأرتاح من ظنوني وأرتمي بين ذراعي حبيبي، لكن بمجرد أن أقرأ الجمل المتراصة من هنا وهناك، والكلمات العذبة التي كنت أظنّها لي وحدي، ليعود لي جنوني. في قلبي حيرة. لهذا لم أمنع نفسي وأنا أرى قهقته مرصوصة مع جمل أخرى لصديقاته من القول في أعماقي، إنها كانت قهقهته الأخيرة وفرحته الأخيرة. لينعم بها مؤقتاً لأني، قريباً، لا أعرف أي جني سيركبني ويدفع بي إلى ارتكاب الحماقة التي لا يمكن تفاديها؟ وينتهي كل شيء وتتوقف الحياة التي استمرت زمناً طويلاً تنثر أوهامها القلقة.

توقظني كلماته المرتعشة كموجات هاربة في مساحة زرقاء تشبه بحراً بلا حدود.

- تصمتين عمري؟ تفكرين في ماذا؟
- في قتلك هههه.

خرجت بعفوية طفلة لسانها يسبقها دائماً حتى أنها فكرت يوماً أن تشتري غراء وتلصقه بأسنانها لتتخلص من حركاته الأفعوانية التي أصبحت حرة أكثر ممّا يجب.

- قتلي؟ هههههه. تنقذين البشرية من زوائد مؤذية هههههه.
- بجد. أتساءل كيف سأكون يوم أراك وألمسك لأول

مرة؟ وأشمك لأول مرة. وأضمك لأول مرة. هل سيسعفني قلبي ويتحمّل قوة الدّهشة؟

- ستنتهي سنوات الخوف والعزلة. سأحبك أنا أيضاً لدرجة الهبل، ولن أتركك لحظة واحدة.

- قلبي الصغير هشّ يا فاوست؟ هل ستتمكن حواسي من الصبر؟ ثم...

- وماذا بعد؟

- لا شيء. أتساءل إذا كان بإمكان هذا القلب الصغير أن يستوعب كل من يركضون نحوك.

كنت قلقة ويخترقني شيء غريب، وأحياناً مرضي، ركبني اليوم كله. نسيته لساعات وأنا مع أصدقائي في فرقة ديبو-جاز لكنه عاد. لا أدري من أين جاءتني هذه الرغبة الغريبة في القتل من شدة الغيرة التي تحولت في دمي إلى سم قاتل. أحاول أن أنسى، ولكن سرعان ما تعود لي هواجسي عندما يوزع الكلمات التي يقولها لي وللأخريات أيضاً. أتخيل الآن كل واحدة وراء حاسوبها تنتظر كأنها الوحيدة في حياته، ولا أدري إذا كان هو الوحيد في حياتها. أنا أستطيع أن أجزم أن حياتي بسيطة وأنّه يحتلها كلياً بعد تجربة طفولية مع ديف قتلتها الغيرة المستمرة. لأمي مسؤولية أيضاً في ذلك. أتمنى

أن لا أكون سبباً في كسر هذا النور الذي يلمع كل مساء مخترقاً الصمت والخوف والمسافات. ويجعلني حتى بأوهامه، أتحمل حرباً غير معلنة. أصبحت في كل واحد منّا ولهذا تعدد الموت ولم يعد مشتركاً كما كان مثلاً في تفجير جماعي، في مقهى أو مطعم، بحزام ناسف يشمل الجميع بسفرة مجانية وجماعية نحو الجنة. أو في معبر لم يفرق فيه الحرس المتعب والخائف باستمرار من المبهم، بين القتلة والناس العاديين.

ويدل السعادة برؤية فاوست، أشعر كأن العدّ التنازلي لشيء غامض لست قادرة على معرفته، بدأت ملامحه ترتسم في عمق عيني المشتعلتين بالحيرة.

كيف ستكون رعشتي الأولى وأنا أواجهه؟ هل سأقتله حقيقة أم أرتمي بجنون نحو صدره؟

يبدو أن أمي ورّثتني كل جينات هبلها الخفية.

أحاول أن أسترجع كل حواسي وعقلي المتعب. أشتهي أن أتخفى أو أنام. لا رغبة لي في الحديث.

- حبيبتي... تبدين متعبة هذا المساء. لم تعد تفصلنا إلا أيام قلائل ونلتقي. تخيلي رجلاً لم ير! أرضه عشر سنوات. ظل ممتلئاً بها حتى أصبح يخاف من التلاشي في غيابها.

- عذراً يا قلبي. أشعر بثقل في كل حواسي. لا أستوعب شيئاً.

متعبة جداً.

– طيب. لن أثقل عليك. ارتاحي قليلاً. باااااي حبيبتي.

– باااااي يا أنبل عمر.

وأتخفى في عمق الفيسبوك، بحيث أرى كل شيء، وأتابع الجميع، ولا يراني أحد. جميل أن تتحول إلى إله صغير، ترى أعمال كل الخلق ولا يراك أحد. لو منحنا الله فضل رؤيته لما حمل سرّ الخوف والرهبة. قد يصبح صديقاً جميلاً، نغضب منه ولا يلتفت نحونا. جميل أن الله فكرة. كلما التبست الدنيا في أعيننا، ركضنا نحوها والتصقنا بها كالعلق الأعمى لنستمر في العيش وليس في الحياة.

يبدو أن نواياي لم تكن طيبة أبداً.

لا نوايا طيبة للغيرة وحرائقها الخفية. أكتب وأشتاق وأشيد أوهامي الجليلة على أرض من ماء:

" فاوستي الحبيب. اللحظة ينتابني إحساس غريب بأنك كنت هنا ثم خرجت. لا تزال الأمكنة تحفظ مرورك وعطرك وبعض خوفك. بدأت أنا أرجع لو ضعي الطبيعي، فأشعر بغيابك الذي يؤلمني. أتساءل إذا كانت أقدارنا هي تلك الخسارات المتواترة؟ ليلة البارحة لم أنم كما أشتهي. رأيتني في لحظات الإغفاءة المسروقة، أمشي على أرض خضراء مثل سماء ربيعية. كنت

حافية القدمين، ممتلئة القلب، وشبه عارية. كنت في فضاء مبهم، بلا حدود. مليء بالماء، لا أحد فيه سواي. أنظر إلى الأسفل من الأعالي، فأراني أدوس أو أكاد على أزهار صغيرة لم أنتبه لها من قبل. فجأة تقفز أمام نظري المتعب والمرهق من نوم أصبح يستعصي عليّ مذ جمعتنا متعة المساحات الزرقاء، فراشات ملونة بآلاف التدرجات. أتوقف في مكاني، أتجمد مثل حجرة باردة حتى لا أزعجها في راحتها. الفراشات هشة حتى في الأحلام. لكني في اللحظة ذاتها أستيقظ عارية مثلما خلقتني أمي. لا خجل على ملامحي. لكني فزعة من أني فوت فرصة استعادة ساعاتي المسروقة معك. ستقول مجرد أحلام وسيأتي غيرها. ومتى كان البشر حبيبي يعيشون بلا أحلام؟ تنتابني دفعة واحدة آلاف الفراشات. أشعر بنعومتها وهي تصفق بأجنحتها الهشة عند عيني لكي تمتص نومي. وتدغدغ كل حواسي المشبوهة. أرى ألوانها الزاهية وهي تطرز داخلي وتغطي جسدي كله. أتلمسها بنعومة. تحتلني كلياً. يـااااااه كم تشبهني هذه الفراشات المنزلقة من بين أصابعي وقلبي وذاكرتي. لو تدري كم أنّ حضورك يملأني وكم أن غيابك، حتى عندما يأتي سهواً، يسرق مني بعض حياتي. أكتب لك لا بهدف محدد، سوى لرغبة طائشة لأحس

بك هنا. قريباً مني مثل فراشاتي. ولأني افتقدتك بشدة، لا حل سوى انتظارك. أعرف أنك لستَ غودو، وأنك ستأتي يوماً ستحدده ولن تسال عن البقية. ها أنا ذي أراك مرة أخرى تنظر إليّ بدهشة، و تسألني حبيبي في كل مرة عن رغباتي و لذاتي وشهواتي وحتى عن طيشي. ماذا أقول لك أمام جسد يفضح جنونه خلوة عريي لولا كسوة الفراشات؟ لا أحتاج شيئاً خارقاً. فقط قهوة معك وبعض الراحة لأقول لك الرماد الذي في داخلي، والشموس التي لا تحتاج إلا ليد ناعمة تزيح عنها غيمة الخوف. هل أنت مستعد لتمنحني هذه اللحظة؟ أتوقف عند هذا الحد لأن الذي بعدها شيء آخر. أحبك فاوست حبيبي. ولا أعرف فعل أي شيء آخر سوى الجنون بك كل يوم أكثر. كل ثانية أكثر. شكراً على حلمك المجنون، فقد منحني أول فرصة للتعري وأذاقني ملذات خلوة الفراشات.

ألتفت نحو درجي السري. مقبرة رسائلي له. منذ بدأت أكتب لفاوست، لم أفكر أبداً في بعث أية رسالة من رسائلي له. قررتُ أن أمنحها له يوم يعود من منفاه القسري. أفتح الدرج ثم أرميها هناك، في العمق. في المكان الذي يصنع لي ذاكرة بعطر الورق والحبر البنفسجي.

- ٤ -

وأتخفى في مساحة الفيسبوك الزرقاء، مملكتي، بحيث أرى وأتابع الجميع، ولا يراني أحد.

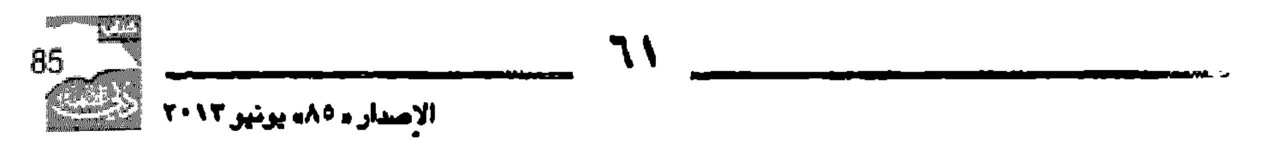
أحياناً أشكر مارك زوكيربيرغ، وفي أحيان أخرى يصعد الدم إلى رأسي فألعنه، وألعن دين أمّه، ودين الزرقة التي سرقها للجميع واستبدّ بها نهائياً لتصبح ملكاً له.

في ثانية ما لم أستطع أن أفكّ مبهمها، خفت أن يقرأ فاوست ما في عيني وقلبي من حاسوبه في إشبيلية. له نباهة غريبة تقرأ كل شيء حتى في أدق خفاياه. يعرفني متى أكون متشظية غير قادرة على جمع نفسي من شدة الفرح أو الحزن. متى أكون منكسرة، لا شيء يربطني بهذه الحياة، لدرجة أن يعرف أمكنة كل قِطع حطامي، ويصبر كبير يعيد تجبيرها مثل قطع "البوزل"[٢١] المترامية.

كنت هشة ومثقلة بشيء غريب ولهذا تفاديت أن أبقى معه، لكني لم أنم. متعبة لكنّي مازلت في كامل يقظتي، أراقب وأتأمل كل ما يحيط بي.

بعد أن غرقت قليلاً في لغته التي تبحث دوماً عن مرفأ لها، فكرت أن أتوغل أكثر في ألوانه التي يوزعها هنا وهناك، أن

(٢١) Puzzle .



أتابعه وأتابع حيطان صديقاته، حائطاً حائطاً، كلمة كلمة، لحظة لحظة، ولكني غيَّرت رأيي. لا أدري ما الذي عقَّلني، ربما عبثية الفعل في حد ذاته. لم يكن مجدياً أبداً.

في اللحظة نفسها سمعت في الخارج صوتاً شجياً كأنه بكاء، كان يأتيني ناعماً ودافئاً. فتحت النافذة. كانت السماء بلا نجوم. باردة وقاتمة. المدينة مستكينة لقدر غامض. جاءتني الآيات القرآنية واضحة. أصغيت لها جيداً، فأخذتني رجفة لا أدري إذا ما كانت من الموت، أو مما كنتُ أسمع، أو من البرد بكل بساطة، أو حتى من الظلمة.

وعلى الرغم من الرشقات المتباعدة من الرصاص، ظلَّ الصوت نقياً ودافئاً:

«... ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم من بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[٢٢]»

كنت في سكينة غريبة نزلت عليَّ، على الرغم من الظلمة الغامضة التي كانت تغطي كل شيء، بما في ذلك قلبي المنهك وسحاباتي الجميلة التي تعبرني في لحظات سعادتي القليلة.

تمتمت وأنا أبحث عما يشجعني على التوازن.

(٢٢) البقرة. ٧٤.

«لابد أن يكون هذا المسكين قد مات بالطريقة العبثية نفسها التي مات بها بابا زوريا؟ »

كان الحنين الليلي يأتي هذه المرة من الجهة الجنوبية للمدينة حيث حصد الموت رئيس الأطباء في الجراحة الدماغية. هو واحد من المختصين القلائل في جراحة المخ، وهو أيضاً من أشرف على عمليات جراحية للكثير من رؤساء الدّول، وكُلّلت كلها بالنجاح. تعرّف على والدي في نيويورك، عندما كان يشتغل مع شركة بريستول ميير الأمريكية **Bristol-**[٢٣] **Myers Squibb (BMS)** المتخصصة في إنتاج الأدويــة المضادة لمرض السيدا، والسرطان، والضغط، والأمراض القلبية والشريانية، والانهيارات العصبية وغيرها. والدي أيضاً كان ضحية شيء غامض. طلبوا منه أن يترك المخبر الوطني التابع لشركة (صيدال)[٢٤] الحكومية التي التحق بها بعد عودته النهائية إلى أرض الوطن، وينضمّ إلى مخبر السلام الضّخم الذي كان يديره أحد الخواص،

---

(٢٣) مؤسسة صيدلانية أمريكية، أسسها وليام ماكلارين بريستول وجون ريبلي ميير William McLaren Bristol et John Ripley Myers في سنة ١٨٨٧ . وعلى الرغم من الصعوبات، استمرت هذه المؤسسة في الاتساع ولكنها لم تستطع مقاومة رياح الأزمات، فأغلقت أهم مراكزها في الكثير من البلدان الأوروبية. اشترت منها مخابر سالم الفرنسية Laboratoires Salem France في سبتمبر ٢٠١٠ مركز ميماك Meymac المهم. قبل أن تستقر **Bristol-Myers Squibb** (BMS) نهائياً في العنوان التالي : 3 rue Josef Monier BP 325, 92506 Rueil-Malmaison Cedex France

(٢٤) شركة جزائرية حكومية كبيرة لإنتاج الأدوية وتسويقها SAIDAL



وينتج المضادّات الحيوية، والمصل وأدوية الضغط والسكري، والسرطان وغيرها، لكنه عندما اكتشف أن القصد من وراء ذلك كله هو عملية منظمة ومركبة لتدمير مخابر صيدال الوطنية، وأنه كان بخبرته الكبيرة في عمق حرب غير معلنه على إنتاج الأدوية، تراجع نهائياً.

بابا زوريا كان يعرف أن سوق الأدوية سوق خطيرة. أوقفوه ثلاث مرات في زاوية الشارع الخلفي الملتصق ببيتنا. كانوا ملثمين. طلبوا منه أن يترك نهائياً وظيفته في مخابر صيدال، لكنه هزّ رأسه، وقال سأفكر. أحتاج إلى بعض الوقت. في الصباح الموالي احترق بقدرة قادر مخبر صيدال، ومخزن الأدوية الذي كان يوفّر الحاجات الطبية الضرورية من أدوية وأجهزة. ليلتها بات بابا زوريا حزيناً ومنكسراً.

– هم اللي عملوها. القتلة. لا يوجد غيرهم...

- من هم يا بابا. تساءلت وأنا أقبض على يده المرتجفة يومها. يمكن أن يكون المخزن قد احترق لأنه مليء بالمواد الكيماوية سريعة الاشتعال.

- لا حبيبتي. لقد أصبحوا ذئاباً واختلطوا مع الضباع. مافيا الأدوية. أعرف أشياء خطيرة. قالها وهو يقترب مني أكثر لكي لا يتسرب صوته إلى الخارج. أشياء تبين أن هذا البلد يسير بخطى حثيثة نحو هلاك أكيد. مخبر السلام ليس

غطاء لإنتاج المخدرات الاصطناعية التي يُرسل بعضها
ـستشفيات المتعاقدة معه لتخفيف آلام مرضى السرطان،
ويُباع الباقي في الأسواق المحلية بكميات غريبة. تستورد
كثير من هذه الأقراص من مخابر صينية متخصصة في
تلك، وتشتغل بشكل شبه شرعي. أكثر من ذلك، يقال إن مخابر
ـسلام تعاقدت مع صينيين لإنتاج ذلك محلياً وتسويقه
مغاربياً وعربياً وأفريقياً."

لم أفهم والدي في البداية جيداً، لأنني كنت أدرك أن الأمر
خطير جداً. كنت ألمس درجة حزنه العميق الذي اخترق قلبه.
كانت المرارة بادية على كل كلمة كانت تخرج من فمه.

مرة أخرى جاءه رجل كان يعمل معه في مخابر صيدال،
وطلب منه أن يلتحق بسرعة بفريق عمل مخابر السلام، الكلّ
في انتظاره بما في ذلك "البيغ بوس"[٢٥]، لكنه رفض بعد أن
كان قد نقل جزءاً مهماً من وسائل عمله ومخبره الصغير،
إلى البيت. وأصبح تقريباً لا يخرج. يتعامل مع الصيدليات
الصغيرة، ومَخْبَرَين تابعين للدولة. كان بابا زوريا مصمماً
على فضح من كانوا وراء فعل الحرق. فلم يقتنع بأن السبب
كان شرارة كهربائية كما قالت التلفزة الوطنية ووسائل
الإعلام الإخرى؟ مافيا الأدوية والمخدرات، التي أقالت مدير

(٢٥) المسؤول الكبير.

صيدال السابق، وقادته إلى السجن على الرغم من أنه كان وراء إصلاحها ورفع أسهمها بعد أن كانت قد وصلت إلى الحضيض. أخبر بابا زوريا صديقه، مدير الأمن المركزي في شرطة المنطقة الشمالية، لكن هذا الأخير قال له جملة ظلت عالقة بدماغه:

– يا عزيزي زبير. أنت تنطح حائطاً صلباً. لا تلعب بحياتك، لك من ينتظرك، زوجة وأبناء. الزمن الذي نعيشه مجهول وملتبس. لا نعرف أبداً من يفعل ماذا؟ ما تعرف من وين تجيك الضربة؟

كان الطبيب المختص في جراحة الأدمغة، في مهمة في العاصمة. يقال إن سبب مجيئه هذه المرة كان من أجل رئيس الدولة المريض طوال الوقت. آخرون يقولون أيضاً إنه حضر هذه المرة استجابة لجهة رسمية، لإجراء سلسلة من العمليات في المستشفى العام. قُتِل بالصدفة. لم يكن المقصود، هكذا قيل. لكن عسكرياً شاباً كان مشرفاً على مدخل الجسر، المعبر الثاني أكد أن الرصاصة انتقامية وُجِّهت من طرف أحد العساكر على حاجز الجسر، ولا يُعرف السبب؟ قبل أن يطلق عليه النار حراس الطبيب، على الجسر، ويردوه قتيلاً. يُقال أيضاً إن وزارة الخارجية اعتذرت لابنته المقيمة في أمريكا.

طلبت أن يدفن والدها في بوسطن، وأنها ستتكفل بدفع كل تكاليف نقل الجثمان ودفنها. لكن الجهات الرسمية كانت صارمة في قرارها. المسألة وطنية وليست فردية، وأن الشهيد سيوارى التراب على أرضه وأرض أجداده بحسب وصيته. ردّ جاف ووحيد. ويعثوا لها بنسخة من الوصية، موقعة بيد والدها.

لا أدري السبب بالضبط،، ولكن الغريب، كلما سمعتُ قراءة القرآن، انتابتني بسرعة حالة خضوع مباشر للموت، بلا أدنى مقاومة وكأن القرآن يجعل الموت مستساغاً، بل نصبح بسرعة في الضفة الأخرى. حزنت من أجل الطبيب، ولكني حزنت أكثر من أجل والدي الذي أخرجوه بصمت كبير. اضطُرِرنا لكتم صرخاتنا. فقد ركض نحونا الضابط المسؤول عن الجسر، وقال ببرودة ميت. لم يكن في وجهه أي دم: لا نريد فوضى ولا عويلاً. ثم انسحب في سيارة جيب Jeep خضراء.

التفتُ للمرة الأخيرة نحو الكمبيوتر. تأملت العلامة الخضراء التي ارتسمت بجانب اسم فاوست مما يدل على أنه كان لا يزال على تماس مع الناس. على الرغم من آلام الظهر التي بدأت ترهقني، فقد قاومت للبقاء قليلاً. جاءتني كلماته التي تعودت عليها كلما صمتُ فجأة.

- كوكو أمازلتِ هنا؟ مملكتك فارغة يا فراشتي. نمتِ؟

فكرت في أن أكتب له وأقول له كما تعودت أيضاً: حبيبي توحشتك. أكلتني أصابعي القلقة التي جفَت على مدار السنوات الثلاث التي مضت، وهي تكتب له في كل لحظة حتى تشبعت به. ولكني سرعان ما تراجعت عن فكرتي الأولى وتخليت عنها لأنه لم يعد هناك جدوى للكتابة له مرة أخرى. بدأت أشعر نحوه بغضب مبطن. أشعر كأنه يتركني أحياناً من أجل نساء أخريات. أستغرب ردة فعلي. هل كان من الضروري أن أنتظر قرار عودته إلى أرضه ليحرقني جنوني نحوه، وغضبي منه؟ كان كل شيء يغلي فيَّ بقوة. كنت خائفة أيضاً، لأن الذهاب نحوه، إلى الأوبرا، سيجبرني على قطع الجسر الذي فُجِّر وعوض في أجزاء منه بجسر خشبي. سيكون عليَّ قطع المعابر والجسر مشياً على الأقدام، وإيقاف السيارة في مكان ما، بالقرب منه لأتمكّن من العودة الليلية.

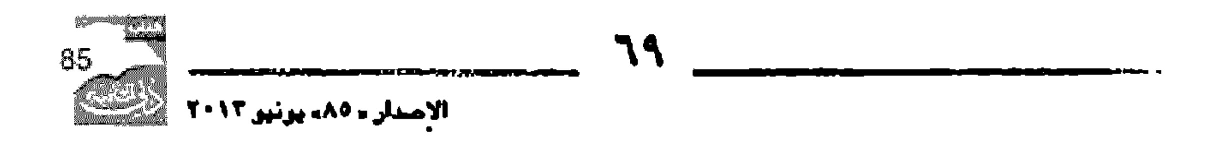
شعرت بعبث غريب في الدنيا. لماذا غاب فاوست طوال السنوات العشر عن وطنه؟ ها هو ذا يعود أخيراً إلى أرضه ليعرض مسرحيته لعنة غرناطة، ويوقع كتابه لمن أراد أن يتعرف على المسرحية مكتوبة. عندما رأيت الإعلان الخاص بالمسرحية لأول مرة، سألته عن اللون الأحمر الطاغي

والأسود أيضاً. أجاب وهو يضحك من سؤالي:

- أنهار الدم التي لم تتوقف إلى اليوم. ماذا لو حسبناها. معادلة بسيطة. نأخذ عدد الذين ماتوا في الحروب. نعرف جيداً أن في كل إنسان خمسة لترات من الدم. نضرب عدد الأموات في خمسة ويعطينا الناتج من الدم الذي ساح هباء، وهو أمر مرعب.

عزيزة على فاوست مثل هذه المعادلات الرياضية التي لا تنتهي. يقول إن تخصصه في الثانوية كان في الرياضيات والفيزياء والكيمياء، قبل أن يدرس الطب قليلاً، ويهرب في النهاية نحو المسرح.

قبل سنتين تقريباً، فكرت في السفر نحوه عندما أخبرني بعرض مسرحيته الجديدة انتحار حيزية. اشتريت بطاقة مكلفة لأنه كان عليّ أن أذهب إلى باريس ومن هناك أغير نحو بوينوس أيرس الأرجنتينية. وحضّرت نفسي للسفر. كنت مجنونة. لكن قبل يومين، ألغي عرض مسرحيته التراجيدية. فضاع مني كل شيء. أبهى قصة حب في الدنيا كما يقول. عاد إلى القصيدة وفككها حرفاً حرفاً ليدرك أن ابن قيطون الشاعر ليس هو الكاتب فقط الذي أعاد إلى الواجهة قصة صديقه سعيّد، ولكنها قصته الشخصية. يتحدث عن نفسه مستعيراً



قناع صديقه خوفاً من غضب العائلة والمجتمع. صديقه سعيد ليس موجوداً أبداً. راح العرض وراحت البطاقة. قلت في نفسي: ما عليهش. هو حبيبي ومش خسارة فيه بطاقة سفر غالية. ثم أن ما حدث هو فوق طاقته لأن الجهة الداعية خافت من تحمل مسؤولية رجل مهدد بالاغتيال. هذا ما عرفته منه. لكني لم أمنع نفسي من التساؤل: لماذا لا يعود فاوست إلى وطنه؟ الكثير من الناس عادوا، ويعيشون بصعوبة، ولكن أقل من صعوبات وذعر المنافي.

تفصيل صغير. طبعاً عندما اشتريت بطاقة السفر، لم ألمس المال الخاص الذي تركه لي والدي وأجبرني على أن لا أخبر أمي حتى لا يضيع مني ولا أغرق في كثرة أسئلتها. وهو ما فعلته. لقد أوصاني أيضاً أن لا ألمس ذلك المال وأتركه لليوم الأسود أو مساعدة من هو في وضع أسوأ مني. لم ألمسه في انتظار اليوم الأسود. لم أكن أعلم أني كنت في عمق اليوم الأسود، وفي دوامة فاوست، أتدحرج كل يوم قليلاً مثل الريشة، دون دراية مني. نحن نجتهد يومياً، وفي أقسى الشروط لكي نزيل بعض الظلمة عن يومنا حتى يخترقه بعض النور، وننسى أننا غرقى حتى الموت، في عمق السواد والقلق. أصبحت متأكدة من أنني داخل المدارات السوداء، عندما اخترقتني فكرة غريبة لم أفهمها إلا لاحقاً! شعرت يومها ببرد

شديد، وبعزلة غريبة لم أعهدها في نفسي أبداً. لبست معطفي الخشن وخرجت نحو المدينة المثلجة والخائفة من غموضها. وأنا أتدحرج في صمت الشوارع، مفرغة الداخل، توقفت فجأة أمام بائع للبضائع اليابانية والصينية المستوردة. السكاكين والسيوف وغيرها. على فكرة، هذه ظاهرة جديدة على المدينة، لم نكن نسمع بها من قبل. تلمست سكينة لمّاعة. قال لي البائع الصيني في لغة إنجليزية مكسورة: هذه سكينة السّاموراي. مقدسة وتجرح الهواء. وضع سيفاً لمّاعاً في يدي. ثم انكفأ على ركبتيه وبدأ يشرح لي انتحار السّاموراي ووظيفة السكينة الصغيرة التي كانت في يده اليمنى، وكيف أنّ صديقه الذي يحمل السيف مثلما كنت أفعل، هو من يجهز عليه في النهاية ليمنعه من التراجع، ورأفة به أيضاً من الألم. ثم قام بعد أن أقنعني بشراء الاثنين معاً. فقد كنتُ السّاموراي وصديقه الأعزّ. لم أكن أعرف لماذا. خرجت من البيت وأنا لا أعرف لماذا، وعدت له وأنا ممتلئة بشعور من الغبطة كأني وجدت كل ما كنت أبحث عنه. عرفت يومها لماذا أصبحت حروب شباب الأحياء المتصارعة تتم بالسيوف. أصبحت سيوف السّاموراي تدخل بسهولة إلى البلد من خلال سوق غريبة لا أحد يعرف مساراتها. لابد أن يكون أحد البارونات هو سيد هذه السلعة الرائجة التي فلح الصينيون في توفيرها. ذهبت إلى أكثر من

ذلك كله. سجلت في مدرسة السّاموراي للدفاع عن النفس. ليس بعيداً عن المعبر الأول للجسر. وعلى مدار شهرين تعلمت رياضة السكاكين. لم تكن صعبة ولكنها كانت تعتمد على الخفة والرشاقة.

عندما تأملت السكينة الحادة في الظلمة لمعت في يدي تحت ضوء المطبخ الموارب. درت في مكاني بسرعة ووجهت للوسادة ضربة السّاموراي القاتلة. تعلمتها في مدرسة الساموراي للدفاع عن النفس. كيف يمكنني أن أقتل بسرعة، وكيف يمكنني أيضاً أن أجرح بشكل يشل القاتل دون أن أتحمل مسؤولية قتله. لا أدري لماذا كان عليَّ تعلُم ضربة السّاموراي القاتلة التي ظل أستاذي الصيني يكررها علينا نحن العشر بنات اللواتي التحقن بمدرسته. يجب أن تتعلمن كيف تدافعن على أنفسكن. نحن في غابة. ضربة السّاموراي هي أهم ضربة، ليست فقط للحماية ولكن للقتل أيضاً. بالسيف الصغير واكيزاشي wakizashi أو السكينة طانطو Tanto التي تحرر الروح. بالضبط تحت السرة بشكل طولي ويكمّل الصديق الأعز Kaishakunin المهمة بقطع الرأس والراحة الأبدية. علمنا طريقة قاسية تخص المرأة تحديداً، لكنها أخافتني كثيراً: ضربة النحر. النساء النبيلات في اليابان وزوجات السّاموراي كنَّ يستعملن طريقة جيغاي Jigai وهي

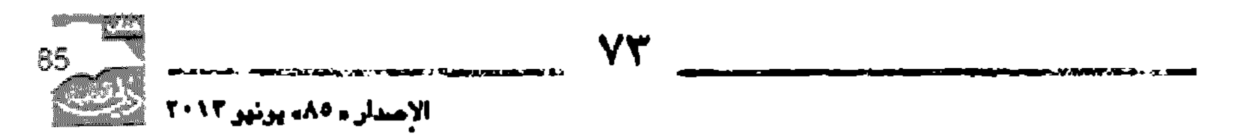
الضربة الموجهة مباشرة لعرق الرقبة، وقطعه بسرعة لتفادي الألم والتردد.

كنت كل يوم أبتعد قليلاً عن الطفلة التي كانت فيَّ وأقترب بسرعة نحو الوحش الذي كان ينتظرني على حافة المسالك الوعرة.

كنت أرى فاوست، السّاموراي، وكنت أراني صديقه الذي يحرره.

يقول فاوست إنه ولد تحت نجمة الحظ لأنه تعرف عليَّ، وأحبني. ولكن غيرتي كانت تحرق في طريقها كل شيء. فقد تأكدت، في جولاتي الفيسبوكية الليلية، في مملكة الفراشة، أن هناك العشرات مثلي اللواتي كن يتلقين الكلمات نفسها وربما الرسائل المنسوخة نفسها كنت دائماً أتوصل إلى طرد السواد، لكن العزلة والخوف والخيبات المتكررة، كثيراً ما كانت توقظ فيَّ جنوني بسرعة.

وكأنه سمعني. تلألأت الكتابة مرة أخرى في زاوية المحادثة، "التشات"، في شكل متتابع كشخص في حشرجاته الأخيرة المتلاحقة، متدحرجة في شكل سلّمي، وراءها نجمة هارية في عمق عاصفة. هنا ولدتُ. كُتِبَ تحت التعليق. هنا كنتُ. داخل هذه العاصفة أحمل من النجمة كل حظي ومن العاصفة كل الجنون الذي يعتريني. يحدث معي أن أخفق في مقاومة هذا



الاندفاع اللغوي الغريب.

- ألووووو كيف حبيبتي مارغريت الغالية. هكذا تهرب من حبيبها الذي أنقذته من جنون محتوم من بين مخالب الشيطان ميفيستوفيليس؟ وتبقى سهرانة بدونه.

قاومت الرد بقوة، ثم أغمضت عينيّ وأغلقتُ أذني. صوته كان يأتيني مستجدياً.

- ألـــووووو... كيف حبيبتي... ألـــوووووو كيفك... ألوووووووووو...

لم أرد. هو يختبر وجودي. لا يمكنه أن يعرف أني هنا. فأنا الآن متخفية في الفيسبوك ولا يراني أحد إلا من أريد مراسلته. ثم انطفأ اسمه كلياً في نافذة المحادثة، "التشات"، وغابت كل الهالة الزرقاء التي كانت تغرقه في ألقها الجميل، وتحول كل شيء إلى حالة بياض كبيرة لم يكن فيها شيء يُذكر.

ابتسمت في أعماقي. كان ينطفئ فيَّ هو أيضاً كل يوم قليلاً. كتبتُ له ما أشتهي ولم أبعثه له. أصبحت أجد لذة كبيرة في الكتابة والاحتفاظ بها. تراكمت الرسائل من هذا النوع التي خصصت لها ملفاً مميزاً عن بقية الملفات، في الكمبيوتر لا يهمّ أحداً غيري.

متعبة القلب. مرهقة الروح. متلاشية مثل غيمة مهجورة. لا قوة لي اليوم حبيبي. لقد وصلت إلى حدودي القصوى. باسطا حبيبي. بيكَفّي. موجع حبك وبعدك وقربك وعقلك وجنونك. موجع حضورك وغيابك لمسك وفقدانك. موجع وهمك ويقينك. لماذا ترهق قلبك وشجنك وأشواقك بهذا الكم من الذهول، موجعة فيَّ خيبتك. لستُ في النهاية أكثر من لغة هاربة اقترفتها الأقدار ذات ليلة مقمرة، ولم تفكر يوماً في مخاطرها. كلما اقترينا منها اكتشفنا كم هي وَهْمٌ جميل. وكلما اجتهدنا في تحويلها إلى حقيقة زاد غبننا وانسحابها. الحب يا عمري هو أيضاً القبول بالأشياء على ارتساماتها الأولى، كما هي لا كما نشتهيها، والكفّ عن تحويلها إلى أيقونات ليست في النهاية إلا أشكالاً شفافة، ولكنها ليست زجاجاً ولا كريستالاً، لكنها أكثر هشاشة من الاثنين ومن المطر وغوايات الروح وأجنحة الفراشات. انطفأت كل المنارات في قلبي. موجع حبيبي إصرارك على أن اللغة حقيقة بجنونها وعطرها. ليس حقيقة يا قلبي إلا ما يرمينا بعيداً عما ألفناه واستهلكناه.

رفضت أن أضعها على واجهة حائطه ولكني ضممتها إلى الملف الخاص به، ورميتها في عمق الدرج..

كل شيء بعد ذلك تتابع بسرعة مجنونة لم تكن لي عليه أية



سلطة، ولا القدرة حتى على السيطرة الجزئية عليه. نُصَابُ أحياناً بناس لا نعرف في النهاية كيف اختزلنا فجأة المسافة الفاصلة بيننا وبينهم بسرعة غريبة، وبين الحب والجريمة المحتملة التي تترصّدنا في كل الأمكنة وفي كلّ اللحظات. لا أفهم لماذا الرغبة في القتل المقدس هي قرينة الحب وعشيقته؟ حتى نفساني المدينة الكبير الذي قاوم المغادرة وظل في حيه، عمّو جواد، عندما سألته عن هذه الغرابة، ضحك قليلاً ثم حكّ على رأسي وهو يتمتم: عندما نحب، نفنى في الآخر. نتماهى فيه. نصبح غير موجودين إلا من خلاله. فجأة نضيق ذرعاً بهذا السجن. من حين لآخر نجتهد للخروج من هذا الأسر ولهذا نشتهي القتل ولكنه قتل رمزي. كسر السياج الذي وُضعنا فيه وسرق منّا حريتنا. لثقافتنا دور كبير في ذلك.

إجابته كانت معقلنة، ولكني أجدني باستمرار خارج هذا المنطق.

II

تِلكَ الظِّلاَلُ الَّتِي تُشْبِهُنِي

85
الإصدار «٨٥» يونيو ٢٠١٣

-١-

لم يكفِ أني مهبولة على البرتقال ربما لأن حبيبي ديف لم يتوقف يوماً عن الحديث عن مآثر جده خمنيث دالمودوفار وفي تحسين هذه الفاكهة، ولكني أيضاً مصابة ببلية الروايات المجنونة. ولأني قارئة مستميتة في أبجدياتها المبهمة والخبيئة بين أسطرها، فقد أصبت بعدوى الأسماء الروائية والمسرحية. أحياناً أراني مدام بوفاري، لكني لا أملك راحتها. في أحيان أخرى أراني دون كيشوت وأنا أملك جنونه وهبله. ويلتبس بي الأمر حتى مع شهرزاد لكنّي لا أملك لا شجاعتها ولا راحتها ولا ثقافتها ولا سلطانها. وعندما أصاب بالخيبة القصوى، فلا أرى إلاّ وجه كارمن وسكّينتها الحادة بين أسنانها وهي ترقص رقصة الموت الدموية في حضرة زوجها وعشيقها معاً.

اسمي الحقيقي طبعاً يامنا وليس مارغريت. حبيبي فاوست يناديني كذلك لأنني أنقذته من مخالب الشيطان مفيستوفيليس. أو هكذا يبدو لي ولو أني لا أعرف بالضبط كيف وأين أنقذته.

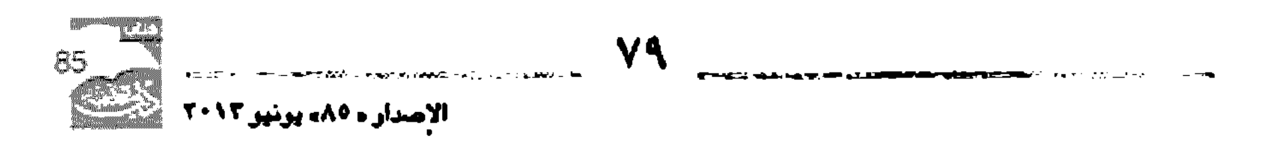
من لا يعرفني سيقول إني أكره اسمي، وحتى أسماء الناس القريبين إليَّ من أهلي وأصدقائي. أنا لا أكره أي اسم ولكني

مولعة بأسماء الكتب لأني أراها أكثر أصالة وصدقاً، وتشبه أصحابها بشكل غريب. الاسم في الروايات والمسرحيات غير اعتباطي. الأسماء المدنية التي تُقيد في البلديات، قليلاً ما تطابق أصحابها. هكذا يبدو لي. فهي للحاجة الماسة كأن تضع علامة على كتلة بلا هوية حتى لا تخلطها مع بقية الكتل. الاسم خيمياء غريبة من الصعب فهمها بالحواس العادية. عندما أمنح اسماً لشخص ما يتضح لي لاحقاً، أنه أولاً اسم أدبي، وأنه، ثانياً، يتطابق بشكل غريب مع صاحبه في التفاصيل الأكثر دقة. فأنتهي إلى فكرة أن اسمه الحقيقي هو ذاك الذي خلقتُه له، وليس الاسم الذي أُلْصِقَ به. فاسمه الذي يجره وراءه منذ عقود، هو فقط لنعت الكتلة لا أكثر. بي نزعة طاغية لرفض المسلمات الجاهزة، والشكّ في صحتها.

في مرة من المرات هلكني فاوست وهو يحدثني في "التشات" عن الحداثة، حتى كدتُ أقول له يكفي يا عزيزي. شبعت. ولكني أرجأت رأيي، وصبرت قليلاً حتى لا أخيب ظنه.

– ماغي حبيبتي، أنت تعيدين النظر في المسلمات. أنت الآن في سلّم ما بعد الحداثة

- أسمع هذه الكلمة في كل مكان، ولكني لا أفهمها جيداً. قلبي وجعني من كثرة التكرار. أفهم فقط أن هذه الرؤوس التي



نحملها على أكتافنا عليها أن تنفجر لأنها ملوثة، وعلينا أن ننبت مكانها رؤوساً أخرى أكثر قدرة على الحب والنور والحياة.

- ما بعد الحداثة هو هذا بالضبط. أن يوجعك قلبك وأذناك مما ليس مألوفا. أن ينفجر دماغك متخلصاً من نفسه ويترك المجال لرأس أجمل وأكثر حذقاً.

- ما دخلت في مخي. الله يرحم جاك دريدا. لابد أنه يتقلب الآن في قبره.

- يمكنه أيضاً أن يكون هو نفسه ضحية لما بعد الحداثة التي تنسف كل شيء بما في ذلك دريدا المسكين الذي خلقها ونسي أن الفكر هو قنبلة موقوتة أيضاً لا ندري كيف وأين ستنفجر.

- يا قلبي. باسطا. شبعت. أترك شوي للغدِ الله يحفظك.

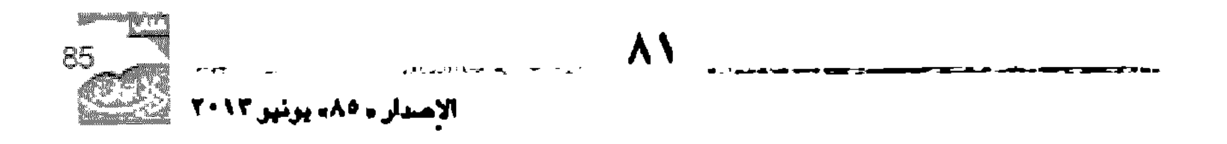
ولأني مصابة بداء التدقيق والقراءة، فقد دفعني فاوست من حيث لا يدري إلى تأمل الكلمة في القواميس المتخصصة من جديد وفي "النِّتْ". نبشت قبر دريدا وحاولت أن أقرأه قليلاً. لكن الكلمة بدت لي أثقل مما كنت أتوقع. أنا لست أكثر من امرأة عاشقة للروايات والموسيقا. أمي ورثتني الكثير من جنونها. كانت تشبه مدام بوفاري، بل كانت استمراراً لمحنتها

لدرجة الخروج من دائرة الحياة والتهاوي في عالم افتراضي.
خلافي معها أني أعيش حاضراً قاسياً وأشعر به. أحب. أجن وأفكر أحياناً حتى في الانتقام. بينما تظل هي في عالم واحد، ومخيال واحد، ورجل واحد، وحنين واحد، ويقين أوحد.
الكثير من طباعي ليست جيدة. الغيرة والنرفزة. لا أحد يفهم ثوراتي مثل بابا زوربا الله يرحمه ويوسّع عليه. كان كلما ضاق بي الحال، انسحبت نحوه، وهو في مخبره الصغير، في الطابق السّفلي من البيت. عندما يراني يترك كل شيء ويجلس على الصّوفة الصغيرة، ويضع رأسي على صدره ويهمس في أذني:

– احْكِي لي حنّونتي. أعرف من عينيك أنّك لست مرتاحة.

- ولا شيء يا بابا.
- احك. أعرف أن شيئاً ما في قلبك الصغير مكسوراً.

أبكي قليلاً. أحكي. يمسد على شعري حتى أغفو قليلاً ثم أنام نهائياً. وعندما أقوم، أكون في قمة سعادتي. كأن في لمسته حالة مغناطيسية غريبة تمتص كل الآلام. وعندما أصبح أبي منشغلاً كلياً بقضية حرق مركز صيدال لإنتاج الأدوية، وبالحرب الصامتة، وبمافيا الدواء والمحذرات، انسحبتُ نحو مملكتي الزرقاء التي أصبحتُ أتحملها بصعوبة كبيرة. حرائقها



كانت كل يوم تتسع قليلا. فااااااوست المهبووووووول. أكاد أصرخ في صمتي وعزلتي. لم أعد قادرة على تحمل نسائه.

حتى صديقتي سيرين أم الخير، التي لم أحتفظ إلا بالجزء الأول من اسمها بينما تلح هي على الاسم كاملاً، المولعة بأحلامها الوردية والجنسية، وقفتْ مع فاوست وأنا أنتقده بعنف.

- من سوء حظك أنك أحببت فناناً. الفنانون لا يؤتمنون. لا يحبون في النهاية إلا أنفسهم. كلما رأوا امرأة جميلة ركضوا نحوها لأنهم يرون شيئاً منهم فيها. تشبههم. يكفيك أنكِ فزتِ بقلبه، في الوقت الذي فشلتْ فيه الأخريات. لو أحببتِ رجلاً خيراً بسيطاً، وتزوجت منه، لكان الأمر أفضل.

- من رجل الخير؟

قلت لها وأنا أحاول أن أفهم منطقها وما تخفيه كلماتها.

- أنا مثلك مهبولة على الحروف والأبجديات، ولكن على القرآن. سافرت من هنا للقاهرة فقط لأسمع للشيخ عايض القرني في معرض الكتاب وهو يمنحنا ما لا نعرفه في منجزه الكبير: لا تحزن. حكمة عظيمة قليلاً ما نجدها عند إنسان مثله. سافرت ولم أسأل عن التكلفة. بعت أساوري وأساور أمي القديمة لشراء بطاقة السفر، وركضت نحوه. كنت على يقين أن

في كل خطوة كنت أخطوها، كانت ترتسم حسنات بلا حدود. كلّفْنا أخاً نبيلاً بمرافقتنا، وذهبنا نحن مجموعة مكونة من عشرة أفراد مليئين بالثقة في الله على النصر، مناصرة للشيخ عائض القرني، ضد العلمانيين الفاسقين. كانت حربنا عادلة وسفرتنا مأمونة مائة بالمائة لأنها كانت من أجل مناصرة أخ ظُلم.

- من أجل لا تحزن؟

- لا. من أجل الشيخ عائض القرني وقفت طويلاً وراء مكتب بيع الذهب. الكثير من الناس كانوا يبيعون ذهبهم يومها ولم أدر في البداية لماذا؟ في الماضي كانت المرأة لا تبيع ذهبها إلا لتعريس ابنها أو ابنتها، أو للخير. اليوم يبيعون ذهبهم لأسباب كثيرة أولها مغادرة البلاد. لقد تعبوا من شيء هم أنفسهم ليسوا قادرين على فهمه. أخرجني شخص كان يقف ورائي من غفوتي وهو يكرر:

- أختي دورك من فضلك ما راحش نباتو هنا.

تقدمت نحو الصرّاف وأخرجت خلاخيل أمي وأساوري كلها. نظر إلى وجهي طويلاً حتى أخجلني. ربما ليتأكد من أني لم أسرقها ثم قال وهو يهز رأسه:

- وين راح تروحي يا بنتي؟ أي بلد عربي تذهبين نحوه

يقول في أعماقه: أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

خليك في أرضك.

- ولكن ما رانيش رايحة أبقى برا. أروح للقاهرة وأعود.

- تخزّي بيَ[٢٦]. اللي يروح برّا ما يرجعش.

- ولكني راجعة. رايحة في مهمة ثقافية فقط لثلاثة أيام.

- كاتبة؟

- صحفية.

- من أصحاب الفيستي[٢٧]؟

- حرام عليك يا أخي. أحضر ندوة الشيخ عائض القرني حماه الله من أعداء الإسلام، وأعود. هناك حملة دينية لمناصرة هذا الرجل الكبير.

- ترهنين أو تبيعين.

- أبيع.

قلتها للذهّاب بلا أدنى تفكير.

- بعت كل ممتلكاتي من الذهب والفضة لأتمكن من شراء بطاقة سفر كانت تتجاوز إمكاناتي الاعتيادية. الشيخ عائض القرني كاتب ينحب. منذ ذلك اليوم لم أترك أي كتاب من كتبه. اتمنى أن تهتدي له وتتعلمي كيف

---

(٢٦) تسخرين مني؟

(٢٧) الكذب.

تدافعين عن نفسك كامرأة، وكيف تدافعين عن دينك
أمام الآخرين. اليوم أصبح كل واحد في موقعه وعليه
أن يشحذ كل وسائله الدفاعية كما يقول الشيخ عائض
القرني وإلا مات تحت الرفس.

وأظل معلقة على هذه الكلمات لأنها تسحبني من جديد
نحوها وتطوح بي بقوة في غمار الحياة.

كلما حزنت نوّمت عقلي قليلاً وأبعدته عن تفكيري ولو
لحظات.

حتى أخي رايان الذي كان يمكنه أن يساعدني، فشل في كل
شيء. احترق مثل فراشة ذهبت نحو النار بعينين مفتوحتين.
لم ينجح في دراسته بسبب منزلق المخدرات التي وجد نفسه
في دوامتها. صداقته مع أبناء الأغنياء وحبه للأحصنة أنبتت
في دماغه مشروعاً غريباً ولكنه كان مؤمناً به. تربية الأحصنة
الأصيلة وبيعها للشخصيات الكبيرة والحرس الجمهوري الذي
ربطه به أحد أصدقائه. من سوء حظه دخل في منافسة مع
مربي الأساسي في البلاد للأحصنة، المعلم عنترة. اشتغل في
حظيرته على مدار سنتين، حتى في عز الحرب الأهلية. كان
رايان محباً وعاشقاً لها. اشترى جياداً أصيلة وبدأ يزاوجها.
كل شيء كان يسير وفق ما خطط له. طلب مني أن أساعده ذات

مرة على تسميتها. قلت له دعني أفكر قليلاً. وفي اليوم التالي جئته بقائمة طويلة عريضة. ضحك منها بجنون حتى أني أصبحت أضحك معه ببلاهة لم أستطع التحكم فيها:

- سيرفع ضدك الكتاب والموسيقيون دعوة قضائية، ويحاكمونك على الإساءة لهم.

- لا. أنا شرفتهم بأسماء الأحصنة.

- يا أختي الغالية، من يسمع اليوم ب: موزارت هههههه. سانسونس. فيردي. بيزي... حرام عليك. لامارتين. هيجو. المركيز دو صاد، ولو أن هذا الاسم الأخير أعجبني. رامبو أيضاً يمكن أن يمر لأن الناس لا يعرفون أرتور رامبو ولكنهم يعرفون جيداً رامبو سلفستر ستالون، نابوكوف. زوربا هههههه بابا زبير اللي هبلته بأسمائك ههههه، كارنين. إيمًا ممكن أيضاً، لكني أفضل عليها إيمان. كارلوس فوينتس ههههه من يعرف هذا المخلوق في بلاد تتدفأ بالأمية في كل لحظة وتتبادل الجهل. مويا الصيني ممكن لأن باسمه نوعاً من الغرابة. جواد. محفوظ. شهرزاد. ليلى...

- أنت تضحك ومع ذلك لم تكن مقترحاتي كلها سيئة.

- أنتِ أختي وقلبي. لابد أن أحتفظ لك ببعضها أنت المتخصصة في الأسماء. ولكني أريد أسماء تطيِّر العقل. مخيفة وجميلة. قوية، يمكننا أن ندخل بها السباقات الأكثر

شراسة. عليّ أن أقهر المعلّم عنترة. شكوة اللبن الحامض ههههه. منتفخ في الفراغ. بعث لي زبانيته ليوقفوني عن الفكرة، ولكني لن أتوقف بعد كل ما قمت به. قلت له شكراً ولا أريد أن أعمل في حظيرته. "

مع ذلك احتفظ رايان ببعض الأسماء التي أعطيتها له من بينها زوريا.

قال والدي وهو يمسد على ظهر الحصان الذي يحمل اسمه المستعار: هذا الحصان لابد أن يكون يشبهني. كان بالفعل يشبهه أو هكذا بدا لي، في رصانته، وحنانه وقوته.

ذات صباح وقفت سيارة الشرطة عند الباب وأبلغونا بأن حظيرة أخي رايان لتربية الأحصنة قد تحولت إلى رماد بعد أن احترقت ليلاً. وكل الأحصنة هلكت. خرجنا جميعاً. ما عدا أمي التي رفضت، وسرنا نحو الحظيرة، عند مداخل المدينة. تأملنا المشهد المحزن. كل شيء تحول إلى رماد.

عندما عدنا إلى البيت حمل رايان بعض أمتعته الشتوية في جرابه وخرج. فبدا كأنه سائح هولندي يستعد لسفرة ستمتدّ طويلاً. لا أدري لماذا انتابني إحساس أن أخي لن يعود، وأنا أراه وهو يلملم حوائجه بحزن وصمت باردين. لم يلتفت لأحد، ولم يودع أحداً. فلم يسألنا عن رأينا. في الليلة نفسها رأينا جميعاً وسمعنا جميعاً هذا الخبر في نشرة الثامنة: امتدت



أيادي الإجرام مساء اليوم إلى واحد من أكبر مربي الجياد الأصيلة في البلاد، المعلّم عنترة. وضع بابا زوربا رأسه بين يديه ولم يقل أية كلمة. بات يدور في مخبره. كنت أراه من وراء الغرفة الثانية المرتبطة بالمخبر، في الطابق السفلي.

انطفأ رايان فجأة من المدينة. بعد أكثر من ستة أشهر، عاد إلى البيت منهكاً ومتعباً وشكله غير مريح كأنه كان يبيت في الشوارع. سأله والدي: هل أنت من قتل المعلم عنترة؟ هز رأسه بأن لا. ثم همهم بكلمات لا تكاد تفهم إلا بصعوبة: يا بابا أرجـوووووك... لو كنتُ أريد قتله لفعلت ذلك منذ زمن طويل عندما كان يستغلني. كان وضعه النفسي مربكاً للجميع في البيت. لا يأكل ولا يتكلم. عيناه حمراوان باستمرار.

في ليلة من الليالي لم يعد رايان هو رايان. وضع سكينته الحادة في عيني لكي يجبرني على إعطائه النقود. صرختُ بقوة، رايـاااااان ما بك؟ هل جُننت؟ لكنه كتم أنفاسي. لم أعرف هذه الصورة في رايان أبداً. عينان حمراوان وطاقة تدميرية مخيفة. لم يكن في حاجة إلى ذلك كله. لو طلب مني النقود بحبّ، كنت أعطيه تلقائياً كل ما أملك. كنت أحبه، وأحب شخصيته الحنونة والجادة التي لا تريد أن ترتهن لأي كان، ولا تستسلم. لم أعرف إلا لاحقاً أنه كان في دوامة المخدرات

والأقراص الملونة. المخدرات الاصطناعية. التي عاد لها من جديد بعد أن كان قد تركها منذ العلاج الذي خضع له قبل هجرة تربية الأحصنة. الأحصنة أنسته كل شيء. فقد ظل مأخوذاً بأكلها وشربها ودوائها وحركتها. لم يتحمل والدي مشهد السكينة وهي بعيدة إنشاً واحداً عن عيني. طرده بعنف. وهو يستعد للخروج كحيوان مهزوم، قبّل رايان يدي واعتذر مني. كنت أرتجف. عانقني. شعرت بصدقه. ألححت أنا وأمي على بابا زوربا كثيراً أن يسامحه، فسامحه بعد مدة قصيرة. ظل رايان كل الأيام التي تلت صامتاً. حاولت أن أكلمه في العديد من المرات، لكن عبثاً. كان يخرج من حين لآخر نحو أصدقائه، فيعود في بعض المرات منتشياً، وفي بعضها الآخر منكسراً وحزيناً. كان رايان يموت أمام أعيننا دون أن نتمكن من فعل أي شيء من أجله. فجأة سمعت ذات ليلة صرخة تأتي من غرفة أختي كوزيت، ماريا. ركضت نحوها. وجدته في الوضعية نفسها التي حدثت معي. التفتَ نحوي بعنين حمراوين معرقتين. قلت له. حبيبي رايان اهدأ قليلاً. أنا ياما أختك العزيزة. سآتيك بالنقود. ماريا لا تملك شيئاً لا تزال تدرس. فخفّف الضغط عليها دون أن يتركها، إلى أن جئته بالنقود. كان وجه بابا زوربا مثل قطعة حديد. يجاهد حرائقه

لكي لا يرفع يده عليه، وتركني أتصرف. أخذ رايان النقود منّي وهو يرتجف، وريق أصفر ينزل من فمه. في تلك اللحظة أيضاً، لم أعرف رايان الجميل والعاشق والباسم. لم تسامحه يومها كوزيت أبداً. حاولت معها ولكنها أصرت على قراراها.

واااااالوووووو.... يا أنا؟ يا هذا المجرم؟ اختاروا.

طرحت شرطها أمام والدي وأصرّت عليه. يا أنا يا هذا المجرم. والدي لم يتردد، فقال له: أنت ولا ابنتي. كانت كلمته الأخيرة. أمي ظلت تصرخ من جهتها: هذه مخابرك يا السي زبير التي تنتج هذه السموم. هذا واش لحقنا من ماركان ديالك. قبل أن تقرر: لا أحد فيكما يخرج لا أنت ولا هو. أخوك يعتذر لك ولن يعيدها. كوزيت ركبت رأسها، بينما خرج رايان من تلقاء نفسه، ولم ينتظر من أحد أن يرميه هو وأغراضه خارج البيت. كان في حالة غريبة شبيهة باللحظة الفاصلة بين الجريمة والتردد.

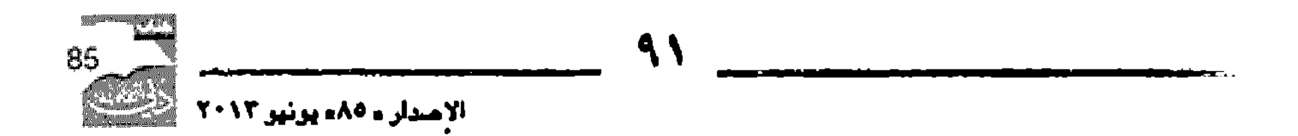
لم نسمع بوضعه إلا عندما جاءتنا الشرطة لتخبرنا بأن رايان في السجن المركزي للمدينة، وأنه سيحاكم، ولكنه سيخضع قبل ذلك لعلاج الإقلاع عن المخدرات ليكون في كامل وعيه، لأن التهمة التي على ظهره ثقيلة قد تقوده إلى الإعدام، ومع بعض الحظ إلى المؤبد. جريمة قتل المعلم عنترة. فقد أثبتت

ـشرطة العلمية بما لا يدع مجالاً للشكّ تورطه في الجريمة، كما أكّد على ذلك ضابط الأمن المركزي.

حبيبي فاوست عوضني عن هذا الغياب. كل حبي ذهب نحوه. فقد كان أبي وأخي وسرّي الجميل والأبهى والأشهى الذي لن يحس به أحدٌ غيري.

نسيت تفصيلاً صغيراً لمن يهمه الأمر، ربما جاء متأخراً جداً. أنا من أسماه فاوست لأني كنت مولعة بغوته ورأيت شبهاً غريباً بينهما. أعجبته التسمية فأصابته عدواي، سماني لحظتها مارغريت. اختزلها بعدها في ماغي. لم أمانع على الرغم من أني لا أحب سلبيتها. سماني على المرأة التي أحبها فاوست وتركها من أجل أخرى ليجد نفسه أمام منقذة طيبة من هيمنة الشيطان. في مارغريت شيء من الوفاء الغريزي الذي لا أحبه دائماً. حتى عندما تخون جسدها، ولا يمكنها أن تخون آلامها العميقة أبداً، ولا أحاسيسها. تظل معلقة على نبض من تحب، حتى ولو كان هذا النبض متقطعاً ومؤلماً.

أيام كانت الحرب الأهلية تأكل الأخضر واليابس، قبل أن تأتي على عشر السكان، والعشر الآخر تلتهمه اليوم الحرب الصامتة، رفضت عائلتي أن تحمل أياً من السلاح الذي وزعته



الدولة على بعض عمّالها وإطاراتها. قال لهم والدي يومها: من أراد أن يقتلني فليأت. قاتلت عدوا خارجياً زمناً طويلاً وكرهت الدم وعفن الأجساد المتفسخة ظلماً. ولست مستعداً لأراه ثانية. لست معنياً بهذه المقتلة. على الدولة أن تقوم بدورها في حماية المواطن، وإذا فشلت تسلّم أمرها لغيرها. خرج يومها الرجل الذي حاور بابا زوربا حول فكرة التسليح غاضباً:

– تريدون من الدولة أن تقوم بكل شيء، حتى أن تحميكم داخل بيوتكم؟

- لست في حرب ضد أحد. بيّنوا لي عدوّي المفترض وسأقف معكم. الصدفة هي التي وضعتني في مكان، ووضعتْ غيري في مكان آخر.

- أنت ترى هذا العدو يقتل يومياً الناس، وتسألني؟

- إنه بدون وجه أو بِكَمٍّ لا يُعد من الأقنعة.

- أنت مسؤول عن نفسك وعن عائلتك وعن صيدلية ابنتك أيضاً.

ثم خرج غاضباً.

ظلّت كلمات والدي الحزينة تطن في رأسي: من أراد أن يقتلني فليأت. قاتلت عدواً خارجياً زمناً طويلاً وكرهت الدم

وعفن الأجساد المتفسخة ظلماً. أتساءل أحياناً كيف قبل هذا الرجل أن يترك مخابر مبير الشهيرة في نيويورك وباريس وبون، ويعود إلى أرض قاتلة كان يهرب منها الناس. يغادرها بلا رجعة، كل من وجد فرصة للهرب؟

أمي فريجا التي أصبحت في تسمياتي فرجينيا ثم فيرجي اختصاراً، كانت قد بدأت تدخل في عزلتها التي ستحولها إلى كائن غريب وكأنه ليس من هذه الأرض. أما أنا فقد انكببت على القراءة لكي أنسى أن حياة مادية يومية كانت قاتلة، وكنت مجبرة على عيشها، وحياة افتراضية لم أجدها إلاَّ في الكتب ومع فاوست، وكنت سعيدة بها جداً.

– كان يجب أن تقاتلي.

جاءني همسه في إحدى الليالي الباردة وكنت مشتهية أن أسمعه، أراه وألمسه، ليغرقني في موجتي الزرقاء. ويملأ عليَّ آخر الليلة، ككل الليالي المخيفة بذعرها.

- أقاتل من؟
- من يقاتلك؟
- لا أعرفه. لا يملك وجهاً. كلما اقتربت منه وجدتُ قناعاً على قناع وبدا لي كل الناس مجرمين وأبرياء في الوقت نفسه.

- واضح إلا لمن أراد أن لا يعرفه.

- على كل. أنا لم أقتل بعوضة في حياتي على الرغم من أني أكره هذا الحيوان تحديداً، هو والصراصير، ولا أعرف السبب.

- لم يكن المطلوب منك قتل الحشرات، ولكن قتلة كانوا يعيثون فساداً في البلاد. أبوك لم يكن على حق أبداً. كان يجب أن ينتفض بوضوح.

- ضد من ينتفض؟ من على حق، ومن على باطل يا حبيبي؟ من خرج وحمى نفسه ومحيطه؟ أم من بقي يحارب طواحين الهواء، رهانه الوحيد ودفاعه الأوحد عن نفسه وحتى عن صمته لأنه بقي في البلاد؟ يركض بين الموت والموت، والصدفة والصدفة، والخوف والخوف، فقط ليقتنع أنه لا يزال حيّاً.

صمتت الحروف قليلاً. ثم انطفأ كل شيء فجأة. عرفت بسرعة أن عزيزي فاوست كان في حالة غضب مني، مع أني كنت أتكلم معه بقلبي فقط بعد أن تعطّل عقلي. تركته على راحته، ولم أحاول أبداً أن أخرجه من شجنه.

بعد لحظات طالت قليلاً، كتبتُ له كلمات أخرى لأدفئ وحدته وشجنه.

- حبيبي. قلت لك منذ البداية أنا هكذا. عاجزة عن قتل حشرة، فلا تحاسبني بقسوة.

فجأة قفز أمام عيني وجه جدتي الذي يحتل خلفية الحاسوب الزرقاء.

عندما كنت صغيرة، أدخلت جدتي في دماغي فكرةَ أن الكائنات الصغيرة من البعوضة حتى الفيل، هي عبارة عن أرواح حية رزقها الله أكثر الحواس حِدّة وحيوية، أحياناً أكثر من البشر. كل مس بأي منها هو مس بالحياة التي قدسها الله. هي نفس كما النفس الإنسانية. كررت عليَّ الآية حتى حفظتها عن ظهر قلب: «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً». وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً[٢٨]. كلام جدتي جعلني أرأف بالحيوانات. بعضها لا أحبّه أصلاً فلا ألتفت نحوه، والبعض الآخر أنفّذ فيه وصايا الجدة باستقامة. حتى تلك المهددة بالموت أو تلك التي أجدها مجروحة من قطط وطيور وحشرات صغيرة أحاول إسعافها. في إحدى المرات قضيت شهراً بكامله وأنا أرقّع رجل عصفورة مجروحة، لما بدأت تتحرك بحرية أكثر، تدحرجت نحو قطّ البيت، فكسر رقبتها وأكلها، وعندما عدت من المدرسة لم أجد

(٢٨) سورة المائدة، الآية ٣٢.

إلا بعض ريشها. ربما كان هذا منطق الحياة الذي نرفضه. القويُّ يأكل الضعيف، والإنسان لن يشذَّ عن هذه القاعدة المترسِّخة في الطبيعة.

حساسيتي المفرطة كانت تجاه الفراشات. لا أدري من أين جاءني هذا. ربما من أمّي لأن جدّتي لم تكن مصابة بهذا الجنون مثل أمي. حكت لي فيرجي أنها في مرة من المرات ضاعت وهي تركض في ضيعة جدها، وراء الفراشات التي منحها الربيع يومها كل الألوان الزاهية. وأنها كانت تحزن على موتها السريع أو انكسار أجنحتها أو احتراقها على القناديل القوية... كلما حاولت إسعاف بعضها تطايرت ألوانها في شكل غبار ليتحول بعد ذلك جناحاها الأبيضان إلى كفن صغير يلف في بياضه جسدها العاري بعد أن تنسحب كل الألوان. أقتربُ منها. أحاول أن أخفف عليها حزنها. تدوَر الفراشة المحروقة عينيها صوبي بحزن لتشكرني ثم تتمادى في صمتها وسهوها حتى الموت دون أن ترف بجناحيها. تأكد لي مع الزمن أن الفراشة لا تتحمل العيش بلا ألوانها الأصلية لأني حتى عندما حاولت في صغري، أن ألون أجنحتها البيضاء ماتت بين يدي.

أعتقد أنها لعنة فيرجي. ملتبسة باللون لدرجة أني لا أرى الحياة بدونه. كنت على يقين بأن القتلة لن ينجحوا في

مسعاهم الدَّموي، ولن يفلحوا في بسط الظلمة على البلاد لسبب ساذج وحقيقي، هو أن الحياة في هذه البلاد مثل الفراشة، لا تقبل أن تعيش في سكينة الوحدة القاتلة، بلا لون ولا سماء ولا بحر والحقول لا عطر برتقال ولا ليمون ووو...

كنت أظن أني معنية بكل النفوس التي تحيط بي وعليَّ أن أسهر عليها حتى حوَّلتني أختي كوزيت إلى مصدر لا ينضب لنكتها الكثيرة. لكن عندما قُتِل بابا زوربا، أمام عينيَّ، أصبحتُ أفكر في الحياة بشكل آخر، وتصلَّب قلبي قليلاً. أخطر شيء في الحروب الصامتة أن يخسر الإنسان الألوان التي في أعماقه وقلبه الحي، ويتحول إلى مجرد دودة قاتلة وناخرة بسرية لأكثر العظام قوة صلابة.

كنت ومازلت أرفض أن أكون دودة.

-٢-

بابا زبير سميته بابا زوربا لأني كنت أشعر دائماً بأن اسم زبير إجحاف في حقه. زبير، بدا لي دوماً اسم رجل محارب وصحراوي، قاسي القلب والروح. أما والدي فقد كان على العكس من ذلك، عاشقاً للحياة، ورجل علم واستقامة كلفته حياته. جنوني قادني إلى البحث في حياة الزبير بن العوام، الأسدي القرشي. عرفت مثلاً أنه ولد في ٥٩٤م وتوفِّي في ٦٥٦م. ما يعنيني بعملية حسابية بسيطة أنه عاش ٦٢ عاماً. كنت أريد لوالدي عمراً أطول وأجمل. أسلم الزبير بن العوام وعمره خمس عشرة سنة. كان ممن هاجر إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة مقتفياً خطوات الرسول. تزوج أسماء بنت أبي بكر. شهد معركة بدر وجميع الغزوات التي قادها الرسول. كان مرافقاً للخليفة عمر بن الخطاب ورسوله في المدد. شجاعته كانت استثنائية كما يحكي عنه الأولون. ولما اغتال أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب، كان الزبير من الستة أصحاب الشورى الذين عهد عمر إلى أحدهم بشؤون الخلافة من بعده. وجدت معلومة أخرى أنبتت الشوك في لحمي، وأعطتني كل المبررات لتغيير اسم والدي. كان الزبير بن العوام من أمهر وأفضل الفرسان

في زمانه، وكان لا يجاريه في الفروسية إلا خالد بن الوليد. كانا الوحيدين اللذين يقاتلان بسيفين في اللحظة نفسها. ولا تراه فوق حصانه لأنه كان يملك مهارة الركض بالحصان والتخفي بجانبه حتى يفاجئ ضحيته بطعنه خاطفة ثم قطع الرأس في لمح البصر... قطع الرأس في لمح البصر واوووووو. لا. كنت أريد لبابا زبير حياة أخرى غير حياة الحروب التي يكرهها. قدر زوربا الإغريقي الذي عاش الحياة بكل عنفوانها السخي.

بابا زوربا.

أتساءل أحياناً من أين جاءتني لعبة الأسماء؟ ربما من كثرة ما قرأت؟ لكن المؤكد أيضاً من والدي، بابا زوربا. سمّى أختي التوأم ماريا، وسمّاني أنا ياما. لم أفهم إلا فيما بعد أنه قسمنا من أجل امرأة واحدة سكنت روحه. مريم. كنا توأمين فماذا يفعل؟ فجأة لمعت في رأسه فكرة مجنونة: قال لي عندما تجمعين بين ماريا وياما تحصلين على ماريامـا. نظرت إلى عينيه المشعتين بنور عشقي غريب.

– بابا؟ كل هذا الجهد وهذا الذكاء من أجل ذكرى فقط؟

- لا ليس ذكاء ولا أي شيء عظيم. فقد اتخذت قراراً

جميلاً مع أمك. أن نُسَمِّيَ البنت الأولى مريم ونسمي الابن الأول على جدها الحاج نعمان. لنحفظ الذكرى. ولكنكما جئتما مع بعض وكنت سعيداً بكما. جاء بعدكما أخوكما فاجتهدنا في اسمه من نعمان التقليدي إلى رايان. ولو أن فريجة كانت دائماً تعقّد الأمور، ولكنها قبلت بالتسميات في النهاية.

- يا بابا والله وجدتها. على كل أنا أحب اسم ياما ويناسبني جداً. فيه عطر آسيوي Yama غريب، أحبه جداً. أشعر بأن الاسم جميل وموضوع على مقاسي.

- الصدف دائماً غريبة. اشتغلت معي في أحد المخابر الفرنسية امرأة تدعى ميشي ياما وكنا نناديها ياما، كان ذلك أسهل للجميع. كانت صديقة لسكرتيرتي اليابانية أمايا شيساتو[٢٩].

- هل تحب اسمك. زبير؟

- ليس كثيراً. ولكن...

- وماذا كنت تشتهي.

صمت قليلاً وبدون تفكير انفجر ضاحكاً. وكان قد انتهى من قراءة رواية زوربا لنيكوس كزانتزاكي، التي اشتريتها له

(٢٩) أمايا Amaya وتعني في اليابانية مطر الليل، وشيساتو Chisato تعني الأرض الأم.

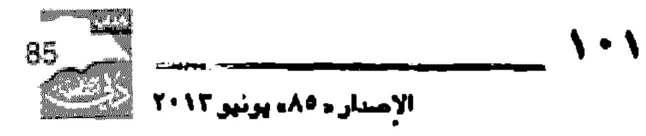
خصيصاً، لتغيير نمطية جهوده المخبرية وقلقه وتعويده على الاسم الذي كان يدور في رأسي المثقل بالتفاصيل القلقة.

- زوربا مثلاً هههه في يوم من الأيام سأرقص لك رقصته هههه.
- ما نحبش اسم زبير، يبدو لي محارباً فجّاً.
- هناك من زبير من يكرهون الحروب حبيبتي ياما.
- على كل وجدت أن زوربا يركب عليك جيداً هههه. "

لم يكن يعرف أنه وضعني على السكة وهو يتحدث بحماس عن رواية زوربا.

شعرت فجأة بانتشاء، لأني باسم زوربا انتقمت لوالدي من الاسم الذي ألصقه جدي على ظهره.

عندما حكيت لصديقتي سيرين، التي تسألني عنه دائماً بالتليفون والفيسبوك. الوحيدة التي بقي لدي تليفونها. حتى صديقي فاوست لا أملك تليفونه. يقول إنه يخاف عليَّ من الرقابة. مساحتنا الوحيدة والمشتركة للاتصال هي الفيسبوك. ولا شيء غير الفيسبوك. جنتنا أو مملكة الفراشة الهشة. عندما حكيت لسيرين أم الخير أن اسم والدي لا يعجبني لأنه جد ثقيل على اللسان، وأنه يستحق أفضل من ذلك، نهرتني وهي تنظر إلى عينيَّ حيث بدوت لها لحظتها شيطاناً رجيماً:



– عيب. حراااام.

- ما فهمت يا سيرين؟

- هل تعرفين من هو الزبير بن العوام؟ خسارة عليك. من حظّك أنك صديقتي الطيبة والمخلصة، وإلا كنت قاطعتك نهائياً. لو لم تكوني مهووسة بالثقافة الغربية، لكنتِ سيّدة الخير والمحبة لأن. طيبتك الداخلية أقوى من العفريت الذي يركبك من حين لآخر.

- لكني لا أريد لوالدي أن يكون الزبير بن العوام. لا أكره هذا الصحابي أبداً، ولكني أكره الحروب، وأكره الاستشهاد وأمقت الدم. ماذا جنينا من وراء ذلك كله؟ لا شيء سوى حزن كبير وغير رحيم. خسرنا كل شيء. وكأن قدر الناس أن يموتوا من أجل قضية، يأتي بعدهم من يمحو كل شيء عن تفاصيلها، ويبدأ من الصفر وينشئ أقادراً جديدة يذهب ضحيتها الآلاف وربما الملايين.

- لكنه اسم يكرمه ويعليه.

- لا شيء يكرم الإنسان إلا حبه للآخرين. أريد أن يكون والدي إنساناً بسيطاً وجميلاً كما كان دائماً، راقصاً ومهبولاً على الحياة، يشد عليها بأظافره وأسنانه. مثل زوربا. اسم الزبير خطأ، لا يركب على والدي على الأقل. أراه دائماً كأنه يعوم في سروال ليس له. أشعر بمسافة بينه وبين اسمه.

- من هذا الزوربا اللي أكل عقلك؟
- هو غير موجود في النهاية، مجرد مجنون افتراضي.
- لم أفهم؟ من خيالك يعني؟
- لا، من خيال نيكوس كزانتزاكي. كاتب يوناني عظيم. ساحر. قرأته فانبهرت بزوربا وسحرت بسيرته الذاتية التي تمنيت لو تمكنت من عيش ربعها: تقرير إلى غريكو.
- أمري لله، سأقرأها. أعرف أنك عندما تلحين على شيء، هذا يعني أنك مضروبة عليه.

ثم سلمتُها رواية ألكسيس زوربا. أعادتها لي بعد يومين وهي تبسمل وتحوقل.

- بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. أبوك حاشا أن يكون مثل هذا الزوربا المضروب على النساء. يا إلهي؟ واش به هذا المهبول؟ ما يطلق لا صغيرة ولا كبيرة، لا عايبة ولا صحيحة، لا مجنونة ولا عاقلة؟ عمي الزبير يا أختي ناس ملاح لا يشبه في شيء هذا المصروع والمهبول.
- وين المشكل إذا كانت النساء تبادلن زوربا الحب والسرير وشهوات الدنيا الجميلة؟ هنَّ يردن ذلك لأنهن لا يشعرن بالأمان إلاّ في أحضانه. أي شيء يقلقك في هذا؟

- ما يعرفش قدره. زوربا هذا رجل بلا مخ وفاسق. على الأقل كان يشوف امرأة توالمه لسنه. يتصابى على المراهقات والأرامل والعشيقات التائهات.

ضحكتُ. أردتُ أن أغير المأتمية التي فرضتْها على نقاشنا.

- هو يحب اللي تهبله في الفراش، مش واحدة تذكره في كل ثانية بأوقات الوضوء، والصلاة والموت وعذاب القبر.. ومشاغل القيامة وأهوالها ههههه.

- ياما... أختي... الله يهديك للخير؟ استغفري ربك. أنا لم أقل هذا. ولكن على الأقل شوية للرب، وشوية للعبد. أن يوازن الإنسان بين دنياه وأخراه.

سيرين هكذا. طيبة جداً، ولكن جرعة زوربا كانت قوية على طاقة تحملها. حلم سيرين أم الخير الأكبر هو أن تتزوج وتنجب، وتغادر هذه البلاد التي أتعبتها في كل شيء. طلبها ليس كبيراً ولا مستحيلاً كما كانت تكرر دائماً. تقبل بأي شخص يريدها. تحب أي رجل يريدها بشروط مخففة؟

- الرجل رجل مهما كان قبحه أو جماله.

- الناس لا يتشابهون حبيبتي.

- يجب أن يكون من يتقدَم لي في سِنّي، أو يكبرني بخمس سنوات. سُنّي المذهب. مالكي. يخاف ربي. يخلَيني

أعمل وأعيل أمي وإخوتي. أرفض السلفية المقيتة. طبعاً يجب أن يكون غنياً. هذا مهم جداً. ما نحبش نعيش الميزيرية[30] اللي عشتها مع بابا ويما.

أضحك منها:

- شروط بسيطة. مخفّفة هههههه. صحيح. تحتاجين إلى أن تبحثي عن هذا المخلوق في كتب الأساطير النادرة. يبدو لي حبيبتي أنه مستحيل الوجود.

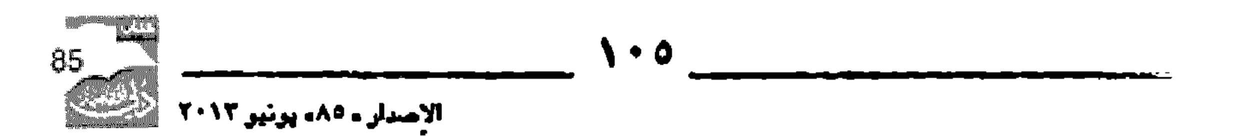
- راح يجي مع شوية حظ وصبر. أنا متيقنة من ذلك. ملائكتي طيبة ويحبونني. «

يبدو أنَّ ملائكتها تعبت أيضاً من شروطها. كبرت سيرين بسرعة وبدأت علامات الحرب الأهلية والحرب الصامتة ترتسم على محياها في شكل تجاعيد خفيفة، ولكنها تتعمق بسرعة كلما كانت متعبة أو في مرحلة العادة الشهرية، والعريس لم يظهر له أي أثر في الأفق.

مشكلة سيرين الكبرى هي أن الكثيرين ممن تقدموا لها، عادوا خاسرين. عبثية شروطها حرمتها من زواج كانت تريده. إذا كان سُنّياً وغنياً فهو ليس مالكياً. وإذا كان غنيا، ميوله شيعية. طيب وجميل ولكن يكبرها بعشر سنوات. كل الصفات

---

(٣٠) من كلمة ذات أصل فرنسي Misère وتعني البؤس والفقر.



متوفرة لكن أمه رومية. آخر واحد كادت تنقاد له، كان مسلماً وسنياً ومالكياً وحاجّاً، خمس مرات، لكنه متزوج من تسع نساء. في عنقه أربع. مستعد أن يطلّق واحدة ويتزوجها هي لكن عرفياً، أي بالفاتحة فقط، ويتركها في المدينة ليعود إلى صحرائه ونخيله وجماله، ويراها كلما وفد على العاصمة.

– أنا مؤمنة بأن ربي سيأتيني بزوجي من أذنيه حتى لدار عائلتي.

- أنت شابة وجميلة. لكن جسدك مسجون.

- من هذه الناحية ما تخافيش. رحمة ربي كبيرة وواسعة. ويصرّف كل الشهوات الصعبة حيث لا ننتظر. لا يخلف مطلقاً لعبده وعداً.

- لم أفهم جيداً. يبعث لك ملاكاً شهياً؟.

قلتها بسخرية ولم أكن أظن أن سيرين كانت مؤمنة حتى العظم بذلك.

- أدرك أنك تعرفين ذلك كله. تحتاجين فقط إلى توبة نصوح. الملائكة تقوم بواجباتها عند الضرورة ولا تترك المؤمن أو المؤمنة ينتظران في الفراغ.

- لم أفهمك جيداً يا سيرين؟

– بسيطة حبيبتي. في كل ليلة عندما تكبر شهواتي وتفيض عليَّ، أصبر ولا أسقط في الرذيلة. أستحم وأتعطر كما

تفعل أية امرأة معشوقة مع بعلها. ثم أنام مهيأة بجنون الرغبة. وهذا ليس حراماً أبداً، كل شرائع الدنيا تحل الاستحلامات. بمجرد أن أغمض عينيَّ، في إغفاءاتي الأولى، حتى يرتادني ملاك الرغبة أو هكذا أتخيله على الأقل. فيسحبني نحوه بجنون العاشق. يحبني كما تحب الملائكة بعضها بعضاً. يوقظ كل الجنون الذي في داخلي حتى أشعر بجسدي مفككاً كلياً. فأدخل معه في دوار مدهش ينسيني الأرض ومن عليها. في الصباح أقوم ممتلئة بنوره، منزهة عن كل الرجال الذين لا نرى منهم إلا الشر والخطيئة. في بعض الأحيان، يأتيني بلا رغبة مني. فأرفضه. يغضب مني طويلاً ولا يلتفت نحوي على الرغم من نداءاتي الداخلية في الليالي التالية. غضب الملائكة صعب. بعدها تؤذيه عزلتي، فيرأف لحالي، فأشعر بنفسي، من فرط السعادة، ورقة في مهب العشق.

اندهشت لأن ما سمعته من سيرين أدهشني وأخافني. كان غريباً عليَّ. حتى هي، المرأة المتوازنة في الظاهر على الأقل، حولتها الحرب الصامتة ودفعت بها نحو عزلتها لتعيش خلوة غريبة كانت الوحيدة من يعرف سرّها.

– وهل كان يأتيك هذا الملاك كل ليلة؟

– كلما فاض الجسد بالرغبة أو بحالات الاشتهاء التي تنتاب أي إنسان في لحظات الوجدان التي تصعب مقاومتها. انغمسُ

فيها وأصرّفُ جموح الرغبة بشكل لا يؤذيني أبداً. أنا لا أبدع شيئاً، يكفي أن تقرئي ابن سيرين لتكتشفي أن الأحلام هي سمو للروح من مضار الدنيا التي تطوقنا.

– طيب. فهمت. ويكارتك؟

تضحك سيرين من بلادتي.

– يا حبيبتي، المسافة بيننا كبيرة. أنت تفكرين بمنطق بشري قاصر ومحدود. الملائكة ليست بشراً حتى في عنفوانها ولذّتها. شيء آخر، أكبر وأجمل وأبهى وأنقى.

– ممكن تفصّلي لي شوية؟ لم أستوعب.

-أعرف أنك خارج هذا العالم، مع أنه ينام في عمقك أنت أيضاً. بعد حالات البهاء التي تعيشها المعشوقة مع ملاكها، يمرّر هذا الأخير أنامله الناعمة النورانية على الجرح فتلتئم الغشاوة ولا تبقى على الجسد المتعب بسعادته إلا الكدمات الزرقاء التي تتحول إلى علامات تفتخر بها المرأة التي كان لها حظ ملاقاة ملاكها، أمام النساء اللواتي يحسدنها على هذه النعمة التي لا يمنحها الله إلا للأوفياء من عبيده الميامين، درءا لشبهة الغواية.

- ياااااه أي حظ. لست بنعمتك. أنا حظي قليل أو صفر. ملاكي يزورني في مملكتي الزرقاء. أعرف وجهه من صورته. لكني كلما حاولت أن ألمسه، هرب مني وتحول إلى مجرد

صورة في المساحة الزرقاء. في الفيسبوك. واحد ربي أعطاه، وواحد حرمه. تسلفي لي ملاكك ليلة واحدة وأرده لك في الصباح التالي؟ هههههه.

قلت ساخرة. أجابت بجدية فيها بعض التعنيف.

- شروطه قاسية.

- يعني.

- تقلعين عن المسيحية واليهودية وتعودين إلى دينك.

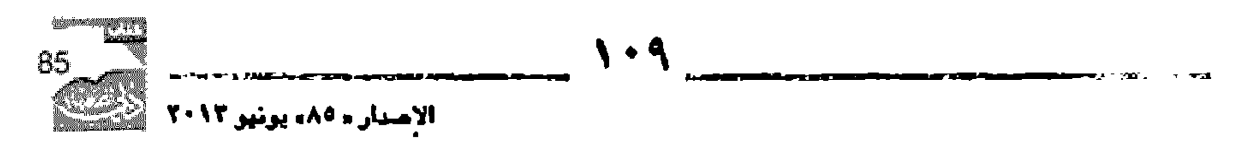
- لست لا هذه ولا تلك.

- أعرف طبعاً. ولكني أتحدث عن ثقافتك المستغربة، وملبسك الذي يثير الناظرين. أنت جميلة. أنت فتنة. كل من رآك اشتهاك فعرّاك بعينيه. مأكلك وبالخصوص قراءاتك الخطيرة. أمامك القرآن العظيم. كافٍ شافٍ ولا تحتاجين لقراءة غيره.

كنت في أعماقي أشفق عليها كما كانت تشفق على مآلي. كانت امرأة سجينة نفسها وكنت بلا قيد.

- أقرأه من حين لآخر عندما تنغلق سبل الدنيا في وجهي. أجد في القرآن الكريم بعض الراحة. عندما أسمع أنين عبد الباسط عبد الصمد يركبني حنين غريب إلى شيء غامض.

- الكثير من فقهاء السلفية المتطرفة لا يجيزونه لأن صوته أنثوي كثيراً، ويثير الغرائز. هكذا يقولون. أنا أيضاً أحبه. أقلعي عن الروايات، فهي حرام في حرام. عن المسرح.



عن الفنون. عن الرياضة التي قال عنها الشيخ عايض القرني:
ألا لعنة الله على الرياضة. كلها موبقات خطيرة.

- وماذا أبقيتِ لي يا عزيزتي سيرين؟ لا. الله يخليك لملاكك أو ملائكتك. هم كثر أم واحد؟

– ابن سيرين يذكر عددهم وأسماءهم بالتفصيل الدقيق. للملائكة سحر خاص. لا يؤذون مثلما يؤذي البشر بعضهم بعضاً. أحياناً يأتون مجتمعين ويمنحونني المتعة بسخاء كبير. واحد أنيق في قبله، وآخر ناعم في ملمسه، وثالث مدهش بحنانه وخوفه عليّ. وسيدهم من يتحسّس بأنامله مكن الحواس لاستثارتها. وعندما أغرق في دوار اللذة، يسحبني أقواهم نحوه داخل نوره المبهر ويضمني بقوة، فأبدو على صدره حمامة سعيدة بما يحدث لها، ترفرف بعينيها المليئتين بالرغبة، طلبا للمزيد. ولا يتخلى عني إلا عندما يغرقني في بهاء نوره كلياً فأتماهى معه حدّ التلاشي. عندما ينسحب عن جسدي، تأتي الملائكة الأخرى وترشّ على وجهي رحيق الزهر وعود النوار وماء البرتقال وروح البنفسج. وقبل أن أفتح عيني وأشبع نظري بهم، تأتي أمّي بصراخها المعتاد، فتسبق الجميع في إيقاظي. أكاد أغضب منها، ولكني في النهاية، أجد لها الأعذار الكافية لأنها لا تعرف من أية جنة

سحبتني. غيرت من عاداتي قليلا مع الزمن. كلما وصلت إلى سقف الرغبة لا أصرخ كما كنت أفعل، ولكني أكزّ على أسناني حتى لا تحرمني أمّي من لحظات الجنون الأخيرة بين أيدي الملائكة. في النهاية يحمّمني أصغر الملائكة وألطفهم ويلفّني داخل فوطة بيضاء من حرير، بها رائحة الكافور والزعتر، ويتركني أرتاح حتى تصيبني الإغفاءة اللذيذة داخل النوم، قبل أن أقوم مع الفجر للصلاة.

– تتوضأين؟

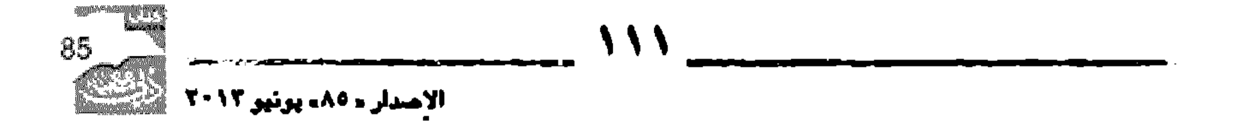
- لا أحتاج إلى ذلك بعد حمام الملائكة الذي يزيل عنا كل شيء.

- صحيح. وهل هناك أجمل وأنظف وأبهى من دفء وحمّام الملائكة؟

- ربي يرزقك هذه الملائكة وستقلعين عن هذه الدنيا الفانية نهائياً.

- معك حق. مازلت أركض وراء صورة لا معنى.

فجأة تنتشي سيرين أم الخير باستسلامي لها، وتبرق بقوة عيناها الناعستان كأنها انتصرت أخيراً على الشيطان الذي سكنني على غفلة من طيبتي، قبل أن ينام فيّ. لكنها سرعان ما تصاب بخيبة في الزيارة التالية، عندما تجدني كعادتي



اما غارقة في موسيقا كيني دجي، أو نائمة على الكلارينات أو متماهية مع رواية جديدة، ولا ألتفت نحوها إلا عندما أنتهي من قراءة الجملة التي أكون فيها، فأنا لا أريد الأشياء التي تظل معلقة، أفضل السقوط مرة واحدة والتشظي نهائياً مثل إناء فخاري ناعم على أن أظل متدحرجة في الهواء. وربما كان هذا هو سبب خلافاتي العابرة مع فاوست. فتدرك سيرين أخيراً أنه ميؤوس من شفائي نهائياً. وأني مازلت حبيسة القراءة الهالكة كما تقول، ومملكتي الزرقاء وجنوني الباطني الذي لا سلطان لي عليه.

-٣-

موسيقا الجنة الرومانتيكية[٣١] كانت تأخذني وتسحبني بعيداً لتقذف بي في غيمة.

أسمع المطر في الخارج وهو ينقر الزجاج المطل على البحر. يتراءى لي الجسر البعيد الذي لم يبق منه الشيء الكثير إلا العسس ومئات القطع الخشبية التي تربط شمال المدينة بجنوبها. حتى أضواءه خفتت. في الأيام الصعبة كنت أقول في خاطري من المستحيل أن تستسلم هذه المدينة للقتلة. في أيام الحرب الصامتة لم أعد أعرف هذه المدينة ولا أعرف بالضبط ماذا تريد؟ ألم تنته الحرب الأهلية؟ أتساءل بحسرة. طيب لماذا لا يعرف الناس ولو قليلاً من الفرح؟ لماذا تغلق المدينة أبوابها على الخامسة مساء؟ لماذا لا أرى في عمق عيون الناس إلا الحيرة والمبهم؟ ثم... لماذا يتفادى الناس عبور الجسر من شمال المدينة لجنوبها أومن جنوبها نحو شمالها؟ أصبح كل واحد في مكانه وكأن البلاد، بلادان.

عندما سمعت رشقات الرصاص تأتي من بعيد، درتُ إلى الخلف وأنا في مكتب والدي. إلى حائط بابا زوريا. لم أر شيئاً ولا حتى الهارمونيكا ولا اللوحات والصور. رأيت فقط والدي

(٣١) Romantic Paradise. André Rieu.

وهو ينظر إليَّ بعينين هادئتين ولكن حزينتين. ضحكت في أعماقي. انفلتت مني جملة لم يسمعها إلاَّ أنا:

– واش به زوريا حبيبي؟

باستثناء جنون الأسماء الذي ينتابني، لا أدري إن كان والدي يشبه حقيقة زوريا، لكن به شيئاً من روحه وعبثيته. كان مثلاً جاداً في حياته وفي عمله، لكنه في الوقت لم يكن مصراً على الحياة بأيِّ ثمن؟ لا يراها إلا في امتلائها وإلا فلا قيمة لها. مات بابا زوريا عند العتبة الخارجية لبيتنا، في حرب لا يدري إن كانت عادلة أم لا. كان يرفض أن يسميها الحرب الأهلية، لأنه كان يجد في كلمة الأهلية شيئاً من العطف والحنان. كان يقول هذه حرب قذرة. مركبة ومميتة وبآلاف الأقنعة. حرب ضد الأهالي. Ce n'est pas une guerre civile , mais contre les civiles. لكنه عندما ينغلق مخه ويتعب كثيراً من كثرة التفكير، كان يسميها ببساطة حرب القتلة.

– حقيقة قتلة. يصبح فيها الموت حالة عبث، والميت لا يصبح شهيداً إلا بقدر انتسابه للجماعة المنتصرة. وإذا مات خارجها، أو حتى خارج الجماعة المنهزمة، فهو لا شيء، وعليه أن يجد حفرة يضع فيها جثته، بسرعة وبسرية حتى لا تأكله الذئاب والكلاب الضالة، بلا أعلام ولا أناشيد وطنية ولا اعتراف.

كثيراً ما يُنسى تقييده في سجلات الوفيات لأن لا أحد معني به، وليس موجوداً أصلاً.

بابا زوربا كان يعرف أكثر من الحدّ المسموح به معرفته.

لم أستطع أن أفعل حياله الشيء الكثير.

خرج بابا زوربا من هذه الحياة بصمت غريب. لم أصدق يومها أن الرصاصة التي وجهت لبابا زوربا كانت قاتلة وحقيقية. كنتُ بالقرب منه. أودعه عند الباب. كأن القناص كان رحيماً إذ أمهله حتى قبّلني على جبهتي وضمني إلى صدره للحظات وهمس في أذني مثلما تعود أن يفعل في كل صباح: عينك على نفسك وعلى أمك، حبيبتي. وبعدها أطلق النار. لم أسمع أي صوت للطلق الناري. رأيت فقط ارتسام خط أحمر على جبهته في البداية قبل أن يفيض الدم على وجهه. سقط وهو يحاول أن يلتفت نحوي في حركة جد صعبة ظننت فيها للحظات، أن والدي كان يرسم بجسده المتمايل، أشكالاً بالحركات البطيئة. تدحرج رأسه، ثم لاحت يداه في الفراغ. مدّ يده إلى جبهته بصعوبة كبيرة قبل أن يتكئ بظهره على الحائط. ليرتسم في ذهني لحظتها، بشكل غريب، أرسطو الشاب وهو جالس على كرسيه المريح، ضاماً رجليه إلى بعضهما بعد أن وضع عليهما ورق البردي. قبل أن أراه في شكل منحوتة المفكر،



لأوغست رودان[٣٢]. على وجهه حيرة كبيرة، تشبه حيرة الشاعر دانتي وهو أمام بوابات جهنم الثقيلة. ثم اتخذ والدي تفادياً للسقوط الغبي، وضعية القرفصاء وأسند ظهره على الحائط للمرة الأخيرة. كان يريد أن يقول لي شيئاً، ولكن الرصاصة لم تمهله. لم أفهم ما كان يحدث أمام عيني. مازلت على يقين أني يومها لم أسمع أي صوت للرصاص. رحت أحدثه وأحاول أن أقومه:

– بابا قم. بابا حبيبي...

زاد الدم على جبهته. ثم بدأ يخرج من فمه بقوة.

- بابا أنا ياما. قم. قم. أرجوووووك...

ثم صرخت بكل ما أوتيت من قوة حتى انطفأ صوتي:

- باباااااااااااااااااااااااااااااااااا

لم يسمعني أحد ولا حتّى هو. أغمض عينيه، ولكنهما لم تنغلقا كلياً كما تعود في نومه.

حاولت أن أحركه. لكني لم أستطع وكأنه التصق بالحائط الذي اتكأ عليه. كان فمه نصف مفتوح على كلمات لم تخرج وظلت عالقة بحشرجاته الأخيرة. أمد اليوم كل ما أملك من عمر، مقابل أن أسمع والدي يقول لي ما كان يريد قوله لي لحظتها. كانت عيناه نصف مفتوحتين. ماذا رأتا وهما مرتشقتان نحو

(٣٢) Auguste Rodin, le Penseur.

أعالي البيت؟ هل كان يريد أن يلعن السماء على خديعتها، أم ينتظر منها أن تعيده للحياة، أم أنه كان يريد أن يثبت نظره حتى آخر لحظة، في عيني قاتله الذي كان من الذين يبيتون يركضون فوق السطوح.

كان بابا زوريا يحبني، وكنت أبدو له أكثر رزانة وأكثر هشاشة من أختي ماريا التي تعرف مصلحتها جيداً، التي كنت أبدو لها دائماً بهلولة لا تعرف كيف تدافع عن حقها. ورثتُ كل صفات الهبال من أمي والاستقامة والنية الطيبة من أبي.

ينصحني بابا زوريا دائماً قبل أن أغرق في الكمبيوتر.

- ياما حبيبتي. قلّلي من الغرق في الفيسبوك. مملكة مارك زوكريبرغ الزرقاء جميلة لكنها ليست هي الحياة كلها. بل يمكن أن يصبح إدمانها خطيراً.

- هي مملكته يا باب، ونحن فراشاته ونحله هههه. طيب، قل أي خطر تراه في ذلك؟

- الأقدار المرتسمة فيه تلحق بنا بسرعة. خل الحياة متوازنة. بين حياة ملموسة، وحياة نصنعها بخيالاتنا. الكثير من اللحظات ليست طبيعية في هذه المملكة.

لم يعطني مرة واحدة مثال أمي التي غرقت في خيالاتها حتى التصق كل شيء ببعضه وأصبح جنوناً كلياً، نرفضه جميعاً

بينما كانت أمي تعيشه وفق شهواتها. لا أدري لماذا؟ حتى أنا عندما ينتابني مثالها، أصمت. أهرب منه. هل أمي قتلتها القراءة وهبَّلتها؟ أبي كان يشبهني كثيراً أو بالأحرى كنت أشبهه بقوة. أشعر بتقاطعات غريبة مع تفكيره.

- أكون جدية معك... الحياة الافتراضية يا بابا ليست سيئة أمام حياة معطرة بالموت والدم والأشلاء ومعطوبة في الصميم. جميلة لأنها تشعرني بأننا مازلنا على قيد الحياة وأن قابليتنا للحلم لم تمت. الكثير من الحيوات يا بابا تمر بالضرورة عبر القراءة وعبر هذه العوالم السهلة والجميلة.

- ليست تاريخاً.

- نقض للتاريخ يا بابا. على الأقل التاريخ الذي عرفناه.

- وهل هناك يا ياما حبيبتي غير تاريخ المنتصرين؟

- يا بابا كلهم منتصرون، وكلهم منهزمون. المنهزم الوحيد في مثل هذه الحروب هم نحن لأننا نرى أكثر مما يجب، ونصرخ أكثر مما يجب، وربما نحب أيضاً أكثر مما يجب.

يوم مات بابا زوربا لم يتغير شيء في العالم. بكينا أنا وأمي

وأختي ماريا التي جاءت من مونتريال، ثم اندفن كل واحد في مكانه الأول. وعلى الرغم من انتهاء الحرب الأهلية، لم يكن وراء جنازته سوى مجموعة صغيرة كان على رأسها إمام المنطقة الشمالية، الذي حرمني من السير في الركب أنا وأمي بحجة أنه لا يحق للمرأة حضور الدفن. كدتُ أُجن. من يكون هذا اليائس ليسرق مني أبي؟ صرخت في وجه أمي التي استسلمت وبقيت في البيت. بدأت أدور في مكان في باحة الدار. كانت تصلني أصداء الناس ونداءاتهم التي لا نسمعها إلا في الجنازات: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. لا إله إلا الله. محمد رسول الله... فجأة انتابتني فكرة مجنونة لم أفكر فيها من قبل. لبست جلابية رجالية كانت في الخزانة، أعتقد أنها لجدي. كانت بها رائحة قوية من الكافور. ثم ركضت وراء الجنازة، يتبعني كلبي روكي. شعرت فجأة براحة كبيرة عندما وقفت وراء الموكب. كان رأسي مغلفاً في قلمونة الجلابية. وضعت على فمي شالاً طوارقياً أزرق. رأيت الكثير من الناس الذين أعرفهم، حتى مدير مخبر السلام الذي كان والدي يكرهه ويحمله مسؤولية التعامل مع مخابر صينية لإنتاج أقراص المخدرات الاصطناعية التي كانت تقتل كل يوم مئات الشباب. كان يدور في مكانه منكساً رأسه. من حين لآخر ينظر، بجانبه

فيركض نحوه رجلان يرتديان السواد. يتمتم في أذنيهما ثم يعودان إلى مكانيهما ويقفان باستقامة. كنت أرى الجميع دون أن يراني أحد. استمعت إلى الكثير من الأحاديث المتناقضة ممن كانوا يحبونه أو لا يحبونه. كان ناس ملاح. طيب القلب... يا أخي شكون قال له يفتح فمه. ألم يكن من الأفضل أن يقبل بإدارة المخابر الجديدة وينسى حكاية صيدال؟

رأيت صديقاً له كان يشتغل معه في المخبر. هو من اقترب مني.

- الله يرحمه كان رجلاً طيباً.

- ممممممممم.

- أبكم.

هززت رأسي أيضاً بالموافقة. فبدأ يقوم بحركات بأصابعه. عرفت أو شعرت بأنه كان يتقن لغة الصم البكم. دوائر ومستطيلات وفتحات واسعة وضيقة. كنت أحرك لها رأسي فقط. في لحظة من اللحظات توقف. رشق عينيه في عينيّ، ثم أحنى رأسه نحوي وهو يتمتم.

- ما أبأسهم. حتى الموت يريدونه كما يشتهون وكأن الإنسان لا يملك عواطف وأحاسيس.

سحبني قليلاً بعد انتهاء مراسم الدفن نحو الزاوية، وكان

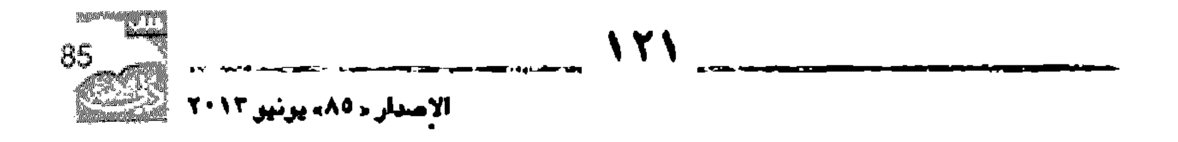
الناس قد بدأوا في مغادرة الأمكنة.

- ياما ابنتي معك حق. إنما الأعمال بالنيات. نيتك طيبة. أبوك كان حبيبي. لا يمكنني أن أخطئ في عيني والدك. تشبهان عينيك. قولي لأمك أنا جاي لبيت العزاء. أعرف أنه في مثل هذه الظروف الصعبة كل شيء يضيع، ولكن ربي يرزقكم الصبر. كان رجلاً حتى آخر لحظة. اختار العزلة في مخبره، في بيته على الدخول في لعبة القتلة. كان الله يرحمه، يعرفهم جيداً.

كدت أقول له لأنه كان يعرفهم جيداً، قتلوه. لكن لغتي خانتني، وشعرت بظلم لا حدّ له.

خرجت من المقبرة، يتبعني كلبي روكي الذي ظل واقفاً عند مدخلها ينتظر خروجي ويتأمل وجوه الناس الصامتين. روكي الذي ظل يعوي ليل نهار بعد مقتل والدي وكأنهم سرقوا منه شيئاً حياً. أضرب عن الأكل حتى النهاية. لم أر كلباً وفياً مثله. ذات فجر وجدت روكي يابساً مثل قطعة ثلج عند مدخل البيت، بالضبط في المكان الذي قتل فيه والدي، متكئاً على الحائط نفسه، واضعاً رأسه بين قوائمه.

ظل صديق والدي يأتي ويذهب نحو بيتنا. كان الوحيد الذي غاظه مقتل بابا زوريا، أو دْجُو وما تبقى من أصدقائي في



فرقة ديبو- جاز الذين ظلوا يلحون على عودتي إلى الفرقة للغوص في العمل ونسيان الألم. في أعماقي كنت راغبة حقيقة في ذلك، لكن مقتل والدي ووضع أمي الصحي لم يتركا لي أية فرصة للتفكير الجيد. ومع ذلك، لم أغلق الأبواب. أكدتُ لهم على أن المسألة مسألة وقت فقط، لأني لن أتوقف عن الكلارينات، فقد كانت رفيقي اليومي في أوقات العزلة والحنين، وسلاحي ضد الموت والجنون.

بعد أسبوع من مقتل بابا زوربا جاءتنا الشرطة بكل ترسانتها. قرأوا علينا تقريراً جديداً حول ملابسات مقتل والدي، لم أتذكر إلا مقدمته. نظراً للوضع الأمني المعقد الذي تعيشه البلاد، ودرءاً للدعاية المغرضة التي تحاول أن تظهر بأن البلاد في حالة أمنية غير مستقرة، لم يقتل السيد زبير بالرصاص كما في الإفادة الأولى، ولكنه تُوفِّيَ بسكتة قلبية. فقد بينت التحريات ومعاينة الجثة لحظتها أن الموت لم يكن بعيار ناري ولكن بسكتة قلبية اصطدم على إثرها الضحية بالحائط الإسمنتي مما أحدث رضوضاً كثيرة وجرحاً عميقاً على مستوى الجبهة والقفا والدماغ. فغرت فمي من شدة الدهشة. هل يمكن أن يكون الكذب الرسمي إلى هذا الحدّ؟ حتى في الكذب ليسوا أذكياء أبداً. نسيت بعدها كل شيء. كان يجب أن

أنسى كل ما سمعته لكي لا أتهم نفسي بالجنون. والدي مات ولن يعود أبداً، بعيار ناري أو بسكتة قلبية تافهة. ربما كان نظري يومها ميتاً ولم أر الأشياء كما كان يجب عليّ رؤيتها؟ عندما سألوني هل سمعت صوت الطلق الناري. قلت صحيح إني لم أسمع شيئاً، ولكني حملت رأس والدي ووضعته في حجري الذي امتلأ دماً، ورأيت العلامة السوداء التي ارتسمت على جبهته، والحفرة الخلفية عند مخرج الرصاصة.

– سجلنا إفادتك في المرة الأولى، لكن التحريات المخبرية والبالستية بينت عكس ما تقولين. تعرفين أن القانون يعاقب من يقول حقيقة غير الحقيقة الحقيقية.

- هل هناك حقيقة غير حقيقية؟ ربما. أنا لم أر شيئاً. رأيت والدي يسقط عند رجلي.

- نتفهم حبك لوالدك، لكن أعداء البلاد استغلوا كلامك في الصحافة وقاموا بتشويه صورة البلاد لمنع السياح من زيارة مدننا، ويريدون إغراقها في الموت، بينما كما ترين الأمن عاد لبلادنا والحمد لله.

- لم يعد شيء يا سيدي وإلا لما قتل والدي.

- والدك لم يقتل إنما أصيب بوعكة صحية، لو وجد وقتها من يسعفه لما مات.

- معك حق يا سيدي. كان عليَّ إسعافه لحظتها.

- افهم يا الفاهم. كان يجب. ولكنك لم تفعلي ونحن نتفهم خوفك مما حدث لوالدك أمام عينيك. نريدك أن توقعي على الإفادة الجديدة لأنك الشاهد المباشر.

- لن أقتل والدي مرة ثانية. أما السياحة والأمان، كل شيء ظاهر والحمد لله.

كان الضابط غبياً ومغلقاً ولم يكن لدي ما أخفف به من غبائه. دخلت في حالة صمت ولم أجب على أي سؤال من أسئلته التي كانت تقلقني. ولم أوقع على أي شيء.

- صمتك قد يقودك إلى السجن.

- والد مقتول. وابنته في البحث. يحيا بلد الشهداء والرفاء والراحة والأمن والسياحة.

نظر إلي الضابط شزراً، ثم خرج مع المجموعة التي رافقته دون أن يضيف كلمة واحدة. عندما خرجوا. عاد ضابط شاب نحوي حضر كل السجال بيني وبين الضابط. لاحظ قلقي الكبير. كان جميلاً وطيباً.

- عذراً. هو الكبير ولكنه غبي. أعتذر منك ومن والدك الله يرحمه. نعرف جيداً مافيا الدواء وهو يدافع عنها لأن مصلحته معها. لن نصمت على ذلك. نحتاج فقط إلى بعض الوقت. أنا

هنا لإقناعك بالتوقيع ولكني لن أفعل. احتفظي بإفادتك. ومن أراد أن يحصل على الحقيقة فليطلب إذناً رسمياً لمعاينة الجثة وسيكتشف بسهولة آثار الرصاصة.

- لكني لا أريدهم أن ينهكوا والدي. لم يخرج من هذه الدنيا سعيداً. كان منكسراً ومهزوماً يا سيدي. تخيلوا إنساناً ترك مخابر أمريكا وفرنسا الضخمة، وجاء نحو جهنم التي كان دائماً يقول عنها إنها وطنه ومقبرته النهائية.

- على كل لن أثقل عليك. إذا مررت على محافظة الأمن المركزية، اطلبي اسمي. ماسينيسا. أختي أيضاً تدرس الصيدلة وتعرفك جيداً. جويدة. سأعمل على مساعدتك قدر ما أستطيع.

- شكراً جزيلاً. كبرتَ بسرعة يا ماسي. ربي يحفظك. جويدة حبيبتي.

- الهم يكبّر ويشيّب. كل الخير آنسة ياما.

وترك لي بطاقته. كنت عاجزة عن الكلام.

تأملت بطاقته طويلاً ثم خبأتها في الخزانة، في مكان يمكنني أن أتذكره بسهولة. بسرعة عدلت عن الفكرة ودفنتها في حقيبتي اليدوية. ربما احتجت له، فلن أبحث عنه في خزانة تلتهم كل شيء بلا رحمة. تحولت إلى مقبرة للوثائق المخلوطة.

فيرجي، أمي كانت أكثرنا هشاشة وتضرراً. مقتل والدي كسرها في العمق على الرغم من أن حياتها لم تكن جميلة معه. فقد امتلكها خوف مرضي من رصاصة طائشة قد تأتي على أوهامها وأحلامها. وزادها ذعراً، مقتل جارتها رايسة، الروسية في سوق المدينة الذي كانت ترتاده من حين لآخر معها، وترحيل جثتها في الليلة نفسها نحو روسيا، حتى لا يتم تضخيم الحالة إعلامياً، وأن البلاد لاتزال غير مؤمنة حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية. لا أدري كل من دخل المسؤولية أصيب بهذا الهوس. لا يهم المقتول بقدر أهمية السياحة وكذبة السلام المعمّم.

اتخذت فيرجي قراراً نهائياً بأن لا تخرج من البيت. لا تقف عند العتبة التي سقط عندها أبي. لا تحادث أحداً. لا تزور أحداً. ولا تخرج حتى للساحة المكشوفة خوفاً من الظلال التي كانت تراها على الأسطح من حين لآخر، تركض بلا توقف ودون أن تحدث أي ضجيج وكأنها استعارت أرجل القطط. ربما كانت تلك الظلال القاتلة تبحث عن شيء غامض لم نكن ندركه، وإلا كنا سلمناه لها مقابل أن تتركنا في راحتنا. عندما انتهت حرب الجنون والمجانين، لم نفهم أيضاً متى وكيف؟ استمرّت الظلال التي قلّت نسبياً، في تحركها على الأسطح، ولكن بشكل

خفيّ، يُحَس ولا يُرى. عندما تحدثني أمي عنها أجيبها ببعض القسوة لكي تستفيق:

- كل هذا الضجيج الذي تتحدثين عنه هو في رأسك يا يمًّا. لا يوجد أي شيء.

- واحد فينا أصبح مهبولاً، يا أنا يا أنتِ

- أغلبَ الظن أنا يا أمي...

- أظنّ ذلك.

تقولها بيقين، وأقولها بلا قناعة، استرضاء لها.

هل هي مجرد عدوى سماعية، بسبب ذعر فيرجي؟

مع مرور الأيام، أصبحت أنا أيضاً أسمع الحركة على الأسطح، فأركض نحو سيف السّاموراي لا أدري هل للدفاع عن نفسي والموت بكبرياء، أم لأنتحر قبل أن أجد نفسي بين أيدي القتلة؟

-٤-

فاوست مرتاح هناك.

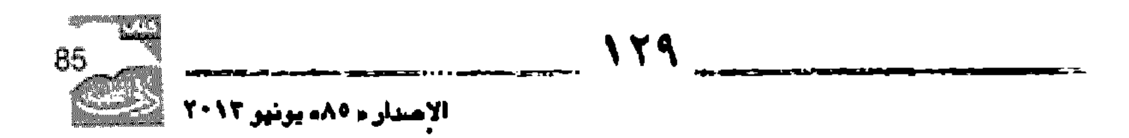
معشوق جميل، معلق بين حب مدينتين، إشبيلية وغرناطة، ومدينة ثالثة حولتها الأيام القاسية إلى مجرد حلم يتأرجح على خيط من نار. فاوست لا يمكنه أن يقدّر يومياتي لأنه في النهاية لا يعرفها، ولا يمكنه أن يلبس هواءها الساخن. من الصعب عليه أن يتخيل فقط خروجي ودخولي. كل شيء عادي هناك. كل شيء غير عادي هنا. حتى أبسط التفاصيل اليومية. من يقول لك صباح الخير بلا سبب، تتساءل عما يخفيه تحت ابتسامته الغريبة في مدينة حزينة. وكأننا نحتاج إلى ذريعة لنصبّح على الناس أو نمسّي عليهم.

أركض مثل الطائر الجريح في فضاءات تتسع وتضيق عليَّ. لا ترحمني لأنها لا تعرفني. فلا أتحكم في أيامي ولا في أوقاتي. تمر الساعات والدقائق والثواني كسحب فارغة تطردها ريح شمالية عاصفة وباردة. سلطان الوقت الصارم. الأيام أيضا تهرب. تأتي وتذهب دون أن نفطن لوجودها لأنها تنسحب بهدوء، متخفية في جلدها، دون أن تحدث أي ضجيج. ملساء. متكررة. مسطحة. وفي أحيان كثيرة فارغة. ولا شيء يقتل

مثل الفراغ الذي يغلف كل أشواقنا المنهكة. من شدة الركض المتواصل والتعب اليومي، لا تمهلنا لحظة واحدة لتأملها وحبها، وحتى كرهها إذا كان في ذلك بعض الراحة الداخلية. كان الصباح بارداً جداً وكان عليَّ أيضاً أن أخرج للمرة الثالثة باتجاه مدينة كل يوم تتوحّش قليلاً.

تعودت على أن أنسى طوال النهار فاوست، وأركض طولاً وعرضاً بين مختلف الإدارات المالية والإدارية لفتح الصيدلية بالخصوص بعد التهديدات بنزع الرخصة مني إذا لم أمتثل للقانون. وجدت كل العون والاستماتة في صديقتي جويدة، أو جاد كما أناديها، أخت ماسي الطيب، مساعدتي الرائعة. هي تحتاج إلى العمل وأنا أيضاً أحتاج لها. خرّيجة الصيدلة قبل ثلاث سنوات، والمتقاعدة في سن السابعة والعشرين من عمرها؟ وعدتها بحل المشكلة بمجرد إعادة فتح صيدليتي. كلما خرجت للجري باتجاه تسوية الوضع الإداري، تركتها بصحبة أمي حتى أصبحت تحبها وتشعر بقربها، ولا تناديها إلا بابنتي، بينما تناديني أنا وأختي: ماريا... ياما... لم أسمع من أمي كلمة ابنتي إلا قليلاً.

يسألونني أحياناً في الإدارة المحلية عندما يرون اسمي: هل أنت ابنة السّي زبير، فأجيب بفخر وبالكثير من الكبرياء: نعم.



زبير والدي. أرى في الوجوه إما سعادة كبيرة ورغبة مدهشة في مساعدتي، أو أرى تكشيرة يحاول أصحابها أن يعقدّوا شيئاً إدارياً عادياً بنزعة انتقامية ضامرة. مع الركض، ومعرفة الوجوه التي لم أكن لأعرفها لولا هذه الأوراق، بدأت أعرف جيداً متى أقول باعتزاز إنه والدي الله يرحمه، ومتى أقول إنه من العائلة البعيدة فقط. أصل عائلتنا من تلمسان وأصل عائلته من بجاية. فينا القبائل وفينا العرب وفينا حتى الأتراك، الكروغلي[٣٣]. أعتذر في أعماقي من بابا زوربا الغفور الرحيم والطيب جداً، ولكني في لحظات غفواتي الهارية، سرعان ما أراه يضحك دائماً مني كعادته، وينكّت وهو يقول ويربت على كتفي:

– شاطرة حنّونتي ياما. عندك حق؟ بابا زوربا أصبح من بجاية وأنت من تلمسان هههههه. هكذا يا حلّوفة تتنكرين لمن حماك من كل جنون وهبل.

- وحياتك يا بابا لم يكن قصدي سيئاً. أنت تعرف بؤس الإدارة. فقط لتخطّي عقبات إدارية تافهة، تعودوا أن يضعوها لنا في الطريق. الله غالب.

- كان يفترض أن تكون سلالتي تمتد إلى سليمان

---

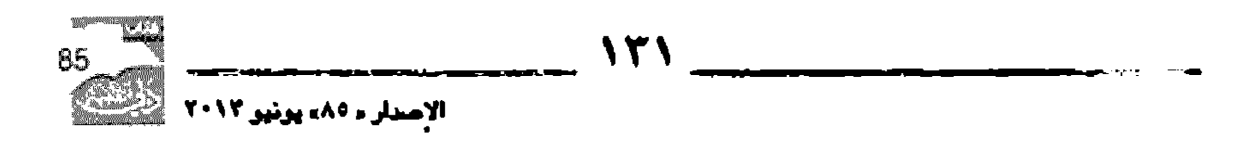
(٣٣) المولّدون في الفترة العثمانية بالجزائر من أم موريسكية وأب تركي.

القانوني على الأقل من ناحية فريجة، هكذا تتكلمين ولا تحذرين؟ هههههه والدي وجدي وأهلي مساكين. عمال وفلاحون بؤساء لا أكثر هههههه.

أسمع ضحكته المجلجلة وهي تنحت نوراً في داخلي المظلم. هذه الملعنات الضرورية في التعامل مع الإدارة، بما فيها اللغوية تعلمتها من محيط يمنحني كل يوم حيلة جديدة لأتمكن من تحمّل ما يحيط بي من أثقال مرهقة. أعرف حتى متى أتحدث باللغة الفرنسية، ومتى أستعمل العربية، ومتى تكون القبائلية التي تعلمتها من أمي، مدخلاً للعبور.

لم يعد لدي من الوقت الكثير لأخصّصه لأمي وأبقى معها. طوال اليوم وأنا أركض، أحياناً بلا جدوى. بينما تغرق فيرجي في القراءة واستعادة تفاصيل حالتها متأخرة جداً، برفقة جاد التي لا تدخر أي جهد لمساعدتها . الجري بين المخازن، بحثاً عن الأدوية لإعادة تنشيط الصيدلية، يستهلكني في نهاية النهار فلا أجد وقتاً حتى لنفسي. أستحم لأخفّف قليلاً من تراكم متاعبي. ثم أمد رأسي قليلاً على كرسي بابا زوربا المريح. أغفو قبل أن أستيقظ على صوت فيرجي وهي تناديني من غرفتها:

– ياما... اليوم تلفنوا لك من وكالة الأدوية وقالوا إنهم وجدوا



85
الإصدار «٨٥» يونيو ٢٠١٣

لك بعض الأدوية التي طلبتها. يجب أن تمري لاستلامها في أربع وعشرين ساعة وإلا سيعيدون توزيعها.

- مليح يا يمّا. على الأقل نحل مشكلة الناس الذين أصبحوا يموتون بالآلاف بسبب نقص الأدوية. هل تعلمين يا يما أن أدوية السرطان أصبحت تقريباً مفقودة؟ أصبح المستشفى رديف الموت.
- أعرف. من يعطف على من في عالم تسحقه الأنانية؟ الحرب أخرجت كل الأمراض الخبيثة.

أنا مجبرة على فتح الصيدلية بأية أدوية متوفرة وإن كنت أحزن عندما يطلب مني مريض دواءه ولا أستجيب له بسبب الندرة. الأدوية الجنيسة[٣٤] التي لم تغر أحدا في البداية، أصبحت مطلوبة بقوة ومفقودة في الأغلب الأعم من الأوقات. لا حلّ لي وإلا سيسحبون مني الرخصة. المتربصون كثر بسبب حالة الاختناق العام بكثرة الصيدليات ولكن ولا واحدة تتوفر على كل الأدوية المطلوبة. قائمة المنتظرين والمتخرجين الجدد طويلة. بدأت تكبر وتتسع حتى أصبح من المستحيل الاستجابة لكل الطلبات. هناك حالة اكتفاء كلي في كل الأحياء. حتى الأحياء الضخمة الجديدة لا توفر أية فرصة،

---

(٣٤) Les médicaments génériques.

لأن الرخص تكون قد وُزِّعت أو بالأحرى بيعت، والحي لم يكتمل بعد بكل مرافقه. كل شيء يتم في سرية مطلقة. آخر مرة فضحت الصحف الخاصة ابن وزير الصحة الذي يملك عشر صيدليات موزعة عبر التراب الوطني بأسماء مختلفة. كيف فعل؟ لا أحد يعرف أو يريد أن يعرف. لجنة تقصّي الحقائق لم تبين أي شيء. بل طالب المدّعي العام بتقديم الصحف الخاصة المعنية بالأمر للامتثال أمام القضاء وتحمل التبعات القانونية للقذف الذي كانوا مصدراً له. جريدة الأمة الرسمية نشرت تكذيب الوزير ووثيقة المدعي العام.

المشكل ليس في الصيدليات، لكن في ندرة الدواء. بعد احتراق مخابر صيدال، فتح الباب على مصراعية أمام الأسواق الدولية والخواص. الكثير من المستوردين لا علاقة لهم بعالم الصيدلة. وجدوا أنفسهم في مضمار تجارة مربحة ووساطات غامضة أهلتهم للتحكم في السوق. تقول بعض المخابر إن الدواء الذي يصل إلى البلاد من الهند ومصر والأردن، وباكستان وغيرها، مختل في الميزان. لا يؤثر في المريض بسبب ضعف مكوناته الداخلية. بينما في الخارج، هناك احترام كلي للمعايير الدولية، لكنه هو بدوره غير معفى من اللعب. ما يصدر للخارج ليس هو نفسه ما يباع في الصيدليات الأوروبية.

الكثير من الأدوية ناقصة المعايير وهو ما يثبته الكثير من مراكز التحليل. جربت أنا وجاد ذلك على الكثير من الأدوية المستوردة من أوروبا نفسها، وتأكد لنا أن هناك غشاً واضحاً في الأدوية، لهذا نجتهد لإيجاد مورِّد حقيقي وليس بقَاراً[35] من البقارين الذين أصبحوا يملأون عالم الاستيراد. أصبحنا في حاجة إلى مورِّد حقيقي وليس نصاباً كما بقية النصابين الذين لا يختلف معهم استيراد قطع غيار تايوان المغشوشة، والأدوية التي اجتاحتها النزعة التايوانية[36] من كل البلدان. الهند. الصين. تركيا. مصر. وأوروبا. جربنا مضاداً حيوياً أجنبياً في مخبر والدي والأصدقاء، اتضح لنا أن المركبات ليست دقيقة ومغشوشة بشكل كبير. "المولیكول" ليست بالعدد نفسه ولا بالقوة نفسها. الكثير من المراقبين الصيدلانيين الذين يعطيهم القانون حق الرقابة الصارمة، لا يقومون أبداً بواجباتهم الضرورية.

جاد مثلي. تريد أن تعمل على أسس صحيحة ولهذا تدقق كثيراً في مصدر الأدوية. الأمر في غاية الأهمية لأن حياة الآخرين كثيراً ما تكون معلقة عليها.

---

(٣٥) تجار الأبقار. كلمة تقال سخرية عن التاجر الجاهل والأمي، الذي يريد أن يحقق أرباحاً طائلة دون تخصص ولا جهد.

(٣٦) الأدوية المغشوشة.

وعلى الرغم من الشطط اليومي استطعت، برفقة جاد، أن نعيد الحياة لصيدلية محروقة عن آخرها. لم تكن التعويضات كبيرة من طرف شركة التأمين، ولكنها كانت كافية لتجعلنا نبدأ العمل ونضيف إلى ذلك ما ادخرناه. حاولت أن لا ألمس المال الذي تركه لي والدي في البنك، ولكن الحاجة أجبرتني على الاستفادة الجزئية منه لزرع الحياة في الصيدلية من جديد ولا أعتقد أن والدي كان سيمانع لو كان على قيد الحياة. أحياناً أنام على الكرسي من شدة التعب، ولا أرى شيئاً سوى الرغبة الملحة في النوم.

أنام مثل صخرة زرقاء رمتها الوديان على الحواف. بلا حلم ولا ألوان ولا أشكال. كل شيء هلامي، منزلق ولا يستقر على أي شكل، كما في الخليقة الأول. يتداخل عليَّ كل ما يسكن ذاكرتي المتعبة، فلا أجد إلا طريقاً طويلاً، ضبابي اللون وأنا مدفونه في عمقه، أسير بلا وجهة محدّدة. حلم أصبح يتكرّر معي كثيراً، وبالتفاصيل نفسها تقريباً.

III

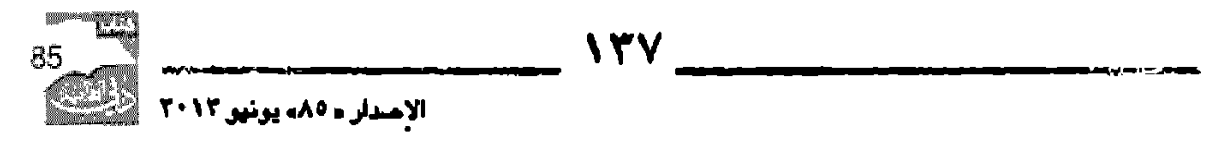
الأَبْجَدِيةُ الّتِي أَغْرَقَتْ أُمّي

-١-

كانت فيرجي منتشية في هذا الصباح الجميل على غير عادتها. الأسبوع الذي مر، كان قاسياً عليها. فقد تعبت من الصور التي كانت تنتابها في حلمها. أصبحت هشة إلى درجة كبيرة. من حين لآخر تفاجئها صورة رايان الذي أكلته حيطان سجن لم يكن مهيناً أبداً ولهذا كسره بقوة. كلما تذكرته بكت في صمت ثم حاولت أن تغرق في القراءة من أجل نسيان ما يقلقها. طيبة. فهي لا تؤاخذ كوزيت على صمتها المزمن. تجد كل أعذار الدنيا. فقد طلقت كوزيت العائلة كلها منذ مقتل والدي، ولا يهمها الآن إلا زواجها القريب من صديقها توما الذي يشتغل معها. لا ترد على الرسائل العادية ولا حتى على بريد الفيسبوك. من حين لآخر تبعث لنا رسالة تليفونية قصيرة هارية SMS : Ne vous inquiétez pas. Je vais bien. On est juste pris par les preparatifs de notre marriage moi et Thomas . Portez vous bien[٣٧] الرسالة القصيرة نفسها التي تعود في كل مرة وكأنها لا تعمل إلا على نسخها في كل مرة ربحاً للوقت.

---

(٣٧) لا تشغلوا بالكم عليّ، أنا بخير. مشغولان فقط بالتحضير لعرسنا أنا وتوما. كونوا بخير.



قالت فيرجي وهي تنظر من النافذة نحو البحر الذي بدا صافياً مثل مرآة، وتضع أمامي كومة من الروايات العالمية القديمة.

- يجب أن تقرأيها وتكتشفيها، وأن لا تظلي حبيسة الرواية الفرنسية.

قلت وأنا أحاول أن لا أكسر السعادة التي برقت في عينيها فجأة.

- أقرأ يا يمّا الروايات والمسرحيات غير الفرنسية. الأمريكية اللاتينية والعربية والإسبانية. زافون مثلاً. رواياته بها سحر جميل قريب من أعماقنا العربية التي قليلاً ما نستطيع فهمها وتفسيرها.

- ليس هذا قصدي. أمامك فيرجينيا وولف مثلاً. يجب أن تكتشفيها.

- قرأت لها رواية واحدة وبدت لي ثقيلة بعض الشيء، فلم أنهها.

- جربي اقرأي الأمواج ستغيرين رأيك.

قرأتها. لم أفهم إلا لاحقاً لماذا التبست أمي بتلك الرواية التي سحرتها. وبتلك المرأة أيضا. نحبُ رواية فنجد أنفسنا في حياة من كتبها ولا نفطن أبداً إلا عندما ينتابنا جرح الحقيقة التي تنتقل من الكاتب إلينا.

لا أدري بالضبط اللحظة الأولى التي ناديت فيها أمي فريجة بنت عمي موح البجاوي، باسم فيرجينيا ثم فيرجي؟ كانت أمي في البداية مولعة بعمق بحياة فيرجينيا وولف قبل أن تتركها وتصاب بمجنون آخر اسمه بوريس فيان[٣٨]. كنت أخاف على أمي من أن تصاب بعدوى فيرجينيا وولف في الهبل والانتحار غير المحسوبين. هي من كشف لي سحر هذه الكاتبة في وقت مبكر. في البداية عندما ناديتها فيرجينيا، رفضت الاسم وأكدت لي أن اسمها فريجة وليس شيئاً آخر. فريجة بنت عمي موح البجاوي. ضحكت في أعماقي، لكني سعدت برفضها تسميتي دون أن أعرف مصدر هذه السعادة. كانت أكثر مقاومة في هذا من بابا زوريا الذي ضحك وقبل بتسميتي. ظللت أصر على مناداتها بفيرجي. وظلت ردودها هي هي لم تتغير. أنا فريجة بنت عمي موح البجاوي. وفي مرة من المرات كانت جدّ رائقة، ناديتها باسمها المستعار الذي اخترته لها، فوجئت من ردة فعلها المتواطئ معي. لقد تغيرت رأساً على عقب. لم أفهم السبب إلا لاحقاً.

- ماما فيرجي.
- عمر فيرجي. أحبك. ماذا تحتاجين حبيبتي؟
- مدهشة أنت يا أمي، فقط لا غير.

---

(٣٨) Boris Vian.

- أنا عادية. محبة للأدب فقط وللناس.

كانت سعيدة بل والتزمت بالاسم الجديد منذ تلك اللحظة، قبل أن يخلط بوريس فيان كل أوراقي ويربكها. في بعض الأحيان كانت هي من تأتيني في عزلتي لتخرجني من خوفي من أشباح الأسطح:

- فيرجي اللي أمامك مثل زوربا. ترفض أن تستسلم للقتلة. كوني صحيحة ياما حبيبتي.
- أقول أحياناً إذا لم نكن كلنا، بما في ذلك المدينة، قد أصبنا بهبل مستدام وبلا حدود.
- ما رأيك في بوريس فيان.
- سأقول لك عندما أنتهي من قراءة كومة الروايات التي أعطيتها لي. أنا في زيد الأيام. قرأت سأذهب لأبصق على قبوركم.
- ما رأيك.
- في الوقت الحالي لا رأي. أريد أن ألمّ به وأقول لك.
- متأكدة من أنك ستحبينه.

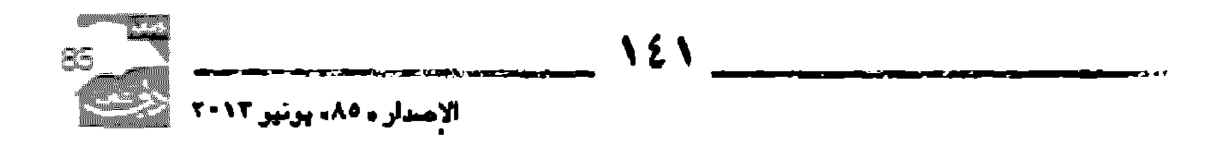
على الرغم من سعادتي، لم أكن مرتاحة لتحولات أمي المتسارعة. كانت تنتابها لحظات سهو غريبة تكون فيها خارج كل المدارات إلا مدراها الخاص. تقول أي كلام دون

دراية منها. لا تتحكم في أي شيء. قبل أن تعود إلى وعيها من اللحظة التي تركتني فيها وتسوح في عالمها.

ظلت تتحدث عن فيرجينيا مدة طويلة، وعن مأساتها وخياناتها الصغيرة، قبل أن تتركها نهائياً وتعود إلى كاتبها الذي التبست به. ثم تعود ثانية إلى فيرجينيا، فلا تتوقف عن الحديث عن النهايات التي رأتها مرتسمة في أعمالها الروائية. فقد تكرر الماء عندها حتى غرقت فيه. كما كانت تقول.

- لم تكن فيرجينيا تعرف أن كل ما يسمعه القدر، يحوّله إلى حقيقة. يأخذ كل شيء مأخذ الجد.

تصمت فيرجي قليلاً، ثم ترفع رأسها نحو السقف الأبيض الفارغ من أي لون. تتذكر جيداً ذلك اليوم الدافئ من أيام أبريل من سنة ١٩٤١ الذي ملأت فيه فيرجينيا وولف جيوبها بالحجارة لتثقل جسدها النحيل، ونزلت إلى نهر أوز القريب من بيتها في مونكيز هاوس Monk's House وتركت رسالة لزوجها: لي اليقين بأني سأصبح مجنونة. ولن نتمكن من تحمل هذه الوضعية القاسية. مقتنعة بأني لن أخرج بسلام هذه المرة. بدأت أسمع أصواتاً تمنعني من التركيز. ولهذا أقدم على ما يبدو لي أنه أحسن ما يمكن فعله. لقد منحتني سعادة قصوى. لا



أستطيع أن أقاوم وأنا أعرف مسبقاً أني ضيعت لك حياتك وتستطيع أن تكون أفضل بدوني.

لا أدري لماذا يوم قرأت رواية الأمواج التي جاءتني بها أمي وهي تصر عليَّ كالعادة، بضرورة اكتشافها، شعرت بشيء غريب في عينيها، يشبه الموت غرقاً، مع أني لم أكن أعرف الشيء الكثير عن نهاية فرجينيا وولف. أعتقد أنه من يومها ترسخ لدي اسم أمي الجديد: فيرجي. من يومها نسيت اسمها الأصلي فريجة. كانت أمي في كتاب فيرجينيا وولف مثل «موجة تعلو أكثر فأكثر عند اقترابها من الساحل تتشكل قبل أن تتمزق متلاشية على الرمال، ساحبة في أثرها ستاراً شفافاً من الزبد الأبيض»[٣٩] كلما تمعَّنت في عيني أمي، سمعت أصداء تكسر تلك الموجة الهاربة التي سرقت عقلها قبل أن تسرق منها روحها نهائياً.

في حياة فيرجي كل شيء سار بسرعة غريبة منذ مقتل بابا زوربا. في يوم من الأيام وجدتها في وضع أربكني وأخافني كثيراً. كان قلق الأسطح قد زاد، لم تستطع حتى دوريات ماسي، الشرطي اللطيف، الذي اتصلت به العديد من المرات، أن توقفها. فقد قام بواجبه، لكنه على الرغم من مداومته على

---

(٣٩) Virginia Woolf, Les Vagues, 1931

الأسطح، إلا أنه لم ير ولم يسمع شيئاً. شيء ما كان يحدث على هذه الأرض كان يتجاوز ما كنا نفكر فيه. كانت الحياة أعقد مما كنت أتصوره. فوجئت بفيرجي في سريرها البارد والواسع الذي أصبحت لا تنام فيه ليلاً من شدة خوفها من حركات الأسطح الغريبة، وتفضل عليه غرفة أختي ماريا، كوزيت الهاربة من الجميع. كانت محاطة بكل مؤلفات بوريس فيان[40]. لا أدري لماذا أشم رائحة موت فيرجينيا قد ملأت أثاث وألبسة أمي. الفرق الكبير بينهما، هو أن أمي بدل أن تملأ جيوبها بالحجارة، وتذهب نحو نهر المدينة،

---

(٤٠) وُلِدَ بوريس فيان في ١٠ مارس من سنة ١٩٢٠، في فيل- دافري Ville-d›Avray (Seine-et-Oise) وتوُفّيَ في ٢٣ يونيو ١٩٥٩ في باريس إثر سكتة قلبية. كاتب فرنسي وشاعر ومغن وموسيقي جاز وعازف كبير على آلة الترومبيت. ومترجم من الإنجليزية إلى الفرنسية، ومشبع بالثقافة الأنجلوساكسونية. نشر العديد من الأعمال باسمه وباسم مستعار سوليفان فرمون Vernon Sullivan. من رواياته التي أحدثت ضجة كبيرة: سأذهب لأبصق على قبوركم *J›irai cracher sur vos tombes* التي أثارت ضده الرأي العام لما فيها من جرأة اجتماعية ونقدية وأخلاقية. كانت حالته الصحية هشة جدا. ولكنه لم يعط لذلك أية أهمية وكان مجنوناً على العمل الفني بكل تنوعاته في صراع مستديم مع الموت القريب منه. توفي وعمره لم يتجاوز ٣٩ أثناء عرض الفيلم المقتبس من نصه: *J›irai cracher sur vos tombes* والذي حمل عنوان الرواية. لعبت رفيقته ميشيل لوغليز التي أصبحت زوجته في ٥ يوليو ١٩٤١، دورا حاسما في مساره الأدبي والثقافي. لكنها سرعان ما تركته في ١٩٥٢ بعد أن أنجبت منه باتريك وكارول، لتصبح عشيقة الفيلسوف الفرنسي الشهير جان بول سارتر. يلتقي بوريس لاحقاً براقصة سويسرية أورسولا كوبلر، Ursula Kübler يحبها ويتزوجها وهو في حالة منكسرة، مريض وفي وضع مادي غير مريح. يلتفت نحو الموسيقى فيكتب قصيدته المضادة للحرب الهند الصينية التي غناها لاحقاً صديقه مولودجي وعرفت نجاحاً كبيراً في مسرح الأولمبيا l›Olympia الشهير. نفس الأغنية تصبح مدينة له بالخصوص بعد هزيمة فرنسا في معركة ديان بيان فو Diên Biên Phu. بدأت حملة ضدها على أساس أنها تدين الحرب وتنزل من معنويات الجيش الفرنسي الذي كان في حاجة إلى من يرفعها بعد الهزيمة. ومُنِع أداؤها في الكثير من المسارح. ومع حرب الجزائر زادت الرقابة على نصوصه وأعماله الموسيقية، فقد سحبت أغانيه من السوق. ولكن هذا لم يمنعه من مواصلة فنه حتى ولو كان ذلك في أصعب الظروف المادية والحياتية والصحية. في صباح يوم ٢٣ جوان ١٩٥٩ يوم عرض فيلم *J›irai cracher sur vos tombes* في سينما لوماربوف *Le Marbeuf* ليس بعيداً عن الشانزيليزيه، توفي بوريس فيان أثناء العرض حتى قبل أن يصل إلى مستشفى لينيك Laennec بباريس. أعماله الكاملة لم تنشر إلا في سنة ٢٠٠٣ في ١٥ جزءاً في دار النشر فايار Editions Fayard بإشراف زوجته الثانية أورسولا فيان كوبلر. قبل أن تنتقل أعمالها إلى دار النشر غاليمار Gallimard التي أدخلته في سنة ٢٠١٠ سلسلتها الشهيرة الثرية أو bibliothèque de la Pléiade.

ملأت قلبها بكتب بوريس فيان وتركت نفسها تهوي في عمق الهدوء والسكينة، ولم تترك حتى فرصة الحديث معها عن قلبها وأسراره. فقد ظلت تشعر نحو بابا زوريا بعقدة ذنب الخيانة. وتطورت حالتها أكثر عندما سقطت بأوهامها بين ذراعي بوريس فيان. أو هكذا كان يبدو لها. قبل أن تتحرر من هذه العقدة بعد وفاة بابا زوريا. فأصبح الأمر عادياً. ظلت تطلب من الله في كل صلواتها أن يمدها ببعض العمر لتحتفل بمئوية ميلاد بوريس، كما يليق بكاتب كبير وحبيب غال، لكن الحظ لم يكن حليفها، إذ كان عليها أن تعيش أكثر من عشر سنوات أخرى، على الأقل، حتى تتمكن من تحقيق هذا الحلم.

كانت أمي في البداية، تضحك من علاقات بوريس فيان مع نساء أخريات، وتقول لي في شكل هامس وكأنها تخشى أن يسمعها أحد: لو كان بوريس يعرف فرجينيا لأحبّها وهبل عليها. أضحك لإسعاد عزلتها:

- من؟ فرجينيا وولف، أم أمي الحبيبة؟

- واش يدير بفيرجينيا وولف، مسكينة مثل القصبة الفارغة، ومريضة عقلياً، ويترك امرأة ملحمة وصحيحة، تركت زوجها من أجله ههههه.

هي تسخر عندما تتحدث عن نفسها وعن جمالها. أمي كانت جميلة وأنيقة. امرأة حقيقية، تشبه نساء القرن التاسع

عشر اللواتي صورهن دولاكروا[41] في بيوتهن. كل المقاييس الجمالية: مدورة، جميلة، ملامح طفولية، عينان تبرقان بنشوى الحياة.

ثم تلتفت نحوي من جديد وتقرب رأسها من أذني اليسرى:

- لو كان حبيبي بوريس حياً لطلقته من ميشيل وأورسولا، وسحبته نحوي. لم أخن والدك ولا مرة واحدة في حياتي، ولكن مع بوريس أنا متأكدة من أني كنت سأخونه بلا تردد ولا عقدة ضمير.

ثم تتدحرج نحو غرفة كوزيت وتنام على ضوء خافت لأنها تكره الظلمة، وهي تحلم به وتنسى صوت الرصاص في الجهة الجنوبية من المدينة.

كان رصاصاً حياً، لم يكن مجرد مفرقعات كما تظن أمي.

خوفي على أمي من خلال الوشوشات الصغيرة بيني وبينها، أظهر لي أن وضعها كان أكثر استفحالاً مما ظننت. فقد كانت كل يوم تنزلق نحو الجنون بخطوة. لدرجة أني كنت مرعوبة من أن تقفز من الجهة الأخرى ويصبح من المستحيل عليَّ جرها نحو ضفتي. فهي مرافقتي الوحيدة في هذه العزلة المخيفة في مدينة كانت مصابة هي أيضاً بجنون الموت والتقتيل السري.

(٤١) Delacroix .

لا أدري متى أصابها ذلك الشيء المخيف حتى أصبح من الصعب عليها الانفصال عنه. أصبح بوريس فيان حقيقتها الوحيدة. أنساها كل شيء، حتى فرجينيا وذاكرتها. ارتبطت به لدرجة أنها طلبت يوماً من صديقها الرسام الكبير ومصور المدينة ميرو، أو عمّي مراد في اسمه الأصلي أن يزورها فهي بحاجة ماسة له. أمي لم تكن تعرف أن هناك رساماً كبيراً يحمل اسم خوان ميرو، هذه هي لعبة التطابق الغريب. أجد فيه حقيقة بعضاً من سذاجة ميرو الذي كان يعرِّف نفسه بالكتالاني الدولي -catalan international يتوغل في النفس الإنسانية حتى الطفولة وتوحشها الأول. كما في لوحته الحظيرة La Ferme التي أنجزها في ١٩٢٠. كان شغوفاً بالتخلي عن الوفاقات وهو من كان يقول بوجوب قتلها، اغتيالها أو اغتصابها.

عندما زارها ميرو، طلبت فيرجي منه أن يرسم لها بورتريهات لبوريس فيان، مستوحاة من صوره الأصلية. جاءته بكل الصور التي عثرت عليها في كتاباته وسيرته ووضعتها بين يديه. بينما خبأت ألبومه الشخصي والحميمي مع عشيقاته ولم تظهره له لشيء كان في نفسها. أجبرت ميرو على أن يقرأ كل كتبه ويخرج لها بصور استثنائية عن بوريس فيان.

- أريدها صوراً مشرقة. لوحات تجعل ألوانها مغرية وغير منفرة للناظر.

- سأعتمد صوره الشخصية الأكثر دقة ووضوحاً. قلتِ لي إنه عندك ألبوم بكامله. ممكن...

- لا. هذا ألبوم خاص. شخصي جداً. لا أستطيع. لكن الصور التي وضعتها بين يديك تكفيك. من عشرين صورة يمكن أن تنجز اللوحات والبورتريهات التي تريد. في نصوصه الكثير من ملامحه الداخلية، اقرأه. أنت فنان كبير ولا يفوتك أبداً أن رسم داخل شخصية يقتضي معرفة مسبقة عنه. حقوقك حبيبي ميرو كلها محفوظة. أعرف أن العمل الفني يعاني هذه الأيام من كساد كبير بسبب الحرب الصامتة، ولكني مستعدة، إذا أعجبني العمل، أن أعطيك حقك وزيادة.

برقت عيناه بنور مفاجئ.

- لا أعرف عنه الكثير سيدة فريجة، ولكني سأجتهد في فهمه من الداخل. قرأت له منذ زمن بعيد زبد الأيام، وقد بدا حاداً ومتشائماً، ربما لم يناسبني على الأقل وقتها.

- يجب أن تعرفه قبل أن ترسمه. المكتبة الوطنية تحت تصرفك، بها كل ما كتبه.

- المكتبة مغلقة للصيانة والتصليح بعد التخريب الذي

تعرضت له. وكل الكتب محفوظة حتى يعاد ترتيبها وجردها. هناك نية لإعادة تنظيم المكتبة بحيث تصبح ميدياتيك حيوية.

- عفواً نسيت. سمعت بذلك. يمكنك أن تجدها في مكان سأقول لك عنه. اقرأه أرجوك فهو يعطيك صورة حقيقة عنه. كتاباته كانت صريحة وجارحة، لا تعرف المهادنة.

قامت من مكانها ثم دفنت رأسها بين الكتب وعادت بورقة فيها كل منجز بوريس فيان. مرقونة بإتقان في شكل شجرة جميلة ووارفة الأوراق، ووضعتها أمامه بكل تفاصيلها. فَتَحَها بهدوء كأنه يريد أن يكشف سراً ويتلذذ باكتشافه أيضاً. كانت الورقة تحتوي على أعماله الأدبية والفنية كلها.

Œuvres Boris Vian.

Romans parus sous son nom

Conte de fées à l'usage des moyennes personnes (roman inachevé, 1943)

1946 : Vercoquin et le Plancton (1946)

1947 : L'Écume des jours (1947)

1947 : L'Automne à Pékin (1947)

1950 : L'Herbe rouge (1950)

1953 : L'Arrache-cœur (1953)

1966 : Trouble dans les Andains (1942-1943)

Romans parus sous le pseudonyme de Vernon Sullivan

1946 : J'irai cracher sur vos tombes

1947 : Les morts ont tous la même peau

1948 : Et on tuera tous les affreux

1950 : Elles se rendent pas compte (1948-1950)

Recueils de nouvelles

1949 : Les Fourmis (1949)

1965 : Les Lurettes fourrées (1948-1949)

1970 : Le Loup-garou (1945-1953)

1980 : Écrits pornographiques (nouvelles et poésies, 1947-1958)

1981 : Le Ratichon baigneur (1946-1952)

2009 : Les Fourmis, le Loup-garou et autres nouvelles (livre audio interprété par François Marthouret et Thibault de Montalembert, reprenant cinq nouvelles du recueil Les Fourmis et une nouvelle du recueil Le Loup-garou)

Théâtre et opéra

1950 : L'Équarrissage pour tous (1947)

1958 : Fiesta (Vian)|Fiesta (livret d'opéra)

1959 ? : Les Bâtisseurs d'Empire ou le Schmürtz édition posthume 1960[115].

1962 ? : Le Goûter des généraux ces deux derniers titres ont été publiés en 1965 chez Jean-Jacques Pauvert avec les Bâtisseurs d'Empire[115]

1965 : Le Dernier des métiers,

1971 : Tête de méduse (1951)

1971 : Série blême (1954)

1971 : Le Chasseur français (Boris Vian) (1955)

1974 : Le Chevalier de neige (livrets d'opéra, 1952-1955)

1982 : Opéras (Vian) (livrets d'opéra, 1958-1959)

Poésies

1944 : Cent sonnets

1948 : Barnum's Digest (1946-1948)

1949 : Cantilènes en gelée (1946-1949)

1962 : Je voudrais pas crever (1951-1959)

1966 : Poèmes et chansons

1954 : Le Temps de vivre (Boris Vian)

Essais

1951 : Manuel de Saint-Germain-des-Prés[116].

1958 : En avant la zizique... Et par ici les gros sous, Le Livre contemporain. Ouvrage décrivant toutes les étapes de la création d'une chanson, de l'écriture

jusqu'à l'enregistrement.

- هذه القائمة من الكتب متوفرة لديًّ، ولكني لا أستطيع أن أمنحها لك يا عزيزي ميرو لأني أخاف عليها من التلف. إني مؤمَّنة من حبيبي بوريس للحفاظ عليها حتى أحميها بوضعها في البنك الوطني. أطماع الناس كثيرة، وأفضل أن تبقى مخبأة. يمكنك أن تجدها كلها في المعهد الثقافي الفرنسي، ما دامت المكتبة مغلقة.

يهز ميرو رأسه كطفل ينفذ أمر شخص أكبر منه على الرغم من أن الحيرة انتابته وهو يرى القائمة الطويلة المفصلة، التي تضم كل منجز بوريس فيان وكأنها شجرة العائلة. قال إنه قرأ بعضها، وسيحاول أن يطلع على الباقي لفهم شخصية بوريس فيان.

- العمل على كل أعماله سيقتضي وقتاً طويلاً.

- خذ الوقت الذي تريد ولكن حاول أن تسرع قليلاً. أنت قارئ جيد، أعرفك. اقرأه وعد لي مسلحاً بهذا الرجل، ليس خسارة في حبيبي بوريس فيان.

نظر ميرو إليّ كأنه يستنجد برأيي. كنت صامتة أتأمل مشهداً سوريالياً. ثم خرج مستسلماً للورقة التي ظل يتأملها كوثيقة رجل محكوم عليه بالإعدام أو بالمؤبد. تمتم وهو يقف عند الباب:

- الله يعيننا عليها. كثيرة طبعاً، لكني سأحاول أن أطلع عليها وأفهم ما فيها.

كنت أسمع لأمي وهي تحكي عن بوريس فيان وأنا أشعر كل يوم بأن عملية الانحدار كانت تتسارع بشكل مخيف، ولا حل لذلك سوى إرجاعها من حين لآخر إلى واقع صعب. حتى عندما أحدثها عن عمّو جواد، المحلل النفساني المعروف في المدينة، صديق والدي، تواجهني بإجابتها التي أصبحت اليوم تقليدية جداً: ماذا سيضيف لي ذلك المجنون عن نفسي أكثر مما أعرفه. يداوي روحه قبل أن يداوي غيره. حاول بابا زوربا، عندما لاحظ بعض انزلاقاتها، قبل اغتياله بفترة قليلة، أن يقنعها بكل الوسائل، بالعودة إلى الواقع والاعتراف بوضعها، ولكن دون جدوى. مع أن الطبيب النفساني لم يكن غريباً. كان بابا زوربا يزوره من حين لآخر من تلقاء نفسه. لم يستسلم في أية لحظة من اللحظات إلى إصراراها بعدم الذهاب. يحاول أن يقودها نحوه بدون تحسيسها بأي شيء. لكنه كان كلما قرّر زيارة عمّو جواد، يتحدث بصوت مسموع أمام أمي:

- فريجة. راح نشوف اليوم جواد، المحلل النفساني. هذه

الحروب خربت كل توازننا وعلينا أن نستعيد بعضه لنستمر في الحياة قليلاً بخراب أقل. وأمر لتسوية وضعية الصيدلية مع ياما لمحاولة فعل أي شيء حتى لا يغلقوها نهائياً. إنهم وراءنا وراءنا.

تنتفض أمي من ركن المطبخ المطل على الصّالون:

- لا. أنا بخير. حتى صاحبك جواد مهبول. يحتاج إلى من يسهر عليه. هو من دمّر رايان ابني بمسكناته التي انتهت به إلى المخدرات. لا يا حبيبي، روح أنت وابنتك. أنا بصحة جيدة والحمد لله. لن أعيش أكثر مما عشت.

- على كل في الوقت الحالي هو من يسهر عليَّ وعلى ياما، والنتائج الحمد لله، إيجابية. ياما استعادت بعض نشاطها، وأنا أيضا بدأت أموري تتغير إيجابياً. رايان كان في وضع أقسى، وكان يحتاج إلى بعض النوم وإلا كان سيغرق في الجنون، فكانت المسكنات هي الوسيلة الوحيدة. المحيط وحرب الموت هما من دمّرا رايان وجيله أيضاً.

لا ترد. تنهمك في غسل الأواني المطبخية وكأنها غير معنية بما كان يدور من حولها.

حاول بابا زوربا طويلاً معها ويئس. آخر مرة، قبل وفاته

بأسابيع قليلة، عندما أصر عليها، أجابت ماما فيرجي بعنف وبشكل جاف أراه لأول مرة على وجهها:

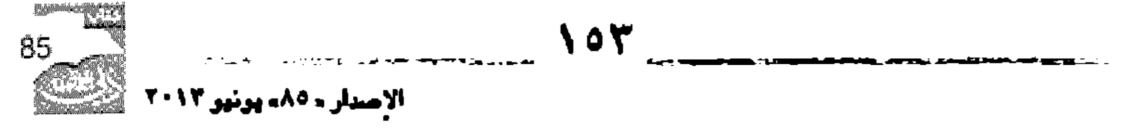
- شوف يا السّي زبير. أنا بخير. اتركني وحالي أنت وابنتك. أنا مليحة. مازلت بعقلي. لست مهبولة أبداً. لا أريد أن أسمع بجواد وأمثاله من المهابيل. كرهته.

طبعاً ليست أنا من سيرث كتب بوريس فيان الثمينة التي تملكها أمي، مع أنّ أعماله الكاملة موجودة في لابلياد[42]، ويستطيع أي شخص أن يحصل عليها. لكن المسألة بالنسبة لأمّي، شخصية وضرورية. فقد كنت أبدو لها أحياناً مهبولة وبلا تفكير. ملتصقة بجهاز ميت يأخذ من حرارتي أكثر مما آخذ منه. لم يكن الفيسبوك وبقية المواقع الاجتماعية إلا مضيعة للوقت، كما كانت تقول.

- متى تعرفين أنك تحتاجين إلى رجل تاع الصحّ[43]، وليس إلى صورة. مجرد ظلال تأتي عابرة ثم سرعان ما تنسحب وتموت في الضوء. ظلال عدوها الأساسي النور. تحتاجين إلى رجل يشعر بك ويبادلك الحنين نفسه ويقودك نحو أجمل الحواس المخبأة فيك. وإلا ستصبحين صورة أخرى

(٤٢) La Pléiade.

(٤٣) رجل حقيقي وليس مجرد وهم.



لصديقتك سيرين أم الخير التي تنتظر نزول ملاكها الغني والكامل ليمنحها الحب واللذة.

- يا أمي أنت...

- لا تكملي، فهمتك. أنت مثل زبير الله يرحمه. سبحان الله نسخة منه. راح زبير، جاء زبير. بنتي ماريا تقدر جيداً وضعي. خسارة أنها في مونتريال. لا يوجد في فميكما إلا الجنون. لست مهبولة. بوريس موجود يا حبيبتي. أو على الأقل وُجِد؟ وأنتِ يا لالة مولاتي؟ إلى اليوم تعيشين على وهم رجل يسكن في الكمبيوتر فقط لا أكثر. انتهت الحرب الأهلية ولم يظهر وجهه. والحرب الصامتة في سنتها العاشرة ولم يظهر. مرحباً بالسلطان الهمام. عشرون سنة؟ فيقي لروحك؟

ثم تدور على نفسها كراقصة شرقية تستعرض مفاتنها.

- وين الفارس الهمام؟ والو. بَخْ. لا شيء.

- لا يزال مهدداً يا أمي.

- وأنت ماذا تفعلين في هذا الغار؟ ألست مهددة؟

- أنا مجرد فرماسيانة(٤٤). هو مسرحي معروف يا أمي. مازلت أركض كل يوم حتى خرجت عمري لأفتح الصيدلية وفاء لوالدي الله يرحمه ولركضه معي. على كل صمم على المجيء قريباً فور انتهائه من إنجاز مسرحيته عن الشاعر

(٤٤) من الكلمة الفرنسية Pharmacienne والتي تعني الصيدلانية.

غارسيا لوركا، ونتزوج بعدها.

- غارسيا لوركا. المهبول اللي تحول إلى تاجر أسلحة وهرب إلى اليمن. نعل الريح. L'homme aux semelles de vent الذي نسى الشعر وراح نحو البارود.

- لا يا يمّا. نسيتِ. هذاك اسمه آرثر رامبو. وهذا غارسيا لوركا.

- مسكين. اللي رمى بنفسه في محرقة غرناطة.

- نعم يا يمّا. كتب حبيبي فاوست عن موته الغامض مسرحية بكاملها سماها لعنة غرناطة. يقول إنه استوحى عمله أيضاً من اغتيال بابا زوربا الله يرحمه.

صمتت لحظة. حاولت أن أساعدها على التذكر. هكذا أفعل معها دائماً.

- فاوست تلقّى عرضاً من وزارة الثقافة والسياحة التي ستقوم بتكريمه بمناسبة عرضه المسرحي وعودته إلى وطنه نهائياً. يريدون أن يعيدوا له بعضاً من كرامته يا يمّا.

- الوزارة؟ كرمت اللي قبله حتى تكرمه هو؟

- لا يهم يا يمّا. لقد اتخذ قراره. هو جاي من أجل عرض مسرحيته التي كتبها وأخرجها هو بنفسه. وضع فيها كل جراحاته وجراحات وطنه وجيله.

تنظر ماما فيرجي إلـيَّ بعينين فارغتين، لا شيء ينبض فيهما. لم تكن أمي هكذا عندما كانت تدرس اللغة الفرنسية في ثانوية ألكسندر دوما. كانت عيناها تبرقان ذكاء ورغبة في الحياة. وكلما جاءتني بكتاب، تغريني به في جو طقوسي. تحكي لي عن بعض تفاصيله. لكنها عندما تصل إلى النهاية، تصمت قليلاً. ترسم ابتسامة في عينيها وتفاصيل وجهها، ثم تضع الكتاب في حضني:

- اقرأي الرواية وستعرفين البقية.

فأنغمس فيها بقوة.

تصمت.

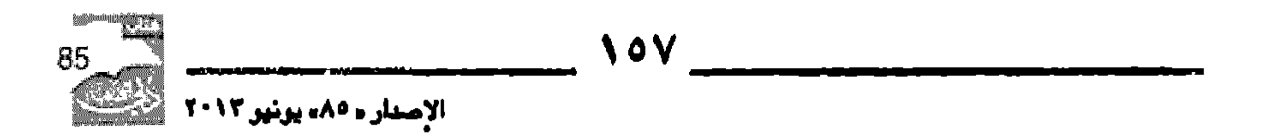
ترفع فيرجي رأسها نحو السقف، تتأمل بياضاً حزيناً كان يشبه الفراغ.

لم تكن فيرجي هنا. لم أكن بجانبها، أشد على يدها اليمنى وأتأمل وجهها الهارب.

-٢-

مشاكل الصيدلية التي لا تنتهي، وجدت أخيراً طريقها إلى الحل النهائي. وقعتُ عقوداً مع الوكالة الوطنية للمنتجات الصيدلانية التي تأسست على أنقاض صيدال، وبعض الخواص الذين كان بابا زوربا يعرفهم جيداً، ويتعاملون مباشرة مع مخابر غربية مؤمنة ومراقبة. لكن الذي كان يشغلني أكثر، هو حالة أمّي التي كانت كل يوم تتدهور قليلاً. لولا عمل الصيدلية، وهروبي نحو أصدقائي في ديبو- جاز كنت ضعت نهائياً في قسوة حالة لم أكن مهيأة لها، ولا أعتقد أن هناك وضعيات شديدة القسوة نتهيأ لها سلفاً. نحاول أن نغرس دائماً في داخلنا شيئاً من الطمأنينة حتى ولو كان وهماً. نعيش القسوة عندما تفاجئنا، ونرمي بأنفسنا في أتونها، ونحاول بعدها جاهدين للخروج منها بأقل الخسارات الممكنة.

غاب ميرو مدة طويلة تجاوزت ثلاثة أشهر. يوم عاد كان محملاً بالمفاجآت السارة لفيرجي. تشكيلات أولية تجريبية بقلم الرصاص، لبورتريهات مختلفة. عندما رأتها، اختارت بعضها، ورفضت الكثير منها لأنّ بها بعض الضبابية، لا



تشبه ما مر بذهنها أوتخيلته.

- هذه مثلاً استوحيتها من روايته: سأذهب لأبصق على قبوركم». الرواية كانت قاسية وكان عليّ أن أتوغّل في أعماقه لأفهم الحرائق التي كانت بداخله. تعرفين سيدة فريجة أننا نقرأ ثم نؤول. لا توجد حقائق مطلقة أبداً.

قال ميرو وهو يحاول أن يقنعها بمشروعه.

- لم يجرح حبيبي بوريس أحداً. هم من اعتدوا على طفولته. وحتى لا يبدو غبياً ومستسلماً، كان عليه

أن يدافع فقط عن وجوده. لهذا لا يليق به أن يكون بهذه الصورة القاتمة. لقد قاتله المهزومون الذين لا يرحمون أحداً من الناجحين، بمن فيهم زوجته القاسية ميشيل لوغليز التي اختارت سارتر، المعتوه و"النسوانجي"، وباعته. لا يا ميرو. الطيبون ليسوا للطيبات والطيبات لسن للطيبين. يبدو لي أن العكس هو الصحيح. البليد للذكية والبليدة للأذكى والأجمل. هذا قانون الحياة في بلداننا. هل تدري ماذا فعلوا به؟

كان ميرو يعرف جيداً كيف يساير ماما فيرجي. يحاول أن يظل في منطقها.

---

(٤٥) J'irai cracher sur vos tombes.

- لا أعرف الشيء الكثير عنه، مثلما تعرفينه. ولكني، وأنا أقرأ عنه وعن حياته، شممت عاصفة في أعماقه ضد العنصرية وضد الحروب وضد الظلم.

- هذا الذي كان يجب أن تجسده في لوحاتك يا عزيزي ميرو. هل رأيت رسولاً يأتي برسالة خير للناس ويسلمها لغيره من الأنبياء الوهميين؟ هو هكذا. كتب هذه الرواية التي قتلته باسم أمريكي مستعار هو فيرنون سوليفان(٤٦)، ونشرها بعد رماد الحرب العالمية الثانية، وكان ممتلئاً ببقايا الحرائق التي رفضها. قال إنه ليس صاحب الكتاب ولكنه مجرد مترجم له. هي رواية الانتقام. ماذا كان في رأس بطله لي أندرسون(٤٧) سوى الرغبة المستميتة للانتقام لأخيه؟ العنصرية في جنوب أمريكا كانت قوية. ماذا وجد له قتلة الروح كالعادة؟ قالوا إنه كتاب فضائحي وغير أخلاقي، فصادروه وأدانوا صاحبه بتهمة المس بالأخلاق العامة. أبناء الكلب عن أية أخلاق يتحدثون؟ تمنيتك أن تكون قريباً من جرح خيباته فقط.

صمت ميرو قليلاً. كنت في المطبخ أعد قهوة. كان رأسي الذي يكاد ينفلق بسبب الشقيقة، في حاجة ماسة لها. لم يغب عني أي شيء من مشهد ميرو وفيرجي.

---

(٤٦) Vernon Sullivan.

(٤٧) Lee Anderson.

- في الحقيقة وجدت نفسي بين خيارين، رسم الكُتُب أم رسم الكاتب.

- كان يمكنك أن لا تفصل بينهما؟ أردتك فقط أن تقرأها لتجد مسلكاً يزيد من اكتشافي لهذا الرجل. يريني خفاياه التي تغيب عني على الرغم من معرفتي له.

- معك حق. سأفعل أكثر في المرة القادمة. الآن فهمت جيداً مرادك.

- لا ليس هذا فقط. احزن لآلامه. تمنيتك أن ترسمه في شكل سيدنا المسيح، لأنه مات مقهوراً من نكران المحيط الباريسي البليد والظالم.

- كنت أفكر قليلاً في هذا.

ثم غاب ميرو من جديد مشحوناً بالأوامر. متحمساً أكثر من المرة الأولى. عاد بعد أيام محملاً باللوحات التي اشتهتها. لأول مرة أرى إشراقة السعادة والذكاء ترتسم في عيني أمي. أكثر من عشر بورتريهات، متنوعة مشرقة كلها بابتسامات بوريس فيان، أو حيرته أو موسيقاه وألقه المسيحي. واحدة من هذه الصور بدا فيها واقفاً باستقامة كسيدنا المسيح، ووراءه فرقة الجاز التي كونها في مخابئ سان- جيرمان دي

بري[٤٨]، في يده اليسرى آلته الموسيقية ترومبيت[٤٩]، ويلوح بيده اليمنى لظل كان يشبه أمي كأنه كان يريد إنقاذه من شيء غامض. هذه اللوحة الكبيرة التي أنجزها ميرو بشكل طولي، سحرتها كثيراً لأنها ولدت لديها فكرة مجنونة أخرى عندما سألته عن امرأة الظل. المرأة المبهمة في اللوحة.

- من تكون؟

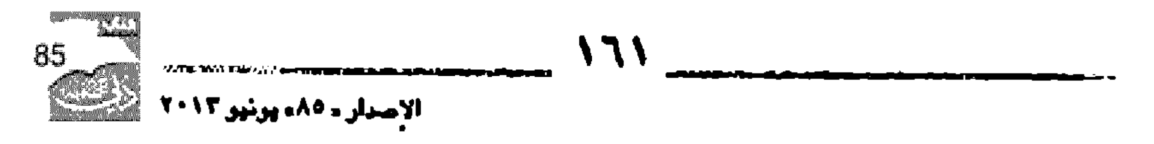
- أردتها أن تشبهك لتزرع في اللوحة شيئاً من مناخاتك الداخلية، ودفء بوريس. هو مثل سيدنا المسيح، يمد يده نحو المطلق. أنا أيضاً أحببت هذه اللوحة ولهذا كانت طولية لأنها تصعد نحو التسامي والهشاشة أيضاً، على العكس من اللوحة العرضية التي تذهب نحو الاستقرار واليقين.

- ممتاز. هذا ما كنت أريده. ربما احتجتك في شيء أهم طرأ لي الآن، سأخبرك عنه لاحقاً. امرأة الظل التي تتخفى وراءه ولدت لدي أفكار كثيرة.

انسحب ميرو بعد أن شرب قهوته ووضعت أمي في كفه غلافاً. افترضتُ أنها نقود مقابل جهوده. كان ميرو في لباسه الأبيض ولحيته المقصوصة بنعومة، يبدو كجراح مختص، أو طبيب عالمي حضر خصيصاً لإجراء عمليات معقدة والعودة

(٤٨) St-Germain-des-Près.

(٤٩) Trompette .



إلى مستشفاه. كانت فيرجي تجد معه كل راحتها.

لا أدري ماذا كانت تريد أن تقول لميرو في الأخير، لكن بدا لي الأمر هاماً جداً ولهذا أجّلته.

ودون سابق إنذار بدأت أمي في تغيير نظام البيت. في لحظة ما، فكرتُ أن أوقفها لأنها بدت لي أنها ترهق نفسها أكثر من اللاّزم، ولكني خفت أن أصدمها. قلت لها قبل النزول إلى الصيدلية:

- يما. هل أساعدك على تغيير ديكور البيت؟
- من الأحسن أن تنزلي لصيدليتك. لا أحد غيري يعرف الآن ما يجب فعله.
- جاد في الصيدلية، فلا مشكلة لي. يمكنني أن أفعل شيئاً من أجلك يخفف عليك مشقة ترتيب شؤون البيت التي ليست دائماً مريحة. قولي لي فقط ماذا تريدين؟
- أن تنزلي لعملك حالاً وسأكون شاكرة لك.

أدركت أن أي حوار معها هو المزيد من الارتباك والغضب. تركتها تفعل ما تريده في الصالون وفي غرفتها الحميمية التي لا يدخلها أحد غيرها. نظيفة ومعطرة بشكل دائم حتى في عز انتكاساتها، ولكنها كانت باردة كقبر.

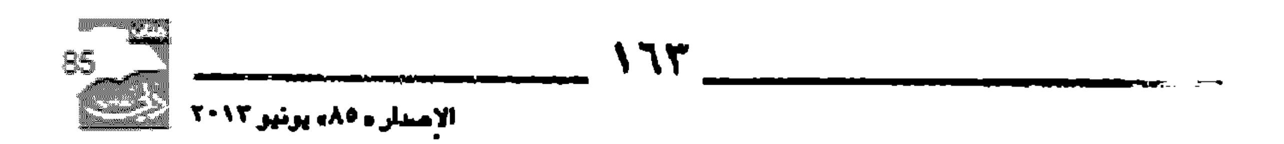
هي المرة الثانية التي تقوم فيها بثورة بيتية. الأولى عندما

اتخذت قرار نزع كل صور والدي لتحرر البيت من أنفاسه التي ظلت تراقبها في الصغيرة والكبيرة.

فجأة أصبحت لوحة بوريس فيان الطولية تتصدر الصالون. يبدو واقفاً بشموخ زائد. أفرغت الحيطان، ما عدا حائط المكتبة، من لوحات الرسامة الروسية لودميلا التي سلبت عقل بابا زوربا عندما عرضت في الشيراتون ، فاشترى اللوحات الأربع: الأخوات الأربع. ونزعت لوحات مهمة لمحمد إسياخم وأخرى لمحمد خدة ومنمنمة غالية في الدقة لمحد راسم، ولوحات أفريقية حية الألوان، ولوحة لرسامة هندية ويابانية كان بابا زوربا قد اشتراها في مهامه المخبرية لتلك البلدان. لملمتها كلها ووضعتها في زاوية من غرفتي في انتظار أن أجد لها مكانا مناسباً.

ظلت فيرجي طوال اليوم منتشية بلوحة بوريس فيان الطولية ويامرأة الظل التي تشبهها. لا تتحدث إلا عنها وعن أناقة ميرو الفنية ومهارة أصابعه الناعمة.

التفتَتْ نحوي وهي تنظم روايات بوريس فيان وتنفض عنها الغبار، وتضعها في صندوقها، وسط كتان أبيض خوفاً عليها من التلف. لم أر إلا زبد الأيام التي كانت تسحرها، بعد أن خبأت في الصندوق نفسه الروايات الأخرى التي كانت



ميراثها: خريف بكين، العشب الأحمر، جرح القلب، سأذهب لأبصق على قبوركم، للأموات نفس البشرة، سنقتل كل البشعين، إنهن لا يأبهْنَ٥٠..

شعرت فجأة بالخرس. لم أكن قادرة على قول أي شيء.

- ياما... شفتِ حبيبتي، أرأيت كيف تمكن ميرو من الإنصات ومعرفة ما في أعماقي؟ من حين لآخر يصيب بالخصوص عندما يتم تنبيهه لأنه كثيراً ما يطلق العنان لخيالاته الخاصة. يحتاج إلى من يوجهه.

- ولكن يا أمي هذا يعذّبك. تحبين...

- أحب ظلاً. نعم. ماتَ بالضبط يوم وُلِدتُ. نعم. لست مجنونة. أعرف كل شيء. وماذا كان والدك غير ظل هارب مع مخابره وأسفاره وعواصمه وأدويته؟

- كان يحبك يا أمي. أعرف هذا جيداً.

- ليس المهم أن تعرفي أنت هذا الحب. المهم أن أعرفه أنا. لم أره. أرجوك ياما. ستقولين أمي أصيبت بالخرف المبكر. أنا في كامل وعيي. الحب هو أبسط من تعقيداتنا. أن تفكر كل يوم بأن هناك شخصاً معلقاً على كلماتنا وحركاتنا وحواسنا

---

(٥٠) L'Écume des jours (1947), L'Automne à Pékin (1947), L'Herbe rouge (1950), L'Arrache-cœur (1953), Trouble dans les Andains (1942-1943), J'irai cracher sur vos tombes(1946), Les morts ont tous la même peau(1947), Et on tuera tous les affreux (1948), Elles se rendent pas compte(1950)

وعطرنـا، هذا هو المهم حتى في لحظات الغياب القاسية. علينا فقط أن نلتفت نحوه من حين لآخر، وننصت لدقات قلبه، لها الحق في العيش. طلبات القلب ليست كبيرة ولا مستحيلة. الحب عندما يصبح انتظاراً دائماً يخسر عمقه ويصبح مرضاً. أبوك مرّضني. قضيت عمري كله أنتظر عودته التي كثيراً ما تطول. كان له ما يشغله.

- مخابر الأدوية التي كان يشتغل فيها.

- أكثر من ذلك. في كل مرة يسافر مع عشيقة. اللواتي كنَّ يعملن معه كنَّ جميلات. وزبير مضروب على النساء الجميلات. وجدت في ملفاته صورهن. إحداهن كانت قريبة منه جداً. اطلعت حتى على بعض رسائلها: أمايا شيسوتو. لم تكن رسائل عن الأدوية ولا عن العمل، ولكن رسائل عشقية.

- يا يمّا...

- ياما حبيبتي، لستُ مهبولة، ولكني امرأة مجروحة في الصميم. لقد تواطأ ضدي والدك وحرب هذه البلاد الخاسرة. كانت أمايا تخبره في كل مرة في رسائلها التي قادتني الصدفة نحوها، بأن يونا أيِيكو[51] الصغيرة تكبر بسرعة وتسأل عنه وتنتظر عودته كل ليلة. لا أريد أن أصدق بأن ياشي ابنتهما ولكن... لكني حزينة لأني أشعر بنفسي امرأة مخدوعة.

---

(٥١) يونا Yuna تعني في اليابانية القمر، وأيِيكو Aiko تعني طفل الحب.

وانتقام المخدوعة أعمى ومدمر لها قبل غيرها.

لم أجد كلماتي، فقد هربت كلها مني دفعة واحدة حتى كدت أصاب بالبكم. التبس عليّ كل شيء. هل كانت فيرجي تهذي لتبرر حقيقتها التي تقودها سريعاً نحو جنون أكيد، أم أنها كانت تنام داخل جرح وحدها من كان يعرف عمق آلامه.

اجتهدت في أن لا أجرحها.

- معك حق يا أمي. ومع ذلك كان بابا زوربا غارقاً في مخابره وأدويته. كان عمله هو رهانه الكلي. حتى يوم أحرقوا صيدال كان يعرف الجناة أو يشم رائحتهم وربما هم من قتله. يومها في المقبرة رأيت حقداً كبيراً في عيني مدير مخابر السلام. لم يأت للجنازة ولكنه جاء ليتأكد من أن بابا زوربا مات حقيقة. كانت لبابا صديقات، كل هذا صحيح يا يمّا، لكنه كان يحبك. ويخاف عليك كثيراً.

- الحب يحتاج إلى أن يُرى، وأن يُحس أيضاً. فهل كنتُ باردة إلى هذا الحدّ وعمياء؟ والدك قُتل في حرب خاسرة لم تكن له وكان يعرف ذلك. عندما كان في أوروبا قلت له لا تعد. كانت حياته تهمني. حاولت. ترجّيته أن يبقى هناك وأتبعه مع الأولاد، لكنه ركب رأسه وعاد مباشرة بعد إفلاس بريستول ميير. قتل نفسه، وقتل عائلة كلها معه. أين رايان؟ ماريا؟ أنتِ؟ أنا؟ كلنا شهداء هذه القسوة التي لم يفكر فيها لحظة

واحدة. يموتون في الحروب المبهمة أو الخاسرة ونُقتل دون أن نعرف لماذا؟ كل منا مثل خروف يقودونه نحو المسلخ وهو لا يدري لماذا، ولكنه يمشي نحو حتفه.
حتى عندما قامت لتنهمك في إعـادة ترتيب البيت مثلما اشتهته، فوجئت من صفاء فيرجي، حتى أني نسيت أن أنزل للصيدلية، فقد تركت جاد وحدها كالعادة كلما تعلق الأمر بأمي، لولا أن أخبرتني بأنها مضطرة للخروج وعليّ أن أنزل لأبْقِيَ الصيدلية مفتوحة لأننا كنا ليلتها نحن صيدلية المداومة.

عندما عدت فجراً إلى البيت وجدت أمي على سرير كوزيت، ممتدة ككتلة بلا روح. عيناها حمراوان مرتشقتان في الفراغ. كنت منهكة وفي حاجة إلى نوم. لكني لم أستطع تركها على تلك الحالة. كانت تبكي بقوة. لم أفهم جيداً السبب. سألتها وأنا مترددة من أن أثقل عليها شجنها، بالخصوص مع حالتها الهشة. فلم تجبني إلا ليلاً عندما قالت لي:

- اشتقت إليه كثيراً يا ياما ابنتي.
- بابا الله يرحمه. أجبت بلا أدنى تفكير لأن النقاش بقي معلقاً فيه. أنا أيضاً اشتقت له بشكل لا تتصورينه يا يمّا. أشعر بأن بابا زوربا مات بشكل عبثي. لم يختر أية جهة ولهذا دفع الثمن غالياً. برفضه لكل العروض كان بابا يوقع وثيقة

اغتياله. يتسامحون مع كل شخص إلا مع من يضايقهم في مشاريعهم القاتلة والحارقة.

صمتت قليلا وكأنها لم تسمع ولا كلمة مما كنت أقوله. نظرت إليَّ مثبتة عينيها اللتين بدتا فارغتين كعيني ميت في عيني. رأيت بياضاً فيهما، كان كل يوم يتسع قليلاً. بقيت صامتة وكأنها كانت تفكر في ما يمكن أن تقوله لي. تبحث عن كلماتها.

حاولت أن أخفف عليها وحدتها التي شعرت كأنها كانت تلفها في أغطية تشبه أغطية الموت.

- يا يمَّا لازم تحمدي ربي. الحرب انتهت. أنا معك، مازلنا أحياء. واللي مات الله يرحمه. بابا ظل مخلصاً لعمله. أختي ماريا، توأمي بخير. هي في مونتريال. يا ماما والله فتح عليها. كلما كتبت لها رسالة أوصيها بأن لا تأتي. صحيح أنها لم تعد تكتب لنا ولكنها من حين لآخر تبعث لنا رسائل قصيرة حتى ولو كانت مكررة. لا أغضب منها أبداً، فهي توأمي، جزئي الآخر الأكثر رغبة في الحياة والأكثر براغماتية. عملها شاق ولكنها تحبه. هي سارت على خطى والدي، عالم الأعمال ومخابر البحث، وهو من نصحها بذلك. وضع

حبيبي رايان يحزنني. خسرناه طفلاً ولم نعرف كيف نحافظ عليه. لكنه حيّ وحتما سيخرج يوماً من سجنه، هذا وحده كاف للتفاؤل. عشرون سنة حبساً ليست شيئاً كبيراً. ثم هناك العفو الرئاسي ربما قد يشمله.

مرة أخرى لم أشعر بأن فيرجي كانت تسمع لي. التفتت نحوي من جديد بعينين متعبتين وأكثر فراغاً من المرة الأولى. لم أر فيهما حتى الخوف الذي تعودت عليه. لمحتُ في سرعة البرق شيئاً مبهماً وسريعاً، لا يستقر على مكان.

- حبيبتي ياما.

- معك يا أمي.

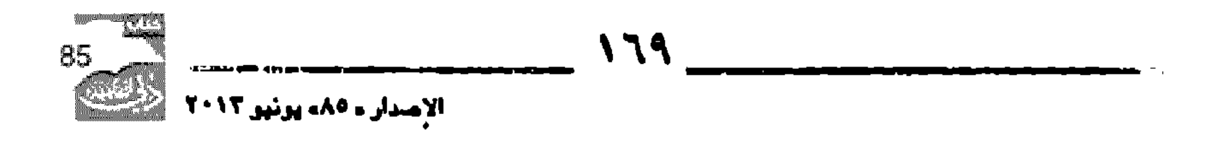
فجأة صعقتني بكلماتها الغريبة التي لم أكن أنتظرها أبداً.

- تريدين الصراحة يلما؟ اشتقت كثيراً لحبيبي بوريس. غاب عني كثيراً ولم يعد يفكر فيّ كما كان. منذ مدة لم أره. لم أسمع صوته.

- ماما. بوريس مجرد....

- لا هو ليس ظلاً، هو كل شيء.

لا أدري لماذا ارتعبت أكثر من أية فترة أخرى. ولكني في تلك اللحظة نفسها بالضبط أدركت أني فقدت فيرجي نهائياً، وخسرت أمي. كانت قد ملأت جيوبها بالحجارة للمرة



الأخيرة، وبدأت تتجه بخطى حثيثة وثابتة نحو نهر الموت، الكبير والعميق، الذي غرقت فيه قبل فيرجينيا وولف. ليس نهر أوز القريب من بيتها في مونكيز هاوس Monk's House، ولكن نهر الجنون.

في ذلك اليوم، كان الانحدار قوياً ومريعاً.

واصلت وهي تحاول أن تتعقل.

- اسمعي. أعرف أنك تحبين والدك ولكنني صممت على إزالته من حياتي نهائياً. تعبت منه حياً، وتعبانة منه ميتاً. أنا أيضاً أرفض هذه الوضعية المزدوجة. لا يمكنني أن أستمر في خيانته بهذا الشكل السافر. كل ليلة يقف عليّ ويؤنبني. لست أثاثه. عليَّ أن أفترق معه في كل بقاياه، بما في ذلك ذاكرته لأتفرغ للرجل الذي أحببته. في عز النوم يأتي ليوقظني، ولا يراعي تعبي ولا خوفي. في آخر مرة رفع القسوة إلى أقاصيها التي لا تُطاق. نزع الخاتم الذي أهداه لي، ثم ركض نحو السيارة البيضاء التي كانت تنتظره وبها امرأة من شكلها الآسيوي تبدو يابانية. هي السيارة نفسها التي رأيتها ليلة موته على عتبة باب البيت الخارجي، وكانت تنتظره ويجانبها رجلان يلبسان البياض وينتعلان الخوف.

- يا أمي... أنا لم أعد أفهم شيئاً.

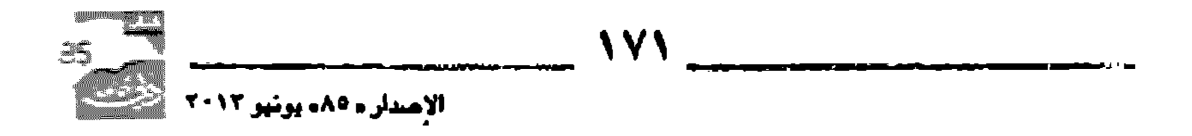
- يجب أن تفهمي. كبرتِ ولو أنك غارقة صبحاً ومساء في الفيسبوك. بلا فائدة.

لم أر فيرجي أبداً في هذه الحالة من القلق والانزعاج والغضب. انسحبت نحو غرفتي، ربما لتفاديها ولكنها تبعتني حتى سريري. كانت في حالة شبه هستيرية. بدأت فجأة تجمّع ألبسة بابا زوربا، وتفكك للمرة الثانية ما تبقى من صور والدي من أطرها. بالخصوص تلك التي كانت تطرز غرفة نومها التي أصبحت تجد صعوبة كبيرة في النوم فيها. وتجمع أيضا الصور الفوتوغرافية التي أخذوها في أمكنة متعددة من الكرة الأرضية أثناء مرافقتها له في بعض رحلاته.

التفتتْ نحوي، وشيء من الدم يخترق عروق عينيها.

- اليوم انتهى كل شيء. أبوك حررني بنفسه من قيوده. هو من نزع الخاتم. جاءت منه وليس مني. فضّل عليّ عشيقته اليابانية. ليكن. سعيدة أنه أقدم على ذلك ربما كان الشيء الأوحد الجميل الذي قام به من أجلي، في حياته وفي موته. لا أريد أن أتبعه نحو ظلمة قبره. سأحرق كل ما ربطني ويربطني به.

شعرت نحوها بشفقة غريبة أكثر من الغضب منها. وتذكرت أناقة والدي وخوفه المميت عليّ وعلى ماريا وعليها أيضاً.



احتضنتها وبكيت على صدرها. لم يكن صدرها دافئاً، كان بارداً كشاهدة قبر. لكني يومها قبلت به كما هو في برودته لأنه صدر أمي. خبأتُ بعض الصور التي لم تحرقها في المطبخ، أو دفنتُها في عمق الدرج الذي لا أفتحه أبداً. هو مقبرتي الحميمية والصغيرة والآمنة جداً. كلما اشتقت لأبي انعزلت في غرفتي وأغلقت الحاسوب لكي لا يغريني الفيسبوك وأنام على دموعي وأنا أتأمل صوره القلقة، رحلاته الكثيرة، البلدان التي زارها، نساءه الجميلات. كان دائماً مع المرأة نفسها. امرأة يابانية أنيقة ومدهشة. ربما كانت أمايا شيساتو التي لمْ أعرفها أنا أيضاً إلا من بعض صورها وبعض رسائلها. في يدها طفلة صغيرة، يونا آييكو، ترسم ابتسامة جميلة فيها شيء غريب من الألفة وكأني رأيتها من قبل. يقول بابا زوربا عن هذه المرأة، إنها كانت مساعدته في رحلاته عندما كان يعمل في مخابر بريستول مير سكيب Bristol-Meyers-Squibb والتي لم يقطع معها أبداً.

ظللت مشدوهة في الصورة التي سلبتني كل إرادتي. شعرت هذه المرة كأني كنتُ أقرأها بعيني أمي وجرحها العميق. لكني لم أكن قادرة أبداً على الحقد، لا على بابا زوربا الذي لم أشبع منه، ولا حتى على أمايا التي سرقت قلبه، ولا على الصغيرة يونا التي ربما كانت أختي. من يدري؟

-٣-

تعبت، وكدت أغلق الصيدلية لولا مساعدة جاد.

صحة أمي كانت تتدهور كل يوم أكثر، ولم أكن قادرة على توقيفها على الرغم من جهودي الكبيرة نحوها. أصبحت على يقين بأن فيرجي كانت تتجه نحو انفصام نهائي في الشخصية، ولا يمكنني أن أفعل شيئاً مهماً في صالحها. تشجعت، وطلبت منها أن نزور معاً عمّو البروفيسور جواد، المحلل النفساني الوحيد المتبقي في الجانب الشمالي للمدينة، وصديق العائلة. شتمتني طويلاً وكررت علي كلمتها التي تصفعني بها كلما سألتها عن صحتها: حسبتني مهبووولة أنا بصحتي ومليحة.

ومع ذلك ألححت عليها أن نزوره أو يزورها في البيت. ولكنها رفضت قطعياً. في مرة من المرات زارها عمّو جواد بشكل فجائي على أساس أنه كان عابراً، وأنه صديق المرحوم. مرّ فقط ليسأل عنها وعن الأولاد. رحبت فيرجي به لأنها لم تكن تعرف بأني أنا من كان وراء تلك الزيارة. سألها عن الحياة وأحوالها وأكد لها ما كانت تعرفه عنه، أنه كان صديقه في نيويورك وبون وباريس، وأنهما درسا مع بعض كل في

تخصصه. من أسئلته الكثيرة اشتمَّت بعض الريبة، ولكنها لم تستطع كبح اندفاعها نحو كل ما كان في قلبها من حرائق لا يزال رمادها مشتعلاً. واصلت حديثها عن نفسها وعن طلاقها مع والدي في موته. حكت له حلمها. حكت عن علاقته الأكيدة مع أمايا شيساتو التي أنجبت يونا أبيكو، هي على يقين أنها منه. ثم بدأت تروي له قصتها مع بوريس فيان الذي كان يملأها كلياً وطلق زوجته ميشيل ثم أوريسولا من أجلها. لم يوقفها عمو جواد أبداً، بل كان يساعدها على التذكر كلما بدا الأمر مستعصياً عليها. كانت فيرجي تشتهي أن تحكي. عندما شرب قهوته، كانت أمي تعدل لوحة بوريس الطولية وتنفض عنها الغبار. عند الباب وهو يهم بالخروج قال لي جملة ظلت تطن طويلاً في رأسي، حاولت على أثرها أن أكتم صوتي لكي لا أصرخ مثل الذي يعذب في غابة موحشة.

- شوفي ياما ابنتي. لا أكذب عليك. أمك تخطت المرحلة النهائية، فهي في الجهة الأخرى. اتركيها تعي وضعها بنفسها ربما كان ذلك أسلم لها وأريح لك أيضاً. يمكن أن تعود لوضعها الطبيعي وتدرك قسوة ما هي فيه، وتؤمن بأن الدواء هو الحل الأوحد. وقد تدخل في عزلة كلية حتى الانطفاء، وهذا هو الأرجح. مرّي عليّ

على العيادة، أسلمك بعض المهدئات، ولكن لا دور
كبير عليها سوى أنها تمنحها بعض الراحة والسكينة،
وربما بعض السكينة .

لم يستمر الوضع معها طويلاً. في صباح يوم من الأيام رأيتها سعيدة على غير عادتها. قالت لي وهي تمسح الحمرة التي وضعتها على خدّيها وشفتيها.

- ياما. انظري. أنا الآن أفضل بعد الطلاق من والدك. وبوريس أيضاً في وضع صحي وشخصي أفضل. كلّمته البارحة طويلاً في المستشفى وتفهمني كما تفهمت طلاقه من قبل.

- يا ماما... بوريس عنده في حياته قطيع من النساء؟

- أعرفهن كلهن. لم يخبئ عني ولا واحدة منهن. على العكس من زبير هو اليابانية الفايحة ديالو. غير منشغلة بنساء بوريس لأنّي حبيبته النهائية والأخيرة التي تمنى أن يموت معها.

كنا لا نزال في حديثنا الخاص، عندما دخل علينا ميرو بأناقته وطيبته. حياها بحنان بعد أن ضمها إلى صدره. كان يعرف جيداً الهشاشة التي انزلقت نحوها. كنت أعرف أنها

كانت على موعد جديد معه في مهمة شبه مستحيلة. فقد طلبت منه أن يصورها برفقة بوريس. لم يفهم طلبها بالتليفون حتى جاءته بالألبوم الحميمي. مليء بصور بوريس مع أورسولا كويلر على البحر أو في سهرات موسيقية، أو هي معه في مقاهي سان جرمان، وصور زوجته الأولى ميشيل ونساء أخريات لم تكن قادرة على التعرف عليهن. ثم قالت لميرو:

- قلت لي إنه بواسطة الفوتوشوب تستطيع أن تغير صورة بصورة. تمحو صورة وتعوضها بغيرها.

- ممكن جداً طبعاً. بشروط صغيرة يمكن تنفيذ ذلك.

- طيب افعل وبسرعة.

- هاه. الآن فهمت قصدك. تريدين أن تسترجعي حقك المسروق من نساء بوريس.

كان ميرو يسير بالضبط في خطها. التفت نحوي بشكل خاطف.

هز رأسه وهو لا يعرف ما هو المطلوب منه ولا كيف حررت الألبوم الخاص الذي ظلت تحافظ على سريته لمدة طويلة. اشترته من باريس من سوق سانتوان(٥٢) العتيق يوم سافرت مع والدي في اجتماع دولي كبير لمخابر إنتاج الأدوية. كان يأخذها معه من حين لآخر. يقضي وقته بين المخابر،

---

(٥٢) St-Ouen .

وتقضي هي وقتها بين المكتبات والمتاحف. زارت في وقت سابق كل أماكن بوريس وتشبعت بها. زارت مخابئه، ولمست آلاته النحاسية ترومبيت والساكسوفون وغيرها من الآلات التي كان يعزف عليها مع فرقة الجاز. كانت كلما وقفت في الصالة التي توفي فيها وهو يرى عرض الفيلم المقتبس عن روايته: سأذهب لأبصق على قبوركم تصاب بحالة حزن قوية وكآبة. ثم تجلس في مقهي لدوماغو(٥٣) وتتذكر لقاءاته مع جون بول سارتر وكأنها شخصية رابعة بينهم، وتسعد أن سارتر كان قبيحاً ولكنه كان مريحاً لأنه سرق منه ميشيل وحررها لتحتل هي مكانها حتى قبل أن يتعرف على أورسولا كويلر. ثم تصاب فجأة بحالة من القلق والكآبة عندما تراه وهو يميل برقبته على كرسيه ليصاب بسكتة قلبية لم تمنحه أي حظ لتجاوز خوفه. في تلك الزيارة اشترت من سوق سانتوان الألبوم الذي وجدته عند شخص لم يكن يعرف قيمته. مليء بصوره العشقية. عادت به كأنه كان كنزها الوحيد. اشترته بثمن غال وهي لا تعرف لأي غرض ستستعمله سوى أنها من يومها أصيبت بلوثة وجنون بوريس فيان. بمجرد أن تركت فيرجينيا وولف أصيبت به.

---

(٥٣) Les deux Magots .

- ما هو المطلوب مني بالضبط؟

تساءل ميرو مرة أخرى وهو يجاريها بابتسامته الجميلة.

- أنت تعرف أحسن من أي شخص آخر. لقد سرقوا مني كل شيء، وتسامحت، إلا بوريس، فلن أسلّم فيه أبداً. المطلوب منك بسيط وهو في صلب حرفتك التصويرية. أن تنزع صور النساء المتسلطات عليه، وتضع صوري بدلها فقط. قل لي إنك تستطيع ميرو لأن الغيرة ستقتلني.

- في هذا المجال بالذات لا يوجد أي مستحيل. أستطيع طبعاً. وهذا حقك. أنا أيضاً لا أحب النساء اللواتي يسرقن رجال الغير.

كدت أتدخّل وأقول له: يا عمي ميرو لا توجد سرقة بين رجل وامرأة بالغين. يوجد تراض كامل. وفي التراضي مسؤولية مشتركة يتحملها الإثنان. وبعدها عدلت عن فكرتي لأنها كانت بلا معنى. وهو كان يعرف ذلك أكثر منّي.

قضى ميرو معها اليومين التاليين يصورها في وضعيات أورسولا وميشيل وغيرهما من النساء الموجودات في الألبوم. ينظر إلى صور الألبوم ويطلب منها أن تتخذ بالضبط الوضعية نفسها بالخصوص حركة الجسد وميلاناته وانعطافه وحركة الأيدي والأصابع والوجه والابتسامة أو الضحكة، كما في

الصور الأصلية. حركة الأصابع في حالة إطباق أو انفتاح، الذراعان، حتى الابتسامات كان عليه أن يدققها. الظلال صنعها بشكل ماهر، بحيث تكون متسقة بقوة مع الصور الأصلية التي كان عليه أن يجري عليها التغييرات والتعديلات الضرورية بحيث يسهل إدراجها بسهولة أكثر.

استغربت من أمي المنفعلة والغاضبة دوماً. كانت تنصاع له كملاك مدجَن. يوقفها. يجلسها. يميلها يميناً أو شمالاً، إلى الخلف ثم إلى الأمام. تبتسم وتنفذ كل ما يأمرها به. كثيراً ما كان هو نفسه يساعدها على اتخاذ الوضعية المناسبة التي تتجاوب بدقة مع الصورة.

كان شيء ما في قلبي يحرقني. يحوّل كل شيء فيّ إلى رماد. كان شعوري بالهزيمة كبيراً. صعُبَ عليَّ تحمل هذه الحقيقية القاسية. لم أكن قادرة على أن أفعل أي شيء لإنقاذ أمي. حتى ملاحظة عمّو جواد لم تمنحني الكثير من الآمال، مع أني كنت دائماً أحاول أن أقنع نفسي بأن هناك شيئاً ما يمكن فعله؟ أو يجب على الأقل فعله قبل فوات الأوان.

اندفنت في غرفتي وتركتهما ينهيان عملهما.

بكيت طويلاً في عزلتي المرة، ولعنت فاوست أولاً لأنه لم يساعدني في أي شيء، ثم لعنت الحرب التي تركت بصمتها

وخوفها ونهايتها القاسية عليَّ. قَتَلَتْ والدي وهَزَمَتْ أمي وهجَّرتْ توأمي، نصفي، وأحْرَقتْ أخي، وطوّحتْ بي بقوة في عرض الحياة.

لم أر ليلتها شيئاً، لا أحصنة بيضاء ولا غزلاناً تتراقص فوق الثلج، على مرمى اليد، ولا قوس قزح وهو يركض ضاحكاً وأنا أجري وراءه، ولكني كنت داخل ريح قاسية كانت تدفع بي نحو الثقب الأسود الذي يخترق الفضاء ولا أحد يعرف متى يبتلع كل شيء. كنت أقاوم، ولكن لم يكن لمقاومتي أي معنى. كانت فقط تؤخر الوصول والتماهي مع السواد.

كنت نجمة محروقة، لكني كنت أرفض أن أرمي بنفسي في قدر حارق لم يكن يناسبني. حبيبي فاوست على جنونه وكثرة حماقاته، والصيدلية وديبو- جاز كانوا يمنحوني بعض الأمل للالتصاق بالحياة أكثر. وكنتُ مصرّة على ذلك.

-٤-

عندما عدت من الميناء كنت متعبة. كل حاويات الأدوية فُتشت. لولا شطارة جاد ومساعدة أخيها ماسي، كنت استسلمت للبؤس الأسود الذي لم أكن قادرة على تحمله. سعدت بأن الأدوية التي طلبناها وكان الناس يحتاجونها وصلت. المستشفى نفسه لم يعد قادراً على الاستيراد. شركتنا الصغيرة التي أسستها مع جاد لاستيراد الأدوية، لتفادي التبعية بدأت تعطي ثمارها.

كان هذا هو حلم والدي.

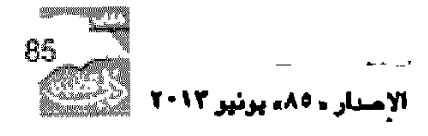
كنت فقط خائفة على أمي.

كل شيء تغير.

عندما عدت من شططي اليومي في الصيدلية، لم أعرف البيت نهائياً. فتحت لي فيرجي الباب وقادتني من يدي نحو غرفتها.

كانت بشوشة ومبتسمة وفرحة وسلام ما يملأ عينيها.

- مش معقووول؟ أكاد لا أصدق عيني.
- حتى تعرفي بأن هذه المهبولة تعرف كيف تسترجع حقها ممن سرقوه منها. ثم أن غرفتي أصبح لها الآن معنى خاص بعد أن انسحب منها والدك نهائياً بعد طلاقنا. أصبحت دافئة بعد أن كانت شبيهاً للقبر. الحمد لله، كل شيء جاء في وقته.



- الله يخليكم لبعض يا يمّا.

لا أعرف كيف خرجت الكلمة الهاربة مني على عكس ما كان يغلي في داخلي. كانت تعبيراً عن استسلامي أكثر من أي شيء آخر.

فجأة ذُهلت مما رأيت من صور بالغة الدقة. حتى أني توهمت أن أمي عرفت بالفعل بوريس فيان وكانت حبيبته. كانت سعادة فيرجي كبيرة وهي ترى وهمها أمامها يتجسد. كيف نقلتها الحروف الهاربة من شارع سان جرمان دي بري إلى الحقيقة التي لم تكن تراها إلا هي، وكانت سعيدة بها؟ لم أخبئ إعجابي بالصور وأنا أحاول أن أكتم جنوني الخفي على والدي الذي كان يحبني. كان دائماً يقول: في كل هذا العالم الخرب ليس لي إلا حبيبتي ياما. لياما سر الحياة نفسها. أحب ياما لأنها تشبهني. وعندما نتشابه، نختلف كثيراً ونتشاجر ونتقاتل أحياناً ونغضب من بعض ولكننا نظل توأمين في المسرات والمضرات.

اقتربت أكثر من الصور. في الأولى، كانت فيرجي تضع رأسها وشعرها على كتفي بوريس. في الثانية كانت برفقته في مقهي لدوماغو. في ثالثة كانت بين جون بول سارتر وبوريس فيان وشخص ثالث لم أعرفه. في أخرى كانا يظهران على

سلم سفينة وهما يلتفتان لتوديع الأقارب، وفي خامسة كانا على حافة بحيرة هودسون، في منهاتن، في نيويورك، كانا في قمة السعادة. في صورة سابعة كانت أكبر من البقية في إطار زجاجي، كانت أمي نصف عارية تدفن رأسها في صدره عميقاً، وفي عينيها سعادة غريبة ولذيذة تتأتى عادة بعد لحظة حميمية عنيفة يعقبها دفء وتيه في العينين والحواس. في صورة ثامنة كانا يتجولان في حي من أحياء مونمارت الجميلة، في ساحة الفنانين. ثم وهي معه في أحياء برازيلية فقيرة، في فيلا قديمة، برفقة أطفال جميلين على الرغم من تمزق ألبستهم. ثم وهما على متن سيارة بورش قديمة كتلك التي كان يمتطيها جيمس دين ومارلين مونرو.

تأكد لي نهائياً، وأنا أتفحص الصور بدقة وكأني في معرض، أني خسرت أمي ولم يعد بإمكاني استردادها. سألتني بسعادة ارتسمت في عينيها:

- ما رأيك عمري في أمك وفي حبيبها بوريس.
- جميلة أمي كلها. كلها بلا استثناء.
- شكراً. ربي يخليك. كان عالمنا في الماضي جميلاً ولم يكن كما اليوم تعيساً وقاسياً.
- هذه السيارة جميلة، أنت وبوريس.

- هذه السيارة لجيمس دين تصورنا فيها بالمناسبة. سافرنا لأمريكا من أجلها. فقد كان في بوريس شيء من جيمس دين ومن حياته المجنونة والتيه الملعون. كان دائماً يقول لي أشتهي أن أموت في عشرين أو ثلاثين سنة ممتلئة، على أن أموت في ستين سنة فارغة. نهانا الكثير من الاصدقاء عن الذهاب نحو سيارة جميس دين المشؤومة ولكننا ذهبنا ولم نسأل عن أحد.

- يقولون إن البورش مشؤومة. كل من لمسها لحقته لعنتها.

- بوريس لم يكن يؤمن بهذه الخرافات. كان مجنوناً بالحياة، وكنت أحبه، فلم أستطع أن أمنعه من ذلك. كنت أعرف أن أكثر من واحد تعرض للشرور بسبب البورشPorsche Spider ٥٥٠ أو اللقيط الصغير أوlittle bastarde. مثل بوريس انطفأت البورش. إلى اليوم لا أحد يعرف أين هي، ومن سرقها. فقد سُحبت بسرية كبيرة، بالضبط، في اليوم الذي مات فيه بوريس بسكتة قلبية. لم نعد نسمع بها.

ثم شرحت لي فيرجي بقية الصور بكل التفاصيل الدقيقة كدليل متحفي، وكنت أتساءل من أين كانت تأتي بها. تفاصيل حقيقية استقرت بقوة في ذاكرتها. لم تنس أي شيء مهم منها.

انتبهت فجأة إلى إحدى صورهما في نيويورك. وقبل أن أسألها، قالت:

- هذه أخذناها لما سافرنا إلى نيويورك مع بعض. كانت رحلة جميلة في السفينة الثقيلة. على الرغم من العواصف الصعبة، ولكني كنت أشعر بسعادة غامرة وأمن لا حدود له. وهذه أيضاً في نيويورك، على سلم السفينة. هذا المظل هو من أهداني إياه درءاً للشمس القاسية والرطوبة. نيويورك كانت دائماً هكذا. كنت أشتهي أن أنام على صدره ولا أستمع إلا إلى دقات قلبه، وبعض الموج في حركته الأبدية... وهذه....

لم أتمالك. انتابتني حالة غليان.

لقد امتلأ دماغي بالبارود والرماد. صرخت بأعلى صوتي قابضة على رأسي لكي لا ينفجر:

- يمّاااااا... فريجة الحبيبة... أرجوووووك. يكفي. لم أعد قادرة. يكفي. يكفي.

لا أدري لماذا ناديتها باسمها الأصلي.

فجأة فرغت عيناها من أي نور. صمتت كطفل خائف.

كنت خارج المدار. في عمق الثقب الأسود.

ثم دخلتُ إلى غرفتي ونمت لا أدري كم من دقيقة، كم من

ساعة، كم من يوم؟ كم من شهر؟

ربما العمر كله أقضيه نائمة وأنا أمشي بلا هوادة.

الليلة بالضبط حبيبي لا تكلمني لست هنا. مملكتك الزرقاء التبست عليها الألوان. لا تحاول، فلن أردّ عليك. لم يعد شيء يسعفني، حتى المطر الذي كان كلما سقط استيقظت معه حواسي. ها هي الأمطار الشتوية تدق الأبواب بعنف وأنا لا لذة لي في القيام من غفوتي الناعمة التي تشبه الموت تماماً.

لم أكتب لفاوست ليلتها، ولكني كتبتُ لنفسي فقط، ثم أغمضت عيني.

-٥-

طوال فترات سجنه لم نتمكن من رؤية أخي رايان إلا في مرات معدودات. كنت الوحيدة التي كان يقبل بها. كلما ذهبت نحوه، ضمني إلى صدره وبكى طويلاً قبل أن يتدحرج نحو زنزانته بلا كلمة واحدة، فأعود منكسرة من عنده. مرة واحدة سألني عن قبر والدي. قلت له: في المقبرة العليا، في شمال المدينة حيث أهله وبعض أقاربه، لأنه لم يترك أية وصية لدفنه في مكان محدد. بابا زوربا لم يكن يفكر في الموت أبداً لأنه كان مصرّاً على الحياة. قلت لرايان الذي ظل فاغراً فمه فيّ وأنا أتكلم. طلب مني أن أشتري زهوراً وأضعها على قبره، ففعلت. ثم طلب مني صورة عن والدي وعنّي وعن قبر بابا زوربا. أتيته بها بعد يوم واحد فقط لأني كنت أعرف أنها مهمة بالنسبة له. ضمّها كلّها إلى صدره ثم بكى.

عندما قلت له إن كوزيت وأمي تسألان عنه. التفت نحو الحائط وصرخ بأعلى صوته. لأول مرة أرى أن أسنانه كانت صفراء وتخرمت نهائياً. انتابته شبه هيستيريا تحولت بسرعة إلى دوخة. وضعت بعض الماء على وجهه. نظر إليّ بحزن شقي.

- ياما تعرفين أني أحبك؟ لماذا تتحدثين بهذا الشكل؟ لا أريد أن أسمع شيئاً عنهما.
- ظننتك فقط تريد أخبارهما.
- ياما. لقد ماتتا في اللحظة التي غادرت فيها البيت في المرة الأخيرة. لم أعد أفكر فيهما. ما تهدريش عليهم أمامي. لا أتحمل سماع اسميهما أبداً. راااااااسي. راااااااسي يا أختي. يكاد ينفجر. كل ليلة أشعر به يكبر حتى يكاد ينفجر من شدة الحمم التي فيه. آآآآآآآخ يا راااااااسي.

كان يصرخ بقوة حتى جاء شخصان يرتديان لباساً أبيض. أخذاه بلطف، فانصاع لهما دون مقاومة. رأيته وهو يغيب بينهما في البهو الطويل حتى انطفأ نهائياً. كان نحيفاً ومنكسراً، ومنحنياً إلى الأمام. ولو أن وجهه على الرغم من اصفراره، والزغب الذي عليه، ظلت به بعض الإشراقات الخفية. منذ تلك الصرخة، أصبح يرفض كل الزيارات العائلية. كلما ذهبت أنا وأمي عدنا منكسرتين. ننتظر طويلاً في بهو المعدومين كما يسمى المكان، ونعود أنا وفيرجي حزينتين.

في المحاولة الأخيرة عادت فيرجي التي كانت تصحو من حين لآخر، أكثر انكساراً. قيل لنا بعد وساطات كثيرة من المدير وبعض عماله في السجن إنه رضي أخيراً وقَبِل برؤيتنا.

انتظرنا طويلاً. في البداية جاء نحونا. كان يراني وحدي، إذ كنت بعيدة عن فيرجي قليلاً، لأنها كانت منكسة الرأس، منهمكة مع أمِّ سجين آخر. لكنه بمجرد أن رآها، صرخ كالذئب واندفن من جديد في عمق البهو. ركضنا وراءه. ولكنه كان قد غاب في أعماق الدهاليز الطويلة قبل أن نصطدم بشباك حديدي شبه مغلق. واجهنا الحارس بزعيق غريب. هو أيضاً كانت أسنانه كلها منخورة:

- هذا حد المسموح به في الزيارة يا لالة مولاتي. ما بعد هذا، اسمه السجن المؤبد والإعدام. إذا كنتما تريدان الدخول، نعطيكما رقمين وتنتظران متى يأتي دوركما في الإعدام؟ ما رأيكما؟ أنا مستعد أن أفتح لكما الباب. واش قلتُو؟

قالت أمي وهي تحاول أن تسترجع أنفاسها المتقطعة:

- حابة نشوف وليدي رايان فقط.
- أنا يا يمّا ما نعرفش رايان. لا حاجة لي بالأسماء أصلاً، اعطيني رقمه أقول لك مَنْ؟
- وليدي اللي دخل الآن يجري أمامك.
- أعرف. اللي قتل مربي خيول القصر الجمهوري. السَبْعي.
- وليدي سبع ونص.

- لا ليس هذا قصدي. رقمه هو هذا ٧٧٧٧٧٧٧. وينادونه هنا السّبعي، أي السّبع سَبْعَات.
- وكيف أراه.
- لا يريد أن يرى أحداً. هذه عادة السّبعي، ربما كان نادماً على قتل مربي خيول الحرس الجمهوري.

كانت فيرجي في أعالي إحباطها وانكسارها، وكنت خائفة من أن يستفحل وضعها أكثر.

عندما خرجنا، بكت طوال الطريق. حاولت أن أجعلها تغير الجو قليلاً بالمرور نحو المول الجديد والضخم مول سامي وإخوته، الذي انتصب وسط المدينة كالقلعة. يقال إن صاحبه شخصية من جنوب البلاد، كان مسيطراً على سوق التمور وتسويقها إلى الخارج. ولكن فيرجي ظلت تصر على الرجوع، لأن موعدها مع البنك كان قد حان.

- ياما حبيبتي أنا متعبة جداً. متضايقة كثيراً. لا أستطيع أن أجاريك. لم أعد قادرة على التحمّل. قلبي يؤلمني كثيراً. لازم أرجع إلى البيت. موعدي مع البنك اقترب.
- لماذا البنك يا أمّي؟ يمكنني أن أرافقك.
- لا حبيبتي لا مشكلة. سأتدبر أمري بنفسي. بدأت أتعب.

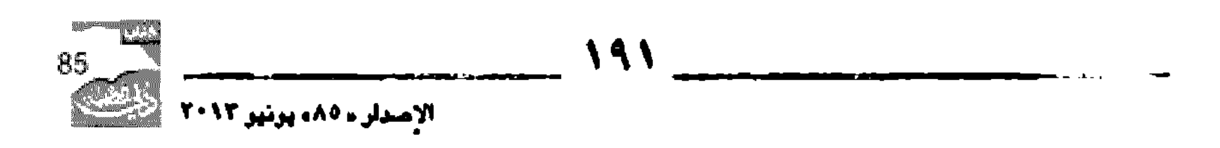
اتفقت مع البنك أن يستلموا الأعمال الكاملة لبوريس فيان، أخبئها هناك في صندوقي الخاص والمؤمن. أضمن. سأمنحك رقم فتح الصندوق والمفتاح، أنت على الأقل تحبين الكتب، وتعرفين قيمتها.

فكرت أن أقنعها من جديد بأن أعمال بوريس فيان أصبحت مشاعة. حتى الألبوم الذي كان يبدو خاصاً، فقد تم نشره وإشاعته ولم يعد سرّاً. وأنه لا داعي لأن تتعب نفسها بكل هذا الركض نحو البيت ثم البنك. كنت أعرف طبعاً إجابتها:

- هذه كتبي التي سرقت حياتي كلها ولن أضحي بها. أنا عند وعدي مع بوريس. أن أحافظ على الكتب التي تركها، بالخصوص رواياته ولن أسلم فيها. إذا كانت لابلياد قد قامت بنشر أعماله، فهذا سيسره أكيد، لكنه لا يعني شيئاً بالنسبة لي للحفاظ على الأمانة.

الحوار بيني وبين أمي ينغلق بسرعة. العادة بيني وبينها عندما تصمم على فعل شيء تكون قد اتخذت قرارها فيه. لم يعد لدي ما أقوله. فقد كانت فيرجي مصممة على الذهاب إلى البنك.

كانت مقتنعة كلياً بأن الحرب التي انتهت، خربت البلاد مادياً. والحرب الصامتة الداخلية خرّبت الناس داخلياً. والحرب



القادمة ستمزق البلاد والعباد، وستدخل الناس في وحشية مطلقة من التقتيل، مدمرة بشكل نهائي كل نسيج القرون الماضية. لهذا وجب الحفاظ على كل مدخراتها الثقافية والمالية، إذ لا أحد يملك حق كسر الخزانات الحديدية الثقيلة في البنوك، ولا يمكنه حملها وسرقتها بسبب ثقلها. قد تبدو قناعة أمي غريبة، لكني من حين لآخر أشعر بأنها على حق.

أصبحتُ أخاف على فيرجي لأنها أصبحت تنسى كثيراً. فكرت أن أضع في جيبها "كارت" عليها العنوان والتليفون، ولكني عوضتها برقم تليفوني الذي وضعته على واجهة تليفونها بحيث لا يمكنها أن تنساه أبداً. أفهمتها أنه إذا احتاجتني وأنا بالصيدلية، أوفي الركض بين المؤسسات والمخابر بحثاً عن الأدوية، سأكون رهن إشارتها بمجرد أن تطلبني. ويبدو أن الفكرة بدأت تأتي بثمارها دون أن تؤذيها. دخلت في منطقها حيث لا أناقشها إلا في لحظات الصفاء التي تنتابها من حين لآخر.

كانت مقتنعة بأن الحرب التي انتهت بعد أن خربت داخل الناس، يمكنها أن تعود في أية لحظة لأن الترميمات الداخلية لم تحدث، وبقي كل شيء معلقاً في الفراغ ينتظر من يشعله كبرميل بارود.

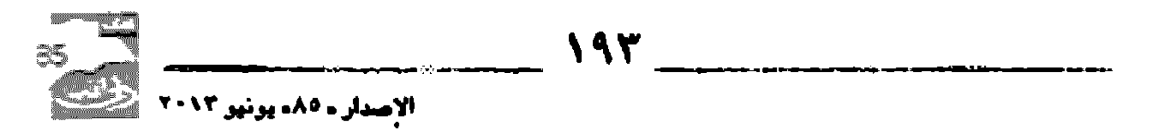
بقيت على صفائها الكلي حتى المساء. كان رايان هو جرحها

الداخلي الذي لم تنسه طوال اليوم. أشعر كأنه ظلّ، منذ انكسرت العائلة، مفتوحاً على آخره لغبار الخوف وأملاح الدهشة ونزف المخدوع، فصعب فهمه ورتقه.

تركت جاد بقية اليوم وحيدة في الصيدلية. تعشّيت مع أمي لأخفف عنها شطط رايان الذي قهرها وضعه. لأول مرة منذ وفاة أبي لم تفعل ذلك. طلبت مني كأساً من النبيذ الأحمر الذي كانت تحبه، بالخصوص نبيذ معسكر الذي كان يذكرني بجدّ ديف. بابا زوربا كان أيضا يتذوقه بعد أن ترك كل الأنواع الأجنبية الأخرى، بالخصوص الفرنسية. حتى أمي التي لم تكن "شريبة" كبيرة، كانت تسايرني أنا وبابا زوربا عندما نتمادى قليلاً، رافعة نخبنا هي أيضاً بفرح ظاهر. تلك الابتسامة التي كانت تشرق على وجهها كشمس، راحت وأفلت فجأة. انكسرت كغيمة ظلت وحيدة قبل أن يلتهمها الفراغ.

كانت فيرجي خفيفة الروح عندما تتجاوز الكأسين. كان بابا زوربا يضحك وهو يقول: شفت فريجة ما أحلاها وهي تحلق في سابع سماء؟ كم يبدو ذلك بعيداً؟

بكت فيرجي ليلتها كثيراً. وبكت طويلاً في صمتها الذي فرضته على نفسها منذ عودتها من البنك. فجأة، من تلقاء نفسها، غيرت حديثها: الحياة لا تزال هنا، مع حبيبتي ياما ومن العبث تركها تذهب؟ كنت سعيدة أنّ حادثة أخي لم تخلف



فيها فجوات كبيرة.

- ياما عمري. لا أريد أن أثقل عليك. الوحيدة التي بقيت طبيعية معي هي أنت؟ تستمعين دائماً إلى جروحي وأحزاني. آلمني كثيراً. أحِنّ له، وأحزن جداً لحزنه وآلامه.
- أعطيتِه ما أمكن ولا تستطيعين أكثر مما فعلتِ؟
- كأنه ملَّ مني؟ وإلا لماذا هرب دون أن يودعني؟
- يا يمّا لا يمكن أن يمل منك. كما ترين، هو في وضع غير طبيعي. منكسر ومهدود كلياً. مخرب من داخله أكثر. ربما كان نادماً في أعماقه عما فعله. بُعده عنك يعذبه أيضاً. ألستِ أمه؟
- طبعاً. أمّه التي تخاف عليه. وحبيبتُه التي ترفض أن يُسرق منها. لست مطمئنة إلى المحيط الذي يحيط به. أصبح غير مريح. محيط كله أطماع في أطماع.

شعرت فجأة برعشة داخلية. كأني كنت في بحر وأمي في بحر آخر. لم تترك لي فرصة التساؤل. واصَلتْ بيقين وقلق دمرني كلياً.

- قلت لك إنك الوحيدة التي تفهمني. لكن... يبدو أنه مل مني.

- ابنك يا أمي؟ كيف يملّ منك.

وكأنها لم تسمعني مرة أخرى.

- يا يمّا هو أيضاً يحبك.

- طيب، إذاً لماذا هرب مني؟ ماذا فعلتُ لبوريس حبيبي ليتركني معلقة في الهواء؟ ألم أمنحه كل شيء؟ ألم أطلّق زبير من أجله؟ ألم أخسر كل شيء مقابل أن أربحه وأربح حبه؟ كل معاركي خسرتها وكان هو معركتي الوحيدة التي كنت أريد أن أربحها. يبدو أن مآل الحب الكبير الخسارات الكبيرة أيضاً.

- ... ...

- هرب بوريس ولا أعرف السبب. ألم تقولي إني كنت أكثر من أمه؟ طيب هل نترك أمّاً وحدها وسط هذا الخراب؟ ليس من حقه. تركني هكذا وغاب في بهو ولم يبال بي. أمامي يذهب مع امرأتين، ميشيل وأورسولا، جاءتا لتسرقاه مني وعلى مرأى من الجميع؟ كيف أغفر له؟ لا يا حبيبتي ياما، قسوة كبيرة لا أستطيع تحملها وحدي. أكبر من جلدي وصبري. لم يكن محقاً فيما فعل، لهذا فأنا منكسرة وحزينة.

- يمّا...

خرجت مني الكلمة مخنوقة.

أجهشت بمرارة بالبكاء لكني لم أظهر لها أي شيء. كانت شاحبة جداً منذ أن عادت من البنك. رأيت خيطاً من الدموع يرتسم في عينيها. كانت فيرجي منكسرة إلى أقصى الحدود. قلت لها: يا أمي لا يمكن أن تحزني إلى هذا الحد. أرض الله واسعة والقلوب ليست منغلقة. وكأنها لم تسمعني. قامت بتثاقل. مشتْ نحو غرفتها. تأملت الفراغ قليلاً ثم واصلت تدحرجها.

بقيتُ متسمرة في مكاني أتأملها وهي تمشي بإنهاك شديد. رأيت كيف أنّ شعرها الأحمر الذي لم يفقد شيئاً من ألقه، قد انحل وتبعثر على كتفيها. ظهرها الذي انعكف قليلاً إلى الأمام ولم يفقد الكثير من استقامته. مع أنها منذ طفولتي كانت كلما رأتني منحنية قليلاً بظهري، تقول لي: احذري. اجعلي ظهرك مستقيماً وإلا ستكبرين بحدبة تضحك الناس عليك. لا تزال ملاحظاتها تطنّ في رأسي.

من عمق غرفة نومها التي أصبحت دافئة بعد أن زينتها بصورها مع بوريس فيان، سمعت صوتها الحنون لأول مرة بكل صفائه وطفولته المقهورة.

- ياما عمري. ممكن كأسي. غطّيني يا قلبي، أشعر ببرد شديد.

ركضت نحوها. طلبت مني أن أنحني قليلاً. قبلتني على جبهتي. غطيتها. تمتمت بحزن.

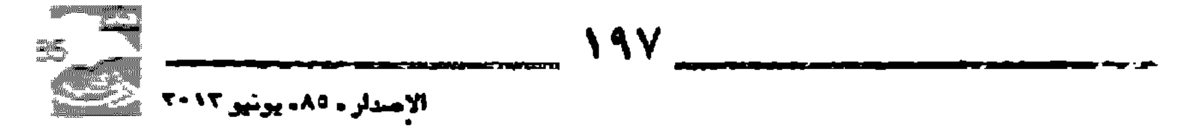
- ياما حبيبتي عذراً. أتعبتك كثيراً. يبدو أني لم أكن أمّاً جديرة بك وبإخوتك؟
- أحلى أمّ في الدنيا، وأجمل امرأة.
- يبدو أن النهاية قربت ياما حبيبتي. أنا أشعر بالبرد والخوف.
- فيرجي... ماما هل نسيتِ أننا لم نشبع من بعض. ألم تقولي لي إننا لن نفترق إلا عندما نشبع ونملّ من بعض؟ طيب؟ إذا أنت شبعتِ مني، أنا ما شبعت؟
- يا مهبولة من يشبع من أنبل ابنة إلى قلبه؟

شربَتْ ما تبقّى من كأسها. فجأة سألتني سؤالاً غريباً قبل أن تغمض عينيها.

– لايزال صوتك جميلاً؟

– قليلاً يا يمّا.

– البارحة سمعتك ترددين بالفرنسية، أغنيتكم في ديبو– جاز راقصو التانغو على إيقاعات كيني– دجي. ممكن أسمعها. صوتك جميل يمّومتي، وحزنت كيف أني طوال عمري لم أستمع لابنتي وهي على بعد مسافة نسمة. يااااه يا ياما، كيف يمر الوقت، وكيف يسحق كل شيء في



مسالكه.

– يااااه مِيمَة الحنونة.. كم مرّ من الزمن لم أسمع هذا الدلع: يمومة... كم كنت أحبه. نسيته أو كدت، وها أنت يا أمي توقظينه فيّ.

أنا أيضاً أحب كلمة ميمة تأتي منك. مر زمن طويل لم أسمعها. الزمن الصعب يا غالية... الزمن الصعب لكن الداخل لا يزال صافياً كما في أول يوم من طفولته.

نسيت فجأة كل شيء، حتى مرض أمي. بدا لي كأني استرجعتها نهائياً. نزعت الكأس الفارغة من يدها. كانت في صفاء كامل ومدهش نادراً ما رأيته في فيرجي. تأملت قطع كيني– دجي الموسيقية على الحاسوب. فهو يحتلني كلياً ويشهيني كل يوم للعودة النهائية إلى الكلارينات وإلى أصدقائي في ديبو–جاز. وبدأت العناوين تنزلق أمام نظري... Spanish Nights… Tango… Homes Don't make me ... Morning ... Song Bird ... ... Always ... Remember ... wait for love ... My heart will go on ... Sentimental... فجأة وجدتها. رأيت وجه أمي كان مضاء بنور غريب على الرغم من الظلال التي كانت تنزل من وراء الستائر، كأشباح تعبر

وجهها ولكنها سرعان ما تنسحب.

- وجدتها. In The Rain. أعرف أنك تحبينها.

بدأ الصوت يتماهي في فضاء الغرفة المعطّر بالخزامى وقشور البرتقال والنعنع المجفف. خلطة أمي. بسرعة تدحرجت نحو دوار أبيض تخترقه ألوان خافتة. لم يكن أمامي شيء إلا ستائر شفافة من الضباب الكثيف، على الجسر الكبير، جسر العشاق. كنت أركض وأركض وأصرخ ديف. ديف... كان هو يركض أيضاً. عندما بدأت رشقات الرصاص التخويفية تمر من حولنا كالشهب، كنا نركض منحنين خائفين من موت أعمى. فجأة أغرقنا ضوء سيارة عسكرية خفيفة في نور معمي للبصر. كادت تقتلنا لولا انحراف السائق قليلاً نحو اليمين، وتخلص ديف من يدي ورميي باتجاه الرصيف الآخر من الجسر حتى ارتطمت على مقابضه الحديدية. سمعت صرخته. ياماااا. أجري أرجوووك. لا تتوقفي. جريت بشكل أعمى. كدت أضيعه وهو يصرخ يااااامااااا. كان الرصاص الحيّ هذه المرة، يغطينا من كل الجهات. كنت أركض بلا توقف. فجأة سمعت صوته المختنق: ياما. أنا هنا عمري. أنا على يمينك. إني أراك قليلاً. لا تخافي. كنت عمياء تماماً. شعرت بأن

الزمن كان يختصر كل شيء في داخلي ويحول كل شيء إلى كتلة من رماد ويطوّح بها بكل قواه من أعالي الجسر. تذكرت بابا زوربا. رايان. كوزيت. ولكن وجه أمّي غطّى على كل شيء. لم أتساءل يومها لماذا كان وجه أمي هو الأكبر لحظة الموت. كنت أرتجف وأتمتم بلا توقف: ميمة... ميمة... ضمّني ديف إلى صدره. لم يأبه لأي شيء. كنا في الجهة الجنوبية للجسر. بدأ المطر يسقط. كنا نمشي بلا مطريات. عندما التفتنا إلى الوراء لم نر الجسر ولكن ضباباً كثيفاً وأضواء تشع في عمقه، مخلفة هالات غريبة من الجمال والدهشة. تساءلت: هل كنا حقيقة قبل قليل في عمق ذلك الحلم... الموت الجميل. ضمني ديف إلى قلبه. كنت "مرنخة" بماء المطر. ضحك. أشرقت ابتسامته التي تنسحب دائماً نحو الجهة اليسرى:

- ما أجملك. ياما... تريدين الرجوع إلى الجسر ههههه
- معك حبيبي ديف... أعود حتى إلى الجحيم.

لم أشعر بالبرد، لكني كنت أرتجف.

- لا أريد أن ندخل إلى البيت الآن.
- ولا أنا. أجبتُ وأسناني تصطكّ.
- نفسي في تانغو.
- الرقصة أم البيرة هههه؟ ضحكتُ.

- الرقصة رقصناها على الجسر. والبيرة سنشربها على مرأى من أبي نواس.

ثم ركضنا نحو بار صغير كان اسمه بار المركيز دو صاد Bar Le Marquis de Sad في الحقبة الاستعمارية وظلَ كما هو بعد الاستقلال، وفي حملة التعريب غُيِّر اسمه ببار أبي نواس. لم تكن الفكرة خائبة أن يربط الشعر بالبيرة. التصقت بالمدفأة التي عند المدخل. شعرت بحرارة كبيرة. كانت مايا، النادلة تعرفنا جيداً وتحب فرقة ديبو- جاز. ركضت نحونا وهي تضحك:

- العشاق دائماً مجانين في كل العصور. فيه واحد مهبول في الدنيا غيركما، يمشي في هذا الوقت بالذات، تحت المطر.
- الصدفة يا مايا. الصدفة فقط.
- الصدفة الجميلة. أضاف ديف.
- يبدو أن الحالة سخنة على الجسر الليلة. قالت مايا. الوضع في هذه البلاد ما راح ينتهي على خير.
- لم نسمع شيئاً. كنا نمشي في الشارع. قال ديف.
- كانش من عاشق يسمع وعاقل؟ المهم. تانغو أم سيليا، أم نبيذ أحمر.
- مايا. قال ديف متلاعباً بحركة عينيه وملامحه،

باستغراب ساخر. مايا... في عزّ الحرب الأهلية لا نسأل هذا السؤال، نحن نحب الوطن هههه. بيرة تانغو كالعادة.

شعرت بالحرارة قد عادت إلى جسمي كلياً.

مع الكأس الأولى ارتسمت في ذهن ديف أولى الكلمات.

- نحن نحب الرقص أيضاً... دن... دن... دن... ونحب شرب بيرة تانغو... دن... دن... لا ليس هكذا، ثقيلة قليلاً... في بلادنا الغالية...
- كلمة الغالية ثقيلة أيضاً... الجميلة أحلى... ألم تر دهشة الضباب... مع أننا نكره الرصاص والحرب ونحب الحياة...
- براڤووو... هي بالضبط ما كان ينقصني. نحن أيضاً نكره الحرب... ونحب التانغو... وجدتهاااااا... وجدتهاااااا... راحت عليك يا عزيزي أرخميدس.

عندما غادرنا الحانة كان المطر يسقط ناعماً هذه المرة، والضباب يلف كل شيء. كنا أنا وهو فقط نتدحرج على الرصيف الفارغ. ندندن مع بعض نشيدنا العميق. كل شيء كان يخرج من أعماق الحواس. انتهت رجفاتي. فجأة وشعرت بأن البرد خفّ وألبستي التي التصقت بي، جفت عليّ.

Dans notre si beau pays, nous aimons la danse
Nous aussi, on deteste les guerres
On aime le Tango
Le Tango n’est pas l’apanage des forts
On prend une bierre tango, on voit mieux la vie
Et on danse avec les chimères sur le pont des morts»[٥٤]

لا أدري من أين كان يأتيني كل ذلك الكم من الحزن الذي لم تكن لدي أية طاقة لمقاومته.

غنيت لأمي الحزينة ليلتها لأول مرة في حياتي. رحت أتمتم بخوف. كنت لا أزال تحت وقع إقاعات تحت المطر وراقصو التانغو. حزينة يا أمي. كم أشتهي الرجوع إلى قلبك. كم أحلم أن تسرقني أشواقك ويلفني حنينك ليعيدني إلى رحمك. أنا ابنتك يا أمي. ياما... يمّومة الصغيرة كما تشتهين تدليعي في لحظات ألقك. يمّومة التي تحبك يا أمي. غيابك سيجعلها

---

(٥٤) في بلادنا نحب الرقص، ونكره الحروب أيضاً،
ونحب التانغو كثيراً...
التانغو ليس للأقوياء فقط
نشرب بيرة تانغو وننتشي،
ونرقص مع الأشباح على جسر الموتى،

وحيدة داخل القسوة وسيعود لها خوف الجسر وبرده. لا أحد يرافقها نحو الأسواق الشعبية، ولا أحد يقترح عليها كتباً للقراءة، ولا أحد يزعجها ويغضبها للحظات غيرك. كل واحد يا أمي سيذهب نحو مصلحته. أركض نحو ديف، لكن ديف تركني يا أمي معلقة على منتصف الجسر وانسحب عني بعيداً بعد أن أنقذني من موت كان يكبر داخل السكينة. لم يترك لي شيئاً إلاّ هذه القصيدة القلقة والحزينة، وابتسامته العريضة. عندما أصبحنا خارج الجسر وبعيدين عن الموت قليلاً، فتشني يا أمي. فتّش جسدي ليلتها فقط ليتأكد أنّ لا رصاص مسّني، وأننا مازلنا قادرين على الحب. لم تبقَ لي إلا أنت يا أمي. نركض تحت المطر، لا أحد معنا إلا أنا وأنت. إلا أنا وأنت... وهذا النشيد القلق...

On prend une bierre tango, on voit mieux la vie
Et on danse avec les chimères sur le pont des morts...

لم أكن أغني يا أمي. كنت أموت مثل حبّات المطر.

-٦-

فتحت عيني بصعوبة كمن يستيقظ من نوم لذيذ تحت أشعة قوية تسربت من وراء فجوات النافذة الخشبية المواربة. كانت فيرجي نائمة. في كامل صفائها، كانت تتنفس بهدوء وسكينة. عندما هممت بالخروج بهدوء استيقظت وكأن ظلّي الذي انسحب عنها خلف وراءه فراغاً.

رأيتها تنتزع ابتسامة حزينة.

- صباح الخير عمري. تعرفين واش شفت في المنام؟ رأيتك تغنين In the Rain كم كان صوتك ناعماً وشهياً. سمعت نشيجك الداخلي أيضاً. رأيتك ترقصين مع ديف على جسر العشاق. الجسر الذي بناه الرئيس الأوحد في البلاد الذي جاء عن طريق الانتخابات قبل أن يُقتل.

اشتهيت أن أقول لها يا أمي كل ما سمعتِه ورأيتِه كان حقيقة، أو قريباً منها، ولكني عدلت عن فكرتي لا أدري لماذا، ربما عملاً بنصائح عمي جواد.

- نحن في الليل يا أمي. ربما غيرت الغفوة عليك الوقت.

- شفتِ رايان اليوم؟ اعتذر حبيبتي أني تركتك وحدك تركضين بين إدارة السجون ومستشفى الأمراض العقلية. ماذا يقولون عن وضعه؟

لم أفهم ما كانت تريده جيداً، لكن الأمر لم يكن كثير الأهمية.

- لا شيء يا يمّا. الوضع هوهو. في السجن دائماً، وعندما يزيد عليه الحال، ويدخل في هيستيريا الخوف، يُسحب نحو مستشفى الأمراض العقلية الملتصق بالسجن، الحيط عند الحيط، للتخفيف من وضعه. يُحقن وينام.
- ربي يشوف في حالته حبيبتي.. ربي يحفظه من أي مكروه.أما أنا الله يحفظ...
- ماذا يا ميمة حنونة؟ قولي...
- تعبت جداً. مازلت أركض وراء المجنون بوريس. ولو رحت معك إلى السجن، كان هرب مني نهائياً. قلت على الأقل تشوفي أنت رايان، وأنا أركض وراء المجنون، لكن جاءت ميشيل لوغليز والمعتوهة المريضة أورسولا كويلر وأخذتاه مني.

شعرت بلدغة في القلب.

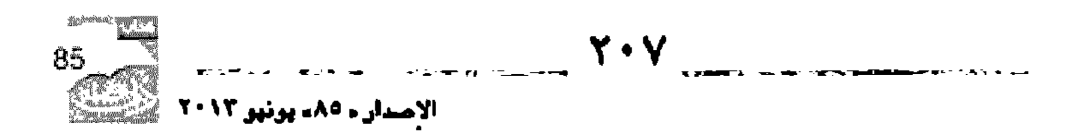
- لا أحد يخطف أحداً يا أمي إلا بإرادته يا يمّا.

- أعـرف. لكن بوريس شيء آخـر يا ياما. هو نفسه مخطوف بشكل دائم. الحب يعمي. وإلا كيف أحببتِ مجنوناً غير مـوجـود. مـجرد لغة تطير في الهواء. فـاوست. كنتِ محقة. مجرد جنون لا أكثر. لا أعرف إلى أين يقودنا هذا الهبل.
- ليس هبلاً، إنه شأن القلب فقط يا أمي.

حضنت كفها في كفي. كانت يدها باردة كقطعة ثلج. طلبت منّي أن أغطيها. وضعت غطاء السرير على صدرها ولكنها طلبت مني أن آتيها بالإزار المطوي داخل الخزانة، الموضوع في كيس أبيض من الكتّان. عندما فتحته كان إزاراً غريباً من حرير أصلي، وجميلاً أيضاً ومليئاً بالألوان. رسم عليه ميرو بطلب من فيرجي، صورها مع بوريس فيان، وهما على متن قطار قديم كان يقطع فيافي كاليفورنيا.

- لا تغضبي مني حبيبتي. وعدتُه أني عندما أريد أن أزوره للمرة الأخيرة أن ألبسه. سيكون هو كفني مثلما كان برويس هو حياتي. أشعر به ينـاديني ويريد أن يعتذر مني عن كل الجروح التي تسبب فيها لي دون قصد.

بين الغفوة والغفوة، تعود من جديد إلى رعشاتها، و تسألني



عن رايان وكوزيت. وفي أحيان أخرى أسمع همهمات لا أفهم منها شيئاً إلا اسم بوريس فيان. قالت.

– أشعر بالبرد والخوف يا قلبي. البرد نزل عليَّ فجأة. لا دري ولكني أشعر كأني غارقة في عالم لا شيء فيه إلا البرد والثلج القاسي. لفيني جيداً في إزار حبيبي.

– أنت فيه يا أمي. محاط بك من كل الجوانب. خليني أضع عليك على الأقل بطانية.

لم تمانع. فجاة غفت بعد أن وضعت يدها الباردة جداً في عمق يدي، وهي تتمتم مثل الطفل.

– ياااااه كيف يتحول العالم داخل هذه الدوامة الغريبة؟

– ولا يهمك يا أمي. أنا بجانبك.

رن التليفون الذي كنت قد وضعته في وضعية الصمت. عرفته من موسيقاه الخاصة والدافئة. جاد التي لا تتوقف عن السؤال عن أمي. كان بعض الدفء قد بدأ يعود إلى يدي أمي وجسمها. كان صوت جاد واضحاً وصافياً.

– ياما لا تشغلي بالك بي. أردت فقط أن أذكرك بأننا الليلة نشتغل كصيدلية مداومة حتى الثامنة صباحاً.

– أعتذر منك كثيراً. أمي تعبانة جداً يا جاد. أرجو أن تجدي حلاً.

– كنت فقط أريد ان أخبرك أنه لا داعي للقلق. كل صيدليات شمال الجسر مجبرة على الغلق حتى السادسة فجراً. لم يعط لنا أي سبب. أجبرونا فقط على كتابة تلفون الاتصال على زجاج الصيدلية الخارجي حتى يتمكن من في حاجة اضطرارية إلى الدواء أن يتصل بالصيدلاني عند الضرورة. المنطقة مملوءة برجال الأمن ولا أعرف السبب أبداً.

– طيب. جيد أنهم هم من اتخذ القرار. ربي يخليك.

– أنا باقية قليلاً وأغلق. يمكنني أن أمر أشوف خالتي فريجة.

– هي متعبة ونائمة. غداً بالنهار أفضل.

سمعت تمتمات جديدة من أمي. مددت لها يدي من جديد. رأيت في عينيها بريقاً خاصاً. أمي تكره الظلمة. لا تتحمل السواد. نظرت إليَّ. شعرت بجرح في أعماقها. كان يمكنني أن أتخيله قليلاً.

فجأة انسحبت البرودة وحلت محلها حرارة حارقة. تلمست رأسها. كانت ساخنة جداً.

– يااااه كأني خرجت من مياه مجمّدة لأدخل ماء ساخناً. كم الساعة الآن؟ يبدو كأن الزمن قد توقف نهائياً.

– لا شيء توقف يا ميمة فيرجي. كل شيء لا يزال يركض وفق نظامه الذي لا يرحم. الساعة قربت من منتصف الليل يا أمي.

يبدو الخارج هادئاً من هذه المنافذ التي نسميها نوافذ، لكن لا شيء يعطي الانطباع بأن هناك بعض الحياة في البيوتات الساكنة؟

بدأت تعرق. لكن عرقها كان بارداً. وعلى الرغم من جسدها المحموم، إلا أنها أصبحت رائقة قليلاً عندما تناولت بعض المسكنات. فاجأتني مرة أخرى بصفائها بشكل غير منتظر.

– تعرفين أني على رايان. آخر مرة رأيته معك، كان متعباً. معك حق، نحن أيضاً لم نفهمه ولم نرحمه. قولي له، إذا رأيته، أن يغفر لي. فأنا سامحته عن كل شيء. وأن ماريا أيضاً لا تؤاخذه على حماقته بعدما عرفت بأنه لم يكن في وضع طبيعي. حبيبي رايان سيخرج حتماً من هذه المحنة القاسية. أرجوك إذا تحسن وضعه، أن تخرجيه من سجنه وعزلته، وتمنحيه من حبك وحنانك. فأنت أمه ولهذا يحبك.

– يا يما رايان خويا من دمي ولحمي، وليس شخصاً غريباً. سيخرج من هذه المحنة. متأكدة من ذلك.

– خليك قريبة من ماريا أيضاً. ليست أنانية كما تتصورين ولكنها عقلية تختلف عن عقليتك. تقاسمناكما. أنت من والدك وهبله، وهي مني ومن نظامي وخوفي الدائم. وكل واحد يرى في الآخر كل أخطاء العالم.

كنتُ سعيدة من صفاء ذهن فيرجي، وخائفة منها وعليها. كل شيء كان يأتي منها، وكأنها كانت تودع كل أشيائها وتفاصيلها. قلت في خاطري ربما كان السبب هو الحرارة والحمى التي نزلت حتى عينها اليسرى التي احمرت قبل أن تعود إلى طبيعتها. ومع ذلك لم أكن مرتاحة. فكرت أن أنادي الطبيب ولكني لم أكن أريد أن أحرك غفوتها اللذيذة التي كانت فيها على الرغم من حرارة الحمى التي احتلت كل جسدها.

– تعرفين أني توحشت نشوف ماريا حبيبتي.

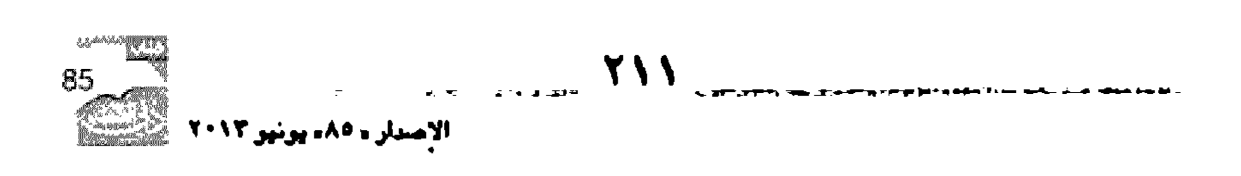
– يا يما لا تشغلي نفسك بكوزيت. مدبرة راسها. ما عليها والو. هي بخير، والآلاف يتمنون أن يكونوا في وضعها، في مدينة آمنة وعمل جميل ومريح جداً.

– ومع ذلك ماريا لا تزال صغيرة.

– تريدين أن أكلمها لتأتي؟

– لا. أنا بخير الآن. لكن فقط قولي لها إني توحشتها، وبأن لا تعود إلى هذه الأرض التي قتلتنا جميعاً. أخذت مني كل شيء. الأرض مثل بعض الحيوانات التي تنفر أبناءها قبل أن تمزقهم. أرضنا تنفرنا! هل تتصورين مقدار الشر؟ قتلت والدك، وهجّرت أختك وهبلتني وهبلت حبيبي ووحيدي رايان.

كنت سعيدة ومتوجسة في أعماقي. في لحظة ما ظننت فجأة



أن أمي استعادت كل نورها وألقها لأن بريقاً من الحياة لمع في عينيها ولكن سرعان ما انتابني خوف عميق. أحسست بأمي تقاوم الموت بطريقتها وترفض أن تستسلم لقدر قاتل كان يرتسم في كل شيء كان يحيط بها.

أغمضتْ عينيها قليلاً وهي تشد على يدي.

فجأة، انطفأ بريقها وألقها وتحول إلى صفرة قاسية. ناديتها لأني في ثانية هاربة شعرت بها كأنها سقطت في عمق حفرة لم يكن بمقدوري أن أمنحها كفّي لإخراجها منها. ناديتها يمّاااااا. لكنها أغمضت عينيها وتمتمت وأنا أقبض على يديها اللتين بردتا بكل ما أملك من قوة لكي لا تنسحب. بدا لي أيضاً كأني سمعتها تقول بعد أن ثقل كلامها، ولم تعد ترى شيئاً مما كان يحيط بها. كان صوتها هشاً، كأنه يأتي من بعيد، في شكل همسات متقطعة.

- حبيبي بويس... أتعبتني كثيراً ومع ذلك لا أملك إلا أن أغفر لك... هل تسمعني؟ أنا الآن أركض نحوك... انتظرني قليلاً يا قلبي. ضجيج هذا القطار يزعجني ويحرمني من تذوق جمال كاليفورنيا البحري... أشم عطر الجبال العالية والأشجار ورائحة البحر التي تأتي من بعيد ممزوجة بدوار جميل... هذه سان ديغو

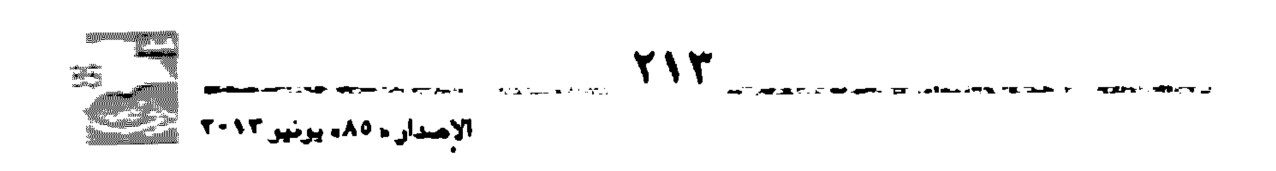
إني أراها للمرة ألاولى برفقتك بكل بهائها ممزوجة بأغاني الميكسيكيين الهاربين من خوف ورثوه عن الأجداد. هذه عرفتها من مدينتها الصغيرة الملتصقة بها سانتا مونيكا... المدينة البحرية العاشقة التي ضاع مني اسمها سأتذكرها.... يااه ما أدهش هذه المعابر الحديدية الضخمة... تختبرني حبيبي.... من لا يعرف سان فرانسيسكو... سان رفاييل.... ساكرامنتو... يا مهبووول حتى لساكرامنتو... لكن ضجيج القطار يحرمني من نعومة أن أكون معك... وفي قلبك..

مدت يدها تبحث عن القطن الذي تعودت أن تغلق به أذنيها ولكنها لم تجده. فهمتها جيداً. وضعتُ قطناً في أذنيها لكي أريحها. ارتاحت.

نظرت إليَّ بعينين فارغتين. أدركت بسرعة أن أمي كانت تموت. بعد لحظات أغمضت عينيها ثم هدأت وهي تكرر:

- ضمني حبيبي إلى صدرك. لا تقف هكذا مثل قطعة زجاج باردة.

ضممتها إلى صدري. كانت مثل قطعة ثلج. حاولت أن أدفئها بفرك يديها وكل مفاصلها لكي تعود لها بعض الحرارة، ولكنها كانت تزداد برودة.



فجأة اهتزت في مكانها كأنَّ وخزاً أصابها ثم خمدت نهائياً.

بعدها ساد هدوء غريب، به رائحة غريبة أيضاً.

ماتت فيرجي في السّكينة التي اشتهتها. وانتهى كل شيء.

وسقط الجسر الثاني في مدينة قلبي.

لم أجتهد لحضور جنازتها كما فعلت مع أبي. لا أدري السبب، ربما لأني وجدت نفسي وحيدة أمام الموت، وكان عليّ تحمل كل شيء. كنت سأنهار لولا جاد وأهلها وأخوها ماسي، ماسينيسا الشرطي اللطيف. حتى كوزيت اعتذرت برسالة قصيرة: Mille excuses. Très occupée en ce moment. Sincères condoleances. Bon courage chère Yama٥٥. وكأنها لم تكن معنية بما حدث. في الليلة نفسها كلمتني بالهاتف مرة أخرى. الكلمة الوحيدة التي سمعتها منها جاءتني منها كانت باردة كقطعة ثلج:

- تعِبَتْ كثيراً. اتْهنّاتْ٥٦.

حتى صديقها ميرو الذي حضر جنازتها ظل منفصلاً عن

---

(٥٥) كل الاعتذار. مشغولة جداً في هذه الفترة. تعازي الخالصة. الكثير من الشجاعة عزيزتي ياما.

(٥٦) ارتاحتْ.

الجميع كما قيل لي، غاب فجأة في المنطقة المسيجة حيث الصيدلية... قيل إنه مات في المعبر السابع وهو في سيارته عندما حاول تخطيه بعنف. لم نسمع عنه أي شيء. حتى الجرائد الرسمية أو جرائد المعارضة أو تلك المسماة مستقلة، لم تذكره ولا حتى بكلمة عابرة. هل مات ميرو حقيقة، أم أنه مجرد خبر هارب؟

سألت عنه في المدينة، لا أحد من أصدقائه كان يعرف شيئاً. حتى أن بعضهم قال لي إنه بمجرد عودته من جنازة لالة فريجة بنت موح البجاوي، حمل حقيبة قديمة شبيهة بحقائب الغجر، الذين كانوا يُؤخَذون من بيوتهم بالقوة، فجراً، إلى محتشدات أوشويتز Auschwitz وغيرها. ثم نزل إلى محطَة القطار القديمة، وأخذ وجهة غير معلومة، أو على الأقل لم يخبر أحداً من أقربائه وأصدقائه، لا عن اتجاهه ولا عن قراره الذي يبدو كأنه فكر فيه طويلاً. بعدها لم يره أحدُ في المدينة، لا في شمالها ولا في جنوبها ولا حتى على حوافها الأكثر عزلة وفقراً التي تعود أن يزورها ويصورها.

IV
حَبِيبِي الّذِي اسْتَبَدّ بِي

-١-

فيرجي لم تمت ولكنها صعدت نحو السماء لترتاح قليلاً.
ظللت أتأمل هذه الجملة التي احتلت حائطي في مملكتي الزرقاء. اخترتها من تعزية فاوست.
عاجزة عن وصف ما تفعله لغة هذا الرجل فيّ. فهو يملك سحراً غريباً يهزني بسرعة نحو الأقاصي التي تدخلني في دوارها المدهش. يحولني إلى ريشة في مهب الشوق، أو ببساطة إلى قنبلة موقوتة تتمنى أن لا تنفجر في أحد يوماً ما إلا في نفسها.
وحده فاوست كان يملك هذه الخاصية المدمرة في الحالتين. يرفعني عالياً بالقوة والجدارة نفسها، ينزلني تحت الأرض حيث لا شيء إلا دود التراب الذي ينخر الجثث وجذور الأشجار الميتة. هذه المرة كان منصتاً لأدق ما فيّ من حزن وهبل. مع أني في الأيام الأخيرة غرقت في مرض أمي وموتها، وفي الصيدلية التي استطعت إنقاذها بشق النفس، حتى أني بتّ أطلب تغيير منظومة الوقت الزمنية في اليوم الواحد، من ٢٤ ساعة إلى ٧٢ ساعة لأتمكن من إنجاز كل مهامي. من حين لآخر، عندما تعميني الأشواق ويستبد بي الحزن، أحمل

الكلارينات التي عدت لها بشغف. أضعها على ظهري في غمدها الجلدي كمن يحمل سلاحاً قديماً، أنزل إلى أصدقائي في فرقة ديبو- جاز الذين كانوا يحضُرون لمهرجان موسيقا الجاز العالمي، في أفريقيا الجنوبية. أجلس قليلاً معهم، أو ما تبقى منهم، ومع الشباب الجدد. نتحدث عن الماضي والآفاق. أعزف على الكلارينات قليلاً. فأرى شططاً وحزناً عميقاً يرتسم. على الوجوه. لا أستطيع كلما عزفت أن لا أتذكر ديف. ما تبقى من أصدقائي يعرف جيداً أني كنت أتصادى مع حبيبي ديف على الهارمونيكا. لقد ذهب الكثيرون ولم يبق إلا القليل. كانوا مصرين على عدم ترك الفرقة.

أعود إلى زمن لا أستطيع مقاومته. كانت فرقة ديبو- جاز Dépôt-Jaz مكونة من سبعة شباب مولعين بحاضرهم وبعطر المدينة. أنا على الكلارينات. جواد أو دجو على الساكسو. أنيس على القيثارة الجافة. شادي على الكلافية. راستا على الباس. حميدو أو ميدو على الباتري والطبل الأفريقي، ودافيد أو ديف على الهارمونيكا والقيثارة الكهربائية. وإذا أضفنا صافو التي غادرتنا في وقت مبكر، نصبح ثمانية.

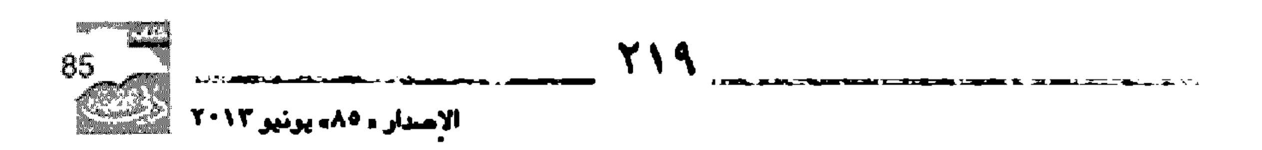
فاوست شاركني في كل آلامي. كان حاضراً بقوة حتى أن غضبي منه انتفى وقتها. ضحكت من نفسي أنا التي فكرت

في لحظة مجنونة في قتله من شدة الغيرة والجنون. هو من أوصلني إلى هذه الحالات.

تأملت طويلاً زرقة الفيسبوك والخطوط والصور والألوان المنزلقة. كان وجه فاوست يبدو رائقاً إذ تمتد وراءه كنيسة لاخيرالدا بأشبيلية بكل سلطانها وقوتها وجبروت عظمتها وتاريخها الغريب والصامت. بجانب صورته، من الجهة اليسرى، التعزية التي وضعها على حائطه وحائطي، في إطار «مُبرْوَن» بألوان يغلب عليها السواد: لحبيبتي وشجني وهبلي الكبير ياما، كل قلبي وآلامه. فيرجي لا تموت ولكنها فقط تصعد للسماء لكي ترتاح قليلاً بعد أن خذلتها الأمطار والسواقي والنوارس. بقيت الصورة ولم ينزعها ولم يغيرها مدة طويلة، مما أدخله في قلبي أكثر وشعرت بقربه، بل بأنفاسه القوية. يعرف فاوست كيف يختار الأشياء الجميلة، في الوقت المناسب وحيث لا أحد ينتظره.

على الرغم من التباس وضعها وارتباكها، كانت أمي صائبة في الكثير من الأشياء. قبل يومين من وفاتها قالت لي فيرجي وهي التي ورثتني القراءة بكل اللغات التي أتقنها وحب الكتب:

- احذري حبيبتي أن تحبي كاتباً حياً. الأموات لا يؤذون. الميت نغلفه بحضوره ونشتاقه في غيابه، ونقتله



وقت ما نشاء بطلقة لغوية قاهرة أو بشهقة عميقة. أما الأحياء فيمكن أن يتحولوا إلى قتلة في ثانية واحدة وبلمسة من الأنانية يقلبون النور إلى ظلمة قاسية. اقرأي كتبهم ولا تذهبي نحوهم. سلطانهم هو سلطان الموت، فيلتبس بسرعة حبهم بكراهيتهم وتصبحين ليس أكثر من شخصية من ورق يعبثون بها كما يشاؤون في بياض بلا حدود، وحدهم يعرفون أسراره. لقد تعودوا على أن يتحكموا في المصائر الوهمية، وفي النهاية لا يشعرون بآلام الآخرين. احذري أن تتحولي إلى جزء من هذه المصائر. الكتاب الأحياء الذين تحبينهم، اقرأيهم بالهبل الذي تريدين، لكن ابتعدي عنهم قدر ما تستطيعين، وامنحي كتبهم لغيرك لكي لا تصابي بهم. إشراك الناس معك يخفف من تعلقك وخوفك. إذا حدث وأن أصِبت بأحد منهم اغمضي عينيك بسرعة لكي تتفادي سحره، واهربي نحو خوفك، فهو يحميك، وإلا ستصابين بالعمى الكلّي، إذ لن تلتفتي لغيره. ستبدو لك الكتب الأخرى ميتة ولا تثير قلبك وحواسك.

أضحك من كلام أمي لأنها طبقت عليَّ كل الوصفات التي عاشتها، ونسيت أني أنا أيضاً كيان آخر، مختلف تماماً عنها. فقد كانت مصابة بكاتبين ميتين: فيرجينيا وولف وبوريس

فيان، ولكنها لم تشعرني في أي يوم من الأيام أنهما انتهيا. بل كانا يمارسان حياتهما وسلطانهما فيها وكأنهما في لحظة ما توزعا روحها بشكل غير عادل. فيرجينيا أخذت ٢٠ بالمائة، وبوريس ٧٠ بالمائة المتبقية، ولم يتركا لها إلا ١٠ بالمائة من الأمومة التي كنت في حاجة ماسة لها لكي أستقيم وأقف على رجليّ في عز حرب الخوف. كنت أقوم بهذه التقسيمات وأنا أرى أمي أمامي وهي تعيش كاتبيها. هذه النسب كانت مرتبكة في البداية قبل أن تستقر على هذه الحالة، وقبل أن يسرق منها بوريس فيان كل شيء، حتى روحها الهشة التي لم تستطع أبداً استرجاعها ولا مقاومة حرائقه وأوهامه.

– يا يما ماذا تقولين عن فيرجينيا وولف؟ عن بوريس؟

- كنت متأكدة من أنك ستقولين هذا. فيرجينيا تركتها عندما أحسست بنفسي أسير نحو موتها في الماء، وأنا أكره الموت غرقاً. في لحظة من اللحظات شعرت بالرغبة في الحياة عندما وجدت حبيبي بوريس في طريقي. بوريس مات يا قلبي ولا خوف منه. لن يغلق عيني وقلبي على أحد.

- لقد أغلقهما يا يمّا أكثر من الأحياء.

- يبدو لك. فأنا ملتبسة بما عاشه أكثر مما كتبه.

- وما الفرق يا يمّا؟

- أستطيع في أية لحظة أن أرمي كتبه في النار وأتخلص من ظله.

- لم ترمي كتبه في النار، ولم تتخلَّصي من ظله الذي اجتاحك. ولكنك خبأته في البنك الوطني لكي لا تمسس أنفاسه أياد أخرى.

- لأنّي خفت من أن تسقط كتبه بين أيدي من لا يعرف قدرها. الحرب الأهلية والحرب الصامتة أنجبتا كيانات علقية تمتص روح كل شيء ولا تترك إلا العظم واقفاً قبل أن يهر الجسد كلياً من تلقاء نفسه. كائنات غريبة جعلت من الجهل والأمية قيمة؟ أي زمن هذا؟ هم من دفعني إلى طلب التقاعد من عملي الذي كنت أحبه بقوة. تخيلي حرَّموا اللغة الفرنسية على الكل وقالوا إنها من بدع المستعمر للاستيلاء على الأرواح. ولم يفعلوا الشيء نفسه مع اللغة الإنجليزية. غلَقوا أبواب النور والفرح والهرب الجميل نحو عوالم أخرى. كل اللواتي أصررن على التدريس ذُبحن. تخيلي؟ كيف تصبح لغة ما سبباً في القتل.

كانت فيرجي محقة في هذا.

شعرت بوخز في قلبي ولكني بلعت كل شيء.

نسيت أمي الطيبة التي خرجت من سلطان فيرجي، أنها كانت تسقط في حب آخر سيسحبها نحو موت أكيد. فيرجي كانت معلمي الأول في القراءة وحب الأدب وتعلم اللغات.

هي من منحتني كتباً لأول مرة بالفرنسية ثم بالإسبانية ثم بالإنجليزية ثم بالعربية التي لم تكن تتقنها كما يجب، ولكنها كانت تحبها هي والإسبانية. لا تتعب أبداً من تكرار جملتها عليَّ: لغتان صنع بهما أجدادي عصراً جميلاً في أراض لم تكن لهم ولكنهم عمروها قبل أن يسرق الشماليون منهم كل شيء: العربية والإسبانية. فيرجينا وولف تُقرأ في سحرها اللغوي الإنجليزي. لا لغة أخرى تستطيع فك ألغازها الغريبة. دونكيشوت لا شيء يرمي به نحو القلب إلا الإسبانية. ويظل سحر شهرزاد وطوق الحمامة ورسالة الغفران كيانات مغلقة، مكتومة في الأعماق، هاربة عمّن لا يعرف العربية.

ما حذرتني منه أمي كان حقيقة وليس مزاج مريضة. ربما كانت هي أولى ضحاياه، ولكنها كانت تسحرني وتقودني نحو مساحات من النور كثيراً ما وجدت نفسي فيها، وكثيراً ما خانتني وتركتني وحيدة أمام بياض سودته أحرف كانت بها رائحة الملائكة أحياناً، وفي أحيان أخرى عطر الشياطين ومطر الشوق.

كنت سعيدة أني وصلت إلى ختام رهاني. وضعت في رأسي أنّي يوم ألقى فاوست، سأكون قد كتبت له ٧٧٧ رسالة وسأمنحها له ليعرف كيف سكن مراهقتي وجنوني، وكيف استبد بي مثل الهبل الذي نخرني من الداخل. أليس الحب إلا جنوناً ينفذ إلى القلب وقت ما يشاء وينسحب وقت ما يشاء أيضاً. فكرت أن أضعها بين يديه وأهرب نحو البحر أو نحو أي مقهى إذا كان الجو ممطراً. أحب البحر لأنه كان ملجأي أنا وديف كلما شعرنا بسفننا الصغيرة تغرق. نقف على الحافة الصخرية وننتظر الموجة الهاربة التي تنكسر عند أقدامنا محدثة صوتاً قوياً ولذيذاً وعرساً من النور والبياض والرذاذ الذي يغطينا كغيمة، فننسى كل شيء ونعود بسرعة إلى طفولتنا.

مثل أمي، كان فاوست كل شيء في حياتي. رهاني الصغير الذي ركضت ومازلت وراءه. كان أزمتي وهبلي. الحرب الأهلية التي توقفت على الرغم من بقاء المعابر هنا وهناك ولا نعرف من يقف وراءها، زادتني التصاقاً به ورغبة في رؤيته. لم يكن مدهشاً ولا جميلاً ولكنه كان يملك سحراً لم ألمسه عند غيره. ساحر وربما أكثر. مهبوووووول.

أشعر أحياناً أن حبيبي فاوست هو الرجل الوحيد في الدنيا الذي بإمكانه أن يحرك النور كما يشاء. يبدعه ويخلقه من

الفراغ. يضعه في جيبه كما يلمسه برؤوس أصابعه دون أن يحرفه عن مساره، أو يضع منه القليل في عيون الآخرين وهم يقرأون حروفه. كتبت له رسائل كثيرة. كثيرة جداً. ولكنها عندما بلغت ٧٧٧ توقفت نهائياً. أعتقد أني أنا من أوقفها ونشف فجأة كل شيء فيّ. أنا لا أدري لماذا هذا الرقم تحديداً، ولماذا توقفت أيضاً؟ لدي ما أنجز به كتاباً مهماً في العشق. العشق السابع. لكني لم أبعث له ولا واحدة. لا أدري أيضاً السبب. ربما كان خوفاً من عدواه، أو من فقدانه إلى الأبد.

أتأمله. أتابعه في كل حركاته على المساحة الزرقاء كل ليلة. أمتلئ به وبأشواقه. أشعر به وبأنفاسه تخرج من الجهاز لتسكنني وأنا أتخيل كل هذا العرش من النساء اللواتي يحطن به. أتواصل معه ولكني لا أكتب الرسائل الطويلة إلا عندما أشتاقه وأحزن بقوة. ثم أدفنها في خزانتي. مليئة بشجني وخوفي من فقدانه. أغضب من نسائه. أستخسرها فيه أحياناً ولهذا لا أبعثها. ٧٧٧ رسالة مجنونة هي هديتي له يوم ألقاه للمرة الأولى ليعرف كيف أن امرأة امتلأت به حتى الموت كتابة، ولم يأبه لها كثيراً، لم تطلب شيئاً آخر سوى أن يهبها الله كل يوم قدرة ضافية لحبه أكثر. وأن عالمه الجميل كان يأسرها بنوره بقدر ما كانت نساؤه ترمينها على حوافه.

مشكلتي، وربما أزمتي أيضاً أني لست من النوع الذي لا يريد أن يصل إلى العين[57] ولا يشرب منها كما كانت تقول أمّي ويوافقها أبي بهز رأسه. إلى اليوم لا أدري إذا ما كان هزّ الرأس عند والدي هو موافقة أم عكسها. مجرد لحظة لتجاوز إصرار فيرجي على الشيء الذي تريده.

الواحدة والنصف؟ واااااو؟ كيف سأقوم غداً باكراً لتعويض صديقتي جاد التي اشتغلت ليلاً في المداومة؟

كنت جد متعبة.

لمع اسم فاوست من جديد على الشاشة الزرقاء. لم أستطع تفادي جمله التي كانت تنهمر على قلبي كأمطار ربيعية.

- خذيني نحوك. شيء ما فيّ يسرقني نحو جرحك. ولا يتيح لي فرصة تسريح شعري ولبسي وانتعال حذائي. شيء ما أقوى مني يرميني فيك حافياً عاري القديمين والروح كما ولدتني أمي. لا سلطان لي على ظلك الذي يسرقني نحوه بلا رحمة.

- حبيبي. لا أدري من أين تأتي بهذه اللغة التي تسرق أية امرأة من جديتها وتدخلها في دوار هبلك.

- لا شيء سوى حبك الذي تحول إلى موجة عارمة أخذت

---

(٥٧) ساقية الماء.

كل شيء فيّ بقوة.

- ياااه؟ إلى هذه الدرجة.
- انسي عمري. كم تمنيت أن أكون بالقرب منك وأحضنك حتى الصباح لتبكي على صدري. البكاء على صدر من نحب يمتص الحرقة القاسية. لكنها قسوة المسافات القلقة.
- يا عمري أنا هشة ولم أعد أواصل السير في هذه الحياة إلا بصعوبة. ولا أدري ما أقوله. أمي قتلها كاتب ميّت، وُلدت يوم وفاته، تخيل الأقدار؟ في اللحظة التي كان هو يرى فيها الفيلم المقتبس عن روايته: سأذهب لأبصق على قبوركم، ويموت بسكتة قلبية، كانت حياته الهاربة تنتقل إلى صرخة طفلة في قارة أخرى. فلا تقتلني وأنت حي أرجوك يا فاوست.
- سأتحول إلى نجمة تنفجر في الأكوان وتتفتّت إلى ذرات صغيرة قبل أن أفعل ذلك. أحبك فقط وقلبي محروق عليك. ولا شيء غير ذلك. أنت تحبين رجلاً سرقته الحياة ويكاد أن لا يرى في الموت إلا فاصلة منزلقة على خطوط غير مستقيمة.
- طيب لماذا أجلت عودتك إلى أرض الوطن، مرة أخرى؟

كنتُ متأكدة من أنك ستملأ قلبي وروحي وجسدي، ولكن ها أنت تفضل أن تبتعد وتتركني في دوامة الخوف والعزلة. هل تدري ماذا يعني ذلك بالنسبة لامرأة تنتظر حبيباً تأخر مجيئه كثيراً؟ يجب أن تعرف أنك خرجت من الافتراض وأصبحت حقيقتي الأهم. عندما نفكر في قتل من نحب، بسبب الغيرة، هذا يعني أننا أصبحنا مصابين به ولا مخرج لنا منه إلا حبه أكثر لدرجة التماهي فيه.

- أعرف الحزن الذي تسببتُ لك فيه، ولكن لا مسؤولية لي في التأخير. بيروقراطيتهم وتخلفهم هما السبب. سيحرقون البلد يوماً بعقلية الإطفائي الذي لا يتحرك إلا عندما تشتعل النار؟ لا يعرفون استباق الأحداث. لم يتغيروا أبداً. على كل حبيبتي فاقد الشيء لا يعطيه أبداً. وزارة الثقافة والسياحة من جهة، ودار الأوبرا الوطنية، من جهة ثانية. مسرحيتي لعنة غرناطة جاهزة كلياً. نحن في التدريبات الأخيرة استعداداً للحضور. تعرفين جيداً أني سأعود إلى أرضي لأنك فيها، ولأني كلما انتابني خوف من العودة استحضرتك بكل بهائك، فنسيت خوفي وحزني وارتباكي.
- يااااي أنت تقتلني بالكلمات التي أنا في حاجة حقيقة

إلى سماعها. لا أدري من أين تأتيك؟

- أنا مثلك يا غالية، هش وخائف لا من الموت ولكن من الخيبة.

- ممن. لم أفهم جيداً.

- من كل ما صنعته في غياب أرض وضعت السكّينة في نحري قبل أن تطوح بي في أعالي البحار وخراب المنافي. أجمل حظ أن تتنفس أرضك كما هي. الخروج ليس نعمة. بل نقمة تلتصق في مكان واحد هو الحلق. من حين لآخر تسده لدرجة الاختناق، وفي أحيان أخرى تنفتح أمامه قليلاً ليتنفس لا أكثر حتى لا يموت منكسراً.

- لكني أشتاقك ولا أرى حياتي خارج لعنة العودة التي تأخرت كثيراً. لو لم تقل لي أنك عائد، لصبرت، وتحملت. لكني الآن أنا على حوافك كلها.

- ارتاحي قليلاً الآن الليل في عمق سكينته.

- هجرني النوم.

- اسمعي لي وستنامين. ارتخي قليلاً في المكان الذي أنت فيه.

- متعبة. على كرسي والدي. أمدده قليلاً. الآن أصبح أكثر راحة. ها أنا ذي ارتخيت.

- اغمضي عينيك الآن وحاولي أن لا تفكري في أي شيء إلا في حبك.
- يا مهبول وهل أنا قادرة على التفكير في شيء آخر غيرك؟ أنا فيك كلياً. ها عيناي قد انغلقتا من تلقاء نفسيهما من شدة الإرهاق والتعب.
- تمددي أكثر على الكرسي.
- ها أنا ذي قد تمددت. صورة والدي التي على الحائط غامت نهائياً وأصبحت مكسوة بغلالة شفافة تشبه الغيمة، لكني أعرف أنه وراءها بكل أناقته.
- ارسمي شكلاً ملوناً بآلاف التدرجات مثل قوس قزح، وحاولي أن تملأي البياضات باللون الذي تشائين. اغمسي أصابعك في الألوان ثم بعثريها مثل الذي يحمل حفنة من النجوم ويطوح بها عالياً ويتأملها بعشق وهي ترتسم في السماء المظلمة لتنيرها.
- ها أنا ذي قد فعلت.... يااااه يا حبيبي ما أشهى هذه السماء. سماء واسعة وجميلة تأتي نحوي بكل ألقها وجمالها وبهائها. أسكنها لأنها الوحيدة التي تشبه أعماقي.
- اغمضي عينيك أكثر. تنفسي بهدوء داخل هذه الألوان المشبعة بالنور.

أغمض عيني أكثر. بسرعة أتمادى في اللاشيء. هلام من البياض. رأيت زاوية سيدي الخلوي[٥٨] وأمي في عمقها جد حزينة. سألتها لماذا؟ قالت شيخ سيدي الخلوي مات ولم أعز الولي الصالح فيه. لم أفهم ولكني رأيت ملامح أمي بكل تفاصيلها وكأنها كانت حقيقية. في لباسها الأبيض الشفاف الذي يشبه غيمة. وقبل أن أفتح عيني، قبلت أمي جبهتي وهي تردد: أرجوك يا قلبي اعتذري لسيدي الخلوي عن غيابي، وقدمي له التعازي من عندي.

بعدها لم أعد أرى شيئاً سوى الأنوار اللذيذة التي ارتسمت في وقت مبكر على نافذة المطبخ المطلة على البحر راسمة هالة كبيرة حول كاتدرائية أمنا مريم المجدلية[٥٩]. التي تبدو بقاياها من بعيد ببعض شموخها مثل الساكري كور[٦٠] الباريسية، قبل أن يظهر البعج الكبير الذي أكل جزءاً مهماً من واجهتها العلوية.

كان يوم جديد يرتسم على وجه مدينتي النائمة التي لا تستيقظ باكراً، وتنام بخوف، قبل جميع مدن العالم حتى أكثرها حزناً وعزلة ويوساً.

---

(٥٨) الخلوي من الخلوة والعزلة بالمعنى الصوفي. هناك أولياء كثر يحملون هذه التسمية في البلدان المغاربية.

(٥٩) L'Eglise de notre Mère Marie-Madeleine.

(٦٠) Le Sacré-coeur.

-٢-

لم أعـرف كيف أفسر حلم أمّــي، ولكن وجدتني منقادة بسيارتي الصغيرة شيري البنفسجية(٦١) نحو زاويـة سيدي الخلوي التي كانت فيرجي تحبها في حالات وعيها، وتزورها من حين لآخـر. كانت زاويـة معزولة ولكن من شدة امتداد المدينة، أصيبت الزاوية الصغيرة في عمقها، بيُتم كبير. مثل المغارة المعزولة. لولا صحن الجامع الكبير المقابل لها، الذي كان يعطيها امتداداً أكبر من حجمها الفعلي.

تخطيت العتبة الأولى. كانت عالية بعض الشيء درءاً لتسرب سيول الأمطار الموسمية التي تفيض على الصحن من حين لآخر. وجدت بها رجلاً يرتدي بياضاً ناصعاً، طيب الوجه والعطر، متوحّداً في عمقها. في يده مسبحة ووجهه مضاء كشمس. عليه الكثير من السماحة والألق والنور. سلمت عليه وقبلت رأسه كما تعودتْ أمي أن تفعل. لم يكن أي شيء غريب في ملامحه. بدا كأنه هو نفسه الذي رأيته العديد من المرات عندما زرت المكان مع أمي، لكنه كان متعباً قليلاً وحزيناً، وبياضه زاد نصاعة ووجهه لمعاناً. جلست بالقرب منه. لم يحدثني عن أي شيء، ولم أحدثه. التصقت بالحائط، بالضبط

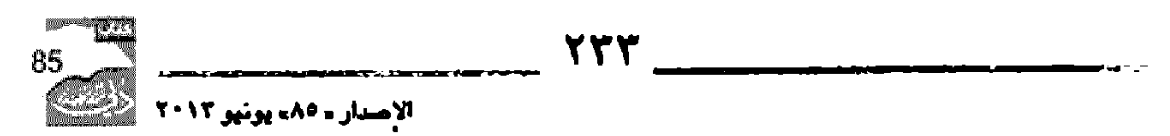
(٦١) Chery A1.

في الزاوية التي كانت ترتادها أمي. اعتذرت للولي الصالح وبلّغته أعذار فيرجي وأضفت لها من عندي. وعندما هممت بالخروج، سحبني الرجل الأبيض بلطف من لباسي الطويل. تذكرت أني نسيت شيئاً مهماً. وضعت في يده بعض النقود. نظر إليّ بشيء من الغضب.

- عيب يا ابنتي. لست شحاذاً. أنا هنا أنتظر العلامة وأبحث عن بعض الراحة وسط هذا اليأس المخيف. أنا أعرفك ورأيتك في المقبرة يوم وفاة حبيبي، السّي زبير ربي يرحمه. كنت تلبسين جلباباً رجالياً فضفاضاً، وتخفين وجهك بشال طوارقي أسود. يومها عرفت أنك امرأة لا تشبه الأخريات وتذهب وراء علامتها حتى النهاية، حتى ولو كلفها ذلك حياتها. النساء كما الرجال، لا يتشابهن.

اندهشت من يقينه. شعرت بنفسي عارية من كل أسراري الصغيرة. بدأت أشعر بأن الرجل الأبيض لم يكن عادياً.

- أنا أيضاً يا سيدي أبحث عن شيء لا أعرفه، ولكني متأكدة من أنه يمكن أن يكون موجوداً بين ركامات يومياتنا القلقة، أو حتى في وسط خوفنا وذعرنا المتكرر. أنا أيضاً لا أملك أي حل لما يحدث من حولي. كل الذين أحبهم ماتوا، أو خرجوا ولم يعودوا. لكني على يقين أن في الحياة ما يستحق أن نركض وراءه لندركه، وإن لم نستطع، ندرك بعضه.



اتكأت بظهري على حائط الولي الصالح. شعرت ببعض البرودة.

- هل أنت خائفة يا ابنتي؟ لا أعتقد. عفواً في الحقيقة لا أعرف.

- أنا أيضاً لا أعرف لماذا جئتُ إلى هنا؟ كنت آتي إلى هذا المكان قبل سنوات طويلة لمرافقة أمي. ما قادني اليوم يا سيدي ربما هو حلم أمي التي نسيت زيارة الولي الصالح سيدي الخلوي قبل موتها بسبب مرضها الذي امتصها من الداخل بهدوء.

- مثلك أيضاً. أعرف فقط أني هنا من أجل شيء ما، غير محدد في ذهني. ربما من أجل حمامة، الطفلة الصغيرة التي كتبتْ عن دمها البريء يوم اغتيالها، الكثير من الصحف والمجلات.

- الطفلة التي قُتلت في الصحن قبل سنوات؟ أتذكر، أبكت الملايين. حتى الذين قتلت الحرب قلوبهم وحواسهم صرخوا بشكل فجائي بأعلى أصواتهم.

- نعم. كانت حمامة هنا، بالضبط عند النافورة، تلعب مع الحمام وتعطيه حبوب القمح التي كانت تملأ كفها. مر عليها رجل غريب مع أذان المغرب. كان وجهه غامضاً ومشوّشاً. سألها: ماذا تفعلين هنا وفي هذه الساعة؟ ألا

تدخلين لأداء صلاة المغرب وتبتعدين عن هذا الولي؟ هذا كفر. قالت له: سيدي الخلوي ليس كافراً. وليٌّ صالحٌ طيبٌ، أشفى الكثيرين ببركاته، من بينهم أمي التي كانت مقعدة فأصبحت تمشي. أقف كل مساء هنا لأشكر الله وأشكره مع المغرب، بالضبط في الوقت الذي قامت فيه أمي من فراشها وبدأت تمشي. أما الصلاة، فمازلت صغيرة يا سيدي، لكني أستطيع فعل الخير. تعودت يومياً أن أعطي للحمام عشاءه قبل أن أنام. رد بعنف: يجب أن تبتعدي عن المحراب، لأن وجودك فيه يفسده. ردت عليه بلا أدنى خوف أو تفكير: لا يمكنني يا سيدي أن أبتعد أو أنام لأن الحمام سيموت جوعاً إذا لم يجدني. كانت الحمامات تغمرها من كل الجهات، وهي تحاول أن تطعمها، وتنثر حبات القمح بينها وتجيب عن أسئلة الرجل الغامض. نظر نحو كل الجهات، فلم يرِ إلاّ أسراب الحمام التي كانت تتجمع بكثافة حول حمامة. غطاهما الحمام كلّياً. فجأة سُمِع صوت طلق ناري جاف بلا صراخ. فرّ الحمام، وظلت الطفلة جثة هامدة في مكانها. الباحة والمحراب والجامع والولي الصالح، فرغوا فجأة. بقِيَتْ وحيدة في دمها، وفي عمق يدها المفتوحة، بعض حبات القمح الملطخة بالدم الذي سال من رأسها. منذ ذلك اليوم لم يعد الحمام. فرغت الساحة من أية حياة.

سمعت رشقات رصاص بعيدة، لكنها كانت مسموعة بشكل واضح. كانت تأتي من جهة البحر. قفز الرجل الأبيض في مكانه بذعر واضح حتى ظننت في لحظة من اللحظات أن الرشقات كانت فيه. صمت قليلاً. ثم مسح بأصابعه المرتعشة دمعات تحقّنت في عينيه. تمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم وضع يده على كتفي وعلى رأسي. شعرت بحرارتها. فجأة انتابتني سكينة أمان غريب.

- كنتُ أعرف أنكِ هنا من أجل شيء ما. لا يمكن أن تأتي الآن هكذا؟ بمجرد صدفة هارية؟ أنا هنا لاسترجاع أسراب حمامة التي هجّرها الطلق الناري. منذ مدة وأنا هنا ولكنه لم يرجع. أنتظره منذ أن ماتت حمامة وهرب باتجاه مجهول وغرق في الميناء القديم حاملاً معه كل حياة ونور. رآه البعض يدخل في أعماق البحر ويغيب بشكل أبدي. بالرغم من ذلك كله لم أفقد الأمل في عودته.

- كنتَ تعرف حمامة الصغيرة، ربي يرحمها؟

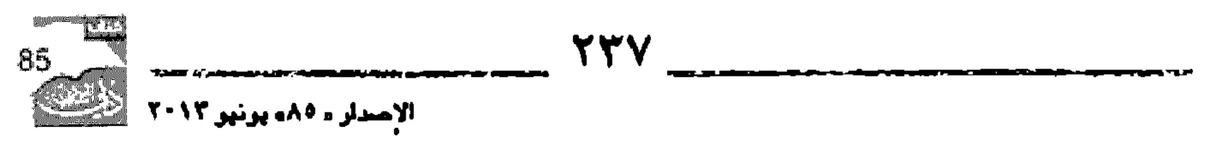
- حمامة ابنتي. نعم ابنتي. في الأيام الأولى كنت أبكيها بحرقة، فقد أظلمت الحياة في غيابها. لكن عرفت في وقت متأخر من عمري، أن الجراحات التي لا تندمل بسرعة، وتنتهي آلامها، تتسع مع الزمن وتحتاج إلى رياح كل المواسم، قبل أن تنشف مع الزمن ولا تبقى إلا علاماتها الصغيرة. وها قد مرت

كل المواسم القلقة، ودارت السنوات، وعلامات الجرح أصبحت فيّ. أنتظر عودة الحمام ، عندما يأتي إلى الصحن، سأخلي له المكان. يومها سأشعر بأن حمامة بخير في سمائها التي اختارتها.

كنت كأني مازلت في عمق الحلم الذي رأيته عن أمّي التي كانت ترتدي ليلتها غيمة جميلة. في البداية صعب عليّ تصديق قصة حمامة لغرابة الصدفة وثقل تفاصيلها. ولكني تذكرت أني قرأت شيئاً عنها في الصحافة الوطنية أحزنني وأبكاني. لم يكن في عيني الرجل الأبيض ما يوحي بالكذب أو التلفيق. أحياناً أرفض أن أمنطق الأشياء لكي لا أخسر أسرارها والتباسها. مثلاً من نقل المحاورة بين حمامة والقاتل؟ في أيّ موقع كان؟ لابد أن يكون شخصاً ثالثاً! من هو؟ لماذا لم يتدخل لينقذ حمامة من مخالب القاتل الذي انطفأ فجأة؟ ثم ألعن الشيطان لأسترجع بعضاً من نور الأشياء التي لا تتجلى فقط بمظاهرها.

واصل الرجل الأبيض وهو ينظر في عينيّ بعمق:

- ربيتها على الحمام وأسميتها عليه. وكبرت في هذا الصحن المقابل للولي. كانت كل سعادتها في هذا العمل. سأبقى هنا إلى أن أموت وأدفن بجانب حمامتي التي سُرقت مني في وقت مبكر. هل تدركين ما معنى أن يموت الإنسان



ظلماً وقسوة.

- أعرف يا سيدي. أعرف هذا جيداً. والدي كان مثل حمامة، لا يملك إلا حبه للناس. كان لمعة مشعة في الظلمات، فحُوِّل إلى رماد عند رجليَّ.

- السي زبير. ربي يرحمه. كان رجلاً طيباً. حضرت كل جنازات الحرب الأهلية والحرب الصامتة التي تلتها، ولم أتخلف عن أية واحدة إلا يوم سرقوا مني حمامة. رأيتك وعرفتك من عينيك يوم جنازة السي زبير كما قلت لك. كنت تغطين فمك وجزءاً من وجهك بالشّال الطوارقي[٦٢] الأسود. أول ما دخلتِ، عرفتك وإن شككت في البداية.

- كان يوماً قاسياً يا سيدي. لم أستطع مقاومة القسوة بالغياب. لا أدري من أين جاء تحريم وجود النساء في المقابر يوم الدفن، لكنه ظلم ذابح يا سيدي.

- تفهمت حرقتك ولو أنه عندي رأي آخر في حرمان المرأة من الجنازات. في كل شيء حكمة يا ابنتي. يجب أن ناخذ الأمر بهذا الميزان لنتحمل شطط ما يحيط بنا. المرأة تعطي الحياة وخُلقت لها أكثر من الرجل. الرجل كان طيباً قبل حرب قابيل وهابيل الدموية. الدفن هو الانتفاء النهائي

---

(٦٢) الغطاء الذي يضعه الطوارق على وجوههم.

من الوجود، وهو ما لا يناسب وظيفة المرأة المانحة للنور والحياة. في المعتقد الراسخ كل النساء تذهبن فجراً قبل إشراق الشمس، تمسحن التربة من على وجه الميّت، وتُصبّحن عليه كأنه بينهن. والكثيرات من المقربات منه كالأم والحبيبة والزوجة، يسمعن رده. صباح الخير يا أمي. وهو ما لا يستطيع الرجل فعله. الرجل جاف كالحطب لأنه من طين يتصلب بسرعة، فيدخل الحروب والقسوة، والمرأة من نور. الرجل صناعة اليقين، والمرأة لمسة الهشاشة.

- لماذا يرد الميت على الأمّ فقط.
- يردّ عليهن جميعاً. تصبحن كلهن في صورة الأمّ. حفنة من الحنان والحياة. الأم هي أول من يمنح الحياة، وأول من يحس عند الفقدان بأن جزءاً مهماً منه قد انطفأ نهائياً. أجمل شيء أن تجعل من حبيبتك أمك قبل أي شيء آخر. ربما كنت أهذي وأن توديع والدك في تلك اللحظة لا يضاهيه أي شيء. معك كل الحق. ولكن الله منحنا حكمة مخبأة في كل شيء، علينا أن نتقرب منها ونحفرها طويلاً لمعرفة أسرارها الخفية. الأشياء لا تأتي هكذا وإلا سيكون هذا العالم عبثياً ولا معنى له.

اندهشت لكلام هذا الرجل الذي بدا لي في لحظة من اللحظات

شيئاً آخر غير الحقيقة. حتى أني فكرت في أن أفتح عينيَ على كل اتساعهما، ولمسه. الغريب كأنه فهم ما كان يدور برأسي.

- ليس مهماً يا...
- ياما... ياما يا سيدي.
- ياما. ليس مهماً ان تصدّقي ما قلته، أو ما سأقوله، لأني أعرف أن الذي يسكن قلبك ليس إلا الخير. وللخير أوجه متعددة. ربما كان في إصرارك على الذهاب إلى المقبرة يومها مع اختراق كل للقواعد المألوفة، علامة أخرى قد نعرفها لاحقاً، وقد لا نعرفها أبداً. من يدري؟ هذا العالم من الغموض بما يكفي. نحتاج إلى الكثير من الوقت والحكمة لنعرف ذرة واحدة من ذراته.

دعوته لأن يرافقني نحو الصحن، ولكنه فضل البقاء في مكانه.

قام بصعوبة بعد أن اتكأ على الحائط. وضع في كفي حفنة من القمح البليوني الممتليء. قال لي: ضعيها في المكان الذي تريدين. ثم قبّل يدي. شعرت بخجل كبير. عندما خرجت، وقفت بالضبط في عمق الصحن حيث فتحت حمامة كفيها للمرة الأخيرة. التفتّ من جديد نحو الرجل الأبيض. كان يقف عند الباب بابتسامة مشرقة. اندفعت بجذعي إلى الأمام قليلاً،

ومددت يدي الممتلئة بحبوب القمح في الفراغ. أغمضت عيني للحظات على هبوب نسمة بحرية جميلة ومنعشة. شعرت بدوار جميل وبعطر الياسمين يختلط بأنفاسي. أحسست فجأة بدغدغة جميلة في كفي، أيقظتني من غفوتي. عندما فتحت عينيّ، وجدت حمامة بيضاء صافية، وقمرياً مرقطاً، ينقبان حبات القمح. عندما انتهيا، طارا في السماء المغيمة حتى غابا. لم أفهم الشيء الكثير من حبات القمح في كفي، ولا من نزول الحمامة والقمري في كفي، ولا من طيرانهما. هل كان ذلك علامة أيضاً؟

رأيت مرة أخرى ابتسامة ترتسم على محيا الرجل الأبيض. سمعت كلماته الأخيرة وأنا أضع بقية الحبوب في كف طفلة صغيرة وجهها كالشمس طلبت مني ذلك عندما رأت أن مدّ اليد في الفراغ يمكن أن يجلب لها الحمام. سألتني في البداية:

- طاطا. أحب أن تأكل الحمامات من كفي كما فعلتْ معك.

تأملت عينيها، كانتا مشرقتين بزرقة بحرية شديدة الصفاء. تذكرت حمامة.

- ما اسمك حبيبتي؟

- راما.

- عاشت الأسامي. شوفي مليح. مدّي كفيك إلى الأمام. هكذا. ثم افتحيهما عن آخرهما، اغمضي عينيك قليلاً. وسترين. سيأتي الحمام.

- هل سيأتي الحمام مثلما فعل معك؟ وإذا لم يأتِ؟

- جربي غداً. ثم بعد الغد. وسيأتي يوماً.

وضعتُ حفنة أخرى من حبات القمح التي جاءني بها الرجل الأبيض في كفّي راما.

- راما. انتظري الآن. سيأتي الحمام. اغمضي عينيك قليلاً. عندما تشعرين بدغدغة مناقره على كفك، لا تبعدي يدك بعنف، لأن الحمام يهرب عندما يشعر بالخوف. وعندما تتعبين غيّري الكف. مرة باليمنى وأخرى باليسرى.

- سأفعل طاطا حالاً..

التفت نحو الرجل الأبيض الذي ظل يراقب كل حركاتي. قال وهو يحاول أن يخبيء الدمعات التي ارتسمت على وجهه المتعب الذي أضاءته شمس الأشعة الخجولة المتسربة من وراء الغيوم الثقيلة، أكثر.

- ياما... قلت لك إنك لم تمري هكذا. أنت لستِ أنتِ. أنتِ علامة.

كانت البهجة مرتسمة على وجهه على الرغم من كل الحزن.

قالت لي الطفلة الصغيرة.

- لماذا هربت الحمامتان؟ جاءتا ولم تأكلا شيئاً.
- ابق هنا. ستعودان ومعهما سرب بكامله. أنا متأكدة من ذلك.

ذهبتُ. بينما ظلت راما في مكانها تمد كفيها نحو السماء، وظل الرجل الأبيض هو أيضاً رافعاً رأسه نحو سماء لم تعد جافة كما كانت. عندما وصلتُ إلى منتصف الطريق، التفتُّ نحوهما، رأيت فجأة سرباً من الحمام يتجه نحو الصحن ويُغطّي راما الصغيرة التي لم أعد أراها أبداً لأنها كانت مكسوة بالحمام والطيور الصغيرة الكثيرة. فرحت كثيراً.

ربما كان الحمام يسمع صوت الرجل الأبيض الداخلي، وحرائقي. وربما سمعتني أمي أيضاً بعد أن بلّغتُ تعازيْها للوليّ الصالح، سيّدي الخلوي الذي لم يتغير شيء في عزلته. هوهو كما زرته العديد من المرات مع فيرجي في لحظات قهرها. كانت تجد راحة كبيرة في الاتكاء على حائطه البارد. في المرة الأخيرة عندما التفت ورائي، كانت الصومعة العالية قد غطّت عني نهائياً، الصحن، ودم حمامة، والحمام، وراما الصغيرة، والرجل الأبيض الذي لم أحفظ إلا نصاعة وجهه، وبعض حزنه، ولباسه الأبيض كفجر ربيعي.

-٣-

لم تكن المسافة بعيدة بيني وبين الكاتدرائية، أو ما تبقى منها.

لا أدري لماذا اخترت الذهاب تحديداً إلى هذين المكانين، في هذا الوقت تحديداً، وكأني محارب يودع ساحات طفولته للمرة الأخيرة، قبل ذهابه نحو الموت. فقد كنت في عمق الموت، ولهذا كان خوفي محدوداً أو يكاد لا يُذكر. لكن رغبتي في رؤية الأشياء قبل اندثارها كان كبيراً ومعذباً. ربما قد يكون ذلك جنون من جنونياتي، ولكني في أعماقي، كنتُ أشعر دائماً بالفداحة. أتصور أنه بعد سنة أو عشر سنوات، لن يبقى شيء من ذلك، ولن يكتب لي أن أراها ثانية. ستتحول إلى سلسلة من الذكريات والصورة المختومة على البطاقات البريدية.

هذا الذي تسميه أمي ظلاً، كان حقيقتي الوحيدة. كل حياتي التي مرت كانت حياة موازية أراها الآن وكأنها مجرد قوس صغير، ولكن المأساة أنه داخل هذا القوس الصغير كانت تنام آلاف الأرواح التي حصدها الموت، آلاف البنايات المهدمة، آلاف الحرائق التي التهمت كل شيء حتى ما تبقى من محبة

الناس لبعضهم بعضاً. لم يكن أحد يهتم لقناعات جاره المسلم، أوالمسيحي، أو اليهودي، أو الإنسان بكل بساطة، فأصبح لا يفرق فقط بين الخصوصيات الدينية الكبيرة، ولكن يتفنن في الشظايا والتفاصيل. أي نوع من اليهود، الإشكنازي أو السفردي؟ والمسيحيين والمسلمين؟ أية الطوائف واللغات والإثنيات؟ كيف تخفّى ذلك لمدة قرون ليستيقظ من جديد بهذا العنف وبهذه الكثافة حيث تبدو مواجهته مستحيلة؟ في كل الأمكنة، أسمع هذه التفاصيل التي جعلت الناس يصطفون كما يشاؤون. في عملي في الصيدلية، في المترو، في الترام، في الباصات، في التاكسي، في الإدارات البائسة والحزينة، في البنوك المتخلفة التي لم يتغير أبداً نظامها التقليدي الهرم، في غرف الانتظار النتنة والمتسخة التي تعبق بروائح هي بقايا الجافيل الذي مسحت به العاملة الأرض بممسحة غاملة وقديمة قاسية الرائحة، يصعد ذلك كله ليمتص رطوبة الحيطان وتعرق الأجساد، ويشيع حالة من الخمول والدوار العام.

وعندما انتهت الحرب الأهلية، فكرت في أن أرجع لحياتي الطبيعية ولكني لم أستطع. لأن حياتي الأولى، بكل بساطة، ماتت مع الحرب. كان الوضع مستحيلاً. حتى القراءة

استصعبتها في النهاية. يبدو أن الحب مثل الحرب، يمنحنا الكثير، ويسرق منا خلسة، أكثر مما يمنحنا. الحرب تسرق العمر دفعة واحدة والحب يقسطها حتى يسهل عليه بلعها. سرق مني فاوست حاسة القراءة التي كبرتُ عليها. نهب راحتي الداخلية. واستولى بسلطانه الخفيّ عليّ.

كنت حتى وأنا في الصيدلية، لا أفعل شيئاً آخر إلا القراءة. وكلما خلوت إلى نفسي فتحت برتقالة وتلذذت بمائها. علمني ديف المهبول كيف آكل البرتقال مثلما كان يفعل جده. كان يسميها الفاكهة الأنثوية الأنيقة. في شكلها شيء من شهوة المرأة المتخفية والمعاندة. هو متأكد من أنها هي فاكهة ما بعد الجنة التي أنقذت آدم وحواء من قفر الربع الخالي وعطشه بعد عملية الطرد، وليست التفاحة الملساء، التي لا روح فيها.

– التفاحة ملساء مثل وجه به بريق، لكن بلا روح. عندما أُخرِجَ آدم من الجنة بسبب التفاحة، ونزل نحو أرض جرداء لا زرع فيها. فتحت أمامه حواء برتقالة أدخلته جنة اللذة التي لم يشعر بها أبداً من قبل. يفترض أن يقال تفاحة آدم وبرتقالة حواء في هذه الحالة. عندما أكل منها شبع من لحمها وارتوى من مائها. كان يمكن أن يموت بدونها.

- ومن أين لحبيبي بكل هذه المعلومات العظيمة؟

- من مخي. السبب بسيط. لب البرتقالة الحياة كلها، في بشرتها التي تشبه جلدنا، في لحمها كما نسميه. في داخلها المغري واللذيذ. في مائها الذي يحرّك كل حواسنا مجتمعة. لهذا يجب أن نأكلها بطريقة خاصة كما كان يفعل جدي. نتلذذ بها قطعة قطعة.

الناس يفرحون عندما يدخل عليهم الزبائن، أما أنا فقد كنت في صيدليتي، أنزعج في أعماقي بالخصوص عندما أكون منهمكة في كتاب يشدني إليه، في فصل ما، في لحظة ما. استغرب لماذا كل حياتي ذهبت نحو الأدب الإسباني، وفي هذه الأيام مجنونة على الأدب الياباني؟ موراكامي الذي تعرفت عليه متأخرة جداً قادني نحو حب طوكيو ورفضها في الآن نفسه. جاب بي العالم ومسحت معه كل الجنون الخفي الذي لا يقوله إلا الأديب. لم يكن مفيداً يوم اكتشفته وحكيت عنه مع أمي. لأنها لم تسمعني ولم تهتم بكلامي مطلقاً، لأنها كانت منهمكة في ترتيب مكتبها ومؤلفات بوريس فيان. كانت تضعها في الكراتين لأخذها نحو البنك ودفنها هناك. حتى عندما زرت البنك لاحقاً، بعد وفاتها، وقفت في حيرة من أمري. كانت فيرجي قد استأجرت خزانة فولاذية بكاملها ومنحتني رقمها السري ومفتاحها، وسجلت اسمي في البنك،

ودفعت بي إلى ضرورة المرور عند موظفة الودائع البنكية. كانت الخزانة مثل المكتبة، بباب حديدية خشنة. عندما فتحتها، عبق الستار الخفيف الذي يغطي الكتب، بعطر دافئ، يمنع عن هذه الأخيرة الغبار والحشرات والتحلل. في الجزء التحتي من الخزانة، رأيت علبة صغيرة بها خلاخيل فضية ثقيلة، مهر جدتها، التي جاؤوا بها من جبال القبائل الصغرى، وحزام أمها الذّهبي. وفي عمق ورقة ملفوفة فتحتها، وجدت خاتمها وخاتم والدي منفصلين، كل واحد في علبته الصغيرة. تأملتهما وأرجعتهما إلى مكانهما. وأساور كثيرة وسلاسل ذهبية متعددة الأشكال والألوان. تذكرت فجأة أختي كوزيت التي لم تحضر الجنازة، ولكنها أوصتني بأن أهتم جيداً بذهب أمها لأن لديها حق فيه. لا أدري ماذا حدث لي فجأة، ولكني وجدتني أتقيأ بعض الدم وهي تتحدث معي. لم أعد أسمع إلا أصداء صوتها التي كانت تأتي باردة من مونتريال: اسمعي ما تنسايش روحك. ذهب أمي ليس ملكاً لك وحدك. سنتحاسب عندما أعود إلى البلد. الفريضة لن تتم إلا بحضوري. وعندما عادت، نسيت أن تقف على قبر فيرجي. سألتني عن حسابات والدي. وضعت أمامها كل الوثائق، إلا ما وضعه والدي في حساب خاص فتحه باسمي وأوصاني بأن لا أكلم أحداً، حتى

أمي، وأن لا ألمسه إلا عند الضرورة. ثم أخذتها إلى البنك، فلم تأخذ كتاباً واحداً، ولكنها أخذت كل الذهب. في الليل قامت بالقسمة التي اشتهتها، قبل أن نقف أمام محامي ضبط الفريضة قانونياً. حزنتُ أنها نسيتْ أن تقف على قبر فيرجي. عندما نبهتها:

– حبيبتي كوزيت أنت متعبة جداً ومنفعلة. لم يبق من العائلة إلا أنا وأنت. حتى رايان المسكين ضاع. أعرف أن فقدان أمي كان قاسياً لأنه الخسارة العاطفية التي لا تعوض ولكن...

- أعتقد أنها ارتاحت من وضعية كان يمكن أن تستفحل أكثر فأكثر. لا نستطيع أمام الموت فعل أي شيء. الله غالب. ماتت كما يموت جميع البشر.
- ولكن نستطيع أن نترحم على الأموات. أن نقف على قبورهم على الأقل؟
- الوقوف على قبر لا يرجع ميتاً. لكني سأزورها في المرة القادمة.
- فيرجي، قبل أن تموت، طلبتْ المعذرة منك في قصة رايان. قالت إنها أخطأت في حقك عندما فضلت ابنها عليك، وهي لم تفعل ذلك إلا للحفاظ عليكما معاً. أنت

لم تتركي لها أي خيار في النهاية. قلت يا أنا يا هو. إنه قلب الأم يا كوزيت حبيبتي. ماذا لو تذهبين نحو قبرها وتقولين لها عفواً يا أمي. قلبي صاف تجاهك مثل الحليب.

- ما نسمحش. لقد رمتني مثل القشرة الزائدة. هي من دفع بي نحو مغاوير جهنم الباردة. اختارت ذَكَرها على حساب ابنة ليست في دماغها أكثر من ثقب مغلق سيأتي من يفتحه ويتباهى من خلاله برجولته ويشرف هو وحده من يصنعه. لو كنت في مكان كل النساء لمارست الخيانة الشريفة انتقاماً من كل الرجال الملفوفين في غيمة سوداء من الكذب لا تمطر إلا العقارب.

- كوزيت حبيبتي. يمّا لم تكن بكل هذا التخلف. لا تنسي أنها كانت مديرة مدرسة فرنسية. رايان ابنها الأوحد وتصرفت بشكل أدركت لاحقاً أنه غلط. واعتذرت منك. أعرف أنك غاضبة من فراقك مع صديقك توما، ولكن أنا أحدثك عن موضوع أمي. هي أمك ورايان ابنها. أنتِ لم تري رايان؟ حالته مؤذية. كان يمكنك زيارته.

- كعادتك. لم تتغيري أبداً. تريدين تحميلي أزمة ضمير.

رايان لم يُظلم. يدفع ثمن الجريمة التي ارتكبها، وهو مسؤول عن فعله. لا نقتل الناس كما نشتهي؟ لا أنسى أبداً عينيه الحمراوين وهو يهمّ باغتصابي، في دارنا.

- لا حبيبتي، رايان لم يحاول اغتصابك. كان يهددك للحصول على النقود لشراء المخدرات. كما سبق أن فعلها معي، ومع ذلك لم أحقد عليه أبداً.
- مثل بعض. إنه في المكان الذي يليق به.
- حرام عليك. إنه ينتهي كل يوم قليلاً يا كوزيت. رأيته قبل أيام، أحزنني وضعه. كان ينتظر العفو الرئاسي بشغف ويفكر في إعادة بناء حياته من جديد، ولكنه لم يشمله. ويقول إنه مظلوم ويبكي كثيراً. أصبح يخاف من أن يُصاب بالجنون. أنا أركض مع المحامين والإدارة المحلية ربما توصلت للتخفيف عنه.
- كان عليه أن يفكر في هذا قبل الجريمة. على كل حال محامين مش محامين، القسمة تمت ولن أخسر عليه مليماً واحداً. بإمكانك أن تفعلي ذلك وحدك وعلى حسابك. هو مجنون ولا يحق له الميراث. هذا هو القانون. يعوم بحره.
- ليس هذا ما قصدته. فكرت في... لو تزورينه قبل سفرك

مثلاً، ربما رفعت من معنوياته قليلاً وسيشعر حتماً أن له عائلة تفكر فيه. إلى اليوم لا يعرف أن والدته ماتت. ولو أنه لم يكن يحبها، ولكنه يسالني دائماً عن حالتها الصحية وعنك أيضاً.

لم تجبني كوزيت، ولكني كنت قد قرأت كل شيء في عينيها.

عادت إلى مونتريال محملة بنصف ما تركه الوالدان بعد أن أخرجت رايان من القسمة بحكم أنه مجنون وفي السجن المؤبد. جمعت كل الوثائق التي تثبت ذلك. لا أدري كيف فعلت، ولكنها أقنعت المحامي يوم الفريضة أو كان متواطئاً معها. كانت اللحظات الأخيرة من وجه أمي تملأني. لم أقل أية كلمة. من ذهب أمي لم تترك إلا خاتمي والدي. كنت سعيدة بذلك. وضعتهما في عنقي، وإسوارة خفيفة وضعتها في يدي. وخلاخل جدتي لأنها من الفضة الثقيلة ولم تكن مهتمة بها.

لقد تغيرت ماريا التي أعرفها، وأصبحت كوزيت قاسية القلب.

جاءني صوت فيرجي من بعيد هادئاً وصافياً.

– لا شيء أضمن من البنك في الحفاظ على الأشياء الجميلة والنادرة. كتبه هناك في مأمن مهما تعرض البنك للحرق

والنهب والسلب.

- لم يسلم أي شيء من جنونهم يا يما.
- يظل أكثر الأمكنة أمناً.
- لكن... كتب بوريس غير مفقودة. يمكن الحصول عليها بسهولة. قلت لك من زمان إنها طبعت في البليادr(٦٣). لو ذهبتُ لباريس قريباً سأشتريها لك.
- لا داعي حبيبتي. تهمني كتبه التي بها رائحته. البنك أضمن مكان حتى إشعار آخر. القادم سيكون مظلماً. سيأتي زمن لن تجدي فيه كتاباً واحداً في الساحة. نار الجهل والضغينة أكلت كل شيء. أنا أحتاط فقط لشيء بدأت أشعر به وأراه. لا أريد أن يسقط بين أيديهم. كل ما فيه يدعو إلى حرقه. رجل مجنون بالحياة. عاشق للنساء. موسيقي، جازمن، سينيمائي، شاعر، معاد للحروب، وجودي، مسيحي... واحدة من هذه التهم تكفي لحرقه. »

كان بوريس فيان بدايتها ومنتهاها. لا شيء غيره. حتى قراءاتها الأخرى أصبحت نادرة قبل أن تنتفي نهائياً. كانت تقول لا أريد أن ينافسني أحد في حبيبي. من الصعب إقناعها بشيء آخر غيره. حتى عندما كلمتها عن كاتب إسباني اكتشفته بصدفة القراءة، وهي المحبة لتلك الأرض واللغة،

---

(٦٣) La Pléiade.

مانويل ريفاس «إشراق في التيه»[14]، لم يعن لها ذلك أي شيء. أي شيء مطلقاً. لم تعلق ولا بكلمة واحدة.

أيقظتني الرصاصات التي كانت تأتي من مكان ما في المدينة من الجهة الجنوبية، وأنا في السيارة باتجاه الكنيسة. ثلاثة خراطيش متتالية وبعدها ساد صمت كبير هو الصمت الذي يشبه الموت تماماً. قبل أن يُسمع صوت الحوامة القوي والجاف، قلت في أعماقي بهذه العساكر التي تذهب وتجيء، لابد أن يكون من تسبب في الفوضى قد قتل؟ ربما تحتاج هذه المدينة إلى من يذكرها بأنها لا تزال مريضة. مع أنها تريد أن تقف على رجليها وأن تعيش.

وصلت الجبل حيث تتربع كاتدرائية أمنا مريم المجدلية. الناس ينادونها اختصاراً «مادلينا»[15]. والكثير منهم عندما ينطق بهذا الاسم يظن أنها حلويات مادلين التي يستمتع بها عندما يدخل إلى المقهى، وأول شيء يطلبه بشكل آلي: أعطني قهوة ومادلينا. هههه. أضحك كلما سمعت ذلك. أتذكر بقوة مادلين بروست[16]. فأضحك أكثر وأنا آكل مادلينا وأشرب قهوة

(١٤) Manuel Rivas: L'Eclat dans l'abime.

(١٥) Madeleine.

(١٦) Madeleine de Marcel Proust.

بحليب بالمقهى المقابل للصيدلية. "أمزمز" وأسترجع كلمات مارسيل بروست بلذة أشعر بها في فمي وفي كل حواسي. حفظتها عن ظهر قلب:

" ... Et tout d'un coup le souvenir m'est apparu. Ce goût, c'était celui du petit morceau de madeleine que le dimanche matin à Combray (parce que ce jour-là je ne sortais pas avant l'heure de la messe), quand j'allais lui dire bonjour dans sa chambre, ma tante Léonie m'offrait après l'avoir trempé dans son infusion de thé ou de tilleul. La vue de la petite madeleine ne m'avait rien rappelé avant que je n'y eusse goûté ; peut-être parce que, en ayant souvent aperçu depuis, sans en manger, sur les tablettes des pâtissiers, leur image avait quitté ces jours de Combray pour se lier à d'autres plus récents ; peut-être parce que, de ces souvenirs abandonnés si longtemps hors de la mémoire, rien ne survivait, tout s'était désagrégé ; les formes - et celle aussi du petit coquillage de pâtisserie, si grassement

sensuel sous son plissage sévère et dévot - s'étaient abolies, ou, ensommeillées, avaient perdu la force d'expansion qui leur eût permis de rejoindre la conscience. Mais, quand d'un passé ancien rien ne subsiste, après la mort des êtres, après la destruction des choses, seules, plus frêles mais plus vivaces, plus immatérielles, plus persistantes, plus fidèles, l'odeur et la saveur restent encore longtemps, comme des âmes, à se rappeler, à attendre, à espérer, sur la ruine de tout le reste, à porter sans fléchir, sur leur gouttelette presque impalpable, l'édifice immense du souvenir[١٧].»

---

(١٧) Marcel Proust. À la recherche du temps perdu. Du côté de chez Swann, 1913.

« فجأة تبدّت أمامي الذكرى. ذلك المذاق كان هو طعم قطعة المادلين الصغيرة، التي كانت تقدمها لي عمتي ليوني بعد أن تغمسها في الشاي أو الزعتر، كلما زرتها في صباح يوم الأحد في كومبري لأصبّح عليها في غرفتها. لم تكن تعني لي رؤية قطعة المادلين أي شيء قبل أن أتذوق طعمها. ربما لأنه من كثرة ما رأيتها معروضة على صواني بائعي الحلويات بدون أن آكلها، امحت صورة كومبري من ذهني لتحل محلها صور أخرى أكثر جدة. ربما من شدة إهمال هذه الذكريات مدة طويلة خارج الذاكرة، انتهت إلى التلاشي وانطفاء شكلها وتحلل فوقعتها الصغيرة اللذيذة بين انثناءاتها الخفية. فضيّعت الكثير من قوتها لدرجة اختفائها من الوعي. ولكن عندما يخفق كل شيء في مقاومة الماضي، وبعد موت الكائنات الحية وبعد تلاشي الحياة، شيء واحد يبقى، هش ولكنه أكثر حيوية وإصراراً وأكثر تجريداً وأكثر وفاء: الرائحة والطعم يستمران مدة أطول مثل الأرواح، في تحمل القسط الأكبر دون كلل، للأثقال المرهقة للذكرى. »

لم أخف لأن الرصاص كان يأتي من الجهة الجنوبية للمدينة، وكأني لم أكن معنية بها. أخاف دائماً من المبهم الذي لا أعرف كيف أتصرف أمامه. في البداية شعرت براحة لأني لم أغادر البيت منذ مدة قضيتها كلها فيه، وراء حاسوب أصبح الآن يلازمني وهو وسيلتي الوحيدة لرؤية الحياة أو في الصيدلية. لم أر الكنيسة منذ أن فجرت بأيد مجهولة. يقال إن القديس أوغستين[18] هو من بناها أو أمر ببنائها في ذلك المكان بالضبط لأنه يحاذي المقبرة المسيحية. وبقدرة قادر لم تُهدّم كلياً. ربما كان ذلك ببركات أمنا الطيبة السيدة المجدلية، ولكن أمنا الطيبة لم ترجع المصلين أو ما تبقى منهم، فقد هجروا المكان نهائياً.

كانت أمي هي المانع الوحيد من الخروج بسبب وضعها الصحي أو حتى توجسها وخوفها عليَّ إذ تكرر عليّ الكلام نفسه: خسرت ماريا ورايان ولست مستعدة لخسران ما تبقى لي. لكن بعد رحيلها، أعدت بسرعة ترتيب حياتي. والغريب أني في هذا الصباح وأنا أستعد للخروج، فوجئت بأن كل سكان البيت خرجوا ولم يعودوا، بابا زوربا، مامي فيرجي، حبيبي الأبله أو شارل بوفاري الذي خطبني من والدي وأكد له: سأسترها. أعرف أنها كانت صديقة ديف اليهودي، ولكني

(١٨) Saint-Augustin.

أقبل بها كما هي. رد عليه بابا زوريا يومها بجديته المعودة خارجياً والساخرة باطنياً: هي لك. اذهب لها واقترح عليها ما تريد واقنعها وقل لها بأنك تقبل بها كما هي حتى تطمئن لك، لأن النساء يا شارل تحتجن بعض الأمان. رد عليه بسرعة: اس...سسسـ...مي ليس شششش... شارل. بشير. عفواً يا بشير. رد والدي. عندما جاءني وكان والدي قد حكى لي القصة كلها. تجمدت الكلمات في حلقه وأنا منغرسة بعنف في عينيه المرعوبتين مني. قلت له: أحك يا شارلي. ما بك صامت مثل المومياء. احك. أنت تسترني؟ تقبل بي كما أنا؟ هل سألت نفسك إذا كنت سأقبل بك كما أنت؟ تمتم. أأأأأأنا اسمي ببببشيييييير. احك يا شارل بوفاري. أسمعك. قللللت لك أأأأأنا بببببشيييير. واش بك تصفرّ وتخضرّ وتتأتئ. حاول أن يخرج الكلمات، لكن ولا كلمة أسعفته. قبل أن يهرب مني ويغير رصيفه. كلما لاقتني به صدفة، ارتعشت فرائسه، واحمر وجهه ثم انتفى نهائياً. بيتهم لم يكن بعيداً عن بيتنا. سمعت لاحقاً أنه تزوج ابنة عمه التي كانت ترفضه بسبب تأتأته، ولكن عندما داهمتها العنوسة والخوف من الوصول إلى سن الجفاف، قبلت به. بعد الزواج بأسبوع، رأيته ينزوي في مقهى الأصدقاء المقابل لصيدليتي ويرسل لي أخاه الصغير ليشتري له دواء. عرفته على الرغم من لحيته التي كانت تغطي بعض

وجهه وجلابيته البيضاء ونعله. عندما فتحت الوصفة، لم يكن بها أي دواء مسجل سوى علبة الفياغرا مع التحذير من الأمراض القلبية. ضحكت في أعماقي وقلت للصغير: سلم لي على شارلي. بشير عفواً. وقل له إن هذا الدواء سينفعه كثيراً لتجاوز القنطة. وحذره أن ينتبه لقلبه. التفت الطفل نحوي باندهاش.

– لا طاطا. بشير قال لي إنه يحتاج إلى دواء الحمى. هو مزكوم.

- طبعاً حبيبي. هذا الدواء سيزيل عنه الزكام والحمى وحتى القنطة، يصلح لكل شيء.

- هاه. هكذا فهمت. المهم يزيل عنه الزكام..

قال الطفل ثم غادر المكان نهائياً.

رأيتهما من وراء النافذة وهما يتحاوران. كان الصغير يحاول أن يشرح لأخيه قيمة الدواء وقوته في إشفاء الحمى القاسية، أو على الأقل هكذا تخيلت. بينما شارلي يصغي بانتباه.

لساني الطويل لم يبقِ لي أصدقاء كثيرين. حقيقي حتى أختي كوزيت لم تعد تسأل عني من كندا. منذ أن سافرت للمرة الأخيرة، وبشكل عاجل، لم يعد هناك شيء يربطها بهذه الأرض. قصة كوزيت أعقد، وغيرتها من علاقتي بوالدي ضخمت أناها، ولكني سعيدة أنها بخير، وأنها كما كان يقول

والدي الحافظة للسلالة من الانقراض بفضل مشروع زواجها مع توما. أدرك الآن أنه معه كل الحق. السلالة كلها انقرضت. ولا أدري إن كانت تحفظ السلالة بعد أن افترقت مع توما ولعنت كل الرجال.

رشقات الرصاص لم تخفني لأني كنت أتَّبع حواسي التي تقودني نحو الحياة. أصبحت مؤمنة أو عليَّ فعل ذلك، بأن الحرب الأهلية انتهت. فقد أكلت البلد قرابة عشر سنوات، وانتهت الآن أو تكاد، وما تبقى من خوف ما هو إلا علامات طارئة شبيهة بالطلقات الأخيرة. كنت متناقضة مع نفسي طبعاً. أدرك ذلك، ولكني أحتاج إلى أن أؤمن بأنّ حياة نركض نحوها باستماتة، ستنصاع لنا يوماً ما.
ربما كنت في حاجة إلى الإيمان بهذا لكي أستمر في الحياة. لكي لا أخاف. عندما حدثت فاوست عن ذلك كله، أو بعضه، لأن الكثير من الخيارات أصبحت أحتفظ بها لنفسي. قال لي: كل حرب بين إخوة هي أهلية. وهي لا تنتهي. ليست مثل الحروب التقليدية التي عندما تنتهي، نفرح لها، ونرفع الأعلام الوطنية عالياً ونغني. ونخصص لها يوماً سنوياً نستعيدها فيه بفرح ونحتفل. الحرب الأهلية شيء آخر. عندما تنتهي لا تنتهي. وعندما تتضاءل، تخرج من أعماقها حرب أخرى. فيتوجه كل

واحد نحو موتاه ليدفنهم واحداً واحداً ويشحذ سيفه، ويهيئ سكاكينه في الخفاء لتبدأ الحرب الصامتة. حرب الانتقامات السرية. جيش من المنتقمين المؤهلين لذلك: "اللي اغتصبوا أخته. اللي قتلوا أبوه وأمه. اللي سرقوا أرضه. اللي طردوه من عمله. اللي أهانوه. اللي... الانتقام هو دائماً أعنف من العنف ذاته." كنت مندهشة مما كان يقوله. أشعر به بقوة. عندما قلت له إني سأخرج صباح الغد نحو الكنيسة. ضحك وقال:

- هل تريدين أن تموتي يا مهبولة.
- لا يا عزيزي فاوست. أريد فقط أن أشعر بأني مازلت على قيد الحياة. أعيش وأحيا وأحس. وأن شيئاً في هذه الدنيا يستحق أن نستمرَ من أجله. لا أطلب أكثر من هذا.
- لكن الوضع قاس يا حبيبتي. رائحة الجثث أصبحت تملأ كل الأمكنة.
- يوجد عفن كبير، ولكنه لا يأتي من جثث الأموات وإنما من جثث الأحياء الذين يبيعون ويشترون.
- أنت أعرف، لكن أرجوك لا تستدرج قدراً أعمى.
- أنا علي يقين مطلق أن القدر الذي أخطأني بالأمس عندما كان كل شيء مشتعلاً، لم يصبني اليوم أبداً. لا تشغل بالك عليَّ، يا فاوست.
- ينشغل بالي إذاً على من؟

- ركز على عودتك، وعد لمحبيك الكثر بكل الخير، هذا هو الأهم.

لم يرد. ولم أحاول أن أضيف كلمة واحدة.

انطفأت العلامة الخضراء في الزاوية اليسرى من الحائط، التي تبين حضوره أو غيابه. بينما انسحبت نحو أوراقي الوردية لأكتب شيئاً من قلبي أرميه في عمق الدرج الذي بدأ يئن من ثقل الرسائل التي لا أغلفة لها ولا طوابع، ولا حتى ساعي بريد يسرقها مني.

-٤-

أوقفت سيارتي بعيداً، على حافة مفرغة كبيرة تكسوها الأكياس البلاستيكية الملونة، وقطعت المعبر الصغير الخالي من أية حراسة، ومشيت نحو كاتدرائية أمنا مريم المجدلية.

لا أدري ما الذي قادني نحو هذا الحطام. حطام أقدم كنيسة في بلد بغالبية مسلمة. لا شيء يحيل إلى شيء جديد إلا الإعلان الكبير عن مسرحية لعنة غرناطة، ولا أعرف كيف غامر القديس أو غستين وأمر ببنائها في خلوة هذا المكان؟ ولا أعلم جيداً الفائدة من وراء ذلك. المزية الوحيدة فيها، هي أنها تُرى من الطريق المزدوج بالخصوص في الليل. فقد تم تحويطها بالأسلاك الشائكة، واللمبات الملونة الكثيرة التي تحيط بإعلان المسرحية، ولا ترى في الليل إلا الصورة الضخمة التي ارتسم فيها وجه غارسيا لوركا الطفولي الجميل. والجملة الكبيرة: بالتعاون مع الكاتب المسرحي الوطني الكبير فادي، يقدم المسرح الوطني عرضاً كبيراً ووحيداً بحضور الكاتب بدار الأوبرا حيث يوقع مسرحيته التي تحمل العنوان نفسه: لعنة غرناطة.

لا أدري ما الذي قذف بي بعيداً نحو برشلونة. ربما أحاسيس

أمي العميقة. كل شيء في كاتدرائية أمنا مريم المجدلية يذكرني بكنيسة أنطوني غاودي[٦٩] الذي بدأها قبل أن يتركها معلقة في الهواء في برشلونة. يسميها الكاتالانيون معبد العائلة المقدسة الحامية[٧٠]. منجز ظل معلقاً على جنون صاحبه. سلسلة من الرموز الغريبة التي حولت المَعْلم إلى قصيدة صوفية مبهمة. لقد أصبحت الكنيسة مزاراً لكل الذين يريدون اكتشاف جنون الإنسان لدرجة تتجاوز الحقيقة وتتخطاها. كان غاودي يعرف جيداً أنه لن ينتهي من بنائها في حياته لأن المشروع كان أضخم من عمر واحد. ولهذا فكر بإنجاز مركزها أولاً وتوسيعه شيئاً فشيئاً. مُنشأة لا وظيفة مباشرة لها إلا شكلها المدهش، وترك أماكن الصلاة الضرورية لزمن آخر، حتى لا تُستعمل جوانبها الدينية ويُنسى إنجازه الفني. خطاطاته الدقيقة ساعدت المهندسين اللاحقين على محاولة الانتهاء منها. لم يشهد في حياته إلا واجهة المهد[٧١] وقلعة سانت بارنابي[٧٢] وجزءاً من الحائط الخارجي للكنيسة. لم يمنحه الترام المجنون فرصة العيش أكثر. فقد كان يوم ١٠ يونيو ١٩٢٦ يوماً بليداً لأنه سرق منه حياته

(٦٩) Antoni Gaudí.

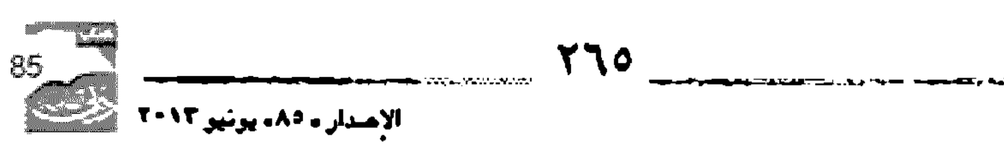
(٧٠) Temple Expiatori de la Sagrada Família

(٧١) La façade de la Nativité

(٧٢) Saint-Barnabé.

بغباء. في الحقيقة كل موت هو لحظة غباء عبثية لا معنى لها.
لا أعرف ما الذي قادني إلى كل تلك التفاصيل. كان حائط الكنيسة مبعوجاً بقوة وكأن السبب في ذلك ليس تفجيراً، ولكن أنف دبابة عمياء. رأيت رجلاً معقوف الظهر، مكدود الوجه، يقف على الحواف، ليس بعيداً عن المدخل. عندما رآني ابتعد قليلاً كأنه كان خائفاً مني. تسلق الحائط كقط وأخذ ينظر إليّ. فجأة لمع في ذهني شيء كنت أعرفه. كان الرجل يشبه أحدب نوتردام. بسرعة ارتسم اسم كازيمودو[٧٣] في مخي.
دخلت. نظرت ورائي، كان كازيمودو قد انطفأ نهائياً. توغلت عميقاً في الكاتدرائية. ولم يكن بذهني أي شيء أبداً ولا أية نية لأية صلاة، ولا لأية دعوات. لم أدخل للكنائس والمساجد إلا كسائحة عابرة. يحدث أن أتمنى شيئاً جميلاً لي ولعائلتي لا أكثر. كانت الكاتدرائية خالية من كل الأنفاس. بدا لي عندما دخلت أني رأيت ظلاً يركض على السطوح وفي الزوايا المظللة، ولكني حسمت الأمر أن ذلك لا يتعدي أن يكون من وساوسي

(٧٣) تدور أحداث الرواية في سنة ١٤٨٢، في باريس. كازيمودو Quasimodo، اليتيم المعوق،هو المكلف بأجراس نوتردام. يعيش في عزلة كبيرة في ظل سلطان سيده جوج فرولو juge Frollo. أصدقاؤه الوحيدون هم منحوتات الحيوانات الأسطورية les gargouilles والحجارة المنقوشة وشبابيك الطيور. يحلم كازيمودو بأن يعيش بين كل الذين كان يراهم من فوق منذ زمن بعيد، ولم يقترب منهم أبداً. وذات مرة يحدث ما انتظره زمناً طويلاً في حفلة المجانين. يعصى أوامر سيده فرولو، وينزل ليختلط مع الشعب الذي تجمّع ليحتفل بالسنة الجديدة.



المريضة التي رسختها فيَّ الحرب الصامتة أكثر من الحرب الأهلية. رأيت الفئران تركض في كل الاتجاهات، حتى أني سمعت بعضها يتقاتل في زاوية ما. فجأة رأيت رجلاً يخرج من اللامكان. كان يرتدي رداء أسود، كان يلفه حول جسده مثل الكاهن؟ لم يسألني عن ديني كما توقعته أن يفعل، ولا حتى عن اسمي، ولا ما جئت من أجله، لكنه اصطف بجانبي. بمحاذاتي تماماً حتى كاد أن يلتصق بي. كنت منهمكة، ولأول مرة في حياتي، بدعوة لالة مريم أن تحفظ أخي رايان من أي مكروه. لم أفكر مطلقاً في كوزيت. لا أدري لماذا رايان تحديداً، مع أني عندما تخطيت عتبة الكاتدرائية لم يكن في رأسي أبداً؟ أغمض الرجل الطويل المجلل بالسواد عينيه، ثم فتح كتاباً صغيراً. قرأ شيئاً بدا لي كأني كنت أعرفه. آفي ماريا! لالّة مريم. من خلال نغماته وحنينه، تأكدت أنه هو. شعرت بألم في قلبي. اجتاحني وجه أمي الطيب. شيئاً فشيئاً اتضحت لي اللغة اللاتينية التي كان ينشد بها تراتيله بكل نبراتها وصعود حروفها ونزولها. وكأن التراتيل حررته من خوف قرأته في عينيه، ظل يلازمه منذ أن وقف بجانبي. أصغيت له طويلاً بلا حركة ولا نفس ظاهر. من حين لآخر كنت أتمتم معه بالكلمات نفسها.

Ave Maria

Ave Maria Gratia plena

Maria Gratia plena

Maria Gratia plena

Ave, ave dominus

Dominus tecum

Benedicta tu in mulieribus

Et benedictus

Et benedictus fructus ventris

Ventris tui Jesus

Ave Maria

Ave Maria Mater dei

Ora pro nobis pecatoribus

Ora, ora pro nobis

Ora ora pro nobis pecatoribus

Nunc et in hora mortis

In hora mortis nostrae

In hora mortis, mortis nostrae

In hora mortis nostrae

Ave Maria[٧٤]

(٧٤) لالة مريم. يا ملكة السماوات. إليك ارفع صلاتي. أحتاج إلى السلام في عينيك. أملي فيك. ابني. خففي عليّ. ابني يعاني سكرات الموت. افهميني وابكي معي أنت التي كنتِ أما. ارجعي لي ابني المسكين. مريم أيتها القديسة. اية سعادة، ابني يولد من جديد مثل زهرة مدهشة من صلاته. أيتها الجميلة الحساسة. هذا السر الغريب. انظر إلى وجهي. لأتشبث بالأمل. ابني. جبهتك تبتسم. شكراً أيتها الأم القديسة. أنت من ينقذ ابني. لالة مريم.

انشددت إلى النشيد الحزين بقوة. أعرفه جيداً لقد استمعت له مراراً في فمي ماريا كالاس وأندريا بوتشلي، أو على إيقاعات ساكسو كيني دجي. ترجمه لي حبيبي ديف العديد من المرات. أخي رايان أيضاً أهداني إياه في شكل قرص مضغوط في عيد ميلادي. صمم أن يحضره لي بنفسه على الرغم من المخاطر، والتزامه في الخدمة العسكرية عندما كان يؤدي واجبه الوطني. أخرجه من عمق كتاب وهو يضحك بفرح:

- جئت من أجلك يا المصيبة. فكرت طويلاً ماذا أهدي لياما، أختي المضروبة على لالة مريم، فلم أجد إلا هذا بصوتين مذهلين لالّه ماريا كلاس وسيدي الولي الصالح أندريا بوتشلي هههههه.

كانت ضحكة رايان في عز شبابه وعنفوانه، مشرقة، ترسم على خديه غمازتين جميلتين. ثم قال: لي ضعي هذه التراتيل في المكان الذي يليق بها وبك. كلها عن الفقدان. استمعت إليها حتى التصقت بي. سكنتني مدة طويلة بآلامها. لا أعرف ما الذي حركني: صوت ماريا كالاس، الجوقة التي كانت وراءها في التسجيل الكنسي، أم الحزن والجرح العميقان؟ لم أفهم يومها ولا كلمة مما كانت تقوله باللغة اللاتينية، ولكني شعرت بعمق بأني كنت معنية بكل ما كانت تقوله. وحينما

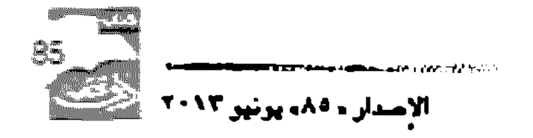
ترجمها لي ديف، لم أشعر أنه أضاف لي الشيء الكثير، إذ إن كل ما قاله لي شرحاً كنت أحسست بأكثر منه وأنا أسمع لتلك النداءات الشجية. قال لي ديف إن القصة تخص امرأة تستجدي لاله مريم لتنقذ ابنها من موت أكيد. فأصبحت لاحقاً أمي تسمعها بدورها وتبكي رايان. ثم أصبحت العدوى معممة في البيت لتصبح ماريا كالاس واحدة من أهل البيت، وأندريا بوتشلي صديقي الذي كثيراً ما كان يؤنسني في خوفي الغامض. حتى بابا زوربا، الذي كان لا ينام إلا على الموسيقا الكلاسيكية أصبح يحبها، ويضحك بمرارة مني.

- لالة مريم لم تستطع أن تفعل الشيء الكثير مع القتلة. الأحسن أن تختفي في مكان حيث لا يراها ولا يسمعها أحد. هي أيضاً لن يرحموها. طاحونة القتل العمياء التي استقرت في البلاد، لا تفرق بين اللص والإمام، وبين المجرم والخوري، وبين النبي والدجّال.

- لا تقل مثل هذا الكلام يا بابا، أرجوك. أنت تخيفني. حرام عليك.

- بركة ما ترعب في البنت؟

تصرخ أمي من عمق المطبخ. يحكّ بابا زوربا على رأسه ثم ينسحب نحو مخبره، كما هي عادته لكي يتفادى موجات



غضب أمي التي تبدأ بصرخة وكثيراً ما تنتهي بكسر الأواني.
شدّ الرجل الطويل الملفوف في السواد الكنسي على يدي بنعومة بحيث شعرت بخفة كفه، بعد انتهائه من نشيد آفي ماريا، وهمس دون أن يحرك وجهه ولا أي ملمح من ملامحه، وكأنه كان يتكلم من بطنه كما يفعل بعض المهرجين من محركي الدمى.
- لا تبقي هنا يا ابنتي. أرجوك... اخرجي بسرعة أرجووووك. تضعين حياتنا في خطر.
لم أفهم جيداً. ثم ختم بصوت مسموع: آمين وكأنه كان يصلّي. تمنيت أن أسأله عن مغزى ذلك كله، لكن ما قرأته من خوف على ملامحه لم يشجعني أبداً.
استعد الرجل للانسحاب بهدوء وهو يرفع من لباسه الأسود الطويل قليلاً لكي لا يجرجره على الأرضية التي تخربت في أجزاء كثيرة منها. تمتم للمرة الأخيرة وبالحركة الحذرة نفسها.
- لا تعودي إلى هذا المكان يا ابنتي أرجوك. الوضع في هذا المكان ليس على ما يرام.
عندما التفتّ نحوه لأسأله لم أجده. وكأنه كان مجرد وهم ضبابي سكن رأسي للحظة قبل أن ينسحب.
ولكن الظلّ الذي بتُّ أحس به كان لا يزال يبدو من وراء الزجاج

حيناً، وحيناً آخر من وراء شقوق الحيطان والأبواب القديمة والمنافذ التي لا نرى إلا ثقوبها المتعددة.

عندما خرجت عند الباب تنفست رائحة البارود والخشب المحروق والغموض. للغموض رائحة أيضاً في مثل هذه الأمكنة. أو هكذا أحسست. سألني الرجل. الذي رأيته عند المدخل. كازيمودو. هذه المرة كان قريباً مني. لم يكن وجهه مريحاً، ولم يكن خائفاً مني أيضاً. يبدو كأنه حارس المكان.

- أنت من هذه البلاد؟ عربية؟ قبائلية؟
- كل ذلك مجتمعاً.

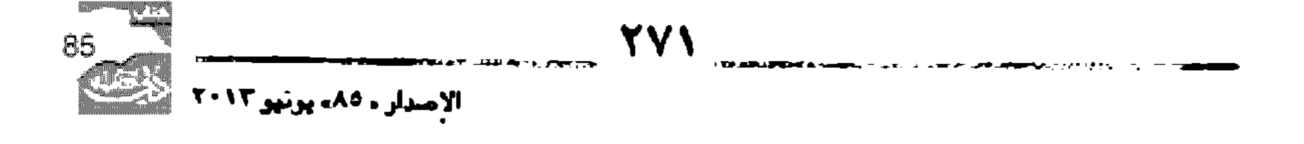
ضحكت. ظننته يمازحني.

- لازم تعرفي وين تحطي رجليك يا أختي. الدنيا صعبة، وكل شيء أصبح ملغّماً. ويمكن أن تقتلك كلمة واحدة. مسيحية؟

كدت أقول له:

- واشْ دَخْلَكْ؟ لا. فشلت حتى في أن أكو ن مسلمة جيدة.

ولكن شيئاً ما قادني نحو الصمت. عدلت عن إجابتي. شعرت كأنهم اعتدوا على عذرية سيدتنا مريم. وكأني كنت هنا لأعتذر لها في مكان قتلة أشعر أن بهم شيئاً مني لم أختره، لكن الدنيا هي من وضعنا في المسالك الصعبة نفسها وأمام قسوة نفسها.



قلت بقليل من الصرامة لتخويفه بعض الشيء.

- مسلمة إذا سمحت سيادتك.

- ليس أنا من يسمح.

شعرت باعتداء في كلامه وبوقاحة كبيرة.

- من يسمح إذاً؟ ربي سبحانه وتعالى لم يطرح عليّ هذا السؤال؟ من إذاً؟

التفتُ نحوه لأول مرة مدققة في ملامحه، فرأيت في عينيه المحمرتين شيئاً غامضاً يشبه الموت. كانتا تشبهان عيني ذئب جائع. ولا أدري من أين جاءتني تلك الشجاعة ولا حتى تلك الصورة؟

- تريد وثائقي لتتأكد من أني مسلمة وفوق هذا سنِّية، وأكثر من هذا كله أيضاً، مالكية. مع أني لا أعرف ماذا يعني ذلك بالضبط في عالم يقتل بعضه بعضاً بلذة متناهية؟

أحنى رأسه حتى كادت جبهته تلمس الأرض، وبانت حدبة ظهره هذه المرة بوضوح أكثر.

- عفواً سيدتي. لم أطلب هذا. ولكن لا تعودي إلى هذا المكان. إذا أردت أن تعيشي طويلاً. أعرف أنه لا يأتي إلى هذا المكان إلا المحروس من علية القوم، وربما كنت منهم. كلما زار البلاد شخص أوروبي جاؤوا به إلى الكاتدرائية ليظهروا له مدى متانة الروابط التاريخية والأخوية والدينية بين البلدين،

والتسامح الديني والعرقي واللغوي والطائفي، الموجود في هذه البلاد. ولكن حتى المحروس قد يخيب ظنه إذ لا أحد يعلم أسرار الصدف القاتلة التي تنتظره في الزاوية الأكثر ظلاماً؟ الحراسة ليست ضمانة دائمة.

- لماذا؟ هل سمعتَ أنهم يقتلون المسيحيين واليهود في هذه المدينة؟
- لا ليس بالتخصيص.
- المسلمين.
- لا ليس بالضرورة.
- من إذاً؟
- اللي يحبوا يفهموا؟ مسلمين كانوا أو يهوداً أو مسيحيين، وحتى اللي بلا دين.
- لم أفهم جيداً يا كازيمودو... عفواً لم أتعرف عليك؟
- مش مهم. بالعربي الفصيح يقتلون من يعتدي على صمتٍ ليس له.
- أنت إذاً تعتدي على صمتي.
- ليس هذا القصد سيدتي. الناس اللي يتكلموا في الوقت الذي يفترض فيه أن يصمتوا. الطاحونة لم تشبع بعد. لا تزال أمامها أيام كثيرة من الاستمتاع بالتقتيل الجماعي والفردي.
- الآن فهمت مليح. يكثر خيرك.

- يكثر خير ربي.
- ... ...

له إجابة لكل شيء. يبدو كازيمودو دائماً كأنه مجبر على أن يكون هو من يختم الحديث. لم أعرف إذا ما كان عليّ أن أخافه أم أثق فيه. لم تعجبني حركاته، لكن كل ما قاله كان حقيقياً.

كلما خرجت من البيت أشتهي أن أقتنع للمرة الأخيرة بأن الحرب الأهلية انتهت وأن الحياة بخير، أو على الأقل ببعض الخير. لكن في كل مرة تملأني ظلال الحرب الصامتة. ركبني حقيقة خوف غريب عندما رأيت ظلالاً أخرى تقفز على أعالي الكنيسة مثل طيور الشؤم.

عدت نحو سيارتي. عندما التفت باتجاه الكتدرائية للمرة الأخيرة رأيت كازيمودو يتبعني بعينين قاسيتين، ووراءه الإعلان الضخم لمسرحية لعنة غرناطة التي كانت تجسد شاعراً نحيفاً وسط موجة من الدم كانت ترتسم خلفه. هي نفسها التي ظلت مرتسمة في خلفية حائط فاوست منذ أكثر من شهر.

لم أسمع رصاصاً هذه المرة ولكني سمعت حشرجة شبيهة باحتضار ميت. ربما كانت تأتي مني.

أغمضت عيني. ينتابني أحياناً الإحساس بأنه لا رصاص في

المدينة، إلا ما هو موجود في دماغي، أي ما أخزنه من أصداء الحرب الأهلية التي انتهت قبل زمن ليس بالقليل، ولا تزال مستمرة فيَّ.

-٥-

كان يجب أن أفعل ذلك لأنسى شططي. كنت متضايقة جداً ولم يكن أمامي ألا أن أذهب نحوهم.

ركنت سيارتي شيري، عند باب ديبو- جازDépôt-Jaz .

كان نصف مغلق، عادة الفرقة عندما تكون منغمسة في التدريب. كل أصدقائي كانوا ينتظرونني. أحسست بألفة غريبة لم أشعر بها منذ زمن بعيد. ربما منذ أن فقدت ديف الذي كان سيد الهارمونيكا والكلمات الحيّة. كلمات راقصو التانغو التي غنتها فرق كثيرة عربية وأجنبية، جلبت لنا مالاً وفيراً، من وراء حقوق التأليف، وضعها ديف قبل وفاته وقفاً لفرقة ديبو- جاز. لكن الذي يغرقني في السعادة الطفولية الخفية، هي أنها كانت أغنيتنا أنا وديف. مشبعة بالحب، والمطر والضباب والرصاص الذي تفادانا تلك الليلة.

دخلت. نزعت من على ظهري الكلارينات. أحملها دائماً بغمدها الجلدي الصلب وكأنها بندقية صيد. وجودها يمنحني بعض الألفة مع الأشياء التي فقدتها في المدينة، وبعض الأمان.

بهدوء، استلمت النوتة الموضوعة في مكاني الفارغ. انضممت اليهم دون أن أخلّ بالميزان أو أن أوقفهم. رأيت من بعيد ألبسة

ديف والقيثارة الكهربائية على المنصة، كما جرت العادة منذ سنوات طويلة.

لا أدري من كان وراء الفكرة، إذ بعد الافتتاحية مباشرة دخل الجميع في إيقاعات مولودجي عن قصيدة الهارب لبوريس فيان. كنت أعرفها جيداً. انغمست فيها بالكلارينات، وبدأت تنتابني بشكل متواتر كل الوجوه التي أثّثت يومي: الرجل الأبيض. حمامة الصغيرة. راما وهي تغرق بفرح في سرب الحمام والطيور التي غطت جسدها الصغير هي أيضاً. رجل الكنيسة الطويل الذي كان يرتدي السواد. كازيمودو ذو العينين الحمراوين. ثم وجه ماريا كالاس وهو يتلألأ تحت الأنوار المبعثرة داخل كنيسة شبه مظلمة.

كانوا كلهم هنا أو ما تبقى منهم. شباب يعرفون أن الحرب الصامتة لم تنته لكنهم كانوا مشبعين بالمدينة. أنا ومايا على الكلارينات. دجو على الساكسوفون. أنيس على القيثارة الجافة. سمير على الكلافية بعد أن عوّض شادي الذي غادر البلاد إلى أفريقيا الجنوبية وانتمى إلى فرقة كبيرة هناك وايت بلاكرز٧٥، ووجّه دعوة لفرقة ديبو- جاز لتقدم ألبومها الجديد ضد الحرب. ماشاهو الذي عوض راستا، على الباس. تعلم في فلورنسا حيث كان يقيم مع والديه، وعاد معهما بعد الحرب

(٧٥) White Blakers.

الأهلية. بحاسته الطفولية عثر على الفرقة وبيّن أنه قادر على أن يعطيها من قوته. حميدو أو ميدو على الباتري والطبل الأفريقي، سليني عوضت حبيبي ديف على الهارمونيكا، ومن حين لآخر تتحول إلى سوبرانو، ديفا[٧٦] حقيقية تغني وكأنها في أوبرا لا أحد فيها غيرها، فكانت خير خلف لصافو ذات الصوت الحنون، التي أكلتها الغربة ومنحتها شهرة لم تحلم بها، والقيثارة الكهربائية تفردت بها بايا. عازفة مميزة.

تمت تسوية كل الخلافات مع البلدية. المكان أصبح ملكاً للفرقة والجمعية. استمرت الجمعية الشبانية الهولندية ومركزها في هارلم، تساعد على شراء الآلات وتأثيث المكان بشكل جيد حتى أصبح لا يتحملها المخزن كلها، لهذا تم فتح مدرسة صغيرة، في عمق المخزن، لتعليم الصغار. الوثائق لا تزال باسم الجد الأخير لدافيد الذي اختار البقاء والموت في الأرض التي ضمته إلى صدرها. مع وثيقة تنازل ديف للفرقة الفنية ديبو – جاز وهو ما منح فرصة كبيرة للفرقة بأن تستمر براحة أكثر.

في الاستراحة، جلسنا قليلاً. حييت كل أعضاء الفرقة. جاءتني سليني وجلست بالقرب مني. كان وجهها ملائكياً وبريئاً. سألتها لكي أخلق ألفة بيني وبينها:

(٧٦) Soprano, Diva.

- هل تعرفين من أين جاء اسمك الجميل يا سيليني؟

ابتسمت فارتسمت كل ملامحها الطفولية:

- طبعاً يا طاطا. سليني ابنة كيلوبترا التي تزوجها ملكنا البربري يوبا الثاني[٧٧] وأسس معها مملكة موريتانيا. المفروض هذا مصدر الاسم. لكن كنت أحب أن أسالك عن شيء آخر.
- تفضلي.
- هل رافقتك في العزف بشكل جيد؟
- كنت رائعة.
- مثل ديف.

شعرت بشيء يقف بقوة في حلقي. لم يكن لديّ ما أقوله. رأيت ديف بكل حنانه وهو يتمايل مع الهارمونيكا لدرجة أن يغيب عن كل الحضور، ويغيب معه كل الحاضرين.

غيرتْ سيليني سؤالها قليلاً.

- كنتُ قريبة من ديف؟
- كنت مدهشة يا قلبي. أنت ستكونين عازفة عظيمة في وقت قريب، وسوبرانو كبيرة.

---

(٧٧) كيلوبترا سليني. القرن الخامس الميلادي. وهي ابنة كيلوبترا ومارك أنطوان Cléopâtre et Marc Antoine. والأخت التوأم لهيليوس Hélios. زُوّجت بالملك جوبا الثاني Juba II ملك موريتانيا وعاصمتها سيزاري، شرشال حاليا، بالجزائر..

جاء دجو نحوي وهو يحاول أن لا يقطع المحادثة. كان وجهه مضيئاً ومليئاً بالحياة والنور. عل الرغم من أنَّ كل شيء يقع على كتفيه، في الفرقة. كان أكثرنا إصراراً على عدم الاستسلام ليلة وصلنا خبر موت ديف. فقد رفض أن تموت الفرقة لأن رهانها الأكبر كان هو أن تمنح الحياة، لا أن تستسلم لإرادة القتلة الذين محوا كل شيء حي أو يأمل بشيء آخر غير القيامة وعفن القبر.

- شكراً ياما على حضورك. سعيد أنك أخيراً أصبتِ بعدوانا. نحتاج وجودك حقيقة. لقد منحنا حضورك أملاً كبيراً في الحياة. أنت لا تعرفين أن سيليني هي أيضاً سوبرانو جميل. صوتها مثل ماشاهو، مدهش. ستستمعين إليها.
- أتمنى من كل قلبي. شكرا دجو. أنا أيضاً أشعر بالحاجة إليكم. هالني اليوم ما آلت إليه مدينتنا، لكن الحياة تستحق حقيقة أن نتشبث بها كما كنتَ دائماً تقول لدفعنا نحو تخطي شروطنا القاسية.
- وماذا غير الأمل؟ كما تلاحظين إننا نتدرب على الهارب التي غناها مولودجي، عن قصيدة لبوريس فيان، ضد الحرب، ولكننا نزعنا منها بعض المقاطع

الثقيلة والعامة، وغيرناها بتوزيع جديد وجماعي لتتواءم مع صوتي ماشاهو وسليني وأصواتنا أيضاً بالنسبة للمقاطع المكررة. فهي تجسد ما نعيشه اليوم. وهي تستجيب لما طلبه منا صديقنا شادي لنتمكن من المشاركة في مهرجان أفريقيا الجنوبية، أفريكا- جاز. أعجبته الفكرة لأنه طلب منا شيئاً ضد الحرب. الجماعة حفظوها ونحن بصدد تنفيذها ونحتاج حضورك معنا كلما أمكنك ذلك. لا نريد أن نثقل عليك. راقصو التانغو ستكون أغنيتنا في اختتام برنامجنا. لا تزال إلى اليوم محط أنظار الكثيرين ممن يهتمون بالجاز. كم هي مدهشة؟ إلى اليوم لم يمت ألقها. خففناها قليلاً لتنسجم مع مجموع أغاني الألبوم.

كان دجو يتكلم بلا توقف ودون أدنى تفكير في الجرح الذي كان بداخلي. ربما كان يريدني أن أنسى أيضاً الصدف القاتلة. أي قدر مجنون هذا؟ ديف في كل كلمة كانت تخرج من ديبو- جاز. وأنا أسمع اسم بوريس فيان قبضت على رأسي لكي لا ينفجر. رأيت ملامح فيرجي وهي تضمحل بهدوء، ثم رأيتها وهي تموت بسبب هذا

الرجل الذي لم يرتح في قبره إلا عندما سحبها نحوه. لكنها... أحبته ولم يكن له أي ذنب، لأنها يوم أصيبت به كان هو في القبر. بل إن يوم موته يصادف ميلاد فيرجي المسكينة. ربما هذا القدر الأعمى هو الذي لاقاهما بشكل متعسف، في زمن آخر، هو أيضاً زمن حروب قاسية. تنبه دجو لذلك فسألني بحيرة:

- أتمنى أن لا أكون قد أتعبتك بثرثرتي. تعرفين ماذا يمثل لنا نص ديف راقصو التانغو. الكل يحفظه عن ظهر قلب، قدامى وجدد. أعجبنا أيضاً نص بوريس فيان كثيراً. مناسب للمهرجان.
- وأنا أيضاً أحبه. بالخصوص هذا. الهارب[٧٨]. تعبت اليوم من كثرة الحركة في المدينة. المهم أنه لا مشكلة لكم كما عرفت بالنسبة للمقر. كل الأمور استقامت.
- نتحايل. لكننا بوثيقة ديف نحن في مأمن مؤقت على الأقل في ظل الأطماع لنهب ممتلكات "البيان فكون"[٧٩] الفارغة، والتابعة للدولة. وهذه لا ينطبق عليها قانون الممتلكات الفارغة التي تركها المعمرون، لأن

---

(٧٨) Le Deserteur de Boris Vian. La version initiale des 2 derniers vers était: «que je tiendrai une arme, et que je sais tirer...» Boris Vian a accepté la modification de son ami Mouloudji pour conserver le côté pacifiste de la chanson!

(٧٩) Les Biens Vacants.

صاحبها اختار الجزائر، ولم يكن معمراً. هذا ممسكنا القاتل ضدهم. أصبحت البلديات مختصراً للبلادة والنهب والهمجية. البلدية تتعبنا ولكننا أصبحنا لا نأبه بها. اعترفت بملكية الجمعية للمكان وهذا مهم لنا. لكنها تريد منا أن ندفع ثمن الأرض، لأن الأرض غير مدرجة في نظام الملكية. ممكن طبعاً، لكنهم يريدون رشوة. لكن منذ أن رفعنا قضية ضدهم لدى المحكمة، صمتوا. المحامي طلب الكثير من المال، لكننا سنحل المشكلة.

فجأة تذكرت وجه بابا زوربا. كدت أهمس في أذنه: بابا حبيبي، لا تمانع إذا وضعت بعض المال في خدمة فرقة ديبو- جاز. سمعت ضحكاته الناعمة وهو يعبث بشعري، عادته التي يمارسها مع كل الناس الذين يحبهم، ونهته عنها أمي ولكنه لم ينصع لأنها تعبير مادي عن طيبته: يا مهبولتي الناعمة، المال، مالك. افعلي به ما تشائين. هل هناك أجمل من وضعه في خدمة ديبو- جاز؟

قلت لدجو الذي كان قد انهمك في تنظيم الفرقة بعد الاستراحة.

- عزيزي دجو. لا تفكروا في المحامي، سأتكفل بنفقاته.

حتى بالنسبة لشراء الأرض يمكنني دفع الجزء الأكبر في إطار القانون، إذا بقي فيه قانون في هذه البلاد.

- شكراً لك ياما. لم نصل بعد إلى هذه المرحلة، لكننا سنستنجد بك عندما تنغلق كل الأبواب أمامنا. لدينا من وثائق الإثبات ما يغرقهم. كل الوثائق الأصلية المؤمنة لديك في البنك سنخرجها عند الحاجة إذا شككوا في الصور الموجودة لدينا عنها. حتى لا يعتدوا على حقنا. سنقاومهم بكل الوسائل. لن نسهل عليهم مهمة سرقة ديبو- جاز.
- أعرف يا دجو. الوثائق معي في خزانتي في البنك. في خزانة فيرجي. متى ما احتجتم لها، أضعها تحت تصرفكم. وإذا وقع لي أي حادث اتصلوا بمحامي، كل شيء معه، حتى وصيتي وهي تهمّ كثيراً ديبو- جاز في جزء منها. ربما لست معكم دائماً، لكن قلبي وأملي في هذه الفرقة كبير. كلما أظلمت الدنيا في عيني، وجدتَني أركض نحوكم مثل اليتيمة.
- البيت بيتك ياما.

ضمني دجو إلى صدره العريض بحنان كبير.

كنت أتأمل الشباب وهم يتحدثون ويتبادلون الضحكات،

ومندهشة جداً من قوتهم وسط مدينة لم تمنحهم إلا الخوف والكثير من الضغائن. كانوا في غاية الانسجام والحب والفرح. يشربون قهوتهم ويتبادلون الحركات مثل السوبرانو والتينور. أصواتهم كانت قوية بالخصوص ماشاهو صاحب الصوت الجبلي، الذي كان يقلد بافاروتي[٨٠] وسيليني التي تركت الهارمونيكا وبدأت تغني مقطعاً من كارمن. أغمضت عيني قليلاً. شعرت حقيقة بأن ماريا كالاس كانت على مرمى يدي وقلبي وحواسي. ظللت في غفوتي حتى انتهت. عندما فتحت عيني وجدتها ترشق بصرها في وجهي. صرخت وأنا أصفق:

- برافوووووو سيليني حبيبتي. برافو ماشاهو.

طلب دجو للمرة الأخيرة من المجموعة أن تنتظم من جديد. اصطفوا في استقامة تراتبية. ثم ضغط على الجهاز المركون في الزاوية الخلفية من المخزن. فجاء في البداية صوت ريتشارد أنطوني[٨١] مرفوقاً بالهارمونيكا وهو يؤدي الهارب. الشباب كانوا ينصتون بكل انتباه. ثم غيّر القرص بقرص غيره. فجاء صوت مولودجي ناعماً وحزيناً ممزوجاً بأنين ترونبيت[٨٢] بوريس فيان، الذي كان يخرج من الأعماق

---

(٨٠) Pavarotti.

(٨١) Richard Anthony.

(٨٢) Trompette .

المنكسرة هارباً وجريحاً.

Monsieur le Président...[٨٣]

Je viens de recevoir
Mes papiers militaires
Pour partir à la guerre
Avant mercredi soir
Monsieur le Président
Je ne veux pas la faire
Je ne suis pas sur terre
Pour tuer des pauvres gens...

Depuis que je suis né
J'ai vu mourir mon père
J'ai vu partir mes frères
Et pleurer mes enfants
Ma mère a tant souffert...

Quand j'étais prisonnier

---

(٨٣) سيدي الرئيس/ لقد وصلتني وثائقي العسكرية/ لأذهب إلى الحرب/ قبل الأربعاء مساء/// سيدي الرئيس أرفض الحرب/ لست على هذه الأرض لأقتل الفقراء/// منذ أن جئت إلى هذه الدنيا/ رأيت والدي يموت/ رأيت إخوتي يذهبون/ وبكيت أولادي/ كم عانت أمي/// عندما كنت سجيناً/ سرقوا مني زوجتي/ وسرقوا مني روحي/ وكل ماضي الجميل/ وغداً سأغلق بابي/ في وجه سنوات الموت/// سأقول للناس/ اعصوا الأوامر/ ارفضوا الذهاب إلى الحرب/// سيدي الرئيس/ إذا تابعتني/ قل لدركك / إني لا أحمل سلاحاً/ وإنه بإمكانهم إطلاق النار عليَّ/

On m'a volé ma femme
On m'a volé mon âme
Et tout mon cher passé
Demain de bon matin
Je fermerai ma porte
...Au nez des années mortes

Et je dirai aux gens:
Refusez d'obéir
Refusez de la faire
N'allez pas à la guerre
...Refusez de partir

Monsieur le Président
Si vous me poursuivez
Prévenez vos gendarmes
Que je n'aurai pas d'armes
Et qu'ils pourront tirer

- ماشاهو. أكابيلا. سترافقك سليني.
- حاضر.

قام ماشاهو متبوعاً بسليني. وجهان من فرح وغيم في عمق

العتمة. كان صوته قوياً. أغمضت عيني وتركتني أنساب في عمق توترات صوتيهما. شعرت في لحظة من اللحظات كأني كنت مع تينور عظيم مثل بافاروتي وهو غارق في المائة مليون ألبوم التي باعها وسخرها لفعل الخير. كل شيء في ماشاهو كان يرفعه نحو الأعالي. هيئته. استقامته. جماله. صوته. رهافته. كانت سيليني تتصادى معه بأناقة كبيرة.

في المساء عندما أخبرت فاوست، مرة أخرى، بأني لم أعمل بنصيحته، وخرجت نحو الولي سيدي الخلوي وكاتدرائية أمنا مريم المجدلية، وأنّي أنهيت رحلتي داخل ديبو – جاز، غضب مني كثيراً.

– أنت تلعبين مع الموت. الحياة عزيزة ويجب أن لا نسلم فيها. لماذا غادرتُ أرضي؟ برضاي؟ لأني ببساطة كنت ومازلت أرفض الموت العبثي والمجاني.

- أنا لم أسلم في شيء. متشبثة بالحياة بقوة.

- حافظي على نفسك على الأقل، فأنا لم أرك ولم أشبع منك.

- هل تحبني إلى هذا الحد؟ سؤال غبي.

- ببساطة. محوتِ كل الوجوه التي صاحبتني في غربتي.

- ياااااه أي حظ وسط كل هذا الفيض النسائي الذي يملأ حائطك حبيبي.

- تبالغين.

- ألم يمر بذهنك أن ذلك يؤذيني مثلاً.

- لا. معجبون لا أكثر.

- معجبات.

- ماشي. معجبات. يأتون ويمضون مثل النجوم الهارية. لا مكان لهم إلا في جوف هذا البحر الأزرق الذي اسمه الفيسبوك، الذي يلتهم كل شيء بلا رحمة. هل تتخيلينني في علاقة مع الآلاف من النساء؟ خليك عاقلة شوية عمري.

- لست غبية إلى هذا الحد طبعاً ولكني أتساءل بيني وبين نفسي، ماذا تقول للأخريات؟ هل هو الكلام نفسه الذي أسمعه منك؟ ما تكتبه لهن على حائطك يحسسني بذلك. اللغة نفسها. في كل مرة أقول لك الكلام نفسه. بدأت أشعر بالملل، بملاحظاتي. ربما ستكرهني أنت أيضاً حبيبي. متعبة ولكني مع ذلك ممتلئة بنور الحياة. القسوة ليست إلا الوجه الأصعب والأقوى للحياة نفسها. أنا لا ألومك، أسالك فقط.

- ... ...

- ألوووو... هربت؟ لماذا لا ترد؟ طيب. كما تريد.

صمت. بعدها انطفأت نافذته وسكنت لغته نهائياً. لست أدري من ورّثني هذه الملَكَة التي أدمر فيها كل شيء جميل عندما يبدأ في لحظات إشراقه. كنت أقرأ كل شيء غير عادي وأفرق في خلوتي بين الكذبة البرئية، والكذبة المعقدة والمركبة التي تستهدف شيئاً آخر. أكشف الأسرار المتخفية من رعشة الصوت أو ارتباك اللغة أو صمتها أو حتى رائحة الكلام.

في خلوتي الصغيرة، وأنا أتأمل وجه أمي والأحزان التي سكنت على خطوط وجهها، شعرت كأني آذيت فاوست في الصميم. تمنيت أن أعتذر منه، ولكني لم أفعل.

V

كَيْفَ سَكَنْتُ أَحْلامَ المَوْتَى

-١-

لا شيء إلا سكينة الريبة.

أنا ومملكتي الزرقاء وبعض الخوف. أشتهي الكتابة لفاوست. أترك الحاسوب جانباً، ثم أنسحب نحو درجي الذي يتخفى فيه كل جنوني، وورقي الوردي:

ثم ماذا حبيبي لو حضرتَ الآن؟ ماذا كان سيحدث؟ لا شيء سوى أني أستعيد قليلاً قلبك الهارب قبل أن أسلمه لك للمرة الأخيرة. لست أنانية حبيبي بكل هذا القدر الذي يبعدك عني. لو فقط أن معجزة ما تقع! خرافة! صدفة ما! وتضعني هذه الليلة بالضبط في مسالكك التي تعودتَ المرور عبرها! سأنتظرك في صمت ولن أزعجك إلى أن يلوح لي ظلك. سأعد خطواتك وأنت تقترب. واحدة. اثنتان. ثلاث. أربع خطوات. لم تبق إلا ٣٤٦٧٥ خطوة فقط لكي تصل. أعدها بشكل تنازلي... ٣٤٦٧٤... ٣٤٦٧٣... ٣٤٦٧٢... لن أزعجك. لن أكلمك. لن أقاطع خلوتك. لن أريك خطوك. سأكتفي فقط بالنظر إليك حتى تصل على حوافي. أنظر إلى وجهك المتعب. أتركك تعبر إذا لم تنتبك رغبة التوقف. لن أمسح عرقك بأناملي. لن أحاول أن أزيل رماد

صدرك. ولن أعبث، كما تعودت أن أفعل في أحلامي القلقة والهارية، بشعرك وحواسك. لن أفسد عليك حدادك وطقوس صمتك. الصبر فقط هو ما تحتاجه امرأة مثلي، أنت قلبها الحي، وذاكرتها المتعبة. أعرف حبيبي أن غيم حدادك سيمطر يوماً مهما طال منفاك. كم يصبح كلامك شهياً عندما تكون في صفائك. ما أجمل مطرك وبردك وشمسك. لستَ مطالباً عمري بردود على رسائل قد لا تصلك أبداً. إن كنت تحب ياماك الحبيبة، فلا تحاول الكتابة لها إلا عندما يعود النور ليحتل مكانه في قلبك. وعندما تشعر أن لي مساحة صغيرة فيه، حتى ولو بوصة واحدة، لا يدخلها أحد غيري. طلب كبير لرجل ليس لي؟ دع الأشياء على جنونها الأول وطفولتها. لا ترغمها على قول ما لا تريده، لأنك وقتها ستقتلها. الكلمات عندما تصاب بالشلل الكلي، تنطفئ بسرعة. لاتستعجل رسالة لإسعادي، فأنت أكثر من يعرف أن الكلمات مخلوقات حرة لا تريد من يرغمها. تأتي طوعاً لا كرهاً. أنا وإن كنت طفلتك التي تدللها و تخاف عليها عندما تصفو لقلبك وطفولتك، لكني في ساعات جنوني مراهقة. لا مطلب لها إلاك. تريدك بتهور، غير مبالية بعيون الموتى التي تراقب كل أنفاسها. تطير فرحاً وهي ترى مجاراتك لها، ورغبتك في إسعادها كطفلة مدللة

مختصراً بحراً بكامله بلمسة قلبك أو بحرفك الهارب نحوها.
أنا امرأة تعرف جيداً أن أجمل ما حدث لها في حياتها، أنها أصيبت بعدواك. قد لا أكون امرأة بحجمك، ولا بحجم هبلك، لكن كل ما أعرفه هو أني أصبحت لباسك وظلك. أستطيع على الرغم من كل إرباكاتي أن أحس بك. أن ألمسك وأنت وراء قسوة الماء والزرقة. يكفيني حبيبي أن تذكرني شعاعاً يلمس قلبك كل صباح، فيزيل جراحاتك، ويملأ كهوفك نوراً، ويحرق كل الرماد المترسب في الأعماق، ويملأ سريرك دفئاً، قبل أن يخلي المكان لحياة هي أكبر من كل شيء... فاوست حبيبي، فكر ولو قليلاً في قلبي، فقد أصبح لغة تحيا بك. وبك أيضا تنطفئ... فلا يتركه يموت.

أدفن الرسالة رقم... نسيت العد، في عمق الأوراق، وأغلق الدرج بكل مفاتيح الذاكرة وشططها، حتى لا أصاب بغواية بعثها له. قراري نهائي، جاء عن سبق إصرار. سأسلمها له يوم أراه. ستكون أجمل وأنبل هدية. ليعرف فقط كم أن المرأة عندما تحب، تقبل على الحياة بشهية. ولكنها في اللحظة التي تتخطى فيها عتبات قلب عاشق، تكون قد رسمت خط اللاعودة.
لا أدري من أين كان يأتيني كل ذلك الكم من الأحزان؟

كلما نزلت الظلمة انتابني إحساس غريب بأن شيئاً ما يترصدني. بأن انفجاراً خطيراً سيأتي على اليابس واليابس لأنه لم يعد هناك شيء أخضر. حتى قصة الأسطح توقفت نهائياً. الشرطي الشاب ماسي، يطمئن عليَّ كلما مر ليأخذ أخته جاد من عندي. يقف قليلاً عند الباب كالعادة ثم يدق على الجرس. أحياناً لا يتجرأ على الدخول وفي أحيان أخرى يشرب معنا شاياً في الصالون عندما أصر كثيراً على دعوته. جاد جداً ومستقيم إلى أقصى الحدود. هو أيضاً فقد أخاه الكبير عندما تم الهجوم على السوق الشعبية في وسط المدينة في عز النهار. كان أخوه خضاراً بسيطاً وطيباً. حصل على مكان في السوق بعد رشاوى كثيرة على الرغم من أنه كان في القائمة التي وضعتها البلدية للخضارين المحترفين الذين لهم أمكنة في السوق القديمة، بشكل طبيعي ومستحق، إذ لا أحد احتج على القائمة المعلقة على واجهة البلدية.

لا أدري من أين جاءتني كل تلك الشجاعة.

من الصعب أن يجد الإنسان نفسه مثل شجرة خريفية مجرداً من كل شيء. حتى من الأوراق الخفيفة التي تغطي خوفه. الأب قتل بشكل مبهم. الأم خرجت من هذه الدنيا مأخوذة بعشيق ظلت ملتصقة به حتى الموت، كالمرض الفتاك والمعدي. ومع

ذلك كلما اقتربتْ عودة فاوست، زاد خوفي من شيء غامض. أتساءل أحياناً إذا لم يكن عقلي المتمادي في افتراضاته هو السبب. أصبح يقلب كل شيء آلاف المرات قبل أن يصل إلى حالة الاتزان. أشعر أنه بالغَ في الحوارات والنقد المباشر للأشخاص والمؤسسات. أصبحتُ أخاف عليه. لكني عندما سألته.

- حبيبي أنت تكشف نفسك للآخرين وتمنحهم فرصاً كبيرة لإيذائك. لا يستحقون كل ما تقوله عنهم.

أجابني بسرعة ولم يكلف نفسه حتى مهلة التفكير. ربما لأني أزعجته.

- يجب أن يعرفوا أنهم في مواجهة عظْمٍ كلما حاولوا كسره، زاد تصلباً في حلوقهم.

- أعرف حبيبي ولكن ليس الأمر ضرورياً. أنت حر ولا أحد يستطيع إيذاءك. لكن يمكن أن يكونوا حتى من بين الناس الذين دعوك للاحتفاء بعودتك إلى أرض الوطن. قصدي من الوزارة.

- ليكن. سأترك لهم زبالتهم ومسرحهم وأعود إلى إشبيلية. لقد أصبحت هذه المدينة وطني، واسمي كبر فيها طوال السنوات التي مضت. لا أحد يستطيع أن ينكر الجهود التي قدمتها لها.

كدت أقول له: حبيبي وأنا التي تنتظرك منذ ثلاث سنوات، وسبعة أشهر وثلاثة أيام وعشر ساعات وسبع دقائق وكم لا يعد من الثواني ما مصيري؟ هل يمكنك أن تتصور حركة الزمن؟ ولولا الصيدلية وصديقتي جاد لانهار كل شيء. قل فقط تعالي حبيبتي وسأركض نحوك بلا أسئلة ولا خوف. عارية إلا من يقيني أن حبك سيحميني من كل شيء، ربما حتى من نفسي المنهكة والمنتهكة. جرب فقط. قل لي حبيبتي تعالي أحتاجك بالقرب مني. سأرمي بكل شيء في عرض بحر المدينة بلا أدنى تردد أبداً وأرمي بنفسي نحو صدرك. لا شيء يهمني إلاّك.

انتظرت أن يتنبه لحماقته وكلامه غير المحسوب، ولكنه لم يفعل.

تمددت أكثر على كرسي والدي. تلقائياً رفعت رأسي. شعرت كأن بابا زوريا قد نام كل هذه المدة ولم يكن في نيتي إيقاظه ولا إزعاجه. كان وجهه ساخراً كعادته، على الرغم من أن الصورة كانت بالأبيض والأسود. أخذت صحيفة الأمة الرسمية التي تعودت على قراءتها لمعرفة كيف تفكر الحكومة والمؤسسات، وكيف تواجه أزماتها. وأنا أفتحها من جديد قفزت أمامي صورته بلباسه الذي أشتهيه فيه دائماً. كان مثل

البرنس[٨٤]. أمير من أمراء موناكو. وانغمست في قراءة الحوار، لكن العناوين لم ترحني. ولأول مرة أشعر برغبة مبطنة في الانتقام من شيء غامض كان ينبت فيَّ عميقاً. نسي فاوست أن هشاشة سنوات المرارة تعلمنا كل شيء بما في ذلك وسائل التدمير الذاتي.

سبقني حتى قبل أن أقول أية كلمة على الفيسبوك.

– انتهى الأمر. لقد اتخذوا القرار. وصلتنا البطاقات. طبعاً لم تعجبني الرتبة السياحية. عندما سألت عن السبب، قيل لي إن السبب إداري لا أكثر. في قانون البلاد لا يتمتع بالدرجة الأولى أو رجال الأعمال البزنس كلاس، إلا المدراء ووكلاء الوزارات والوزراء. انزعجت وكدت أصرخ، ولكني تمالكت أعصابي. قلت إن هذا لا يوجد إلا في بلادنا وهو شديد الغرابة. لم أره في أي بلد من البلدان. هل المثقف خضرة فوق طعام؟ هذا لا أقبل به مطلقاً لأنه يحاذي الإهانة. ماذا يكلف دولة أن تكرم ابنها بشيء من التقدير والاحترام؟ لن أتحرك إلا بالدرجة الأولى أوالبزنس كلاس.

– الدرجة الأولى مهمة إلى هذا الحد الذي يدفع بك الى إلغاء الرحلة؟ أقل من ساعتين حبيبي؟ ليست رحلة عبر المحيط يا غالي؟على كل أنت أعرف مني في شؤونك.

---

(٨٤) Un Prince.

- مسألة مبدأ لا أكثر.

- وأنا؟ هل تضحي بي بهذه السهولة؟

- لا أبداً. يجب فقط أن يعرفوا أن المثقف ليس رخيصاً إلى هذه الدرجة. سافرت عبر العالم كله، من أفريقيا الى أوروبا الى آسيا إلى أمريكا. دائماً براحة وفي درجة عليا، إلا وطنك يصر على أن يذلك.

- أنت وين يا حبيبي؟ الناس هنا يموتون بالعشرات كل يوم، في حرب لا اسم لها. من حقك يا غالي، ولكنه يصعب عليَّ أن أفهم ما تقوله. على كل أنت أعرف بما يشغلك. لكن يبدو لي أن الأمر ليس بكل هذه الأهمية. درجة أولى أو درجة عاشرة تستقلون الطائرة نفسها. المهم أن يصل الجميع بسلام.

- يحتاجون إلى من يهزّهم من حين لآخر. يبدو أنهم استحوا قليلاً على عرضهم. وبعثوا البطاقات كما طلبتها. ماذا يكلف ميزانية دولة تنام على جبال من الدولارات؟

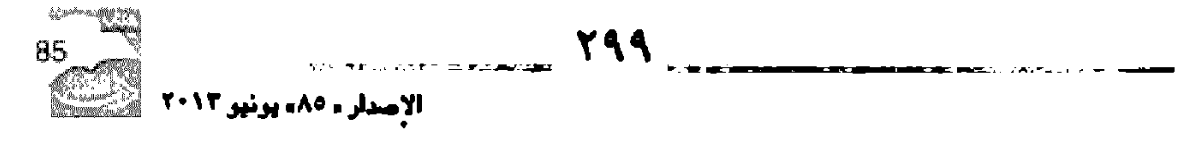
- الكثير من الجياع والبطالين وضحايا الحرب الصامتة الذين لا يلتفت لهم أحد؟

- المهم. هل تحتاجين شيئاً من إسبانيا؟

- عودتك بالسلامة وأفرح بك حبيبي.

- لا تهتمي فقد رتبت كل شيء. لم أترك شيئا للصدفة.

- ألا يجب أن ننتظر قليلاً. الزواج بسرعة ليس جيداً. أنا أيضاً



مشتاقة لك وأنتظرك بلهفة كبيرة.

- كل شيء في وقته حبيبتي. لم أتحدث عن الزواج ولكن عن مسرحية لعنة غرناطة. لقد ذهب التقنيون والسينوغراف ورتبوا كل شيء. الأوبرا الوطنية ليست مؤهلة لاحتضان العروض الكبيرة، لكن تقنيينا، بفضل عبقريتهم وجهودهم الكبيرة، جعلوها ممكنة الاستقبال وتتحمل السينوغرافية والديكور الثقيل مع بعض التغييرات الخفيفة في منصتها.

- قرأت هذا في الصحافة الوطنية بكل تفصيلاته.

لا أدري كيف خرجت الكلمة من قلبي. لم تكن لدي أية قوة للتحمل. شعرت بفراغ كبير يملأ داخلي بشيء يشبه الضباب، ولكنه كان يلتصق بكل أطرافي ويمنعني من أية حركة. أحب فاوست، ولكني أشعر به قد تغير كثيراً منذ بدأت فكرة العودة إلى الوطن ترتسم في الأفق. فوجئت في النهاية أننا لم نعد نتكلم اللغة نفسها. كانت المسافة قاسية ومخيفة. لا أدري ماذا كان يحصل لي. كنت خائفة من أمي التي تكررت زياراتها إلي في كوابيسي الليلية الكثيرة. فجأة ارتسمت حدود عميقة في قلبي، لكني حاولت أن أتخطاها وأن لا أرزح تحت سلطانها.

- لماذا صمتُ كأنك لست سعيدة بعودتي.

- بالعكس أشتعل فرحاً يا هبلي وروحي. ولكني أشعر بأنك تبتعد عني في كل مرة بخطوات حثيثة.

- لست بعيداً ولكني متعب من شدة العمل المتواصل بلا راحة منذ ثلاثة أشهر. مرهق لأني أريد أن تكون هذه العودة كبيرة ومدهشة. مقنعة للمنتظرين، ومقنعة أيضاً للذين وضعوا كل ثقتهم فيَّ. تعرفين أن القتلة دفعوا بنا نحو الفراغ والموت، فعدنا بقوة إلى أرضنا. لا يعترفون بك في وطنك حتى ولو كنت لمعة خارقة، لكنك عندما تأتيهم من الخارج ينحنون لك اعترافاً وإجلالاً. لقد قضيت عشر سنوات من المنافي، وأريد اليوم أن أعود إلى وطني كبيراً.

- أفهم انشغالاتك حبيبي. أفهمها جيداً. لكن... وأنا في كل هذا! أريد ان أسمع شيئاً خاصاً بي، يحسسني بأن مكاني في قلبك لم يتغير أبداً. كل ما تقوله لي قرأته في الحوار المطول الذي أجرته معك جريدة الأمة الرسمية وتناقلته وكالة الأنباء الوطنية.

- أنا سعيد وأعرف أن سعادتي هي سعادتك.

- فاوست حبيبي أريد أن أقول شيئاً. أرجو أن لا تغضب مني. ممكن؟

- يا روحي أنت جاذبيتي الكبرى نحو بلاد الشوق

والحنين. تفضلي.

– لا أدري. طبعاً سعيدة بمجيئك، لكني أصبحت أخاف منك؟

انتظرتها بسذاجة، فلم تتأخر الضحكة.

– ههههههههه. مهبووووولة.

– طيب لماذا تضحك. أنا مستسلمة لك كلياً بكل براءتي الطفولية. ثلاث سنوات وسبعة أشهر وأنا أنتظر هذه اللحظة حبيبي. من حقي أن أحس بها.

– أرجو أن تظلي كما أنت. أحبك. هي اللحظة التي تعيد لي حقوقي من أبناء الكلبة الذين سرقوا حقي في أن أكون كما أنا في وطني وتربتي.

– يجب أن تنسى هذا كله إذا أردت أن تعيش على هذه الأرض. لا يمكنك أن تبني حياة أخرى بديلة وأكثر إنسانية بالأحقاد التي لا تعمل إلا على تدمير ما شيدته بجهودك وتعبك وعرقك. أتفهّم حزنك القاسي الذي ينخرك من الداخل لكن... فنحن في النهاية بشر. ربما كان عالمي صغيراً ليس مثل عالمك. امرأة تقوم باكراً لتركض نحو صيدلتها وتقضي اليوم بكامله في حل مشكلات الأدوية النادرة، وعندما تجدها، تمر عبر البيوت لتوزيعها على الذين وعدتهم بتسليمها لهم كساعي بريد مزهو بالأخبار السارة التي تحملها الرسائل. وفي الليل لا عمل لها

سوى الانكفاء على مملكة مارك زوكيربيرغ[٨٥] الزرقاء، قبل أن تنام على كتاب من الكتب التي تسيّج كل سريرها.

– لن أحقد على أحد ما دمت حاضرة في كياني وقلبي.

– هكذا أشعر بك أكثر حبيبي.

مرة أخرى واجهني عنوان صحيفة الأمة. كان مكتوباً ببنط عريض لا يمكن أن يمر دون أن يثير انتباهي ولا يمكن تجاهله أبداً. بعد استتباب الأمن الكلّي، الكاتب والمسرحي الكبير فادي، يخترق المنفى بالعودة النهائية إلى أرضه ووطنه. مسرحية لعنة غرناطة مرشحة لجائزة المسرح العالمي في مهرجان بايروت[٨٦] بألمانيا.

لا أدري، لكني طوال المحادثات الأخيرة، لم يذكر شيئاً مهماً عني أو عن نفسه يجعلني أهتز بجناحين من نور، إلا ما كنت أعرفه من الصحافة الوطنية، وينسى دائماً أن فرماسينيه[٨٧] صغيرة، تنتظره بحنان وشوق كبيرين. كيف يكبر حب ويتسامى، وعموده الفقري مكسور؟

---

(٨٥) Mark Elliot Zuckerberg.

(٨٦) Bayreuth.

(٨٧) الصيدلانية. أصل الكلمة فرنسي La Pharmacienne

-٢-

ما كان مجرد خبر هارب لا قيمة له، لم يوله الإعلام أية أهمية تُذكر، أصبح حقيقة مخيفة.

كان مفزعاً ما سمعته لأول مرة في إذاعة فرنسية فرانس- أنفو[٨٨]: حريق ضخم يأتي على السجن أو الثكنة القديمة ومستشفى الأمراض العقلية الملتصق به. الصحافة الوطنية الرسمية والخاصة أجمعت على الصمت وإخفاء الخبر ولا أحد يعلم لماذا، مع أنها تخصّصت في تصيّد أي شيء يمكن أن يجلب لها قراء جدداً أصبحوا رهينة ليومياتها الدينية والجنسية. لا يخلو أي عدد من أعدادها من توبة فنانة، أو رؤية نبوية لرجل ما قادته نحو فتوحات حقيقية في حياته، أو اعتداء جنسي أو زنا المحارم. حتى أصبحنا نتخيل أن لا شيء آخر في هذه البلاد إلا المرضى جنسياً والمعتوهين والقتلة.

من حين لآخر ينتابني إحساس غريب يتجمد عقلي أمامه، وهو أني سأرى يوماً حبيبي رايان في المدينة التي أنا فيها وقد استعاد كل عافيته وعاد إلى حياة طبيعية كم كان مؤهلاً لها. طبعاً، في البداية، لم أصدق الخبر الذي انتشر كالنار في الهشيم منذ أن سرّبته فرانس- أنفو، حول احتراق السجن الذي

(٨٨) France- Info.

كان فيه رايـان، والملتصق بمستشفى الأمراض العلقية إلا عندما ركضت نحو المكان ورأيت بأمّ عيني الخراب المهول الذي تسبب فيه الحريق وحيرة المئات من الأمهات عند البوابات الحديدية الموصدة.

بحسب من استطاعوا محادثة كبار المسؤولين في الجيش والحماية المدنية والأمن الحاضرين في مكان الحريق، فقد اضطر مديرا السجن ومستشفى الأمراض العقلية، والحراس أيضاً، إلى فتح كل الأبواب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من النزلاء. الكثيرون عادوا إلى ذويهم. لكن الكثيرين منهم أيضاً احترقوا، بينما بقي البعض الآخر بلا خبر. يقال إنهم هاموا في المدينة. الشيء الغريب أن أغلب الذين هاموا في المدينة هم أبناء مثقفين وهي الملاحظة التي وردت في خبر الإذاعة الفرنسية، بينما الذين احترقوا هم أبناء فلاحين وعمال بسطاء، لم يتحصل أهاليهم حتى على رمادهم. سُلّمت لهم توابيت بأسماء أبنائهم ومنعوا من فتحها. أحدهم، تحت إصرار زوجته لتوديع ابنها، تجرأ وفتح التابوت ليلاً، فوجد قطعة كتان ورماد وعظام صغيرة تأكد له من أنها كانت عظام دجاج ولم تكن عظام إنسان لصغر حجمها. لم تكن عظام ابنه الضخم. أخذها إلى الشرطة التي سجنته في اللحظة نفسها، وأخضعته، على

مدار الأشهر الأربعة التي تلت تسلمه التابوت الخشبي، إلى المساءلة العصيبة، بتهمة نبش القبور وخدش حميمية الجثث. عندما خرج، أصيب بالخرس. لم يتحدث مع أحد. ولم يزر حتى قبر ابنه، إلى أن جاءت لجنة تقصي الحقائق وفتحت القبر من جديد، وفتحت التابوت، فوجدت عظاماً إنسانية في كومة رماد. لم يصدق الأب نفسه مما كان يراه، ولا زوجته. قال له رئيس اللجنة:

- نتفهم وضعك يا سيدي. فقدان ابن معيل للعائلة، ليس بالأمر الهين ولهذا اتفقنا مع وكيل الدولة بأن لا تُمس بأي أذى، وأن يُخلى حال سبيلك نهائياً وأن تكف متابعتك من تهمة نبش القبور. نحن لسنا آلات لا رحمة في عملها الشاق. نعرف جيداً عمق الجرح الذي تعاني منه. لكن بالمقابل عليك أن تسحب الدعوة القضائية التي رفعتها ضد بعض أسلاك الدولة، وتفضح، وبشكل معلن، الذين ورّطوك ودفعوا بك نحو المهالك التي لا أحد يتحكم في عواقبها، ومناطحة دولة سخرت نفسها لكل ما فيه خير البلاد. عليك أيضاً أن تصمت نهائياً ولا تتهم الناس زوراً.

لم يصدق الرجل ما كانت تراه عيناه. بكى طويلاً. بينما انسحب أعضاء اللجنة في سيارتهم السوداء التي جلبت لها

دهشة بعض السكان الذين ظلوا يتأملونها من بعيد. بينما قضى الرجل بقية عمره صامتاً.

رايان أخي كان ممن هاموا في المدينة. لكن الدعاية التي ظلت مخبأة والتي تسريت كالهشيم، هي أن تجارة الأعضاء كانت سارية المفعول في السجن والمستشفى بتنسيق مشترك. الكثير ممن لم يموتوا في الحريق، انتزعت أعضاؤهم ودُفنت جثثهم أو أحرقت. وأن الحريق المزدوج لم يكن إلا عملية مدبرة لتخبئة آثار الفضيحة التي بدأت رائحتها تُشم من بعيد بعد أن لمّحت لها الكثير من الجرائد. انتميت يومها، وأنا أقف أمام السجن الضّخم الذي كان في الأصل ثكنة تركية فرنسية، إلى جمعية البحث عن المفقودين، ولكننا اصطدمنا بشروط حالة الطوارئ التي محت كل الآثار ومنعتنا من أي تحرك. أكد لنا مسؤول القطاع العسكري للمنطقة، ورئيس الأطباء ووزارة الصحة، أن المسألة ليست حقيقية وهي مجرد كذبة يراد من ورائها تشويه صورة البلد الذي بدأ يرفع رهانات البناء بعد الحرب. بلد التضحيات والشهداء. ولكن يوم جاءت امرأة بابنها الذي مات بتفسخ جرحه الذي كان يخطّ بطنه بشكل مستقيم، ووقفت أمام السجن وهي تظهر ابنها الميت للملأ بأنه أخذت منه أجزاء حيوية من جسمه، ولم يتلقّ العلاج المناسب، افتضح

الأمر نهائياً. فقد أكدت التقارير الطبية الخاصة والمستقلة أن الشاب الهارب من النار، نُزع منه كليته وطحاله وجزء من كبده. في اليوم نفسه اندثرت الأم. قيل إنها خافت وهربت مما سمعته من تهديدات، وتخفّت عند أختها. واندثر الطبيب الذي أكد إجراء العملية الجراحية غير القانونية لاستئصال الكلية والطحال. كان يتعامل مع مستشفى الأمراض العقلية والسجن وفي حوزته وثائق مورطة للكثيرين. وجد ذات فجر معلقاً هو وعشيقته، مساعدته في التمريض أيضاً، في حديقة بيته. قيل إنه كان مولعاً بكتاب كفاحي لهتلر، فأصيب بعدوى موته. كان أصدقاؤه ينادونه الحكيم هتلر لصرامته، وينادون الممرضة باسم إيفا. كانت أنيقة ورشيقة. الذين عرفوها يقولون إنها كانت محبة للحياة ومن المستحيل أن تنتحر. ومات أو قتل رئيس جمعية البحث عن المفقودين في حادث سيارة غامض. فقد تدحرجت السيارة من أعالي الجبل حتى الوادي، ولكل واحد من هؤلاء، نُظِّمت جنازة كبيرة انخرطت فيها الدولة بكل أجهزتها وعلى رأسها وزارة الداخلية.

نام الجميع على حلم غريب وعلى كابوس مبهم.

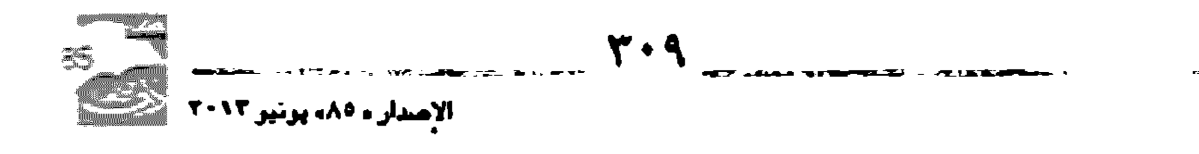
أشعر بجرح عميق كلما تعلق الأمر بأخي رايان.

لم يكن رايان مريضاً، لكنه كان يعاني من انهيار عصبي

حاد بسبب الحاجة إلى المخدرات ومقتل مربي الخيول للقصر الجمهوري. يقول إنها مجرد تهمة، لكنه هو نفسه لا يدري ماذا فعل. لقد رأيته مرتين الأولى عندما وضع السكين في عنقي والثانية عندما قام بالشيء نفسه مع كوزيت ولعنته إلى الأبد. تأكد لي يومها أن رايان قادر على القتل وقت الحاجة الماسة. أشعر كأننا كلنا أسهمنا في تدمير حياة رايان الذي كان ضحية حرب ليست له، وضحية عائلة وُلد فيها بالغلط أو بالصدفة، وضحية جريمة لا أعتقد أن هشاشته تسمح له بها لكن المخدرات تجعل كل شيء مسطحاً وسهلاً. لقد خسر رايان كل شيء، حتى الأصابع التي تمتد للمريض لكي تدفئه وتنقذه للحظات يستعيد فيها إنسانيته، قبل أن يغرق في آلامه.

كل محاولات إيجاده باءت بالفشل. عندما أخبرت صديقتي جاد، نصحتني بالابتعاد عن هذه المساحة وأهتم بالحياة أكثر. أدركت أنها تتحدث بلسان ماسي، أخيها. لسان الشرطي. ونسيت بسهولة أن رايان كان من دمي وقلبي.

كان رايان جميلاً ورشيقاً وهشاً إلى أقصى الحدود. حلم كثيراً بأن يكون ممثلاً. لكنه ظل مرتبطاً بقوة بدراسته. والعائلة كلها تفتخر به. كان يدرس القانون الدولي وله أحلام كبيرة في الدخول إلى الأمم المتحدة والدفاع عن حقوق الكيانات



الضعيفة. كان على خلاف مع بابا زوربا. يقول له دائماً إن المال هو كارثة الأمم وخيرها. دخل الخدمة العسكرية الإجبارية لسنة ونصف استمرت سنتين كلها في عز الحرب الأهلية. ثم غاب نهائياً. سألنا عنه في الثكنة، فأخفوا خبر اختطافه. في البداية قالوا إنه في المناورات الصحراوية إذ كان في المدفعية، وتحت إصرارنا المتكرّر، اعترفوا لنا بأنهم لم يتلقوا شيئاً عن وضعه هو وصديقه ورجَّحوا فكرة الاختطاف لأنها كانت الأكثر منطقية في ذلك الوقت. عرفنا لاحقاً أنهما اختطفا. ركضنا في كل الجهات بلا جدوى. حتى يئسنا نهائياً.

ذات مساء كان والدي منكسراً، يحدق في الفراغ الذي أصبح يملأ البيت لأن رايان كان يناقش في كل شيء، وكان يفضل أن يطفئ تلفزيون الصالون لأنه كما كان يقول، يسطِّح كل شيء لنغرق معه في جدالات لا تنتهي. فجأة رنّ التليفون. أخذ بابا زوربا السماعة وهو يرتجف.

– من معي؟

بعد لحظات من الصمت، جاءه صوت يعرفه جيداً. لأول مرة أرى والدي يرتعش بلا حدود، وتتحول كل صلابته إلى جبل ضخم أذابه فجأة بركان مدمر.

- رايان حبيبي، كيفك؟ هوّلتنا عليك يا وليدي.

صمت قليلاً. عرف بحاسة الحيوان الخائف، أن رايان كان في خطر.

- بخير يا بابا. أردت فقط أن أسألك وأرجو أن تجيبني بصراحة.

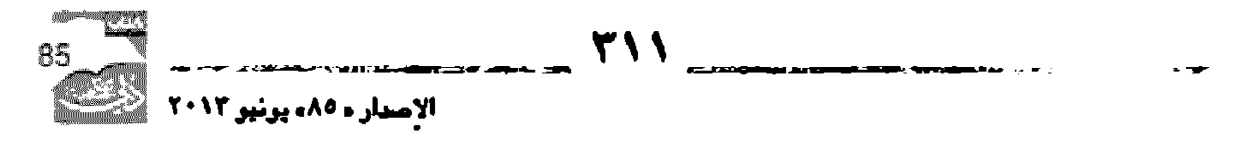
- طيب حبيبي. تفضل.

- بابا أنا الآن في غابة معزولة وبين يدي إرهابيين اثنين. ماذا أفعل بهما؟ أردتُ أن أستشيرك. هل أقتلهما وأخلص البلاد من جرائمهما؟ أم أسلمهما للمعبر القريب وليفعلوا بهم ما يشاؤون، أو لا هذا ولا ذاك، أطلق سراحهما؟

لست أدري ما الذي جعل والدي يشكّ أنّ في الأمر شيئاً غريباً. ربما بحة رايان التي تأتيه في حالات الخوف أو المرض؟ صمته؟ ثم... لم تكن اللغة لغته مطلقاً على الرغم من أنّ بابا زوربا كان متأكداً من أن الصوت هو لرايان، ولم يشك أبداً في ذلك لحظة واحدة.

وفجأة تملك بابا زوربا كل حواسه وقوته، وردّ ببرودة دم.

- شوف يا ابني أنت لستَ مجرماً. لستَ قاتلاً. أنتَ في الخدمة الوطنية بفعل القانون ولم تختر ذلك. الصدفة نفسها هي التي قادتك إلى هذه الوضعية المفروضة علينا جميعاً، وربما الصدفة أيضاً هي التي وضعتْ الرجلين اللذين بين يديك في الجهة الأخرى، المعادية. النسيج تمزق يا رايان



وهذا أخطر ما يمكن أن يحدث لبلد مثل بلدنا الذي نُوِّمت فيه الأحقاد زمناً وها هي ذي تعود. لا سلطان لنا على ذلك إلا سلطان الضمير. أطلق سراحهما، ربما انعكس ذلك خيراً عليكم جميعاً. وربما أعاد الله الجميع إلى الطريق الأسلم. لا تقتلهما فهما في النهاية أبناء بلدك وإخوتك أرجوك. الروح عزيزة يا ابني عند ربي وعند العبد. انصحهما بالخير، واسمع لهما أيضاً ربما كانا أعرف منك في قضايا أنت لا تعرفها الآن. حاولْ أن تفهم مشكلاتهما إن أمكن، ولا ترغمهما، ربما كانا ضحايا مثلنا جميعاً لحرب صنعها غيرنا ونتورط اليوم فيها جميعاً. لا تخسر إنسانيتك. انظر إلى قلبك الخير وسيقول لك ما قلته اللحظة لك.

- يا بابا عليّ اتخاذ قرار اللحظة.

- اتخذ أي قرار تشاء، بقلبك وبكل حواسك الإنسانية، لكن لا تقتل. من يقتل واحد يتعود على الدم.

كنت مندهشة من سكينة والدي وإنسانيته التي أعرفها فيه، لكن هذه المرة كانت متمادية.

- لكن يا بابا إنهما إرهابيان؟

- الظلم يعمي أحياناً. ومن تكون أنت في نظرهما؟ أنت أيضاً في نظرهما خادم للطاغوت على الرغم من أنك لم تختر طريق النار، لكنك تؤدي واجباً وطنياً ربما أداه قبلك

من تقبض عليهما الآن؟ اللغة سهلة ولكنها خطيرة أيضاً. لا تتركها تقتلك كما أوصيتك دائماً.

- سأمتثل أمام المحكمة العسكرية ويحكم عليَّ بالإعدام إذا لم أفعل؟

- ليكن. مت على حقّ ولا تمت على قتل آخرين لا تعرف عنهم شيئاً. ربما كانا بريئين مثلك.

صمت التليفون فجأة. انتظر والدي قليلاً، فجاءه صوت آخر أكثر خشونة وأكثر يقينية.

- هل تدري يا سيد زبير ماذا فعلت الآن؟

- لا أدري يا سيدي عما تتحدثون؟ أنا كنت فقط أنصح ابني رايان بالخير، لا أكثر.

- قبل قليل ذبحنا العسكري الذي ألقينا عليه القبض مع ابنك لأنه كلم أخاه وسأله السؤال نفسه فأجابه أخوه: اقتل ربهم ولا ترحم أحداً. فكان أن تسبب في مقتل أخيه وطبق عليه قانون طاليون[٨٩] وشرع الله. العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم. أنت بهذا الموقف أنقذت ابنك من حيث لا تدري.

ثم انقطع الخط نهائياً. وصل أخي بعد يومين من ذلك منهكاً متعباً وهشاً، وخارج العالم كلياً. كان طوال الليل في

---

(٨٩) يقال لها Loi de Talion وهي مستوحاة من قوانين حامورابي، التي ظهرت في 1730 ق.م في مملكة بابل. وهي قوانين تمنع الناس من الانتقام بشكل عشوائي، تشكل بداية لقانون بشري فيه بعض العدل، إذ يضع الجريمة والعقاب في كفتين مقابلتين، وفي تواز تام.



حالة قصوى من الذعر لم يكن من سبيل لإزالتها مؤقتاً إلا المهدئات التي انتهت به إلى المخدرات التي كان يتناولها ليستطيع مقاومة الخوف الذي ينتابه وسكنه نهائياً وكان يدمره من الداخل بهدوء. سوسة خشب. سألته في مرة من المرات وأنا أوقظه من كابوس جعل كل فرائسه ترتعش بقوة:

– قل حبيبي رايان ما بك. احك لي؟

- ياما. متعب جداً. خائف من كل شيء. من نفسي. من الأشمال التي تحيط بي وتريد خنقي. من الأصوات التي تملأ رأسي ولا سلطان لي عليها. من الدم الذي يملأ ألبستي. من الموت الذي يكشر في وجهي بأسنان صفراء متهالكة ومسوسة...

ثم عانقني ويدأ يبكي مثل طفل صغير.

- أشعر بألم كبير على إسماعيل، صديقي في الخدمة الوطنية. لقد ذبحوه أمامي مباشرة بعد المكالمة التليفونية التي طلب فيها أخوه أن يمزقهم إرباً إرباً لأنهم قتلة ومجرمون. قطعوا رجليه في البداية. وكلما صرخ قالوا له نحن ننفذ ما طلبه أخوك منك فعله فينا. ثم قطعوا يديه. ثم بتروا... وهو يصرخ بأعلى صوته ويستجديهم أن يرحموه بقتله. ثم فقأوا عينيه

بـأصـابعهم الغليظة. ثم قطعوا أظافره ونزعوا أسنانـه
وهم يتلذذون. حـاولت أن أتفـادى مشهد الدم لكنهم
ضغطوا على رأسي بقوة ومنعوا عينيّ من الانغلاق.
قال أحدهم وهو يصرخ في وجهي: شوف يا وحد
الطحّان واش راه يستناك. وإسماعيل يردح كالشاة
في دمه قبل أن يقطعوا رأسه من القفا بمنشار صدئ.
خائف من كل شيء يا ياما. خائف جداً. من النوم. من
الظلال التي أصبحت أراها في كل مكان. خائف من
البيت. من الخارج. خائف منهم لأنهم سكنوا فيّ.

- لازم نشوف محلل نفساني.
- أخاف.
- لن يفعل شيئاً معك. سيسألك ليخفف عنك خوفك لا أكثر.

أضمه إلى صدري وأقنعه بأن لا شيء يخيف وأنه في
البيت. أصرّ عليه أن نذهب عند محلل نفساني ليخرج كل
هذه الآلام والحمم والصور التي تسكنه ولكنه، يرفض
رفضاً باتاً.

استطعت أن أقنعه في النهاية أن نذهب عند صديق والدي
البروفيسور عمّو جواد. قلت له هو قريب ويعرفنا جيداً وقد

تابع والدي خلال كل أيام الحرب الأهلية. وهو من أعطاه الكثير من الأمان. ربما جاءت حكمته التي أنقذتك من مخالبهم، من هذه الراحة الداخلية. تابعه عمّو جواد بتأنٍّ وجدية. جلسات طويلة، والكثير من المسكنات ليتمكن من النوم قليلاً وحتى لا يستفحل وضعه. كان يقول له دائماً: داخلك طيب يا رايان، لكنك صلب وتستطيع أن تخرج من هذا كله.

يهز رايان رأسه كطفل ثم يغمض عينيه.

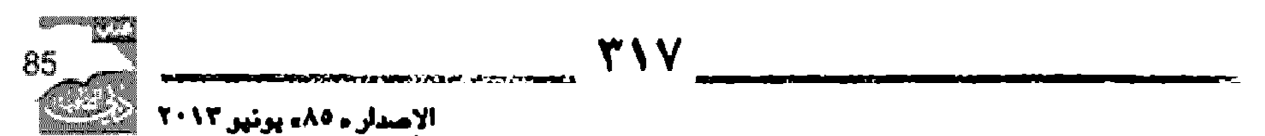
المسكنات وفرت له الدوخة أكثر من الشفاء. انتقل بعدها، عندما أصبح مفعولها محدوداً، إلى المخدرات التي كانت توفر له راحة أكثر. ومن حين لآخر بعض السعادة التي كانت تعيد إلى وجهه بعض إشراقاته.

ساعدنا عمي جواد الذي كان يعرف مسبقاً أن هشاشة رايان ستقوده إلى البحث عن وسائل أكثر قوة من المهدئات الطبية، في إيجاد مستشفى طبي يساعده على الإقلاع عن المخدرات. بعد مدة قصيرة سعدنا بأن رايان بدأ يسترجع صداقاته القديمة ويعود إلى طبيعته، ويفكر في مشاريع حياتية والانخراط في العمل. أي عمل، لنسيان الخوف.

من المخدرات إلى الشفاء المؤقت، إلى العمل في تربية الخيول، قبل أن يجد رايـان نفسه في نوبة ظلم، بعد أن أحرقت خيوله ومركز التربية الذي فتحه بوسائله الخاصة، في جحيم الجريمة؟

كنت في قمة شجني عندما هربت نحو مملكتي الزرقاء التي تحولت بسرعة إلـى جهنم. لم أجد ولا رسالة من فاوست. ولا ردة فعل من خوفي وأشواقي. لا شيء. قلت ربما يكون مشغولاً. لكني عندما دخلت إلـى صفحته وحائطه شعرت بـأن شيئاً قاسياً فـيَّ استيقظ فجأة. وبدأت أعوم في كلماته التي كانت تظهر وتنطفئ عند أخريات غيري، وأتحول شيئاً فشيئاً إلى حشرة صغيرة سدت أمامها كل منافذ الحياة الممكنة. لمع في اللحظة نفسها غريغوري سامسا[٩٠] بكل خوفه وشجنه وهو يبحث عن الأماكن الأكثر أمنا، من وراء الأبواب، لكي لا تدوسه الأرجل الخشنة التي تذهب وتجيء باستمرار.

(٩٠) § بطل رواية التحول أو المسخ La Métamorphose لفرانز كافكا.



-٣-

كثرة الإصرار على شيء تحوله إلى مرض.

في هذه لم يخطئ نيتشة المهبول عندما لعن فاغنر واعتبره مرض العصر، بابا فرويد أيضاً الذي عدت إلى كتبه بشغف لم أعهده في نفسي من قبل، منذ أن فقدت أمي وارتبكت بحالة رايان التي لم أملك حيالها حلولاً كثيرة إلا الركض بين الإدارات والبحث المستميت عنه في كل مكان أسمع به. لكن حالات اليأس التي كانت تورثها لي ممارسات فاوست، أصبحت ثقيلة على جسدي الهش ولم أعد قادرة على تحملها، بالخصوص حينما يغادر مملكته بحجَة أنه متعب، فأودعه بلا نقاش. ثم أراه بعدها مباشرة، منشغلاً بوجوه أخرى غيري، معظمها مستعار أو بلاستيكي وغير حقيقي. أظل معلقة معه حتى الفجر، متخفية عن بصره. ولا أعلم بالضبط لماذا يفعل ذلك معي.

لا أدري ماذا حصل لي في الليلة الماضية. شعرت فجأة كأني لا شيء. فراغ ساخن. غريغوري سامسا وهو يبحث عن مخبأ له بعد أن ضاقت عليه كل الأمكنة. أصبت بحالة غثيان غريبة تقيأت على إثرها دما، للمرة الثالثة بعد أن عاد لي وجه كوزيت في قمة برودته وتثلجه.

لا أدري إذا كانت مملكتي حقيقة أم مملكة مارك زوكيربيرغ! فقد تركت كل شيء ورائي والتفت نحوها، لأقتفي خطوات فاوست الليلية في هذا البحر الصاخب بنفسي، بعد أن نسيني في مساحة زرقاء يختلج فيها كل شيء مثل موجة تحت عاصفة لا تعرف أبداً الاستقرار. شعرت بنفسي مريضة حقيقة. كنت منهكة. لم أتحمل ليلتها ما حصل لي. كتمت كثيراً على نفسي. بت قلقة جداً انتظر إشراقة الصباح الأولى. قضيت الليلة كلها أتأمل كتاباته الكثيرة وهي تستعير لغتنا المشتركة، وهي تنزل عليَّ كالصاعقة، وهو يرد على نسائه اللواتي عندما أتعقل أراهن مجرد صور، وعندما ينتابني شيطاني ممزوجاً بالخوف، يتحولن إلى نساء حقيقيات يزاحمنني فيه أنا التي انتظرته منذ أكثر من ثلاث سنوات. بعضهن تشمّ الغواية في تعابيرهن، وهو أيضا يشمّ ذلك بسهولة بحاسته القلقة، فيتمادى ولا يفكر فيَّ. النص الذي قتلني وأبكاني الليل بكامله لأني شعرت به يُسرق مني ويُسلَم لامرأة أخرى غيري. حزنت لأنه كان جميلاً وساحراً وكان لي في الأصل: حبيبتي الهارية أبداً. كم أصبح ذلك اليوم فيّ. كل شيء بدا فجأة أزرق. طريق البحر. قلبك. عينيك. أحلامك. عند الحافة مشينا كطفلين خجولين. لا شيء سوى صرخات القلب عطشاً للنور، وتمزقات

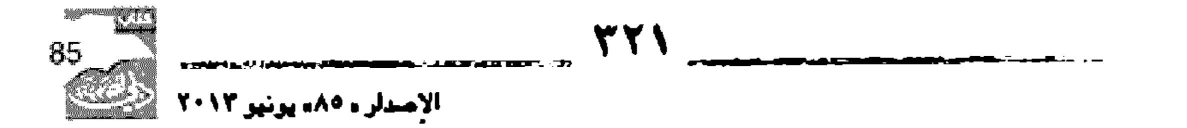
الموج شوقاً للهرب. كانت القبلة الأولى مالحة برذاذ البحر. ضحكتِ مثل طفلة لم تعرف كيف تخبئ خجلها وسعادتها، قلتِ: يـاااااه... للحرية طعم ورائحة. عندما غطتنا الموجة الأخيرة كنا قد سكنا جنة لم نكن قادرين على تحمل دهشتها وأندائها. تشبثتِ بي خوفاً من أن يسرقك البحر.
قلتِ وأنت تضحكين: ههههه لو لم تأت بي نحو جنتك المائية كنت قتلتك. كنت أدخلتك قلبي للمرة الأخيرة وأضرمت النار وليكن ما يكون. فأنا في النهاية لست شيئاً في غياب ظلك وحبك.
عندما رأيت نصاً كتبتْه له امرأة أخرى تسمي نفسها ماسة، وتسمي فاوست بكلمة يا هبلي الجميل. شقراء وجميلة جداً. تحكي أنه حرك حياتها الميتة. وأنها تفكر فيه باستمرار وتتشوّق للقائه القريب على أحلى وأجمل الحواف. وقتها لن تطلق سراحه، لأنها لن تشبع من رؤيته هو المسافر دوماً. ثم تتمادى ماسة في غيّها القاتل: عندما تزورني في المرة القادمة، سأضع بين يديك حبيبي فادي الذي ولد وأنت بعيد في تفاصيل هذه الدنيا القاسية، ويحمل اسمك. لقد كبر بسرعة في غيابك ويلفظ اسمك في كل مرة بشكل. وضعتْ صورة المولود على حائطها. كان يشبه فاوست في كل شيء. حتى

في أصابعه الناعمة أو هكذا بدا لي. أو أنا منْ رأت ذلك. خرجت مني كلمة غريبة لم أعهدها في نفسي:

- من أين خرجتْ لي هذه المومس الحقيرة؟ ما تحْشمْش. بكل هذه الوساخة المعلنة؟ كأنّ ماسة سرقت مني ابني. لم أفهم نفسي جيداً. ثم انكفأتُ من جديد أراقب النصوص وهي تنزل ترديداً على نصه المنشور. لم أقراها لأني بقيت ملتصقة بالسيدة الشقراء التي تكاتبه كثيراً وهي تعلن له أنها ستضع ولدها الذي يحمل اسمه، بين يديه، أول ما تراه. فجأة لمعت الغيرة القاتلة كالبرق في عيني عندما رأيت جملة ماسة الأخيرة: حبيبي عندما ترتاح قليلاً، تعال لي. لن أستطيع المجيء إلى المطار. ستكون محاطاً بالرسميين. سأكون في عملي في مصلحة الضرائب، في ساحة الحرية، في الطابق الخامس. حاسب على قلبك. المصعد لا يعمل. تعال وبعدها آخذك معي للعشاء وهكذا ترى فادي الذي اشتاق إليك كثيراً ويبدأ يسالني عن غيابك. لا تبق في النزل، البيت بيتك وفيه كل الدفء الذي تشتهي. أعرف أنك لا تتحمل قسوة برد هذه المدينة، لا خريفها ولا شتاءها.

كانت الجمل الأخيرة هي ما أشعلني نهائياً وأيقظ كل شططي الخفي وميراثي الجنوني.

ارتسمت في ذهني كلياً كالجرح. أستحضرها بكل تفاصيلها.



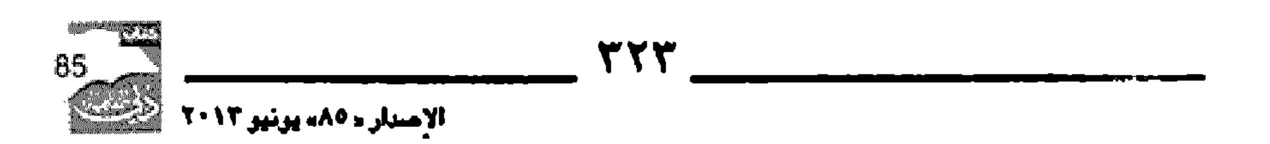
وجه ممتلئ كبرتقالة شهية، منتفخة من كثرة الماء. ابتسامتها في ألبوم صورها تظهر أسناناً صغيرة وبيضاء ومسطرة كأسنان فأر. لا يوجد فيها أي خدش. "بلوفر" أحمر يعطي لوجهها مظهراً جميلاً ومشرقاً. القاتل فيها عيناها. لا أعتقد أنّي رأيت ما يشبههما. أي رجل يراهما يغرق فيهما. هناك عيون لا تقاوَم لا لأنها جميلة فقط مثل لوزة غابية متوحشة، ولكن لأنّ بها سراً غريباً ومبهماً، لا يعرف خفاياه إلا من جُنَّ بها. بحركة عفوية تأملت عينيّ في مرآة الصالون. كانتا متعبتين من شدة الألم، لكن اتّساعهما لم يتغير. في صغري، بعض زميلاتي من شدة الغيرة مني، كن تنادينني: ياما الشقرة، عينين البقرة. وفي مرة من المرات اضطررت لأن أدخل سوق الحيوانات في أطراف المدينة، فقط لأتفحص عيون الأبقار التي لم أكن رأيتها من قبل. كلهن كن جميلات وصافيات ولم أجد بقرة واحدة بعينين معمّشتين أو صغيرتين. عندما عُدت مساء إلى البيت، وجدتُ أمي منفعلة، تنتظرني عند المعبر الأول في شمال المدينة: أنت حمارة وإلا ابن آدم؟ قال لك ما يحبكش وعلاش تجري وراه؟ ماذا لو قتلتك رصاصة من أجل مجنون لا يستحق حتّى ظفرك؟ كانت طبعاً تحكي عن صديقي في المدرسة الذي رفض أن يرافقني إلى سوق الأبقار لأنه لم

يفهم الجدوى من زيارة سوق الحيوانات؟ منحتني مبرّراً لم أنتظره أبداً. أحنيت رأسي ومشيت أمامها. نظر إلينا العسكري، حارس المعبر. كان طيباً. التقت عيني بعينيه. شعرت فيهما بحسرة مبطنة. كانت أمي صامتة من شدة الخوف الذي كان يقرأ في عينيها. لم ترفع رأسها ولم تتكلم. لم يطلب منا أحد أية ورقة. أشر الحارس فقط برأسه. وعبرنا الحاجز نحو البيت. التفتُّ ورائي لأتذكر هذا الوجه الطفولي الذي لم أدرك أبداً أين رأيته في أول مرة! لابد أني رأيته في مكان ما! عيناه تكلمتا بلغة فهمتها بسرعة. شعرت برغبته في قول أية كلمة. مساء الخير. صباح الخير. أمسية سعيدة. ولكنه لم يستطع الكلام. أين رأيت هذا الرجل يا ربي؟ عندما تخطيت عتبة بيتنا، شعرت به يتبعني بعينيه. تراجعت قليلاً ونظرت صوبه لكنه كان قد تخفى وراء الأسلاك الشائكة، ووراء البنايات العالية.

- يا ربي وين شفتو؟ وين؟

تساءلت طويلاً.

خدعتني ذاكرتي ولم تطاوعني. مجرد إحساس عابر ومجنون. اشتهيت أن أركض نحوه وأقول له: عذراً حبيبي. لم أعرفك، ولم أتذكر إلا ملامحك العريضة. من تكون أيها المهبول الذي سجنني بنظراته. تمنيت أن أركض نحوه وأقول



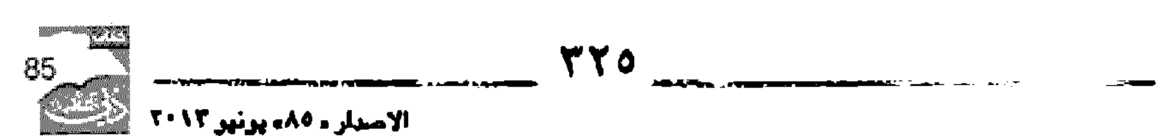
له ذلك كله، لكن شيئاً ما فيَّ أسكتني. شعرت بأني سأخون عينيْ البقرة التي قاتلتُ من أجل رؤيتهما. فنسيته بسرعة وطويت صفحته.

كانت أمي ستقتلني وتعتبرني مجنونة حقيقية لو قلت لها إني كنت في سوق البقر. شيء لا يمكنها تخيله أبداً. بعض الكذبات أهون من حقيقة صلبة كالفولاذ الميت.

في عز التعب والنوم، عدت لألتصق من جديد بالكمبيوتر، وأغرق في زرقة الفيسبوك. كنت محترقة كقشة جافة. وجه هذه المرأة المغربية أعرفه. في عينيها خضرة حادة تعوم وسط بياض صاف جداً تنجلي منهما براءة مسكونة بشيء غامض لم أكن قادرة على لمسه.

سحر لغة فاوست يجنِّن ويصيب العشيقات المريضات مثلي بسهولة. ما أثارني ليس فقط جمال ماسة المهبولة كما تشتهي أن تنعت نفسها، وإدهاشها، ولكن لأنها تلبست بي لتسرق مني جزءاً من حياتي. كانت تتشبه بي وتلبس لغتي ولغته في الآن نفسه. لكن كلام فاوست لم يكن لها وحدها. لا أعرف عمّن كان يتحدث في أعماقه بالضبط! ربما كان يقصدني، لكن كلامها كان واضحاً. كانت مصابة به حتى الأعماق. تتحدث عن طفلها؟ طفلهما ربما؟ لم أستطع تحمل ذلك حتى في الخيال.

يبدو لي أحياناً أني لم أصبح أنا وسط هذه الزرقة المبهمة!
لقد قتلتني مملكة مارك زوكيربيرغ ومسحتني عن آخري.
يقيني الكبير والأوحد، هو رغبتي المجنونة في رؤيته أمامي، والصراخ في وجهه بكل قواي: قل لي يا فاوست، أمازلتَ تحبني؟ من هذه المعتوهة التي تحاصرك لدرجة أنها سرقتك مني؟ عن أي طفل تتحدث؟ قلبي يكاد يتوقف. لكنه كان في أرضه الأخرى، وبين نسائه. توقف نهائياً عن الردود وانسحب من دائرتي، وظلّ مشدوداً نحو غيري. حتى عندما غاب نهائياً من المشهد، كنت متأكدة من أنه كان معهن في بريده السري. أو مع ماسة الشقراء. مملكة زوكيربيرغ مجهزة بكل وسائط الدفاع التي تفصلنا في أية لحظة عن محيطنا الذي لا نريده، بحيث لا يرانا أي شخص آخر إلا هو، زوكيربيرغ، إذا شاء ذلك. كنتُ متأكدة من أن فاوست لم ينم، فهو أخفى فقط ضوء المحادثة والتشات لكي يظل حراً في اختيار من يشاء.
لم أنم ليلتها. لا أدري لماذا كلما غفوت شعرت بقلبي يتوقف، فأقوم مذعورة ليعود إلى دقه السريع. يااااه لماذا الحياة رهينة هذه الرعشة التي اسمها الدقة والتي لا تضاهي حتى حفيف أجنحة فراشة. دقة واحدة تكفي للحياة، وأخرى يكفي غيابها ليحضر الموت بكل عبثيته.
عندما مددت رأسي على الصوفا الواسعة بكل تعبي وحرقتي



التي اشتعلت بقوة فحولتني إلى رماد بعثرته رياح الخوف التي كانت تهزني وترميني بعيداً في الأمكنة التي تشاء، اجتاحني نصه الأخير بكل فيضه الجميل: ياما. لو تدرين كم أنا مصاب بك لغيرت كل النظم القاسية التي تحكم يومياتك وركضت نحو هذه المساحة من النور التي فُصّلت على مقاس قلبك وحبك. هل لي الآن أن أحملك وأخبئك في عيني وأسد عنك الهواء والنور وأختلي بك في رعشة السكينة، حيث لا أحد سوى ظلي وظلك وهما يتداخلان ويرسمان تحت النور الخافت المتلاشي بنعومة على جسدينا، كل أشكال الجنون التي يمكن تصورها؟ هل لي اللحظة بالضبط، أن أسرق حبيبتي من فطنتها نحو غفوة وحدي أعرف كيف أصنعها، هي بين النوم واليقظة. النوم الكلي هو أخو الموت، لا أحبه، واليقظة مفسدة للعشق والجنون، لا تحبني...

ارتعبت لأني شعرتني فجأة في الذكرى التي لا معنى لها إلا الموت والانطفاء. غاب اللون الأزرق شيئاً فشيئاً حتى انطفأ كلياً، ليحل محله سواد قاتم قبل أن تخترقه شمس الصباح وتمحوه نهائياً.

كان شيء ما قد مات نهائياً بيني وبين حبيبي فاوست.

-٤-

كأنّ ماسة المهبولة باتت فيَّ كالمسمار. لم آكل ولم أشرب طوال الليل.

للمرة الأولى أقاطع الفيسبوك صباحاً. لم ألتفت له حتى بعد إفطاري. لا أدري من أين امتلكتُ تلك القدرة الغريبة على الصّبر على عين تعودت أن أستحم فيها كل صباح.

كانت المهبولة التي تشبه البرتقالة، في رأسي بكل ملامحها الواضحة.

لا أدري ماذا حصل لي وقتها بالضبط. أعتقد أني أصبت بجنون عرضي لست أدري كم استمر فيَّ. فقد ركضتُ نحوها إلى مركز الضّرائب حيث تشتغل. بالضبط في العنوان الذي حددته لفاوست. لم أحس بثقل الأدراج وقسوتها والطوابق الخمسة التي كانت تطل كلها على الفراغ، أو على الأقل هذا ما رأيته.

أول ما دخلت بناية الضرائب التي لم تكن تشبه شيئاً في لونها ولا في هندستها، سألت عنها بنوع من الهدوء الذي أخفى كل شجني وغضبي. نظر إليَّ الحارس المتوفز عند

المدخل. منذ البداية لم أعجبه لأني أهملته تقريباً. تفحّصني من الرأس حتى أخمص القدم. شعرت كأنه كان يعريني بعينيه:

- تعرفين ماسة جيداً؟
- طبعاً. من العائلة وصديقة أيضاً.
- واحدة من الاثنتين: صديقة أم من العائلة؟
- خذ اللي تحب.

تراجع قليلاً. فقد كان كلامي بارداً. ضغط على زر التليفون ثم وضع السماعة في أذنه اليمنى. خفت أن تقول له ماسة إنها لا تعرفني، لكني كنت قد جهزت نفسي بجملة لا يمكنها أن ترفض استقبالي إذا سمعتها: أنا مبعوثة من طرف السيد فادي الذي يصل قريباً إلى أرض الوطن.

كنتُ غاضبة، ولكني تظاهرت بالهدوء الذي استجمعته لكي لا أنفجر في وجهه. ومع ذلك كاد صبري يخونني وأصرخ بوقاحة في وجهه: وأنت مالك يا خويا. واش دخلك؟ لا يهمك في شيء.

فجأة ارتسم أمام وجهي المركيز دو صاد(٩١) وشيئاً فشيئاً اتضح جلياً وجه كيرفال(٩٢) الذي ظل راشقاً بصره فيَّ ويعريني

(٩١) Le Marquis de Sade.
(٩٢) Le président de Curval.

قطعة قطعة بتلذذ منقطع النظير. بدأ كيرفال، هكذا رسوت على اسم الحارس، يتحرك داخل البهو وكأنه كان يحمل على ظهره العالم كله. رأيته من الأمام ومن الخلف، من كل الجوانب، فارتسمت أكثر في ذهني كل تفاصيل كيرفال. كانت نظراته جافة وخالية من أية عاطفة. يشبه هيكلاً عظمياً. كان طويلاً، وجافاً، ونحيفاً. عيناه فارغتان ومنطفئتان. وفم بلا ملامح، ومويوء، ذقنه مرتفع قليلاً، وأنفه طويل. مشعّر كحيوان خرافي، ظهر مسطح واليتان مرتخيتان تشبهان منشفتين متسختين ترتعشان في أعالي ساقيه[٩٣].

ضغطت على نفسي أكثر لكي لا أدمّر مشروعي. فضلت الصمت لأبدو مطمئنة قليلاً وحتى غبية. للأغبياء نعيم الخروج من الأزمات بلا أي ضرر. ولكن كيرفال قرأ كل أحاسيسي، حتى المتخفي منها. سعدت أنه لم يتلق أي رد من التليفون، فأعاده إلى وضعه الأول. ربما كانت ماسة مشغولة أو مع مديرها تقرأ عليه تقريراً ما.

قلت وأنا أحاول أن أخرِج كل خوفي من رأسي.

- جئت أدفع ضرائبي، وماسة هي المسؤولة، ناهيك عن كونها قريبة. هل في هذا عيب؟

---

(٩٣) Sade, Les 120 journées de Sodome. Collection 10/18. P. 29.

جلس من جديد على كرسيه المقطع من كل الجوانب. بانت نحافته أكثر، واتساخ نظرته الباردة أيضاً. طلب مني الدعوة الموجهة لي من طرف مضلحة الضرائب للدفع. فأريتها له. كانت قديمة نسبياً.

- الآن فقط؟ هذا التنبيه قديم جداً. أين كنت طوال هذا المدة يا لالة مولاتي؟ ستضطرين لدفع الزيادات المترتبة على تأخر الدفع، تعرفين هذا أم لا؟

- ليس مهماً. لست أنا المتأخرة ولكنه البريد يا سيدي. أنا كنتُ دائماً هنا. لم أغادر هذا البلد أبداً. أنت تعرف ظروف الوضع الأمني. ليست بيد أيّ واحد منّا. الوضع الآن أفضل، وأريد أن أتخلص من ثقل السنوات الماضية.

أجاب كيرفال ببرودة متصلبة.

- لأني أعرف ذلك، فأنا أسالك. ثم أنتِ... لست مطالبة بالدفع لو ...

قال ببعض الخبث والملعنة والإغواء الذي أبان عن وجه ثقيل ومليء بالجدري. كان يدور من حولي. لا أدري كيف وجدت الإجابة المناسبة، أو على الأقل تلك التي ظننتها كذلك.

- لكنه واجبي الوطني يا سيدي، ولا مناص لي من ذلك.

- هههه. يبدو أنك المواطنة الصالحة الوحيدة في

شمال المدينة التي تدفع ضرائبها لجنوب المدينة. الحرب تبرر الضرائب.أنا مستغرب من سيدة تأتي بنفسها إلى مكان يهرب منه الناس؟ الشيء نفسه قامت به امرأة قبلك، لكنها كانت أكثر تعاوناً معنا، ولهذا لم تجد صعوبة في الدخول. بل لم تدفع شيئاً.

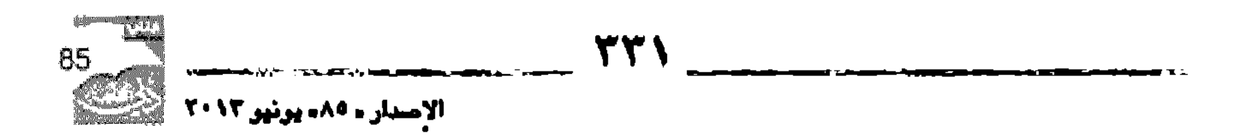
- أنا أريد أن أدفع ما عليَّ، وهذا لا يستحق أن أشرحه أكثر. ثم أنا الخسرانة في النهاية. أريد أن أنتهي من ديون كل يوم تكبر أكثر. يأتي يوم وتصبح فيه ثقيلة ومستحيلة الدفع. الحرب انتهت منذ سنوات وآن الأوان لتسترجع الدولة مالها. هذا حق الدولة الذي توجهه لإعادة إعمار البلاد مما لحقها من دمار كلي على أيدي القتلة الذين مسحوا الأرض بهذه الأرض.

صفق طويلاً، بسخرية ظاهرة:

- برافو... كنت دائماً أقول إن في هذه البلاد وطنيين كباراً لا يعرفهم أحد؟

شعرت بالسخرية التي كانت ترتسم في عينيه من سذاجتي، ولكني تظاهرت بالغباء

- في هذه البلاد وطنيون كثيرون، يحبون أرضهم السخية حتى الموت، لكنهم يعيشون في الخفاء يا سيدي خوفاً من الوضع الذي لم يرحم الصغير ولا



الكبير، لا المدير ولا العامل، لا العاقل ولا المجنون، لا المرأة ولا الرجل.

بقي صامتاً للحظات وهو ينظر إليَّ بسرية، ويتأمل ساقيّ العاريتين، ويصعد شيئاً فشيئاً باتجاه بقية الجسد. يداه مخبأتان وراء المكتب. من حين لآخر تصبح عيناه فارغتين. عندما قام، رأيت البقعة التي ارتسمت في حجره. دون إرادة مني لاحظت شيئاً ربما لم يكن من الجيد رؤيته. على بطنه السفلي السمين والمرتخي، شعر كثيف وعضو في حالة استنفار كلّي، هذه الحالة لا تأتيه إلا نادرًا، إذ يحتاج ذلك إلى هياج نادراً ما يحصل معه(٩٤).

هكذا لمحت كيرفال، في الحقيقة، وليس في الكتب. تأملني من جديد، بينما ظل بصري مرتشقا في البقعة التي ارتسمت على سرواله مشكلة خارطة فاضحة من القلق. بدوت أمامه قصيرة جدا. تأملته مرة أخرى من جهتي. غابت كل الصور الممكنة التي كثيراً ما تبعدني عن هؤلاء الناس بالهرب منهم بعيداً. شممت فيه رائحة تشبه الأشياء الخاثرة والحلازين التي تسرح على النباتات في فصل الربيع.

- الحواجز لا تزال تحتل كل المعابر. على كل أهل مكة أدرى ببؤسها. تفضلي. الطابق الخامس.

(٩٤) Sade, P. 29.

أعطاني رقماً بعد أن ضغط على الآلة الحمراء. ثم أذن لي بالصعود.

- تفضلي. لو انتهت الحرب لصلحوا المصعد والثقوب الخارجية التي تشوه أكبر عمارة في المدينة. اصعدي خمس طوابق على قلبك. أنت أحببت هذا. حتى المصعد الذي بالمفتاح لا يركبه إلا المطهرون، الذين يتجاوزن الطابق الخامس، أصحاب الإدارة. ما زلت مستعداً لمرافقتك إذا أحببت، عندي مفتاحي الخاص وأقلل من تعبك وإرهاقك؟

- لا. ما زلت شابة، وأقدر أصعد خمسة طوابق. يكثر خيرك.

- تحبوا الشقاء فقط. خمسة طوابق على قلبك.

كنت مشتعلة. لم أردّ عليه. ادخرت ناري للمجنونة التي سرقتني وسرقت مني فاوست. ماسة اللعينة.

صعدت بسرعة ولم أحس بأي تعب. سألت عن ماسة في بهو السكرتارية. أشروا إلى نهاية الممر الذي ينفتح على قاعة الانتظار.

نبهتني سيدة كانت تنتظر دورها

- ههههه غريب! la race des seigneurs. حتى واحد ما أفضل من واحد! انتظري كما البقية. كلنا هنا لدفع

الضرائب التي راكمتها علينا حروب الإخوة والنار التي لم تنطفئ إلى اليوم. اجلسي وانتظري دورك كبقية الخلق.

كدت أصرخ في وجهها يلعنها حرب. إخوة مجانين يقتتلون في لحظة شبيهة بجريمة قابيل وهابيل. يستلذون باستلال أرواحهم واستئصال ذاكرتهم المشتركة. لكني فضلت مرة أخرى، الحكمة على التهور.

بدأت أنتظر دوري حتى حان. الغريب أنها هي من قام وجاء نحوي في حالة شبيهة بالتبختر. كانت المرأة التي تلقب نفسها في الفيسبوك بالمهبولة، جميلة وممتلئة وتلبس لباساً قصيراً جداً. لابد أنها مارست الجنس مع فاوست العديد من المرات! وربما ذهبت عنده في إشبيلية؟ لاحظت أن جسدها كان قوياً وممتلئاً. عندما قال لها فاوست: كل شيء فيك ينبض بالحياة لم يكن يقول أي كلام. كان يعرف ماذا يقول. جربها. ذاقها. امتلأ بكل بهائها ليالي متعددة. قمت وبدأت أدور من حولها بشكل غريب، وأنا أتأمل كل طرف من أطرافها المغرية.

سألتني بدهشة وبعض الغرابة وهي تنظر إليَّ.

– هل من خدمة يا سيدتي؟

ترددت للحظة متسائلة في أعماقي، ماذا لو لم تكن هي. هي

لا تشبه صورتها في الفيس بوك؟ تضع صورة لأمراة أخرى. لأمير ة أوروبية أو هندية... ربما؟

- أنت هي ... ماسة؟ يعني المهبولة.

ارتسمت على محياها ابتسامة مشرقة أعادت لها ثقتها في نفسها.

– لا أحد يستطيع اليوم الهرب من النور. أنا مهبولة فقط لفادي هههههه. إذاً نحن أصدقاء الفيسبوك؟ هل من خدمة سيدتي. أنا تحت تصرفك.

حرائق الانتظار الداخلية التي أنبتت فيَّ أظافر حادة، تحولت بسرعة إلى مخالب قاطعة. لم أتمالك غضبي، فانقضضت عليها. على الرغم من جسدها المدور إلاّ أنها بدت بين يدي كفريسة مستسلمة. صرخت بأعلى صوتي، ولم آبه بالحاضرين والإداريين. كنت في حالة أخرى أكبر منّي. هستيريا.

– والله وتزيدي دوري به، أقتلك. نقطعك يا وحد السافلة. منحطّة القيمة والأخلاق. هكذا تعرضين عليه لحمك بسهولة وأمام جميع القراء؟ ما تحشميش؟ حتى للمومس قانونها وحياؤها.

– مجنونة. تتكلمين عمّن؟ لا أحد في حياتي إلاّ زوجي؟

– فاوست. حبيبي فاوست، يا قحبة الفيسبوك.

قبضت عليها من عنقها ثم من شعرها. فانهارت وبدأت ترتجف من شدة الرعب والخوف. كل أحقادي وهزائمي العاطفية استيقظت دفعة واحدة. صرختُ في وجهها كحيوان في لحظة افتراسه لضحيته. لا أدري من أين جاءتني كل تلك القوة أنا المرأة المسالمة أبداً.

- شوفي يا مومس الفيسبوك. لو تحومين من ناحيته مرة أخرى، سأحرقك.

لم أكن مهيأة لمعركة كنت المنتصرة فيها بإرادتي. خرجتْ منها كلمات مرتشعة.

- لم أفهم؟ من هو هذا الفاوست؟

- الكاتب. فاوست. فاااادي. اللي قلتِ له أرواح تشوف الصغير، ينتظرك. لا يكفي أن تنامي معهم ولكن تورطينهم في أولاد قبل أن يعرفوا جنونك. خسارة فيك تسمية ماسة؟ وكبيرة على فحشك كلمة المهبولة. الهبل حكمة يا جاهلة.

- ما فهمتش. تتحدثين عن فادي المسرحي؟ خالي الذي يقيم في إشبيلية؟ هل تريدين حرماني من خالي يا مجنونة؟ أنت لست زوجته؟ واش دخلك في حياته الخاصة.

- تتحايلين. قرأت ما كتبتِ له عن ابنيكما؟ لن تفلتي مني اليوم.

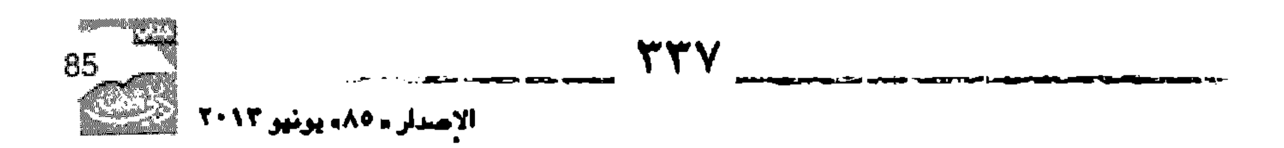
- قلت لك إنه خالي الغالي. خالي يحبني ويحب ابني الذي أسميته باسمه؟ وأنت ما دخلك في مسألة عائلية؟ من وضعك على رأسه وعلى رأسي؟

ثم بدأت تصرخ بأعلى صوتها:

- أنقذوني من هذه المجنونة. إنها تريد قتلي.

- قتلك وأكثر من هذا، ورميك في الزبالة أيضاً. لماذا هرب منقذوك؟

لا أدري بالضبط ما أخذني وقتها، ولكني كنت مجنونة ومجروحة كحيوان. تدخل بعض الحاضرين ففرقونا. كنتُ قد بدأت أبرد وأنا أدرك الحماقة الكبيرة التي مارستها بالرغم مني والاعتداء ضد إدارية لا علاقة لها بجنوني. تأكدت من عينيها من أنها لم تكن تكذب. بل كل كلمة قالتها ذبحتني أكثر لأنها بينت جنوني الذي بدأ ينبت فيّ. لا أدري لماذا تذكّرت وقتها أمّي وأنا أنزل الأدراج بسرعة كبيرة. هذا الإحساس الغريب لم يغادرني لحظة واحدة، فقد ظل معي طوال الليل. كنت أشعر بأني بدأت بالفعل أفقد عقلي، لم يكن ذلك يبشر بأي خير. خفت على نفسي، فجأة رأيت وجه أمي بكامله وهي ترمي صور والدي على الأرض وتحرق بعضها. كانت تصرخ بأعلى صوتها كذئبة مجروحة في الأعماق: خلاص تعبت من



حضوره أريد أن أتحرر منه ويتحرر مني.

عندما فصلونا وركضت ماسة نحو مكتبها وهي ترتعش وتطلب ماء، سمعت إحداهن تقول: مسكينة، هذه البغلة القبرصية ماسة التي لا تستحي، سرقت منها حبيبها، بعضهم يقول زوجها.

لم يكن فاوست زوجي. كان فقط الرجل الذي عرى حياتي عن آخرها ولم أكن قادرة على منعه. الرجل الأول الذي سرق طفولتي ليحل محلها شكلاً جباراً من فولاذ وحجر، قادراً على الجنون والقتل.

في المساء، بعدما تنفست التربة الممطرة وعطر البحر، ارتسمت حماقتي أمامي، في سماء ليلية، بشكل واضح. كنت أنا المجنونة الحقيقية وليست هي. لأني عندما رجعتُ إلى بريد ماسة القديم المنشور على الفيسبوك، وفلّيته نصاً نصاً، تأكدت بنفسي من الفداحة التي كنت أنا بطلتها؟ كلامها غير المتزن هو الذي أحرقني بقوة من الداخل. الله غالب. فقد شعرت في لحظة ما بأنها كانت تدعوه لمأدبة عشق ليلية. لكني لسبب غامض تجاوزني، لم أندم على ما فعلت، ولم أعتذر لماسة مطلقاً.

— ٥ —

كان الخريف يودع مروره العاصف والثقيل، بعنف. الأوراق الميتة تصعد عالياً عالياً وتنزل بعنف كالطيور الجريحة. الأتربة تلفّ فجأة المدينة والجسور والمعابر داخل غلالة من الصفرة الصحراوية، يقول عنها بعض الخبراء إنها علامات غير مريحة لزحف رملي هالك يرتسم في الأفـق، سيأكل المدن وكل الخضرة المحيطة بها. تبقى ذرات الرمل الناعمة والخانقة، معلقة في الفضاء زمناً طويلاً قبل أن تنزلها الأمطار الليلية العاصفة التي تغسل الجو والغيوم والشمس التي يصبح فجأة إشعاعها حاداً وأبيض ومدهشاً كان يرسم في عيني أمي كل الألوان الجميلة. كنت كلما رأيت الشمس المغسولة ركضت نحو أمي ورجوتها بفتح عينيها وأظل أتأملها وهي تضحك:

"يقول بعض الخبراء إن العين هي خزان الأقوام الذين مروا على هذه البلاد، هه... قولي لي ماذا ترين الآن؟ يا الله. خليني نشوف شطارتك في علم السلالات ههههه

- نشوف. نشوووف. جدي البربري فوق حصان أبيض وهو يقطع الهضاب ولا يتعب تحت شمس قاسية. أرى جدي الأندلسي وهو يقاوم في جبال البشرات حتى



الموت رافضاً الخروج من أرض صنعته وصنعها. أرى جدي الذي كان قرصاناً في مياه المتوسط، قبل أن يعود إلى ميناء القسطنطينية محملاً بكل الخيرات والعبيد الذين أول ما تطأ قدماه ميناء المدينة يقسمهم إلى فريقين، فريق يطلق سراحة لأنه صيد غير ثمين ويقايض الذين تساوي رؤوسهم ذهباً. أرى جدي سليمان القانوني وهو يشق أرضاً جافة ويجعل منها نوراً دائماً. أرى اللون الأسود والأزرق والأخضر والنيلي والبني والملتبس بألوان متداخلة والزهري الغميق. أرى ما لا يمكن وصفه.

- برافو. هل رأيت جدك العظيم، سليمان سيد القوانين الجديدة. القانوني. كان يهمني أن تريه وتخرجي من منطق القرصنة فقط. أن تري عظمة هذا الرجل الكبير، عاشر سلاطين الدولة العثمانية، الذي حكم أطول فترة من ٦ نوفمبر ١٥٢٠ حتى وفاته في سنة ١٥٦٦ خلفاً لأبيه السلطان سليم خان الأول. فقد أدار الشرق والغرب بخاتمه. كان حاكماً بارزاً يتزعم قمة سلطة الإمبراطورية العثمانية العسكرية والسياسية والاقتصادية، وغزا المعاقل والحصون في بلغراد

وردس ومملكة المجر قبل أن يتوقف في حصار فيينا في ١٥٢٩. وصل حتى الجزائر التي أنشأ فيها أسطوله العظيم الذي خاض به الحروب الأكثر قسوة حتى سيطر على المتوسط والبحر الأحمر وكل المعابر الحساسة. لهذا أقول لك اخرجي من منطق القرصنة.

- رأيت يا يما كل تلك الأقوام في عينيك. ما أبهى هذه الخلاصة العظيمة التي اسمها يمّا حبيبتي.
- ربي يحفظك يا غالية."

تفرح أمي مثل طفلة صغيرة، وأرى السعادة ترقص في عينيها كلما جاء الحديث عن سليمان القانوني أو جدها البربري أو الأندلسي الذي انتفى على جبال البشرات.

لا أدري لماذا ضحكت في أعماقي وأنا أركن سيارتي الصغيرة في نهاية شارع إليزي روكلو(٩٥) المتسخ. لكنني كنت أعرف أن هذا الرجل بقي حياً في هذا الشارع بالغلط. إليزي روكلو كان فوضوياً ناضل كل حياته لإلغاء الحكم بالإعدام. ههههه. أستغرب كيف لم يغيروا اسم الشارع باسم أحد أقارب رئيس البلدية من الشهداء! أو اسم والد الوالي أو جده. أستغرب أنهم تركوا اسم إليزي روكلو كما كان ولم يمسوه! أضحك وأنا

---

(٩٥) Elisée Reclus.

أستحضر النكتة التي بقيت زمناً طويلاً تشق المدينة، قبل الحرب الأهلية. عندما اتخذ رئيس البلدية قرار تغيير اسم الشارع الذي كان يحمل اسم الكاتب الفرنسي أناتول فرانس[٩٦] وتغييره باسم آخر، عنما سئل ما الاسم الذي يقترحه السيد رئيس البلدية. فكر قليلا، ثم قال: اكتبوا في مكانه أناتول الجزائر. ههههه. ربما كانت مجرد نكتة ولكنها ترسم درجة البؤس الذي دفع بكل شيء إلى الانهيار. هاهم ورثاؤهم يدفنون كل يوم يعدمون وطناً وبشراً وحدوداً. وفي كل لحظة يتخطون مسافة جديدة ويوسعون من حدود الموت ليجعلوه حدثاً تافهاً. الحروب تتفه الموت أيضاً وتبتذله.

أضيّع وقتاً كبيراً لإيجاد مكان لركن للسيارة، لهذا أفضل دائماً التنقل بالمترو أو الترام. لكن اليوم إضراب لكل وسائل النقل. المطالب نفسها: رفع الرواتب. لهذا اخترت السيارة. حشرتها في الزاوية بصعوبة. ولو أراد أحد الشرطة من الفارغين شغل، أن يتفنن ويتسلى بي، سيفعل، ولا قوة تمنعه من ذلك. سيربط عجلات السيارة الأمامية في الحذاء الأصفر، ويسرق مني يوماً كاملاً في تفاهة الضياع بين البريد لدفع المخالفة، والذهاب إلى محافظة الشرطة، ثم الانتظار. لا شيء بعدها سوى الصبر والانتظار الكبير، حتى يهدأ مزاج الشرطي الذي ربط السيارة.

---

(٩٦) Anatole France.

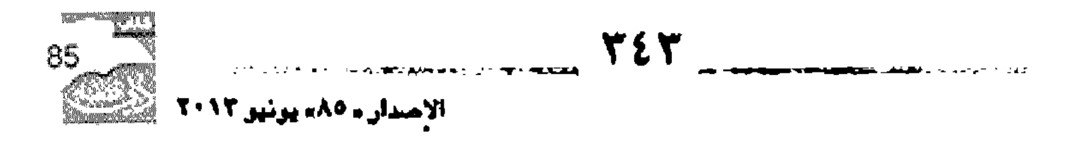
لم تبق لي إلا مسافة صغير لأصل إلى البنك، فضّلت أن أقطعها سيراً على الأقدام.

الغريب أني نسيت فاوست في هذا الصباح. لم أفتح حتى الحاسوب لأرى ردود فعله من اعتدائي على ابنة أخته. يبدو لي أحياناً أننا نملك غلالة سرية شفافة، نرميها على من نحب في لحظات الغضب لنتخلص من جبروت حضوره القاسي ولو مؤقتاً. لم أقل له عن حادثة ابنة أخته. أعتقد أنها ستتكفل هي بقصّ الحكاية بالشكل الذي يروق لها.

تعاودني جملتي الأخيرة التي لم يرد فاوست عليها، وانغمس بعدها في بحره الأزرق مع أخريات غيري. أضحك من طفولتي الصغيرة وبراءتها وسذاجتي أيضاً: لو أني أستطيع المجيء إلى حيث أنت، لأقول لك فقط: توحشتك بزاف يا مهبول بكل الحرقة التي في صدري، لما ترددت ثانية واحدة. أتمنى لك يا قلبي ليلة أجمل من يومياتي القاسية بعد كل سنوات هذه المصيبة التي اسمها الغيااااب.

المائة متر الأخيرة هي أهم شيء في السباق.

على الرغم من قسوة يومياتي، لا أستسلم لصفرة الأقدار. كلما تأزمت الدنيا في وجهي، شعرت بانشداد كبير لأصدقائي في نيبو- جاز! كانوا مآلي الجميل. أشعر معهم بسعادة غريبة



بالخصوص مع سليني بأناقتها في عزفها على الهارمونيكا وصوتها الشجي الشبيه كثيراً بصوت صافو وماريا كالاس، وماشاهو بصوته الجميل الذي لا يختلف في شيء عن بافاروتي أو بقية التينور[97] الإيطاليين. أشعر بأن الآمال التي في دواخلهم كبيرة جداً، وإلاّ لما بقوا هنا في ظل هذه الأوضاع القاسية. أوضاعهم المادية تسمح لهم بالخروج والعيش بشكل أفضل حيث يكونون.

أشعر بأني بدأت أفقد فاوست في المائة متر الأخيرة حين كان عليَّ أن لا أركض بسرعة زائدة. صبرت قرابة ثلاث سنوات، ماذا كان يضرني لو صبرت أكثر. المشكلة هي أنّ كل شيء يتحدّد في المائة متر الأخيرة، ولا يمكنني أن أسير بالوتيرة التي يفرضها عليَّ الآخرون.

. عندما نفقد من نحب، نتحول إلى ناس ناقصين من شيء. هناك فراغ ينضاف من تلقاء نفسه إلى سلسلة الفراغات التي تملأنا بسبب الغيابات التي لا سلطان لنا عليها. فقدت أبي. ثم أمي. ضيّعت أخي رايان في المبهم، وأكلت الأنانيات الصغيرة التي لا أتحملها، أختي كوزيت. كم أصبحت بعيدة اليوم عن تلك الطفلة المدللة التي كانت ترسم أمامها آفاقا مستقبلية

---

(٩٧) Les Ténors italiens.

واسعة، وتغمض عينيها من حين لآخر من شدة النور المتسرب منها. وترى أرضاً كانت فخورة بها لأنها كانت تسير بخطوات عملاقة نحو الفرح. ونسيت فجأة أن النور المعطّر الذي كانت تراه وتستحم كل فجر فيه، لم يكن إلا برقاً خفيفاً، تجلّت وراءه ظلمة كانت تنام في كل شيء كقنبلة موقوتة قبل أن يتحول الكلّ إلى سراب كان يتّسع كلما مشت طويلاً. حتى المدينة أصبحت جافة مثل أهاليها ولا شيء فيها يوقظنا من دوار الخوف. ليس عبثاً أن يسمى هذا المكان المحاذي للجسر الكبير، الحافة. لأنّ بعدها لا شيء مضمون.

كلما ذهبت نحو البنك رأيت هذه الحافة عن قرب وأدركت كم أن الناس على حق عندما يخافون. قرأت شيئاً شبيهاً للذعر في عيونهم القلقة كعيون الغربان التي تأتي أسراباً على الحافة، تتأملها من الأعالي ثم تغادر لتعود في اليوم التالي. شيء قريب من المبهم ينساب على الوجوه ليحولها إلى حالة من التوهان والبرودة. لا يفهمون شيئاً في هذه الغربان التي عادت بكثافة إلى المدينة.

دخلت إلى البنك. عندما رأتني شمس، موظفة البنك، ابتسمت من بعيد كعادتها. اسمها جميل واستعصى عليّ تغييره، فعدلت عن الفكرة. كلما حلّ الشتاء والبرد ومررت على البنك،

ضحكتُ معها: أرجـوووووك يا شمس. محتاجة لك. دفيني. دفّيني. تنفجر كالملحة ضحكاً. ثم تغمزني بأناقة: راحت عليك حبيبتي. لو فقط كنت رجلاً لفعلت ذلك. أضحك بدوري: فهمتك يا ملعوووووونة. أبقى معها قليلاً. في لحظات الفراغ، أستلم نقودي، نتحدث قليلاً عن آخر القراءات، ثم أغادر لأتنفس هواء شوارع لم تغادرها رائحة البارود على الرغم من الأمطار الموسمية الكثيرة التي تغسلها.

فوجئت بشمس التي تعودت على وجهها الطفولي المدور، تحمل في يدها مسرحية امرأة الظل لفادي. فاوست. لا أدري لماذا غرت منها. ربما لأني شعرت في لحظة من اللحظات أنه ملكي لي وحدي، ونسيت أن نساءه كثيرات، وربما يعددن بالآلاف. تذكرت ماسة لكني لعنت في اللحظة نفسها الشيطان الرجيم. طبيعي أن هناك نساء كثيرات يعرفهن من صادقهن من بعيد! من رآهن عن قرب ولامس وجوههن خارج ظلال الافتراض! من غازلهن بمحبة! من في قائمة الانتظار! كيف يعمل مع ١٥٠٠٠ صديق وربما أكثر، بينهم أكثر من الثلثين نساء؟ لأول مرة ينتابني شعور غريب بالخسارة. كتاباته تكلم النساء في العمق، ربما لأن جزءاً حميماً في داخله امرأة أو صنعته النساء اللواتي تربى في أحضانهن. لاحظت بسهولة أنّ كُتُبَه لا تكلم الرجال إلا قليلاً. قلت في مرة من المرات

لصديقاتي اللواتي كنّ تحدثنني عنه: لابد أن يكون فيه شيء من الأنوثة، أو أنه عاش مرحلة نسائية جعلت حساسيته تصبح أنثوية ولهذا يتحدث لغتهن، وهذا إحساس مرهف ليس معطى للجميع. ولأنه كذلك فحظه معهن كثير وكبير.

سألت شمس بفضول وأنا أصبح عليها:

- صباح الخير. هه! هذا كتاب جديد؟ تعرفينه طبعاً؟

قالت بلا تردد:

- نعم. لكن ليس آخر نصوصه. قرأت أنّ مسرحيته لعنة غرناطة ستعرض قريباً في أوبرا العاصمة. أتمنى أن أحضرها وأقرأها أيضاً. لكن امرأة الظل شدتني أيضاً إليها. أشعر حقيقة بأني معنية كثيراً بما تقوله.

فكرت أن آخذ المسرحية من يدها وأصرخ في وجهها: كيف يهمك وهو كتابي الذي عرى قلبي فيه؟ وبعدها سكنت وحاولت أن أهدئ من أعصابي التي ظلت تغلي فيَّ. خفت في أعماقي من أن أكرر حادثة ماسة، موظفة الضرائب التي سكنني فيها شيء غريب، لم أكن قادرة على السيطرة عليه.

- أشعر كأنها تراجيدية هذه البلاد التي تتمزق بقوة، ولا أحد يعرف مصيرها القادم. ولا أحد أيضاً يستطيع أن يلمس طبيعة هذا النزف ليحاول إيقافه!

- هو ذاك بالضبط. أشعر كأنه يتحدث عن البلاد ولكن

عني أنا أيضاً كمواطنة.

تفاديت نظرتها الطفولية المليئة باليقين. لا أدري ما الذي جعلني أرفع رأسي لأرى فجأة بعجاً كبيراً في سقف البنك مغطى بأغلفة بلاستيكية تسمح لبعض النور من أن ينفذ إلى المكان. أدركت بسهولة أن البعج من بقايا قذيفة مدفع أو صاروخ سكود إذ على الرغم من التصليحات الخفيفة، كان الدمار واضحاً بسبب هالة من سواد البارود التي كانت تحيط به من كل الجهات. لم يهمني الأمر كثيراً سوى صدفة الالتفاتة التي جعلتني أرشق عيني في المكان.

- مسرحيته تجعلني أفكر في نفسي أيضاً. في وضعية الناس الذين أراهم يومياً بمآس ترتسم في عيونهم وفي أحاديثهم وفي قلقهم الدائم.

- مجرد كتاب، ليس في النهاية إلاّ مسرحية! يجب أن نترك الأشياء في حدودها أيضاً.

- امتياز فادي عن غيره هو أنه عندما يكتب، يدخل إلى المنطقة المشتركة الخفية فينا. منها ينحت نصوصه وإلا ما وصلت إلينا على الشكل الذي يغرينا ويحسسنا بأننا معنيون به في كل لحظة.

- اهتمامك الزائد به يعميك عن كُتاب آخرين يا شمس.

- عاشقة من عشاقه غير المرئيين. لو يدري الكتّاب

ماذا يفعلون في بشر مثلنا، ربما لكانوا أكثر رأفة بهشاشاتنا. يمنحون الحياة باليد اليمنى، واليد اليسرى كثيراً ما تحمل الموت.

لم أفهمها جيداً ومع ذلك أحسست أن كلامها كان صادقاً وصحيحاً. لكنني لم أكن قادرة على بلعه، فقد تعبت من كثرة التفكير. لم أكن في مهمة مناقشة مسرحيات السيد فادي، لكن الأقدار الغريبة ترتب لي في كل مرة شيئاً غريباً، ومصرة دائماً على أن تضع القنابل الموقوتة في معابري الأكثر حميمية.

سألتني شمس وهي تهز رأسها كمن يستيقظ من غفوة طويلة. أو من سكرة.

– عذراً لم أسألك كم تريدين؟

– كمية لا بأس بها. قدمت البارحة طلباً لذلك.

– لحظة إذاً. دعيني أتأكد.

ذهبت. دخلت مكتباً زجاجياً صغيراً، ثم عادت بسرعة.

– كل شيء جاهز. مرّي إلى المكتب الزجاجي لاستلام نقودك. هههههه. مشروع هربة من البلاد؟

– لا أدري لماذا أينما ذهبت لا أسمع إلا فكرة الهروب؟ ماذا حدث في البلاد؟ الحرب انتهت والحياة الطبيعية تعود شيئاً فشيئاً.

طبعاً كنت آخر المقتنعات بما كنت أقوله. واصلت شمس:

- يبدو أن كل الناس خرجوا بأموالهم. البلاد بدأت تجف وتتحول إلى شجرة يابسة. طاق على من طاق إلا من لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. بمجرد أن فتحت البنوك من جديد، بدأ الناس يسترجعون أموالهم. عشر سنوات من النزيف.

- مع أن الحرب الأهلية توقفت، والحياة الطبييعة عادت... تقريباً.

- تظنين؟ الحرب الأهلية مثل الفيروس المدمر، لا تتوقف إلا إذا أحرقت ثلاثة أجيال متتالية على الأقل. من قاموا بها. من عاشوها واكتووا بنارها. ومن ورثوا أحقادها. شرهة إلى حد كبير. هل في المدينة مظهر واحد يحسسك بانتهاء الحرب؟

- لا.

- طيب. أليست هي حالة امرأة الظل. امرأة هائمة في عز مجتمع الموت، مثل ذرة في الفراغ. لا هي حبيبة معلنة، ولا هي زوجة رسمية. تؤدي كل الوظائف بلا وضع اعتباري. حبيسة الظل والخوف من البياض والنور. كلما حاولتِ الخروج من ظلمتها، اصطدمت بالحقيقة القاسية والمرة.

- ولكنها الأصدق والأنبل والأكثر قدرة على التضحية، والأكثر جدارة بالحياة.

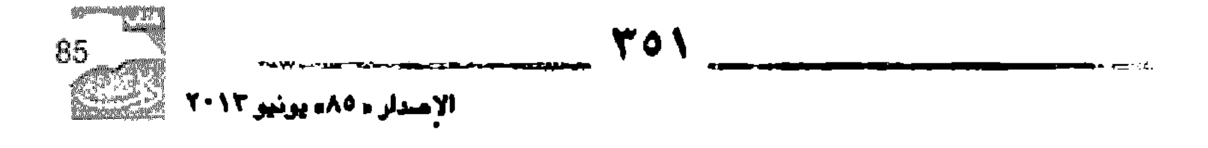
- لا ليست الأصدق. المرأة تحتاج إلى من يملأ خواءها، لا إلى من ينزع منها ما تبقى من حياة. رجالنا يمارسون هذا

الدور، وفي النهاية عندما تتمزق وتتقطع كل أحبالهم يأخذون في أثرهم ثلاث نساء محتملات: الزوجة والعشيقة وامرأة الظل ورياح الحب أيضاً، ويلتف الحبل على الجميع لدرجة الخنق، حيث لا حل ولا مخرج. والأشطر هي من تتقن الوصول في المائة متر الأخيرة في الوقت الذي حددته. هو يقول هذا في المسرحية.

انتابتني فجأة اللحظات الجميلة يوم انتهيت من قراءة امرأة الظل، نمت على الكتاب دون رغبة مني. ألذّ لحظة هي حين تأخذني إغفاءة على الورق. تماماً مثل إغفاءة مسروقة على صدر من نحب. كل شيء يتحول فيَّ إلى نور يحلق بي عالياً ويمنحني لذة غريبة تشبه عزفاً على بيانو قديم في غرفة فارغة من كل شيء. كل الحواس تحيا وتصاب بهدأة الدهشة. أغفو... أغفو من لذة القراءة حتى أتلاشى وأغرق في حفنة من النور ترميني في هدأة السكينة الجميلة المزروعة بالنجوم، فأصاب بدوار النور الشديد وبالعمى الجميل واللذيذ. أطير في عرس من الألوان الشهية.

– مدام من فضلك. نريد أن نخرج الدراهم نحن كذلك.

أفاجأ بزبونة ورائي. ثقيلة الجسم والشفتين واللسان. لم أرَ إلا وجهها المسطح مثل وجه حيوان لم أتبينه لحظتها لكني كنت أعرفه. لم يكن بقرة. ولا أتاناً. أعتذر منها وأنسحب



مباشرة نحو الغرفة الزجاجية لاستلام نقودي التي كانت تنتظرني. أوقّع الشيك في حضرة الشاب المسؤول عن إخراج الكميات المالية الكبيرة. ينظر إلى وجهي ولا يبتسم. أستلم نقودي وأسترجع هويتي، وأخرج وأنا لا أعلم إذا ما كنت سعيدة أم منكسرة.

سمعت صوت شمس وأنا أهمَ بالخروج.

- احذري من أولاد الحرام بكل هذه الكمية من النقود.
- ما تخافيش. خويا يستناني في المقهى المقابل. مهبولة نجي بلا مرافق؟
- عندك حق. المدينة أصبحت غابة متوحشة.

كانت كذبتي مثل صاروخ عابر للقارات موجه لكل من رآني في البنك أو سمعني. أهملتني شمس بسرعة وانهمكت مع الضفدعة التي كانت ورائي. تماماً... وجدتها أخيراً... كانت تشبه ضفدعة. جرانة في حالة قلقة من غياب الماء.

في المساء سلمت النقود للمحامي برفقة صديقي دجو، ليقوم بكل الإجراءات القانونية لتحويلها إلى جمعية ديبو- جاز الموسيقية حتى تحلّ مشاكلها نهائياً مع البلدية. كنت خفيفة وسعيدة أني انتهيت من ثقل كبير كان على ظهري. كنت مثل ريشة وبي خوف غريب من التلاشي في أية لحظة.

في الليل لم أتصل به. لم أفتح الفيسبوك. لكني ذهبت نحو البحث في حياته. سهرت الليل بكامله في تتبع مساراته في المواقع المختلفة وفي حواراته. عرفتُ أشياء كثيرة لم أكن أعرفها إلا قليلاً، عن فاوست. مثلاً أنه ارتبط كثيراً بأمّه في صغره لدرجة التماهي معها وأنه لا يستطيع أن يحب امرأة ليس فيها شيء من أمه؟ كانت جدته هي حاضنته الأساسية. كلما يئس من المحيط ذهب عند خالته ويقي طويلاً مع بناتها اللواتي كن يحببن قصصه التي كان يجيد روايتها. واحدة منهن ظلت تعتبره زوجها المستقبلي وهي صغيرة. وعندما أكلت الحرب العالمية الثانية، وحرب التحرير والده الشاب، عاش في قرية لم تبق فيها إلا النساء والأطفال. الرجال التهمتهم الحروب، ومن بقي حيا، سحبته الغربة بقسوة نحوها.

يبدو لي أن لكل جيل حربه وسلامه أيضاً الذي يصنعه على مقاسه وشاكلته.

VI

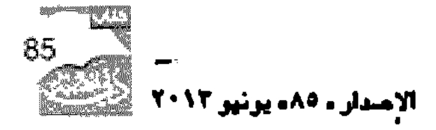
وَخَلَقْتُ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...

-١-

الهزائم الصغيرة تعيدنا بسرعة نحو ألواننا الأولى ونحو طفولتنا الهاربة.

لأول مرة أكتشف موهبة جديدة فيَّ، موهبة الرسم واللعب بالألوان المعشقة بارتباكي وخوفي وحنيني. فقد نامت الألوان الهاربة التي ترسخت في قلبي ودماغي طويلاً قبل أن تستيقظ دفعة واحدة مثل شلالات النور المعمي للأبصار بقوته وحدته وفجائيته. ربما لأن صمته الذي حاول رتقه آذاني وآلمني كثيراً. ربما رغبته في الاعتذار حسستني بخطئه أكثر. لكنه في النهاية، تركني ككلب الحراسة عند باب مغلقة كمحارة ميتة، على مدار أيام كثيرة. وعندما سألته وأنا أحاول أن أقرأ كلماته الباردة: قال بشبه يقين، ولست أدري إذا كنت حقيقة في قلبه وروحه كما أحسست دائماً وأنا معلقة في حبال مملكتي الزرقاء.

رسمت في البداية أشكالاً كثيرة لم يكن لها أي معنى بالنسبة للناظر، إذ كانت خليطاً من الأشياء التي كان يصعب عليّ لمسها كما أشتهي. كان الخط الأحمر ينزل بمشقة من الأعالي قبل أن يغوص في عمق التفاصيل. الأسود لا يشكل إلا سلسلة



من الحواشي الصغيرة التي تظهر هنا وهناك. لمعات صغيرة من البياضات التي تخترق السواد من حين لآخر محدثة فيه فجوات كثيراً ما تمنح المشاهد شعوراً بالأمان. ثلاث لوحات في ليلة واحدة هي تنويعات متعددة على شكل واحد كان سيده اللون الأحمر. لم يكن في نيتي إعطاء أي تأويل. مجرد رغبة هارية لإعطاء نفس لألوان لم تكن تعني شيئاً معيناً إلا لي. لم يكن يهمني الغير. وحتى بالنسبة لي كنت أحتاج إلى فرويد وكارل يونغ أو لاكان ليوجهوني نحو بوابات داخلي المغلقة والموصدة على تفاصيل مازلت أجهلها إلى اليوم.

لكني داخل هذ كله لم أنس أبداً حالة الجنون التي انتابتني. كانت خطراً كبيراً عليّ وعلى غيري. لو لم ينتزعوا تلك المخلوقة، ماسة البائسة، من يدي، كنت قتلتها. عندما أعود إلى نفسي ببعض التأمل أتساءل: كيف كنت أحمل قنبلة الموت الموقوتة دون أن أتفطن لذلك؟ من أين جاءني كل ذلك البركان الصامت؟ كل ذلك الخوف من مبهم لم أصنعه ولم أفهمه أبداً. ربما كانت طعماً لي لأموت وأنتهي في موت مبهم مثل أخي رايان؟ حتى عندما رآني كلب الحراسة كيرفال، وأنا أخرج، في حالة يرثى لها، ضحك بصفرة واضحة، وكأنه كان يتشفى فيّ. سألني: وين كنتِ بهذه الحالة ؟ كأنك كنتِ في أسرَّةِ

الكبار؟ أصحاب الطوابق العليا؟ لم أرد عليه، ولكني عندما التفتُ نحوه بتكشيرة الانقضاض الأخيرة، وبعينين حمراوين شرستين، تمتم بخوف ظاهر.

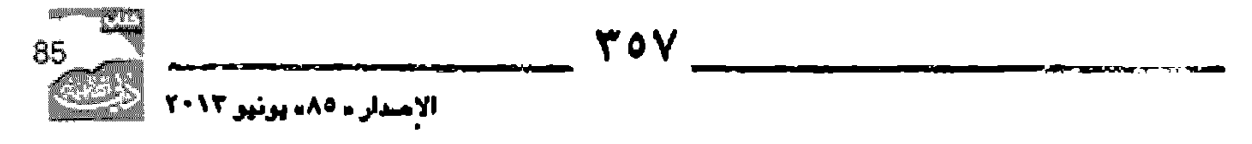
– يا أختي ما قلنا والو. الله يسهل عليك. تفضّلي، الباب مفتوح.

خرجت وسحبت الباب ورائي بعنف شديد حتى كاد زجاجه السميك أن ينكسر. كل الوجوه في الشارع كانت تبدو لي مبعوجة بقوة. متواطئة ضدي. لمحتُ فيها شيئاً غامضاً يترصدني. ليست المعركة مع السيدة التي أثارتني، ولكن بداية اكتشافي لنفسي. فقد كانت كمية الرماد في قاع المخ كبيرة جداً وخطيرة ومعمية للبصر. الرماد ليس إلا رصيد الأحقاد الخفية والنائمة منذ زمن بعيد في الداخل، بعضها منّي والبعض الآخر موروث ليس من والديَّ فقط، ولكن أيضاً من أجدادي الذين لم أعرفهم أبداً، وأرى بعضهم في عيني ميمة[98] فيرجي الطيبة كلما غسلت أمطار الخريف الجميلة، الغيوم الثقيلة والشمس النائمة داخل غلالة الغبار الأصفر.

كنت غارقة في ألواني التي عدت لها بعد زمن طويل، عندما حدث فجأة ما لم يكن في الحسبان.

---

(٩٨) ميمة هي تخفيف أميمة. تصغير أمي. تعني أمي الصغيرة أو أمي الحبيبة في اللهجة الجزائرية.



رن التليفون. ركضت نحوه وكأن فيه نجاتي ويدي ملطخة بـالألـوان. لم يكن على الشاشة أي اسم. فقط كلمة خاص. Privé. عـادة لا أرد على الأرقـام المبهمة. نصيحة والدي. كان يقول لي دائماً: الصديق لا يتخفى. والشركة التي تحتـاج إليك في موقع عملك لا تتخفى أيضاً. فتحت التليفون لأنـي، ربما شممت عطراً خاصاً كان أقوى مني. سألت آلياً:

- نعم. مرحباً. من؟

صمت خفيف ثم جاءني الصوت منكسراً ببحة شيقة، وحزن ضـامر.

- بعد كل هذا الزمن لم تعرفي حبيبك فـاوست؟

ارتعشت في مكـاني. أصبت بدوار هزني بعنف من الأعماق. بعد أكثر من ثلاث سنوات يأتيني صوته حزيناً ولكنه لم يفقد أي شيء من نعومته. كـان طيباً ولكني، قرأت انكساراً كبيراً فيه. كنت أريد أن أقول لـه: لمـاذا تكلمتَ اليوم بعد كل هذا الزمن من الصمت، ولكني خفت من المـائة متر الأخيرة، أن أحطم كل شيء بغباوة. لم يترك لي صوته مرة أخرى مجالاً للحزن.

- أشتهي أن أقول لكِ أشيـاء كثيرة ولكني أفضل أن نؤجل كل هذا الجمال لوقته. اللحظة أريد فقط أن أقول لك عبثاً كل ما حدث بيني وبينك من غضب. لا يستحق كل هذا الكم من الألـم. وأنــا حزين جداً إذا كنت قد

- آذيتك. الكتابة مخاطرة تقودنا أحياناً نحو ما لا نريد.

لم أدر بماذا أجيبه إذ كنت تحت وقع الدهشة.

- كنت مجروحة فقط. العاشق يصبح طفلاً في كل شيء.
- لا تغضبي من شيء لا يستحق ذلك كله، أرجوووووك. أيام العمر قصيرة جداً. من العبث تضييعها فيما لا يستحق ذلك. لا تضربي كل هذه السنوات من الجمال عرض الحائط.
- ثلاث سنوت... وعشرة أشهر وخمسة أيام وثلاث ساعات، وعشر دقائق وست ثوان، اللحظة.
- واااو بكل هذه الدقة؟ ماذا أقول حبيبتي وهبلي ياما؟ ألومك أم ألوم نفسي. أنت في تلك البلاد أعلم مني بكل الظروف الأمنية التي تتجاوزني. أنت لم تفهميني يا قلبي. أعرف أنك لم تكوني في يومك. الحرب الصامتة. موت أمك. خبر حريق المستشفى والثكنة حركوا فيك كل المخاوف. كل هذا أفهمه جيداً. لكن أنا أيضاً في وضع استثنائي عليك تفهمه. مثقل بالأشياء التي سأحملها على ظهري وأنا لا أعرف أي مجهول ينتظرني هناك، على حواف أرض لم أعد أفهمها ولم تعد هي أيضاً تعلم بي. قطيعة الدم أبعدت الثقة بيننا. كيف يمكنني أن أملك عقلاً في وضع مدمر لكل كيان

حي؟ في وضع هو شبيه بالحياة المطلقة والانتفاء المطلق.

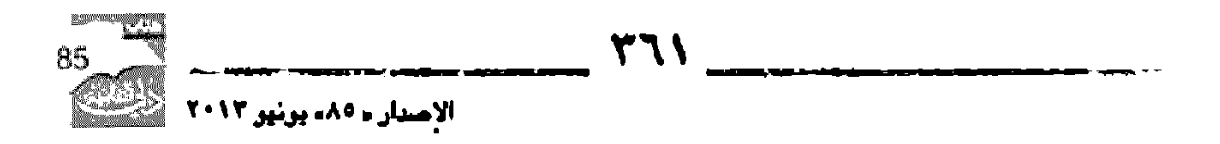
لم يكن في نيتي أن أحاسبه. صوته محا كل شيء. تمنيته فقط أن يقول لي بسرعة عذراً عن الجرح القاسي الذي تسببت لك فيه. جرح العاشق لا يبرأ بسرعة. يحتاج إلى تكاتف الاثنين ليهدأ أولاً ثم يبرأ ثانياً. القسوة التي تسبب فيها كانت مؤلمة جداً، ولم يكن أمامي إلا أن أتلوى في مكاني مثل الأفعى التي كاد يقتلها سمها الذي فيها، كي أتفادى الصراخ قدر المستطاع. صراخ الوحدة والخيبة يحولنا إلى ذئاب في خلاء موحش. كنت أنتظر كأية عاشقة مجروحة، مبتورة من شيء مهم، كلمة صغيرة ليرد المياه إلى مجاريها. لكنه لم يكن مستعداً لذلك. ربما لم يفكر في ذلك أصلاً. صمته كان يعذبني وبُعْدُه لم يكن ملائماً لي ولا له، بالخصوص في المائة متر الأخيرة.

عاد صوته المنكسر مرة أخرى. اعتذر بجملة تعودت على سماعها حتى أصبحت أستثقلها كثيراً:

- يعز علي شجنك. تغضبين مني على شيء لا يستحق الذكر. الأمر ليس مهماً حقيقة ولا يستحق كل هذا الألم. نساء الفيسبوك مثل رجاله، افتراضيون يا

حبيبتي. علامات وألوان لا أكثر، باستثناء الصداقات المتينة وهي قليلة. ماذا تعرف عن عشرين أو ثلاثين ألف شخص يسكنون موقعك؟ أخطأتِ عندما افترضتِ كل شيء حقيقة. لا حقيقة لي يا قلبي إلا أنت في كل نبلك وبهائك.

- أنا منهم حبيبي أيضاً. من نساء الفيسبوك. أنا أيضاً بنت مملكة مارك زوكيربيرغ الزرقاء. أشبههن في كل شيء. أحمل ألوانهن وانتظاراتهن وخيباتهن وأوهامهن؟
- لا أنتِ شيء آخر.
- ما الذي يجعلني شيئاً آخر؟ وما معنى الشيء الآخر أصلاً؟ أنا ابنة الصدفة التي قادتني نحوك بشهية الجائع إلى رجل في قلبه طيبة، وحواسه غير ميتة تجاه الناس، ونبله غير ملوث في عالم مخيف. واليوم أسمع اللغة نفسها.
- ياما حبيبتي تبالغين. افتحي قلبك قليلاً للتهوية وإلا سينتهي بك الوضع إلى كرهي. حقيقة لم أفعل ما يؤذيك. هذا عالمي، وهذه علاقاتي الطيبة التي لا امتداد لها في الحياة العامة.



- ألم تقل لك أية امرأة أني كدت أرتكب جريمة بسببك؟
- لم أفهم جيداً.
- ألم يتصل بك أحد ويقول لك إني ذهبت نحوه لقتله لأنه في لحظة من اللحظات كان يريد سرقتك مني؟ لتدرك فقط أي جنون وضعتني فيه!
- أبداً. يا قلبي. ثم إن علاقاتي الحياتية هنا في إشبيلية وغرناطة تكاد تكون مقطوعة.

أدركت للتو أنه من الأفضل عدم فتح موضوع ابنة أخته التي كدت أخنقها. لأن ذلك سيزيد من الخيبة. وما دامت هي لم تقل له شيئا لكي لا تسمّم الوضع وهو يستعد للعودة، كان عليَ أن أكون بالذكاء نفسه والكبرياء نفسها. هو أيضاً لم يكلف نفسه عناء البحث أكثر في الشخصية، ربما من الإحساس نفسه.

- أنا على حافة رجوع خطير إلى وطني بعد أن حسبت كل شيء. فلا تبعديني عنك. ما الذي يعيدني إلى أرض جافّة مثل قصبة الوديان إلاك؟ حقيقة أنت من يقودني نحو هذا الجنون.
- لا تخف حبيبي. البلاد مريضة، ولكن ليس للحد الذي يجعلنا نلتفت في كل زاوية. الكثيرون عادوا ودخلوا في نسيجها من جديد. هناك وئام عام قد يكون

الصمت الذي يسبق العاصفة المدمرة، ولكن لا تخف.
أعرف إحساس الشخص البعيد. هو نفسه في أي منفى
من المنافي الطوعية أو القسرية. والدي أيضاً كان
هكذا. لكن، بشكل مقلوب. عندما كان الناس يغادرون
بسبب الموت اليومي، عاد هو مع مخبره الطبي
للأدوية بريستول- مبير- سكيب، الذي بدأ يفلس،
وقال لهم أنا سأستمر هناك في العمل. قالوا اذهب
إلى باريس لنا مخابرنا هناك! لكنه رفض، بعد أن
تلقى عرضاً من مخابر صيدال التي بقي فيها حتى
انهيارها. أبي لم يكن سياسياً، ولكنه ظل هنا يسهم
في إنتاج الأدوية التي أنقذت الملايين في أرض قُطع
عنها كل شيء وهربت منها الحياة. حتى الشركات
الصديقة هربت وأخلت المكان للقتلة. لا أدري إذا
كان قاتله يدرك ماذا فعل في رجل لم يكن يحمل
حقداً لأحد. وربما كانت هذه العزلة سبباً كافياً لقتله.
لتستمر، عليك أن تحمل حقداً لجهة من الجهات. وكأن
البشرية حصرت نفسها في مسلك واحد هو الحقد.

لم يرد علي كما تعود أن يفعل في الفيسبوك، ولكني سمعت
تصفيقاً بكفّين من وراء السماعة، ثم كلمتَه التي يكتبها في

كل مرة عندما يعجب بشيء مني أو من غيري.

- برافووووووووو.
- على أيه حبيبي؟ قلت لك ما في قلبي.
- ولهذا قلت برافو، لأن كل كلمة قلتها كانت صادقة. ولكن وضعيتي أكثر تعقيداً. أنا اصطففت ضدّ قتلة العقل والنور وهم مالكو النار والموت. على كل اتخذت القرار وانتهى الأمر. سأعود. لا يمكنني أن أتراجع، فقد اتفقت على عرضي المسرحي لعنة غرناطة مع وزارة الثقافة والسياحة، إضافة إلى تكريمي. لا أريد أن أخذل الوزارة.
- معك حق. وأنا حبيبي، هل لي مكان في ذلك كله؟
- أنتِ رهاني الأكبر في هذه العودة. أقول لك وأنا على يقين كلي إنه لولا وجودك، لكنت تراجعت عن قراري الذي اتخذته. مع الخيبات الإدارية كنت قد اتخذت قراراً نهائياً وبقيت هنا.

لا أدري. كنت أشعرني مشتتة وسعيدة أيضاً. غير قادرة على لملمة شتاتي. لم يعد بعيداً. جاءتني جملته الحزينة التي كثيراً ما تريكني. جملته التي لا أدري من أين كان ينحتها:

- سأعود. ولا شيء في قلبي في نهايات هذا الخريف الحزين سوى أن أراك، وأقبّل يدك وأقول لك عذراً على

كل هذا الزمن من الغياب، ثم أواصل تيهي.

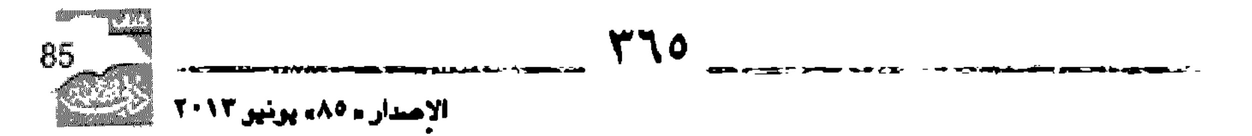
نسيت كل شيء بومضة هارية. كدت أصرخ. حبيبي أنا تيهك الأكبر. أنت فيَّ. ابق لا تذهب. لكني تماسكت بقوة. فصمتُ. وصمتَ هو أيضاً بعد كلمة صغيرة ويتيمة: باااااي عمري.

الغريب أني شعرت كأن شيئاً ما فيّ قد تغير نهائياً. لم أحس بالقوة الدافعة التي كانت تنتابني كلما رأيت اسمه يلمع أمامي في تشات. يبدو لي أني أنا أيضاً أصبحت باردة، أو أن قلبي تخلّى عن معظم مساحاته لعقلي وأن طفولتي انسحبت لحساب الشابة التي ترفض أن تُسرق منها حياتها.

لم يكن هناك ما يمنعني من أن أذهب بعيداً في ألواني.

بت الليلة بكاملها وأنا أرسم بلا خطوط مستقيمة، وأخط الألوان التي لا أدري هل كانت حزينة أم لا. انتابتني رغبة كبيرة لتدمير البياض الذي يحيطني إذ رأيت بيتي مثل الكفن. كرهت البياض. فقد اشتريت طلاء الحيطان والخشب، لأن الألوان الزيتية لم تدخل البلد منذ أكثر من عشر سنوات، أي منذ بدء الحرب الصامتة. وبدأت ألوّن لوحاتي بها.

رسمت لوحة كبيرة كانت مليئة بالتدرجات التي لا حصر



لها، مثل المنمنمات. كانت بلا شكل واضح. اكتشفت حينما ابتعدت قليلاً أني رسمت فراشة وهي تفتح جناحين واسعين عن آخرهما، مظهرة شلالاً من الألوان التي لم أكن قادرة على تحمل تفاصيلها. لا أدري كيف جاءت مني؟ اكتشفت موهبتي متأخرة وتذكرت أني عندما كنت صغيرة، كنت أرسم وجه حنّا فاطنة وجدي وابن عمي وخالتي. فقد وجدت بينهم شبهاً وحيداً لم أعرفه إلا عندما كبرت. عيونهم كانت كلها لوزية الشكل والاستدارة، لا تستقر على لون واحد. وأرسم الفراشات التي كانت تهرب مني، وعندما أصر عليها، تموت بين يدي. ألوانها كانت تسحرني. كانت في البداية تبدو متشابهة جداً، لكني مع مضيّ الوقت، اكتشفت بسرعة اختلافاتها. كنت عندما أفرش أجنحتها على الورق الأبيض أو الأسود بحسب غلبة ألوانها، أكتشف كل التدرجات التي لا تشبه بعضها بعضاً. كنتُ أحسن من يفهم كلمات ديف عندما نتحدث عن النساء والرجال والفراشات: ليست كل الفراشات متشابهات ولا كل النساء. تأملي التفاصيل في هذه الحالة ولا تكتفي بالعموميات. العموميات خادعة بقوة. كان ديف محقاً. كلما توغلتُ في عمق ألوان الفراشات، أدركت بسهولة أنها لم تتلق غبار الألوان نفسه. لم تتعرض للقدر من النور

ـذي يثبِّت أشكالها نهائياً كالصور المختومة. ولم تلمسها الأشعة نفسها والنسائم الفجرية نفسها والأمطار الربيعية الناعمة نفسها. كنت كلما انتهيت من تأملها وتفرس ألوانها ورسوماتها الأنيقة، ودوائرها التي لا تنتهي، أسكنها في عمق كراستي الطفولية التي أدركت عندما كبرت قليلاً، أنها لم تكن أكثر من مقبرة صغيرة للفراشات، إذ كانت تسرق أهم شيء في الكائن الهش: حياته. الذنب ذنب المعلمة. هي من علّمنا طريقة صلب الفراشات الكثيرة بالدبابيس على مختلف المساحات بعد فتحها ليسهل تأملها ورؤيتها عن قرب ودراستها. عندما ننتهي من عملنا، ندفنها في الكراسة ذات الورق الأبيض. ذات صباح، قمت بحرق الكراسة بما فيها وحاولت أن أنسى جريمتي الطفولية نهائياً. أصبحت بعدها، كلما اشتقت للفراشات، أذهب نحو الحقول. أتأملها وهي تطير وتتلامس بأجنحتها بفرح وبكل حرية. تلك كانت مساحات مدينتها الخضراء وحياتها. ولم يكن لي أي حق في سرقة أي شيء منها.

كانت الفراشات الأنيقة هشة تماماً مثل ألوانها وحريتها. أشعر دائماً كلما رأيتها عن قرب، أن بي شيئاً غامضاً منها، لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه.

-٢-

يعود كل شيء في داخلي بعمق شديد، هادراً كالموجة الهاربة. هاربة من فراغ كانت تتجه إليه في النهاية. أعرف الآن لماذا يحدث معنا أن نركض باتجاه عكسي. وكلما حوّلنا المسارات باتجاه المسالك الصحيحة، وجدنا أنفسنا في خضم ما لم نعرفه ولم نتوقعه من قبل. لا نصنع أقدارنا كما نشتهي، ولكن الحياة ترتّب كل شيء في سرية تامة، ثم في لحظة شبيهة بالجنون، ترمي بنا في خضمه، ثم تجلس على أعلى تلّة، وتتأمل تخبّطنا اليائس، بشكل يكاد يكون شبه مرضي.

هل هي الصدفة العجيبة، أم مسارات الأقدار هي من خطط لذلك؟

لكلّ شيء مرة أولى. ومرّتي الأولى كانت مجرد تسلية غير مأمونة المخاطر والمزالق. بدأت بمزحة سيدي ومولاتي وانتهت بحب صعُبتْ عليَّ مقاومته.

كنت يومها أستمع إلى موسيقا الجاز وأتسلى في تشات مع بعض صديقاتي عندما لمع اسمه؟ شيء لم أفهمه. هل كانت الصدفة الحارقة هي التي رمتنا في المسالك نفسها، كما يسميها كبار الفلاسفة؟ الصدفة التي لا سلطان لنا عليها

أبـداً. أم أن الأمـر أكبر من ذلك كله. لمعت الزرقة والألـون الكثيرة وعرس من الوجوه. هذه المملكة التي بلـغ عدد سكانـها اليوم المليار إنسان، خطيرة ومدهشة. لم أقرأ يومها فقط ما كتبه لي، ولكني سمعت كلمة: مرحباً. كيفك؟ أريد أن نكون أصدقـاء. صفحتك مميزة. ضحكت وكدت أقول لـه: مـاذا يوجد من مميز في صفحة صيدلانية؟ فرمـاسيانة لا عمل لـهـا إلا تسجيل الأدويـة للمرضى، ولا عطر لـهـا إلا رائحة الأدويـة؟ لكنني لم أفعل. ركضتُ نحو صفحته لأستفسر بعض أسرارهـا. لم أقاوم غواياتها أنا العاشقة للقراءة. وجدت كل ما يروق لي. الألـوان. اللوحات العالمية. الكتب التي قرأها، وقرأتها أيضاً. وكتاباته المسرحية الكثيرة، ومقطوعات يوتوب عن مسرحياته وموسيقاه التي يحبها. كانت صفحة كبيرة الدهشة وغنيـة.

لم أفكر طويلاً. كتبت كلمة سريعة:

– سعيدة بصداقتك.

- وأنـا أسعد.
- كل الشكر سيدي.
- لا أحبّ كلمة سيدي.
- كنت أعرف. شممت ذلك. قرأت الكلام نفسه في إحدى

مسرحياتك... لنا كل الموت لننام.

- بالضبط يا مولاتي هههه.
- لا أحب هذه الكلمة تحديداً. تبدو لي مفتعلة وثقيلة.
- تعادل تام. واحد لواحد هههههههههههههههههه.
- ههههههههههههههههههههههههههههههههههه."

ثم انطفأ.

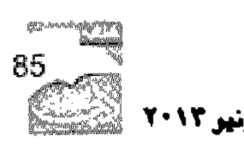
فوجئت من شيئين، جمال الصفحة، وتعليقاته اللطيفة والرقيقة. استغربت العدد المهول من الأصدقاء، ١٥ ألف صديق، و١٠٠ ألف زائر للصفحة. لكنّي في النهاية تفهمت الأمر، فهو شخصية عمومية. كنت أرى الوجوه التي دخلت في صداقته وهي تتراقص أمام عيني. أكثرية نسائية. كلهن كن جميلات. بعضهن كن يستعرن وجوهاً غير حقيقية. من الممثلة الهندية إيشي ياورا حتى الفرنسية الإيطالية مونيكا بلوتشي، مروراً بعارضات الأزياء المعروفات والمغنّيات العالميات، وحتى الوجوه الرياضية.

سعدت بصداقته، وأصبحت أتابع صفحته من بعيد، دون أن أزعجه. أقرأ من حين لآخر تعليقاته فأضع "لايك" جميل وأمضي. في يوم ما، أعتقد أنه كان يوم أحد، وجدت في بريدي الفيسبوكي الخاص هذه الرسالة: الأصدقاء يجب أن

لا يغيبوا نهائياً في مشاغل الحياة. مثل النسمة الفجرية يجب، أن تظل لكي نستمر في الحياة ونشعر أن ما يحيط بنا يستحق أن يُعاش. قلت، وأنا أشعر بكل كلمة كان فادي يقولها: الموت وحده من يغيب الأشياء والوجوه. أنت صديق ومكانك القلب. ردّ في اللحظة نفسها وكأنه التقط كلماتي في الهواء: أنت صديقة قريبة إلى القلب. وكأنك الحواس كلها يا غالية. تساءلت بغرابة. كيف أصبحتُ غالية في قاموسه وهو لا يعرفني، ولا يعرف حتى حائطي، أو على الأقل هكذا افترضت. لكنه واصل تعليقه، فوضعني وجهاً لوجه أمام جهلي: حزنت لوفاة والدك الطيّب، عمي زبير، الله يرحمه. خسارة كبيرة. إنها الحروب السرية التي يخلقها الكبار ويدفع البسطاء ثمنها الباهظ، أيتها الحبيبة الغالية.

مرة أخرى أفاجأ بأن لغته لم تكن عادية. الحبيبة الغالية؟ ولكنها كانت تأتي منه ببراءة ودفء كبيرين. من الصعب رفضها ومقاومتها. فوجدتني أرد عليه بلغته نفسها. أيها الحبيب الغالي لا أنام بسهولة دون أن أنهي قراءتك. تعلمت من مسرحك الحي أنه لنا كل الموت لننام، لهذا فأنا غير منشغلة بالوقت.

ثم ندخل في سجال ليلي لا ينتهي عن الفن والحياة والمنفى



الذي اضطرّه لترك أرضه، لأنه لم يكن يريد أن يدخل لعبة القتلة. وكيف تحمل القسوة والبرد قبل أن يستقر في غرناطة، ثم في إشبيلية التي سحره عطرها وناسها. قبل أن يجد مكانه في مسارحها، ويصبح شخصية في غاية الأهمية.

في الحقيقة أبدو جريئة، ولكني يوم استعملت كلمة حبيبي لم أنتبه لها جيداً، فقد كانت معبراً نحو جهنم. كانت كل يوم تكبر قليلاً. كنت داخل مداراته ودوخته. لكني بعدها خجلت لأني شعرت بأني كنت داخل لعبة لست أدري إذا ما كنت قادرة عليها. لكنه كان يحتضن كل كلماتي الهاربة بالعنفوان الذي يليق بها.

يوم فقدتُ أبي، خسرت بغيابه أشياء كثيرة كانت تملأني. وجدت بعض حلّي في النوم الكثير. أنام فقط لأتحمل جرحي وخوفي من شيء كان يملأني سواداً وذعراً. شيء من حبي لأبي انتقل نحو فاوست، بشكل أعنف لم أكن قادرة على لجمه. أدمنتُ على كل كتبه وصفحاته العديدة وكل ما كان يخصُّه، قبل أن أدمنه هو أيضاً في عزلتي وخوفي على أمّي.

أغلقت صيدليتي قبل حرقها وعدت أستمتع بكتبي. أبي هو من وجهني نحو هذا الاختصاص. قال: الصيدلة رهان دراسي جميل. ستحبِّين هذا التخصص لأنه كله خير وخدمة للناس.

على رأس أصابعك تولد الحياة، ويوجد الموت أيضاً. كان بابا زوربا يريدني أن أعوضه في مخبره الصغير والخاص، لكن الموت لم يمهله، ثم تيهي بين ديبو- جاز والصيدلية عقّد كل خياراتي. ومع ذلك، لم يعارضني والدي في أي شيء. كان يجد في تشتتي بين الجاز والصيدلية تكاملاً حقيقياً من حيث الجانب الإنساني. بينما كانت فيرجي تريدني أن أصبح صيدلانية فقط، وأن أترك الجاز، فهو سبب المخاطر خصوصاً بعد مقتل ديف الذي لم يحمه قلبه الطيب وتسامحه من الاغتيال. لكن فيرجي اضطرت إلى أن تأمرني بغلق الصيدلية يوم جاءنا حرس المعابر أو من يشبههم، وأخذوا دواء كثيراً. وفي الليلة التالية جاءنا ملثّمون أيضاً. كانوا حرس المعبر الخامس الرسميين. ويّخونا على خيانتنا التي لم أفهمها، وأمرونا بعدم بيع الأدوية للقتلة. لم نكن نعرف بالضبط من هم القتلة ومن هم الرسميون، إذ كانوا يرتدون الألبسة نفسها. ولكننا كنا نعرف جيداً المقتولين والمعرّضين لذلك. أمرتني أمي بأن أغلق كل شيء. قالت: لسنا في حاجة لأي شيء. ما نملكه يكفينا للعيش الجيد. حتى بعد الغلق لم نسلم من المضايقات. جاءنا طرف آخر يسألنا عن أسباب الغلق. والدي لم يكن موجوداً يومها. كان في مهمة مع مخابر صيدال. قالت



أمي إن الدواء لم يعد يمر من الميناء، وإن استيراده أصبح صعباً بعد العجز المالي الذي سجلته ميزانية الدولة. فخرجوا ولم يعودوا. في الليل جاء من يخبرنا بأن ألسنة النار كانت تلتهم صيدليتنا. لم أشعر يومها بحزن كبير لأنَّ الصيدلية كانت معطلة أصلاً في غياب الأدوية.

كنت سعيدة بكلماته وكتبه. كنت ألقاه كل ليلة دون الاضطرار لقطع الحواجز والمعابر الخطيرة. كنت أشتري خبزاً كافياً ومواد غذائية كثيرة من الدكان التي تحت حتى لا أضطر للخروج. كيس من الدقيق موضوع في زاوية المطبخ للحالات الاضطرارية. إذا غاب الخباز بإمكاني أن أعجن. علمتني أمّي منذ بدء الحرب الأهلية كيف أتفادى السقوط في اليأس أو الوقوف زمناً طويلاً أمام الخباز الوحيد في الجهة الشمالية من المدينة. جاءتها الفكرة منذ أن وضعت سيارة مفخخة بجانب المخبز الذي يرتاده الناس بعد صلاة الفجر، قبل سنوات، وقتلت أكثر من خمسين شخصاً. جربت العديد من المرات، فكان خبزاً جميلاً ولكن أمي لم تحسب حساباً آخر هو أن الدقيق لم يفدنا في شيء يوم فجر أنبوب الغاز الواصل للبيوت ومحطة الكهرباء. ظللت أنظر للدقيق وأتأمل السماء أن تنزل بعض النور على المدينة، حتى صُلِّح العطب بعد أسبوعين. كلما تذكرت تلك الأيام ينتابني خوف غريب من

الهشاشة. كل شيء مرتبك في هذه البلاد ويمكن أن يسقط نهائياً في أية لحظة من اللحظات. صحيح أن اليوم لم يبق الشيء الكثير من تلك الحرب المجنونة، إلا بعض جنونها، لكن تصليح الداخل يحتاج إلى زمن كاف وإلى أجيال تمسح كل الخراب الذي تسببت فيه سواء كانت ضحية منتقمة، أم جلادة قاتلة. في الحروب الأهلية باستثناء اللحظة الأولى، يتحول الكل إلى مجرمين مستعدّين للقتل، إذ تستيقظ فجأة الحواس البدائية النائمة في جميع الناس بلا استثناء. ويأتي الدين والأيديولوجيات الكئيبة لتزين الموت وتغلفه بكل ما يجعل بريقه مغرياً.

أصبحت مسافاتي محدودة ومسالكي واضحة. الجامعة. ديبو- جاز والبيت. كنت سعيدة أنّ الكهرباء لم تنقطع لمدّة طويلة طوال أيام الحرب الأهلية. هي من كان يمنحني فرصة التخفي في جنتي الزرقاء والكتب، وكان يسمح لأمي بأن تقضي أوقاتاً طويلة في القراءة، بالخصوص بعد تقاعدها المبكر من المدرسة الفرنسية ألكسندر دوما التي درست فيها زمناً طويلاً.

عندما التقيت بفاوست، كنت كمن التصق بقشة كان في حاجة كبيرة إليها لتفادي الطوفان الجارف.

لم أنغمس فيه فقط، ولكني غرقت أيضاً في ألوانه.



- خذني إليك. دعني أعرفك بقلبي وبكلّ حواسي. امنحني قلبك وسأركض نحوك إلى إسبانيا. دعني أعرف عطرك وبيتك، لأحبك كل يوم أكثر.

- لم يحن الوقت بعد حبيبتي. لا أريد أن أجرك نحو مغامرة قاسية وغير مأمونة. وضعيتي معقدة ومهدد في أية لحظة بالتصفية الجسدية. أشتهيك هناك بسلام على الرغم من الصعوبات، على أن تكوني هنا في راحة إشبيلية أو غرناطة ولكن، بإحساس يومي بالموت.

- توحشتك عمري.

- وأنا أكثر. نحن في عز الحب. في ألق الجنون الذي وصل بنا حد الالتصاق جسدياً. ألم نمارس الجنس في المرة الماضية باللغة فقط؟ وبأكثر الأشكال جنوناً وتفنّناً؟ ألم تقولي لي إنك شعرتِ بلذة عالية وجميلة. كانت لحظة لذيذة ومليئة بالنعومة. بعدها نمنا كل واحد في زاويته قريري العيون.

- لكني أريد فقط أن ألمسك. أن أقنع نفسي بأنك موجود حقيقة ولستَ وَهْماً.

- مسافر دائماً ولا أركن إلا قليلاً.

- أتابعك خطوة خطوة. أقرأ كل نصوصك ومحاضراتك

التي تعلّقها على حائطك. أستمتع بقوتها وجمالها ورصانتها العلمية. كثيراً ما هزمتني بإنسانيتها وقوتها.

ثم ينطفئ النور الأخضر فجأة ولا أراه. يتخفى وكأنه لم يكن. تلك عادته عندما يتعب. لا يستأذن. أحياناً كنت أراه يكتب حتى عندما ينسحب. يردّ على صحفيين كما يقول لي بعد كل ملاحظة. أو حتى على بعض التعليقات التي أراها ترتسم على حائطه الواحدة تلو الأخرى. تنتابني بعض الغيرة، لكني ابتلعها بسرعة لأني أعرف أنّ عمله يفرض عليه ذلك. كنت على يقين ولو وهمي، أني كنتُ حبيبته الوحيدة.
مسرحيته لنا كل الموت لننام لم تكن إلا عتبتي الأولى نحو رياح عاصفة كانت ترميني أحياناً في بحيرات النور، وتغرقني في شلالاتها الناعمة، وفي أحيان أخرى تتحول إلى كتلة تشبه الغصة، تسد حلقي المجروح لدرجة منعي من التنفس. أتذكر إحساس لينين بالذعر والاختناق عندما انتهى من قراءة قصة تشيكوف قاعة ٦ : لقد أصبت بالاختناق والرعب وأنا أقرأ قصتك.

تلك كانت خطواتي الأولى نحو تيه كبير لم أكن مهيأة له أبداً.

-٣-

ها هي الغيمة التي تلفني من حين لآخر قد عادت. منذ وفاة أمّي لم أرها.

لم تأت وحدها، ولكنها كانت مصحوبة ببحر بلون أزرق يميل بقوة نحو خضرة هاربة.

كم البحر فيَّ وكنتُ كأني مخلوقة من مائه وملحه وظلمته المبهمة.

أشتهي عندما تهب الرياح وأنا على حوافه، أن أغمض عيني وأطير. أحلّق حيث لاحدود لهبلي وجنوني. أطير. أخترق الغيوم الثقيلة التي يخافها الطيارون كثيراً، حتى أصل إلى حالة الهدأة الكبيرة حيث كل شيء يسير من تلقاء نفسه. لا مكان فيه للجاذبية المقلقة. أغمض عيني أكثر وأتركني أنزلق في فضاءات ناعمة، عائمة في ملايين الألوان، لا أرى شيئاً فيها إلا البرتقالة الزرقاء من تحتي وهي تدور بهدوء حتى ولو كان خادعاً، إذ لا أحد يعلم متى تتشظّى الجمرة المتقدة في داخلها! من حين لآخر تبدو لي كأنها متوقفة نهائياً استعداداً للانفجار الكبير، لكنها سرعان ما تدور، لأن الزّرقة التي أراها ثابتة من الأعالي تتغير والأشكال أيضاً لا تستقر على حالة واحدة.

سألت أمي كثيراً عن هذه الغيمة التي تلفني في أحلامي، إذ أراهـا في كل مرة بيضاء مثل حليب الأبقار التي أحب عيونها الواسعة، وربما مثل الكفن المصنوع من الحرير. تلفّني وتعصرني حتى تكاد تخنقني لولا طائر النورس الذي يتدخل في آخر لحظة وهو يدوّر عينيه الصغيرتين مثل عيني عاشق فقد القدرة على الكلام. هههههه أضحك لهذه الصورة إذ يخترقني وجه جارنا شارلي، بشير، الذي كان يريد أن يتزوجني ليسترني من القيل والقال، وهو يتأتئ بحثاً عن كلماته. لكني لم أحصل من أمي على إجابة مقنعة. في كل مرة تأتيني بفرويد في تفسير الأحلام وتحاول أن تجد جواباً يقنعني أو يسكتني، لا أعلم، لأنها كانت تشرح لي دون أن ترفع رأسها عن رواية بوريس فيان التي كانت تعيد قراءتها: زبد الأيام وكأني كلما سألتها أجابت بسرعة لتعود للحظتها التي سرقتها منها، ثم تقول لي بشكل شبه آلي: اقرأي فرويد، فيه إجابة عن انشغالك، لقد توغل في النفس الإنسانية وحللها ولم يترك زاوية واحدة بلا تحليل. أجيبها بلا تفكير وأنا على يقين مما أقوله : قرأته يا أمي، ولا أدري إذا ما كان يفيدني! فتصمت. وتظل غيمتي البيضاء القاسية معلقة على رأسي.

أحياناً أكره فرويد وأشكك في شهرته وعبقريته وعلمه وفتوحاته. يبدو لي رجلاً مجنوناً لم يعبر عن شيء سوى عن

قلقه وقلق عصره. فهو يبتذل الحلم الجميل أو القلق في سلسلة من المعادلات الفارغة. وتتحول أجمل ليلة استثنائية إلى مجرد تفريغ لشيء مبطن، أو لطفولة آتية من بعيد. لا أتصور أن تحليله ينطبق عليَّ على الأقل. فقد كنت عندما أرى فاوست في الحلم، ألتبس به وأعشقه حقيقة وأحبه. أقضي الليلة بكاملها في حضنه، أمص شفتيه الرقيقتين كشفتي مراهقة. أجد متعة في ذلك، وأعضه حتى أوجعه قليلاً لأستثيره أكثر، ثم يغرقني في جنون لا أستطيع وصفه لأننا نرتكب فيه كل الحماقات التي وضعوا بيننا وبينها سداً منيعاً من الكذب والرياء. حتى تلك التي يراها سدنة الحلال والحرام غير جائزة، لأنها تستفز حيرة المقتولين في عنفوانهم وأشواقهم إذا كان لهم طبعاً شيء اسمه العنفوان والشوق. وفي الصباح أجد رضوضاً زرقاء وخضراء في كل جسدي، حتى الأمكنة الأكثر حميمية لا تسلم من ذلك. طبعاً ليست ملائكة سيرين أم الخير هي من يفعل ذلك فيَّ، وإلا لهان الأمر. أبقى مدة طويلة في الفراش أتأمل جسدي المنهك وأطرافي المرتخية، مما يجعلني أتلذذ بعينين مفتوحتين: لا يمكن أن يكون ذلك كله مجرد حالات تفريغ وإلاَّ لن يساوي خيال الإنسان الشيء الكثير، فهو في هذه الحالة لا يولد إلا ليراكم سلسلة من الأمراض والإحباطات

التي تستفحل معه مع الزمن وتأخذه في طريقها. الإنسان أكثر من ذلك.

هكذا كنتُ أواجه فيرجي كلما أرشدتني إلى فرويد.

الحلم كان دائماً منقذي أعيش به عندما تنغلق في وجهي كل الأبواب القاسية. أحاول أحياناً أن أطيل في عمر الحلم وأقصّر من الكوابيس في لحظة غفوة تقع ما بين النوم واليقظة، ولكن الأمر لا يخضع دائماً لإرادتي ولمزاجي. أنجح قليلاً، وأخفق في أغلب الحالات.

يمكنني أن أفسّر سطوة حلم فاوست عليّ بحبي له. انتظاره المتمادي والذي أصبح يؤلمني. قسوة رعشات نظراته التي تضيع في كل الاتجاهات ولا تركز عليّ. ربما رؤيتي له على الشاشة هي التي قادتني نحوه لأتجلّى به وفيه، في الحلم، دون موانع ولا خوف. رأيته وهو يتكلم عن مسرحيته الأخيرة : لعنة غرناطة. كان يومها أنيقاً وجميلاً، حتى في لباسه العادي. لكن صوته ظهر لي هذه المرة أكثر نقاوة وجمالاً من التليفون الذي بدا لي فيه منكسراً. سألتْه الصحفية الغبية التي كانت تحاوره: ما الذي يغيّرك في الحياة؟ أحياناً نراك في لباس سبور، وفي أحيان أخرى نراك في طاقم رسمي؟ هل أنت مزدوج الشخصية؟ يجيبها بابتسامته الدافئة التي تنطفئ

دائماً عند الطرف الأيسر من فمه: ظننتك تسألينني عن عملي الأخير؟ ما عليهش. لا ألبس إلا ما يقبله جسدي في اللحظة نفسها. جسدي هو رهاني وسلطاني وهو من يأمرني. لا ألبسه ما لا يريده أبداً. وعندما أفعل ذلك على مضض يشعرني بقلقه ورفضه. آلان ديلون يقول في هذا السياق كلاماً جميلاً: بهذا الوجه الجميل وهذا الحظ، إذا لم أنجح في السينما فأنا غبي جداً. الجمال ليس في الجدة ولكن في الانسجام والإحساس بالسلام والراحة الداخليين.

تأملته طويلاً وهو يتحدث. حفظت لغته كلها. لبستها. شربتها. أكلتها. مضغتها كما أشتهي، وكما يفرض المقام عليَّ. لا شيء منه يهرب مني وأنا أراه على الشاشة. حركة شفتيه، يديه، عينيه، خزرته، غمزاته، غضبه من الصحفية الذي دفنه وسط ابتسامة لا تشبهه مطلقاً. حركة أصابعه عندما تكون عادية، أو عندما تبعث بإشارات الساحر المستعد للغواية. أتتبعها وأنسى كلامه.

لهذا كلما قرأت فرويد ضحكت في أعماقي من هبله ومن أوهام فيرجي. المشكلة أن الذرات التي تعبر الدم في حالة الإصابة برجل، لم يصلها فرويد على الرغم من توغله في الحواس، ربما لأنه بالضبط، رجل. لو كان فرويد امرأة لتغير

كل شيء، ولكانت الحالة والتحاليل مخالفة. لا أدري كيف غرقت في دوار فاوست؟ هل كنت أريد أن أقلد أمي وأدخل في أحاسيسها؟ هي كانت مرتاحة. كانت تستحضر بوريس مثلما تشاء، ومرتاحة ومتصالحة مع نفسها. خياناته لم تكن تشغلها ما دامت هي امرأته الأولى والأخيرة. أما أنا فقد اخترت رجلاً حياً. ساحراً في كل كلمة يقولها. مهبول وعاشق للحياة بكل قسوتها ولو أن خوفي من اندلاع حرب أهلية جديدة أكثر تدميراً من الأولى، في أية لحظة، يساورني كل يوم قليلاً. لكن ألم تكن أمي محقة عندما نصحتني بالابتعاد عن وهم فاوست.

" - أنتِ أسوأ مني ياما حبيبتي. تحبين صورة. مجرد صورة لا طعم لها ولا عطر.

- أحب رجلاً بطوله وعرضه يا يمّا.
- لا طول ولا عرض له. صورة ملصقة في ذهنك، وأنت من يعطيها كل أبعادها. مجرد وَهْم.
- لكنه موجود يا يمًا. فاوست إنسان حقيقي وليس ابن الفيسبوك والوهم.
- في رأسك. اليقين الوحيد هو أنه رجل الغياب لا أكثر. ظل. لون. ولا شيء آخر. «

بيني وبين نفسي أعطيها حقاً. حقيقة كان فاوست رجل الغياب لا أكثر.

لمسة الصدفة هي التي لاقتني به. كنت منكسرة من فقدان ديف الذي فضّل صداقتي على حبي. تركني، واختار جنونه قبل مقتله في ظروف غامضة. في ذهني تشتعل كل أسئلتي المعلقة. ربما كنتُ خفيفة العقل والرجال لا يحتملون العفوية التي كثيراً ما تضعهم أمام عقلهم الجامد؟ أو ربما كنت مثقفة أكثر من اللازم وغارقة في كل الأوقات في القراءة؟ لا أعرف أي حديث جادّ إلا عن البطلات والشخصيات حتى أني خلقت في رأسي عالماً تموت فيه الأزمنة والأمكنة. لم أجد أية صعوبة في أن أجعل شهريار يلتقي مع دون كيشوت ويتلاسنان كثيراً لولا تدخل سانشو دي بانسا الذي أنّب كثيراً سيده. شهرزاد وضعت في طريقها كارمن وجلعتهما في نوبة غضب، تستلان السكاكين قبل أن يفرق بينهما سقراط الذي قام من غفوته الطويلة، وكان أكثر حكمة ونبلاً. وجعلت بوسدنشيف[٩٩] يتوقف طويلاً أمام المرآة قبل أن تحرقه نيران الغيرة من زوجته الجميلة وهي تعزف مع تروخاتشيفسكي[١٠٠]

(٩٩) Pozdnychev. Sonate à Kreutzer, Léon Totstoi.

(١٠٠) Troukhatchevski . Sonate à Kreutzer, Léon Totstoi.

مقطوعة سوناتة لكروتزر لبيتهوفن. رأيته يجلس ليلة كاملة مع شارل بوفاري ويتحاكيان عن الخيانات الزوجية بسخرية كبيرة ودون أية رغبة في الانتقام. بينما رأيت مدام بوفاري تهرب مع إزميرالدا وتختفي معها في كنيسة نوتردام فقط لكي تقضي يوماً كاملاً تسمع فيه حكايات كازيمودو. حتى أمكنة ناس دبلن غيّرتها بقوة ونزعت الشخصيات من تلك الأرض ورمتهم في مدننا الحزينة والقاسية، الرباط، تونس، صنعاء، بغداد، وهران، دمشق، تومبوكتو، الربدة، غدامس، وتركتهم يهيمون على وجوههم حيث لا نساء ولا جسور ولا شوارع غاصة بالناس. الوجوه مقابل الوجوه. الخوف مقابل الخوف. بلا لغة ولا إشارات مشتركة...

وجدتني فجأة أسوأ من أمي، محاطة بأشباح قلقة. في مرة من المرات كان ديف صريحاً معي إلى حد جرحي: ياما. الحياة ليست هذا وحده فقط. أنت مثالية جداً وهذا من حقك، أنا شيء آخر لا يصلح لك مطلقاً. أنت تصاحبين أشباحاً وليسوا بشراً. كارمن المجنونة، شهرزاد المريضة، دون كيخوت المعتوه، وفاوست غريب الأطوار الذي باع نفسه للشيطان. إيما بوفاري الغائبة عن هذه الدنيا، أنا كارينا التي لا تعرف ماذا تريد. وشياطين أبي العلاء المعري النشيطين. وحيوانات الجاحظ

غير الأليفة... لا أريد ذلك. أنا مخلوق بسيط ومحب للحياة. أريد امرأة بسيطة تحبني وأحبها دون وسائط. تسميني باسمي لا بأسماء الوهم. أنا لست شيئاً آخر إلا ابن هذه اللحظة. من يدريني بأني سأظل حياً عندما أفترق عنك الآن؟ أشتهي أن أشبع منك وتشبعين مني. هذا رهاني الوحيد، الباقي لست مهتماً له. لا أملك أية مثالية أعتز بها ولا أي تاريخ عائلي استثنائي. جدي رجل هاجر نحو هذه الأرض للحاجة المعاشية لا أكثر وهرباً من جنون القتل. ياما، الوضع الذي نعيشه، لا يناسبني. لا يناسبنا.

لم يعد يجمعنا إلاّ العمل في ديبو- جاز. وبعض اللحظات الهاربة. كان ديف طيباً وصريحاً مثل طفل. مع أني كنت مستعدة لتغيير سيرتي القلقة وأمنحه ما كان يريده من جسدي، إذ لا يمكن أن أحول جسدي أيضاً إلى حروف هاربة وباردة. كنت في حاجة لأن أعيشه وأشبعه، لكن شطط ديف الخفي كان أقوى. كنت أعرفه جيداً. هو أيضاً كانت له مآزقه العميقة التي يرمي عليها غطاء غليظاً لكي لا يراها أحد غيره. وكأن القدر كان يسمعه ويخط مصيره. لم يمنحه فرصة التراجع، فسحبه من هذه الدنيا بكاتم صوت، لأن كل سكان الحي يصرحون بأنهم لم يروا شيئاً أبداً، ولم يسمعوا أي صوت

جاف، ولا حتى صرخة ديف. رأوا فجأة رجلاً يسقط في محطة الباص. ظنوه داخ من شدة الانتظار قبل أن يلحظوا خطاً رقيقاً من الدم وقد ارتسم على وجهه.

من ذلك الكسر الذي خلف فجوة صغيرة وقلقة، دخل فاوست بعد سنوات عديدة. ليحتلني بزرقته، ولغته، وجنونه، وينسيني بسرعة خوفي وحزني. كنت أحس بأنه محاط ببحر واسع من الفرح واللذة. كان مشهوراً ويعرفه كل الناس. الصحافة الوطنية والعربية والعالمية تتحدث عنه كثيراً وعن منجزاته المسرحية. كل نصوصه التي كتبها لاقت رواجاً مهمّاً، وترجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة عالمية.

كان عالمي البهي الذي كنت، بالضبط، أبحث عنه ومستعدة للتخلي عن كل شيء مقابل ربحه. كان معركتي. ولا أدري من أين جاءتني فكرة تسميته فاوست في البداية. أعرف أن التسميات هي بعض جنوني، ولكن لا أعرف اللحظة بالضبط التي قادتني نحو ألفة الأسماء الغريبة هذه. في الحقيقة هو من سألني أول مرة عن مسرحية غوته.

"- هل قرأت شيئا لغوته؟ فاوست مثلاً؟

- طبعاً.

ولكي أريحه أكثر وأزيل حيرته، أضفت.

- مسرحية مهمة. مسكين فاوست[١٠١]. كان يريد، بحكم مهنته، أن يحصل على كل المعارف الإنسانية واختراق أسرار هذا العالم الوجودية. لكنه لم يستطع. كان على مشارف الانتحار عندما جاءه الشيطان ميفيستوفيليس[١٠٢] واقترح عليه ميثاقاً وهو أن يحقق له كل ما يريده ولكن في المقابل يشتري منه روحه. بعد تأمل عميق، قبل الدكتور فاوست شروط الشيطان. وهو من لاقاه بمارغريت أو غريتشن[١٠٣] بالألمانية. فيحبها بصدق وتحبه أيضاً. يطلب من مارغريت الطيبة والمؤمنة على العكس من فاوست، أن تفتح له باب غرفتها مساء، فتضع منوماً في حساء أمها حتى تتمكن من رؤية حبيبها براحتها. لكن المشكلة الدينية تؤرقها. فتطرح عليه السؤال القلق...

- Nun sag, wie hast du's mit" der Religion[١٠٤] ?

- برافو حبيبتي. نتحدث اللغة نفسها. أنا مأخوذ بهذه المسرحية.

---

(١٠١) Faust.

(١٠٢) Méphistophélès.

(١٠٣)Margarete ou Gretchen.

(١٠٤) قل لي، وماذا تفعل مع الدين؟ (باللغة الألمانية)

- وتموت الأم بسبب المنوم. ويلتقي أخو غريتشن فاوست ويبارزه، لغسل العار الذي أصاب العائلة، لكن فاوست يقتله بمساعدة الشيطان مفيستوفيليس، فيهرب بينما، تبقى غريتشن وحيدة مع وليدها الذي تقتله فيحكم عليها بالإعدام...

- ساحرة أنت حقيقة.

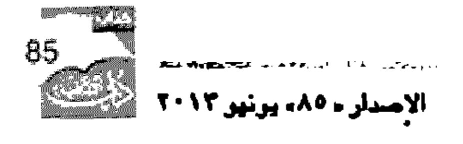
- das Ewig-Weibliche zieht uns „hinan[١٠٥]

- صحيح تماماً.

حتى تلك الفترة لم يكن فاوست يعني لي الشيء الكثير سوى كاتب وصديق قربتنا من بعض مملكة مارك زوكيربيرغ الزرقاء، وبالمصادفة، أعتقد.

صديقتي سيرين كانت يومياً تنصحني بالابتعاد عن مملكة الجني الأزرق ولكني كنت أضحك دائماً من سذاجتها على الرغم من طيبتها الكبيرة. صديقتي صافو أو كما سماها أهلها في السجل المدني: صفية، ورطتني فيه أكثر. صافو خرجت مع أهلها قبل شهر من بدء الموت. كانوا يعرفون ما سيأتي. كان

(١٠٥) الأنوثة الأبدية ترفع من مقامنا. هذه خلاصة فاوست الأخيرة.



صوتها جميلاً وتريد أن تستمر معنا في ديبو- جاز لكنها كانت مرعوبة مما كان يحدث في المدينة والجسور والمعابر. لم تمسسها الحرب الأهلية نهائياً ولا حتى الحرب الصامتة. هاجرت مع العائلة، ثم عادت إلى أرض الوطن عندما استتب الأمر قليلاً. وعندما عادت طلقات النار في الحواجز العسكرية والاختطافات، والاغتيالات الغريبة والمبهمة التي تُقيد دائماً ضد مجهول، رجعت إلى فرنسا قالت: هذه البلاد تحتاج إلى قرن لتدرك أن الحروب غير نافعة. الأهم من هذا كله أنها جاءتني بقرص مضغوط يشمل كامل أغانيها، وبأحد كتب فاوست التي كنت قد قرأتها: امرأة الظل. كنت سعيدة لنجاحاتها وصوتها الجميل. ولكني كنت مأخوذة بامرأة الظل يومها وكأني أكتشفها للمرة الأولى. ربما لأن بها عطر حبيبي. اندهشتُ من جمال الغلاف وبهائه. امرأة، شعرها يتماوج مشكلاً دائرة واسعة مثل الهالة، في حالة طيران ودوران، جزء منه كان يغطي وجهها. فجأة بدا لي كل شيء يشبهني. عندما قرأته لم أصدق أنه كان يحكي عن حرائقي. كنت مأخوذة به إلى الأقاصي. ربما لأنه كان يحكي عن أشياء عشتها ولا أزال. ركضت نحو صافو التي كانت تستعد للعودة إلى منفاهم مع عائلتها. لم يتحمل والدها عاماً آخر في هذه المدينة. لا أدري لماذا لم نفكر أبداً لا أنا ولا والدي ولا حتى أمي بمغادرة

المدينة وحواجزها ومعابرها المقلقة، ربما لكان مصيرنا التراجيدي قد تغير كلياً. ربما كانت صافو محقة في أغنيتها: لا يصيبنا إلا ما كتبناه لأنفسنا. أهمّ أغنية أثرت فيَّ.

سألت صافو يومها عن كتب فادي، فاوست الأخرى. قالت ضاحكة.

« – عندي في البيت. كل كتبه أضعها بين يديك. احذري فقط من أن تصابي به؟

– لا لن يمرّضني. محصنة ضد الأوهام.

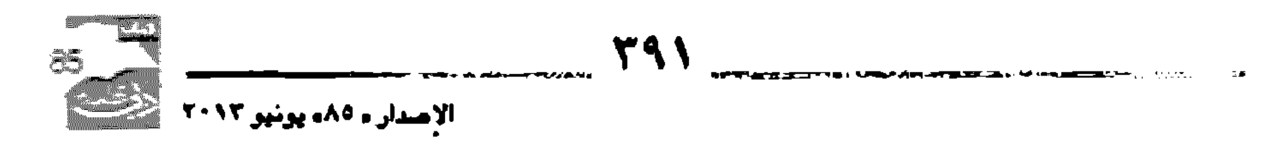
قلتها ضاحكة وأنا لست على يقين.

– الأدب متعة.

– ليس الفن متعة دوماً. كان نيتشه دائماً يقول عن فاغنر إنه مرض العصر، لأنه أهلك الذوق بجمالية المأساة. والفنان فادي في عمقها. لو وُجِد في العصر الإغريقي لكان تراجيدياً كبيراً.

– نيتشه كان حاقداً على فاغنر لأن بينهما امرأة كل واحد كان يريدها أن تكون له. لا أدري لماذا تزداد الأنانيات البشرية كلما تعلق الأمر بالحب، مع أنه السخاء الأعظم.

– وأنت تقرأينه، ألم تشعري بأنه كأنه يحكي عنك أنت بالذات، ويعريك. ويضع قلقك وخوفك بين أيدي قراء غرباء هو نفسه لا يعرفهم؟



- أحسست بذلك وأنا أقرأ امرأة الظل. يكتب بصدق كبير، والناس يقرأونه وأنا أيضا منهم، وأجد نفسي فيه بقوة. جمله الجميلة هي عتباته السحرية نحو القلوب التي تعشقه.

ضحكت صديقتي:

- هو أنيق في لغته. احذري فقط أن تصابي به.

- أجمل شيء يحدث لامرأة مثلي أن تصاب برجل يرحل بها كل ليلة نحو عالم لن تلمسه يوماً في الحياة العامة المليئة بالرماد والأدخنة القاسية. لولا الكتب، كنت انتحرت.لا يمكنك أن تحسّي بهذا، ولكننا في الحروب نحتاج أن نصاب بشخص جميل لنستمر في الحياة ونحس بأن الحياة تستحق أن تعاش.

- ماذا تفعلين مع نسائه الكثيرات؟ هههه

- لا شيء. هو مجرد صديق في النهاية ومن حقه أن يرى الحياة بالشكل الذي يروق له. هو ملك مشاع لكل الرجال والنساء. صحيح أحياناً أغار من نسائه وعالمه، لكنه سيد شأنه.

- مع ذلك. الأمر ليس بهذه البساطة. احذري. هو يمضي في حياته ونصوصه، وتبقين أنت رهينة عالم مستعار ومعلَّق، لكنه لن يكون لك أبداً.

رنّت الكلمة لحظتها بقوة، فقدت بعدها لثوان حاسة السمع

من شدة قسوة الكلمات الأخيرة: لكنه لن يكون لك أبداً. تذكرت كلام أمي التي لم تقتنع بوضعيتي. لكنها في النهاية يئست مني لأنها كانت أسوأ معلم لي. فلم أرد أن أقلق صديقتي بخرافاتي. لم أحك لها شيئاً عن حياة أمي. حتى عندما زارتني لكي آخذها إلى ديبو- جاز لترى الأصدقاء قبل عودتها، رأت اللوحات التي تملأ غرفة أمي، فسألتني عن الحالة الغريبة التي جعلت أمي تضع صورها مكان عشيقات بوريس فيان؟

- مستغربة. أمك لا يمكن أن تكون قد عرفت بوريس فيان؟ صغيرة. لم يعيشا في الفترة نفسها. هو مات في وقت مبكر. ولد يو الجمعة في ١٠ مارس ١٩٢٠ ومات في ١٩٥٩.

- أضيف لك تفصيلاً غريباً. أمي ولدت في ٢٣ يونيو ١٩٥٩. هو اليوم نفسه الذي مات فيه بوريس فيان ويصادف يوم جمعة. في بداية عرض الفيلم المقتبس من روايته: سأذهب لأبصق على قبوركم، في قاعة سينما لو ماريوف[١٠٦] بالقرب من الشانزليزيه. كان غاضباً من الفيلم حتى قبل رؤيته متمنياً أن يُنزع اسمه من الجنريك. دقائق من بدء العرض انهار في كرسيه بأزمة قلبية أودت بحياته.

يوم مات كان عمرها بالضبط ساعات. أحبت كتاباته كثيراً لدرجة الهبل فقط.

---

(١٠٦) Le Marbeuf.



الإصدار ٨٥، يونيو ٢٠١٣

– صورها معه غريبة بعض الشيء؟

– هذا الجو الغريب أنت لم تعيشيه حبيبتي، فقد مرّض أكثر من واحد. وأودى بحياة الكثيرين.

لم أجد جواباً ولكني أقنعتها بأن ميرو الذي غيبته المدينة لاحقاً، وكانت تعرفه، عندما رأى فيرجي مولعة بنصوصه، صوّرها وكأنها تعيش في زمانه، بل كأنها كانت تعيشه. أكثر من ذلك. نزع في مخبره صور زوجته ميشيل لوغليز وصور أورسولا كويلر حبيبته، وعوضها بصورها لدرجة التماهي.

- ميرو شيطان الألوان والصور. مسكين.

- فيرجي أحبت حرية بوريس وجنونه وموسيقاه. عندما كانت الأوبرا حية في مدينتنا، كانت أمي لا تتوانى عن أخذنا لسماع موسيقاه وموسيقا غيره. استمعنا إلى أغنية مولودجي: الهارب. عن قصيدة لبوريس فيان. كانت مأخوذة به. في مرة من المرات جاؤوا بأوبرا زبد الأيام وسأذهب لأبصق على قبوركم، وهي أوبرا اقتبست من روايتيه. ظلت تحكي عنها لمدة سنة بلا توقف. مع أن الروايتين كانتا أجمل من المنجز الفنّي. ربما كانت تلك اللحظة فاصلة بقوة في حياة فيرجي.

- تعرفين ياما، عندما نحب يصبح كل شيء بلا شكل ولا لون. بل نعيد تشكيله كما نشاء ونلونه وفق مشيئة القلب،

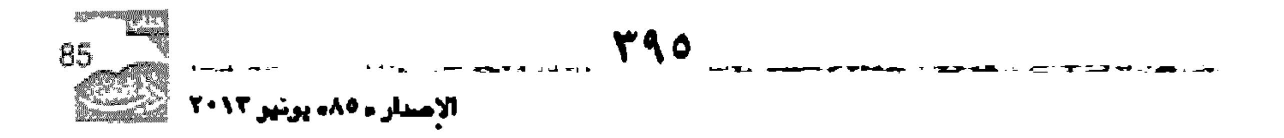
وكما يروق لنا. نرى كل شيء في من نحب إلا كونه يمكن أن يكون حاملاً أيضاً بين أصابعه، لحظة موتنا وجنوننا.

- بالضبط. بدأت فيرجي من يومها تنفصل شيئاً فشيئاً عن فيرجينيا وولف، وتغرق في بوريس فيان. أحبته كما يحب عشيق منتف في عشيقه، ولم تدر أنها كانت تكتب قدراً حارقاً بأناملها. ربما كان الأدب من هذه الناحية أخطر حالة، لأننا ننسى أن الحياة أعقد بكثير مما قرأناه.

قضَيت اليوم الأخير مع صافو في ديبو- جاز. كانت سعيدة بالأصدقاء الذين التفوا حولها بحب، والتقت بهم من جديد بعد كل هذا الغياب القلق. غنت كثيراً بصوتها الجميل لتوقظ حنيناً شجياً كان ينام في كل واحد فينا. كان فيّ تحديداً عندما سحبتني بالقرب منها وهي تقول:

- ياما... توحّشت أسمعك. أريد سماع "راقصو التانغو" بعزفك المنفرد قبل المجموعة. «

أردت أن أقول لها صعب عليّ اللحظة، ولكني في أعماقي كنت أريد ذلك. كانت الرغبة في البكاء تسكنني. وجدت في اقتراح صافو فرصتي. تأملت الكلارينات بين يدي للحظات. ثم رفعت رأسي، رأيت ديف في الزاوية المظللة قليلاً، يتأملني كمايسترو تعب من إدراة فرقته، فراح يسرق بعض الراحة. أغمضت عيني



قليلاً في صمت كلّي، لم يخترقه إلا أذان المغرب الذي كان يأتي من بعيد، من نقطة غامضة في المدينة. وضعت منقار الكلارينات بين شفتي ثم تركتني أنزلق نحو دفء الإيقاعات التي كانت تأتي متدفقة كماء عذب. كان الجسر مضاء قليلاً بفوانيس أطرافه، مضبباً إلى درجة لم نكن نرى بعضنا. اليد في اليد، والقلب في القلب. والخوف في الخوف. كنا نركض بكل قوانا. صوت الرصاص أصبح موسيقا جافة وقاسية. فرامل السيارة الجافة التي رمتنا كل واحد في مكان، كادت تقتلنا. قبل أن يخرج ديف من كتلة الضباب ويسحبني أكثر نحو نهاية الجسر.

ثم سمعت نشيداً حزيناً ورائي من المجموعة في شكل كورس جنائزي يرافق عزيزاً تخلت الروح عنه وهو في عنفوان اللحظة. كنت أمشي بسكينة، وكانت المجموعة كلها ورائي. ثم تناهى إلى مسمعي نشيده. عرفت في الجمع كله صوت صافو الذي كان يطغى على الجميع بشجيه العميق.

في بلادنا نحب الرقص ونكره الحروب أيضاً،

ونحب التانغو كثيراً...

لم أقاوم دموعي. ضمتني صافو إلى صدرها، وواصلت الانشاد مع البقية، أكابيلا[107]. بلا أية آلة.

(107) أكابيلاً أي بلا موسيقا. A Capella

-٤-

أخيراً.

كنت سعيدة بعودة فاوست التي أصبحت مؤكدة بعد العديد من المشكلات الصغيرة. لم تخل أية صحيفة وطنية، بما في ذلك جريدة الأمة الرسمية التي وضعت الخبر داخل مربع جميل بصورته: بعد قرابة عشر سنوات من المنفى، يحل غداً بأرض الوطن الفنان المسرحي الكبير فادي... لعرض مسرحيته العالمية: لعنة غرناطة. التي حاول أن يجعل منها مدخله الخاص للسلام الذي تنعم به البلاد وإسهامه المميز في نسيان سنوات الرماد.

عندما كتبت لفاوست أبارك عودته، كان ذهني خالياً من أي رماد أو غضب، سوى الفرح بعودته الكبيرة لأهله وذويه ومحبيه. كانت رغبتي كبيرة في نسيان جرحي الذي صعب عليَّ رتقه بسرعة، واختبار قلبه الذي أتعبته سنوات الموت والمنفى. نحتاج إلى الكثير من السخاء لنستحق لقب العاشق:

" - أتدري حبيبي. أشتهي أن آتيك للمطار بسيارتي الصغيرة. ربما ليست على قدّ مقامك، ولكن شيري مليئة بالحب والدفء. أحسد من يراك وتراه قبلي.



- لن أرى أحداً. سأغمض عيني ولن أفتحهما إلا على وجهك. لا تشغلي بالك عليَّ. أخاف عليك. سأُستقبل رسمياً. ثم إن هؤلاء بشر لا يوثق فيهم أبداً. أفضل أن تظلي بعيدة عن شرهم. سنلتقي في عرض لعنة غرناطة، وحفل التوقيع. وبعدها نهرب مع بعض حيث تشائين. سأكون مِلكاً لحبيبتي.

- حبيبي فاوست، أنا أيضاً أخاف عليك.

- ألم أقل لك إني عَظْمٌ جاف، يرتشق عرضاً في حلق كل من يريد إيذائي.

- أعرف حبيبي. لكن... قد لا يؤذونك بالقوة دائماً، وبشكل مباشر...

- يعني؟

- ألا تخاف من أن تكون الدولة نفسها هي ميفيستوفيليس؟

- يشترون روحي يعني؟ هههههه صعب عليهم بعد كل هذا العذاب. لا. أبداً. من هذه الناحية كوني مرتاحة. أيام قليلة ونلتقي. ونضع حداً لكل هذا الغياب الصعب.

- ومع ذلك فأنا جد خائفة وسعيدة جداً بعودتك يا غالي. لم تعد الأبواب والنوافذ الزرقاء كافية لاحتضان جنوني، أريد أن أشعر بك. أسمع أنفاسك. أن

تكون لي.

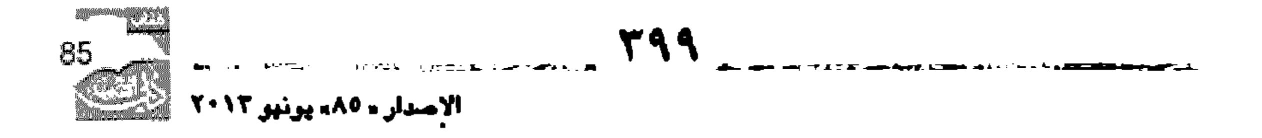
- لم تبق إلا ساعات حبيبتي وينتفي كل الغبار الذي غطى أجمل أشواقنا وكاد أن يبيدها لولا المقاومة التي سحبناها وراءنا من شجاعة أجدادنا. لا تخافي...

»

ثم انطفأ الضوء الأخضر. عندما بحثت عنه على المساحة الزرقاء من بين أصدقاء آخرين كما تعودت أن أفعل قبل غضبي منه، لم يعد موجوداً في أي مكان. هل ذهب للنوم من شدة التعب؟ كل شيء أصبح مغطى بغلاف خشن من الريبة. منذ الحادثة لم يعد يتراسل على المكشوف كما كان يفعل دائماً. كان يغلق على نفسه مثل المحارة، ربما تفادياً لملاحظاتي القلقة وحتى لإيذائي، ويدخل في عالمه الذي كان كل يوم يحتل مساحة منه على حساب حبي له، لدرجة نسياني. أفهم جيداً انشغاله بسفره ولكن... لا أتصوره صامتاً للحظة ينظر إلى سقف السماء، ولا يرد على ذلك الجيش من المنتظرين على حواف صداقته الملتبسة، وكل واحد يظن أنه الواحد الأوحد.

كل شيء يندفع كالموجة العملاقة نحو خوفي.

جرحي لم يسعفني لآخذ الأشياء ببساطة على الرغم من أن



مكالمته التليفونية الوحيدة منذ أن تعارفنا، غيرت الكثير فيَّ. حلت معضلة الصمت البارد الذي كان بيننا. لا أعرف كيف اهتدى إلى ذلك؟ أثر الصوت أكبر من الكتابة الخرساء مهما كانت جميلة. بحّة صوته غلفتني بدفء كبير لم أشعر به إلا وأنا أسمعه. كيف يملك البشر أصواتاً تتملكنا بقوة. كلماته الهاربة منحتني مساحة بيضاء أخرى، ولو صغيرة، في قلبه. لكن من بحّته أيضاً، شعرت بشططه العميق. لكن شيئاً غامضاً فيَّ ظلّ معلقاً في الهواء. بين الموت والحياة. بين الخير والشر. بين اليقين والريبة. تساءلت في داخلي وأنا لا أعرف إن كنت محقة أم لا: ماذا تعني لرجل مشهور مثله، فرماسيانة صغيرة فشلت في كل تجاربها الغرامية التي ليست كثيرة دون أن تعرف لماذا؟ ربما لأن الشاب الذي اختارته لها أمّها بعد موت ديف مباشرة، كان موازياً لهبلها ولو بشكل معكوس. فقد انسحب المسكين من تلقاء نفسه، تماماً مثلما فعل شارلي. كان الأمير ميشكين، هكذا أسميته، عن أبله ديستوفسكي[١٠٨] ، يريد الفرماسيانة التي تحل مشكلة بطالته أكثر من المرأة التي كانت تحلم بأن تكون معشوقة بشكل كامل ليس أقل من جنون ديف. عندما رفضَتْه بصوت عال وقالت له: اسمع يا ولد الناس، روحْ داوي روحك. أنت

---

(١٠٨) Dostoievski, l'Idiot.

لا تصلح لي وأنا لا أصلح لك. أصيب بصرع كاد يقتله لولا بعض المارة الذين وضعوا في كفه قطعة نقود ومفتاحاً أرجعاه إلى الحياة. غادر بعدها الوطن غضباً دون أن يترك أي خبر سوى احتجاجه في رسالة: ستندمين. سترين شكون هو هذا الرجل! قيل إنه هاجر إلى إسبانيا مع الحرَّاقة، وقيل أيضاً إنه دخل إلى مستشفى متخصص في الصَّرع. بعد سنتين من غيابه رجع لها حاملاً باقة ورد برفقة أمه، يرتدي لباساً ملكياً أبيض ومنشَّياً، مع ربطة عنق فاقعة اللون. كانت قد نسيته نهائياً. كادت تقول له: واش بك داير في روحك حالة؟ لكنها عدلت عن الفكرة. فطلب يدها من جديد وقال إنه مستعد أن يقبل بها كما هي، وأن ينسى كل الماضي القاسي بينهما. كما هي؟ أي ماض أصلاً؟ لم يكن مخه أحسن من مخ شارلي الذي أنقذته الفياغرا من الجنون. كان وجه ميشكين أصفر مثل الليمونة. وكان طيباً إلى درجة السذاجة والحماقة. عندما رأته لأول مرة بعد عودته، لم تستطع كتم ضحكاتها الانفجارية. كان رديفاً في كل شيء لميشكين، الذي بعد أن قضى جزءاً من شبابه في سناتوريوم في سويسرا، بسبب مرض الصرع، عاد إلى روسيا باحثاً عن مكانة في مجتمعها المغلق. وجد نفسه فجأة تحت جناحي معشوقته ومرضه، ناستاسيا فيليبوفنا[١٠٩]

(١٠٩) Nastassia Filippovna



التي فتحت أمامه أبواب الحياة، قبل أن تتركه وتهرب مع تاجر غني، روغوجين[110] ويلتفت هو نحو المعشوقة البديلة أغلايا إيفانوفنا[111] ولكن حب ناستاسيا سجنه إلى الأبد. يترك أغلايا إيفانوفنا ويعود إلى ناستاسيا التي تهرب من جديد مع روغوجين الذي ينتهي إلى قتلها، ويعود الأمير ميشكين إلى صرعه.

حبيبي الذي فرضته عليَّ أمي عاد إلى صرعه أيضاً.

كان من الصعب عليَّ أن لا أرى في ذلك المسكين صورة الأبله، وأن لا أرى في نفسي صورة ناستاسيا الخائفة من أن يقتلها حبيبها بمجرد أن يفتح عينيه من مرضه.

صمم فاوست أن يظل افتراضياً إلى آخر لحظة. مجرد صورة أو علامة خضراء في الزاوية اليمنى من الصفحة، تأتي ثم تنطفئ. حتى في الشهوة، كانت اللغة هي جنوني الحرّ. مارسنا لذّتنا ذهنياً عن بعد. كان خيالي هو منقذي الثاني لدرجة المرض، لأنه لولاه لاحترق كل شيء فيَّ، ولذبلت كل حواسي الحية. الجنس الافتراضي باللغة، ربما كان ابتكاراً عصرياً خطيراً؟

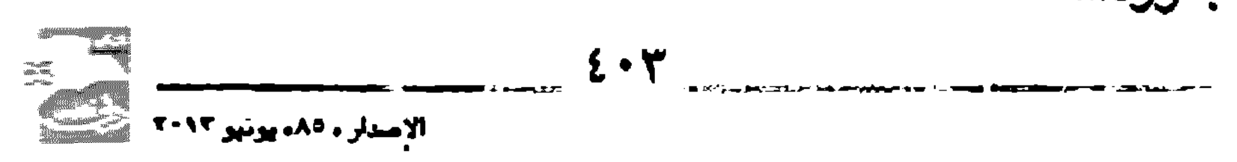
---

(١١٠) Parfione Semionovitch Rogojine.

(١١١) Aglaia Ivanovna.

في الثامنة إلا ربع مساء، قبل نشرة الأخبار بقليل، أغلقت كل ستائر الصالون المطل على الجسر والمعبر المؤدي له. لم أعرف لماذا فعلت ذلك بالضبط. وجلست وراء الشاشة أرقب الحدث. مرت صور السفراء الذين زاروا الصحراء في رحلة سياحية مدفوعة الثمن من الدولة، وكلهم كانوا يرددون الكلام نفسه: البلاد بخير. تعالوا زوروا الصحراء. مكان سياحي خلاب. لم أكن غبية إلى القدر الذي أصدق فيه أن الأمريكان سيأتون ركضاً إلى بلادنا أو الأوروبيين بمجرد سماع خبر أجوف مثل هذا! من يسمعه أصلاً، في قناة لا يراها حتى سكان الأحياء الذين اجتهدوا في التقاط القنوات العربية القوية بواسطة أواني الطبخ المصنوعة من الألمنيوم.

أخيرا جاء فاوست في الأخبار الثقافية. رأيته. قال مذيع نشرة الأخبار، وهو يلملم كلماته بصعوبة من شدة حماسه: ها هي أرض الشهداء ومهبط الوحي والأنبياء، وأرض الخير والماء والتسامح تستعيد أبناءها من منافيهم ليسدل الستار نهائياً على المأساة الوطنية، وتنفتح الآمال على مصراعيها. إن الوطن غفور رحيم. وهو ما بيّنه وأظهره على الملأ، على مدار سنوات المأساة الوطنية. الوطن هنا، ولن يسألهم أين كانوا؟ ماذا فعلوا؟ ولا لماذا خرجوا؟ المهم أنهم عادوا ممتلئين بنوره...



بُثَّ بعدها مباشرة مشهد الوصول بكامله على شاشة التلفزيون الذي خصص له صفحة جميلة نُقلت إلى الفيسبوك في اللحظة نفسها تقريباً. قالت المعلقة جملة بقيت مرتسمة طويلاً في دماغي: ها هو الابن الضال يعود اليوم إلى وطنه. إلى أرضه التي منحته الحياة، ومنحها مسرحاً كبيراً دافع فيه عن النور الذي كان يتجلى من الوطن حتى في أحلك الظروف. كدت أصرخ أيّ نور؟ وحق ربي إنهم يعيشون في قارة من الكلمات واللامعنى. متأكدة من أن لا أحد أجبرها على ذلك الحشو، الأخطر هو أن يقول المذيع ما يريده المسؤول دون أن يجبره هذا الأخير على ذلك. عندما ابتسمت صاحبة الريبورتاج ابتسامة الخاتمة، قبل الانسحاب، رأيت في عينيها فجأة وبشكل غريب، صورة طبق الأصل للأخ الأكبر، البيغ بروذر[112] بكل سلطانه وقوته وهدوئه العاصف، وابتسامته المليئة بالأسرار والخبث، يؤدي رقصة الانتصار.

عدت لوصوله العشرات من المرات تلك الليلة على اليوتوب. وعلى رابط الفيسبوك الذي توزعه المعجبون بسرعة كبيرة. كانت لحظات الوصول تمر كأنها بالتصوير البطيء. عندما غادر الطائرة تحت محركاتها التي لم تتوقف، بدا ذلك واضحاً من شعره الذي تبعثر عالياً، ومعطفه الذي تعالى قليلاً في

---

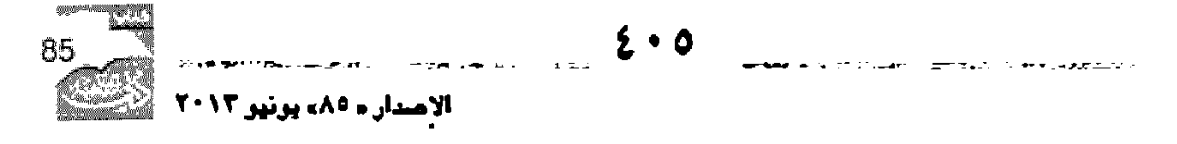
(112) هو Big Brother بطل رواية ١٩٨٤. لجورج أورويل.

فتحاته الخلفية. ثم عندما تقدمت منه طفلة صغيرة عند مدخل القاعة الشرفية وفي يدها باقة من الورود. سلم على رأسها ثم سلم الباقة لامرأة تبدو أجنبية كانت تسير خلفه. ثم أخذ تمرة من الطبق الذي قدمته له طفلة أخرى بشرائط حمراء، وشرب قليلاً من الحليب. لا أدري لماذا تذكرت آخر رئيس لهذه البلاد، انتخب ديمقراطياً وقتل مباشرة، في عز الحرب الأهلية، بعدما دشن جسر العشاق. هو أيضاً أخذ الورد وأكل التمر وشرب الحليب قبل أن يقتله الذين رحبوا به في المطار. الصورة الثالثة وهو يركب سيارة المرسيدس المضادة للرصاص، باتجاه نزل شيراتون ليرتاح. كان شيء من الانتشاء يظهر في عينيه وهو يعانق وزير الثقافة والسياحة. الرجل ذا الحقيبتين، أو كما يسميه المثقفون والصحفيون L'homme au deux casquettes[113]. هذه المرة هو مدعو دعوة رسمية من الوزارة للالتقاء بمعجبيه الذين عشقوه جداً وامتلأ هو بهم بقوة، كما يقول. الكثير من هذه الصور نفسها نشرتها جريدة الأمة. كانت كل المقالات ملونة بالمديح وروح الوطن العالية الذي يعرف كيف يغفر لأبنائه عند الحاجة الماسة.

قال مذيع الأخبار وهو يختتم هذه الصفحة الخاصة: ها

---

(١١٣) الرجل ذو القبعتين.



هي أرض الشهداء ومهبط الوحي والأنبياء، وأرض الخير والماء، تستعيد أبناءها من منافيهم ليسدل الستار نهائياً على المأساة الوطنية.

كنت ممددة في فراشي، أتأمل الفراغ ووجهي بابا زوربا وفيرجي في صورة هربتها من حرائق أمي التي تجسد عرسهما. كم كانا جميلين. صعب عليَّ اختصار حزني ودمعي. فجأة رأيت كلماته تتسابق وتنزل كالظلال على قلبي. استغربت كيف يذهب ويجيء مثل الرياح الاستوائية، دون أي إنذار.

" - حبيبتي هل أنت هنا. أنا على مسافة قبلة منك.

- شكرا يا غالي.
- تبدين حزينة.
- لا أبداً. الحمد لله على سلامتك.

كان ينخر قلبي شيء غامض ومبهم. شيء هو بين الحزن والخوف والفرح المرتبك الذي لا يكاد يصدق ما رآه وما يحسه. فاوست على بعد قبلة! إذاً ما الذي يمنع من أن نجعلها قبلة حقيقية؟ كيف كان الفرسان في العصور الغابرة يمتطون الفيافي فقط لرؤية المرأة التي أحبوها، متحملين كل مخاطر الموت.

- أنا هنا! هل رأيت حفل الاستقبال.
- نعم حضره الكثير من الفنانين والكتاب.

- كان مدهشاً. هناك أصدقاء لم أرهم منذ أكثر من عقد.
- طبعاً ممنوع على الفرماسيانة أن تحضر لتكون من مستقبلي حبيبها؟
- لا يا غالية. لست أنا من اختار القائمة. قلت لك كنت خائفاً عليك. ولا أريدك أن تصبحي مرئية أمام الجميع؟ لا أدري ماذا يخبئه لي قدري؟
- ما هو شعورك وأنت تنزل على أرض الوطن معززاً مكرماً، وهذه الحملة الكبيرة التي سبقت مجيئك. لم يفعلوا هذا مع أيّ من المثقفين، من الذين عادوا بعد سنوات المنفى. قلت لك في المرة الماضية، يمكن أن تكون الدولة نفسها ميفيستوفيليس.
- هههههه. نظرية المؤامرة. الدولة لا تفعل شيئاً ولكنها تكفِّر عن بعض ذنوبها لا أكثر.
- كيف؟
- لقد تركت الكثير من أبنائها يموتون، وكان بإمكانها إنقاذهم.
- وهل كانتْ الدولة موجودة أصلاً؟
- كيف بقي المجتمع حياً حتى اليوم ولم يخرب نهائياً؟ لابد أن تكون موجودة.
- الله يرحم اللي ماتوا. ارتح حبيبي وسأكون غداً

من أولى الحاضرات للعرض المسرحي ولحفل توقيع الكتاب. ولو أنه عليَّ أن أقطع الجسر والمعابر المحروسة للوصول إليك ولكني سآتي. سآتي حبيبي مهما كان الأمر، فقط لأراك وأشبع من وجهك.

عبثاً انتظرت أن يقول أرجوك لا تأتي. الجسر خطير. سنبعث لك بسيارة لتأخذك من شمال المدينة، مثلاً. أو آتي لآخذك معي. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. فقد كان فاوست تحت تأثير دوار جميل لم أكن موجودة فيه مطلقاً. مرة أخرى انتابتني الرغبة في سؤاله عن شيء آخر كان يكبر فيَّ بشكل متسارع، ويتسع مثل الخلايا السرطانية.

- مازلت هنا حبيبي؟
- نعم. لا يمكن أن أشبع منك على الرغم من تعبي وقلقي.
- لا تغضب مني. أنا أحبك بالشكل الذي لم يعد يحميني من الجنون. ألم يكن من الأفضل أن تعود بصمت كما فعل الكثيرون؟ ما دمت قد قررت رسمياً العودة إلى أرض الوطن؟

صمت قليلاً. خمنت اللغة التي خرجت من فمه بسرعة وخبأها: واش بريها؟ فرمسيانة تعلمني ما يجب عليَّ فعله. عليها أن تعرف حدودها. انتظرت ردة فعل عنيفة، لكن ذلك لم يدر إلا

في خلايا رأسي المتعبة والقلقة من شيء غامض كان ينبت عميقاً فيها.

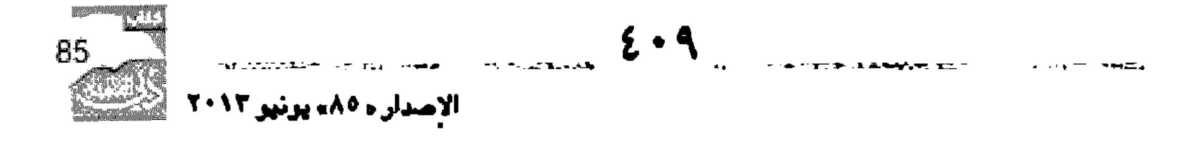
- من يغضب من حبيبته ليس حبيباً حقيقياً، ولا يستحق هذه التسمية. أنا رجل قضيت حياتي كلها بين المسرحيات إخراجاً وكتابة. عالمي كله تراجيدي. هذا مسلكي الذي اخترته. لست معنياً بالدعاية طبعاً. لكن جيداً أن تعتذر الدولة بطريقتها لأبنائها.
- وهل تظن أن الدولة تعتذر؟

رد بيقين لم يبد من ورائه أي ارتباك.

- نعم. ويجب عليها أن تفعل ذلك لكل أبنائها الذين لم تعرف كيف تضمّهم إلى صدرها.

واصلت أسئلتي القلقة:

- ألا تخاف على نفسك من مصير غارسيا لوركا الذي خصصت لدمه هذه المسرحية، مثلاً؟
- الفاشية انتهت. ذهبت مع الحرب الأهلية.
- ألا تخاف من فاشية ثانية تولد الآن في خضم الحرب الصامتة؟
- لا أعتقد. الدولة ساهرة على كل شيء. سنوات الحرب استنفدت كل الناس، الجيدين والسيئين. القتلة والمقتولين، المجرمين والبريئين. ياما... الناس تعبوا



كثيراً. يظهر ذلك بوضوح على وجوههم. لعنة غرناطة كناية ضدّ كل الجرائم التي ارتُكِبت، وتُرتكب ضد الإنسانية.

- معك حق. الناس مرهقون.

كدت أردد عليه جملتي السابقة: الدولة هي مفيستوفيليس. سيأكلك. وقبل ذلك سيشتري منك روحك إذا لم يكن قد فعل ذلك؟ ولكني تراجعت ولم أرِد أن أكسر فرحته. كنت أشعر بعمق سعادته وعطشه.

- سعيدة من أجلك حبيبي. سعيدة جداً. أنت تحب المسرح التراجيدي اليوناني، وها أنت على ما يبدو، في عمقه تماماً. أتمنى أن أتمكن من رؤيتها غداً. لقد كتبت الصحافة الوطنية والدولية كثيراً عن لعنة غرناطة. أنا سعيدة من أجلك. تستاهل كل الخير يا قلبي.

- لعنة غرناطة أخذت مني جهداً مضنياً. يجب أن تأتي. ستعجبك المسرحية كثيراً. تستند بقوة إلى الحرب الأهلية بإسبانيا في ١٩٣٦. كان غارسيا لوركا جمهورياً فذاً ومثلياً معلناً وهي أسباب كافية لأن تجعل من الفرانكوية عدواً لدوداً له.

- طبعا سأكون. لا أتخيل نفسي خارج عالمك المدهش.

- تبدأ من اللحظة التي اشتعلت فيها غرناطة مع

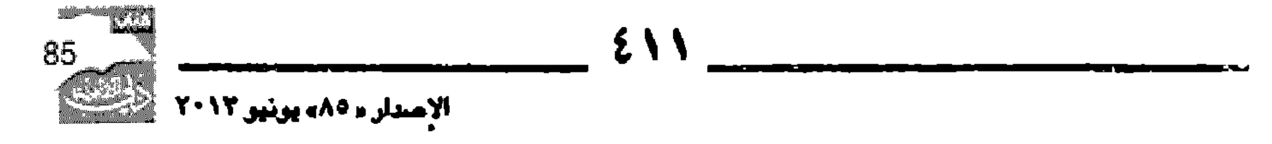
أنها كانت بعيدة عن النار نسبياً: بالضبط في ١٦ أغسطس حينما وصل إليها راموس لويس ألونسو[١١٤] من الكتائب الفرانكوية الذي يفتخر بأنه كان وراء توقيف الشاعر الأحمر. ثلاثة أيام بعد توقيفه أُعدِم بلا محاكمة، ثم رُمي في المنحدر هو وثلاثة آخرون ينتمون إلى الحركة الفوضوية، في مكان غير معروف حتى اليوم.

- احتجتَ إلى جهد كبير حبيبي، وإلى معلومات تاريخية كثيرة؟

- استعنت كثيراً بتصوير أنطونيو مونيوز مولينا الذي يصفه وهو يمشي ليلاً في شوارع غرناطة الخالية بين فرقة المليشيات المكونة من ماريانو مورينو رئيس الفيلق، خوان خمينيث كاسكاليث، فرناندو كورّيرا كاراسكو، سالفادور فارو ليفا وأنطونيو هرناندث مارتن، وأنطونيو بنافيدس[١١٥] من زمرة آلبا الحاقدين عليه. أنطونيو بنافيدس يفتخر بأنه هو من أسكن في رأس لوركا رصاصتين. كانت الساعة تشير

(١١٤) Ramon Luis Alonso.

(١١٥) Mariano Ajenjo Moreno, chef du peloton, Juan Jiménez Cascález, Fernando Correa Carrasco, Salvador Varo Leyva et Antonio Hernández Martin. Et Antonio Benavides, membre du clan Alba.



إلى الرابعة صباحاً حينما قتلوه بالقرب من مزرعة كورتيخو دي غاثباتشو[116]. قبره يظل إلى اليوم لغزاً.

- هكذا لم تترك لي متعة اكتشاف المسرحية هههههه
- لا تشغلي بالك حبيبتي. المسرحية شيء آخر. تعالي فقط.
- سأفعل حبيبي. سأفعل.اشتريت بطاقة بواسطة الانترنت. لم أحصل على مكان جميل لكن المهم أن أفرح معك. نوم الهناء يا روحي. أنت متعب جداً. ارتح قليلاً.
- ليلتك دافئة. أحبك.
- وأنا أيضاً.

عندما مددت رأسي على الفراش لا أدري لماذا شعرت بحزن عميق. لم أر شيئاً سوى صور وإعلانات مسرحية لعنة غرناطة التي كانت تملأ كل الواجهات، دور الثقافة، الأحياء الجامعية، الباصات، المترو، الترام، وبعض التكسيات الخاصة. وصلت الدعاية حتى خراب كاتدرائية أمنا مريم المجدلية. استغربت أنه لم يُمزق أي إعلان مما رأيت، كما تعود الناس أن يفعلوا كلما تعلّق الأمر بشيء مرتبط بالدولة، أو بأية مؤسسة رسمية.

---

(١١٦) Cortijo de Gazpacho.

ربما شعر الجميع بأن فاوست رجل طيب وقريب من همومهم، ولا يحمل إلا طيبته وعفويته الطفولية وحبه لوطنه وأرضه وناسه؟ ربما؟

عدت من جديد إلى سهوي وارتشاق عيني في السقف الأبيض، وفي صورة زواج أمي وأبي الجميلة التي لم أكتشف سحرها الغريب إلا متأخرة. أغمضت عينيّ. رأيت تلك الصورة بالضبط وأنا برفقة أمي وأبي في مدينة أوروبية ربما كانت فييننّا التي كان يذهب لها بابا زوريا في مهامه المخبرية. كانا يمشيان في شوارع المدينة اليد في اليد مثل عاشقين في مقتبل العمر. ياااااه كم الدنيا قاسية. كيف يتغير الناس ويشيخ الحب مثلما تشيخ الوجوه المتعبة، وتشيح كل الأشياء الجميلة عنهم! المهم. لأنه لا فائدة من الحزن الشقي. المهم أني رأيتهما يومها يضحكان بسعادة كبيرة، لا شيء يسع فرحتهما. كان ذلك قبل زمن طويل من تعرف بابا زوريا على السيدة اليابانية أمايا شيساتو وابنتها أو ابنتيهما؟ يونا آييكو. الشكوك التي نسفت بكل شيء وجعلت أمي تبتعد عن والدي نهائياً، غيرت حتى مناخ البيت ونظرات الأبناء. أبي كان جميلاً وقاسياً مع أمي، ولكن من الصعب عليّ أن ألومه في حبه للحياة. تمنيت فقط من فاوست أن يكون بسخائه. السخي يخون بحب لهذا أبحث له عن كل أعذار الدنيا. أو هكذا يبدو لي.

أغمضت عينيّ على وجهي فريجة وزبير المشرقين. كما بدو

قريبين. أصابني فجأة دفء وحنين كبيران.

نمت بسرعة كأنها دوخة، في حضنيهما.

تعب المائة متر الأخيرة كان قاسياً عليَّ.

VII

... إِلَى الجَحِيم
فَاوْستْ وَمِيفِيسْتُوفِيلِيسْ

-١-

الجسر... أخيراً.

Sur le pont d'Avignon
L'on y danse, l'on y danse
Sur le pont d'Avignon
L'on y danse tous en rond[١١٧]...

لا أدري كيف تذكرتها. ربما عطر الجسر والطفولة الهاربة. عندما عدت من المدرسة الفرنسية يومها، وأنا ممتلئة بها، نظرت إليّ أمي بفرح كبير كأنها تكتشفني للمرة الأولى. أخذتني من يدي، ضمتني. ثم بدأت تغنيها معي ونحن ندور حول بعضنا حتى أصبنا بالدوار. ارتسم يومها وجه أمي الآخر، البشوش والجميل، لامرأة تحب الحياة والرقص والفرح، وغابت ملامح المرأة الصلبة التي تعاقبني على كل خطأ لغوي بإعادة كتابته مائة مرة، وأحياناً حتى خمسمائة مرة. أقضي اليوم كله في الكتابة والعدّ لدرجة أصبحت أخاف من كل كلمة.

انتابني وجه فيرجي بكل حبه ونوره واضمحلاله الحزين.

---

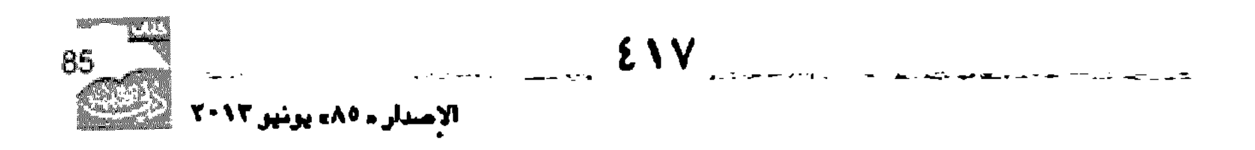
(١١٧) على جسر أفنيون. نرقص ونرقص. على جسر أفنيون نرقص جميعاً بشكل دائري. أغنية شعبية يغنيها الأطفال في المدارس الفرنسية منذ صغرهم، وهي تمجد الرقص وكل الحرف الشعبية. كتب كلماتها Billy Rastaquouère

تأكد لي كم كنت أحبها. وتأكد لي أيضاً كم كنت غبية، لسبب غامض، فيّ، لم أعرف كيف أحبها. ونسيت أن الموت عندما يأخذ إنساناً، يأخذه إلى الأبد ولا يمنحنا فرصة الشبع منه. نتذكر ذلك كله عندما ندخل في استحالات الأشياء.

ارتسمت أولى القطرات على زجاج سيارتي التي عليَّ أن أضعها بمحاذاة الجسر قبل أن أقطعه راجلة. شعرت فجأة بأن المطر والخوف كانا يسقطان في داخلي. هي اللحظة اللذيذة التي يشتعل فيها القلب قبل قناديل الطرقات الليلة. كان صوت أفي ماريا يأتيني أو هكذا تخيلته، من بعيد بصوت ماريا كالاس وبوتشيلي. يسحبني بعيداً عن كل المخاطر ويُسكنني في عمق حبة المطر ليحميني من الليل ووحوشه المتربصة بي. أشهد أني سمعته مع شجيّ قرآني كان يأتي من بيت قريب، دحرجني في مكاني طويلاً قبل أن أستقر مثل زورق في مهب الموج، ليس بعيداً عن الجسر.

مطر من الدهشة كان يسقط.

كانت شيري تتزحلق بسهولة وليونة على الماء. الأضواء تتكسر على الطريق محدثة عرساً من الألوان الجميلة. كنت مندهشة. حتى الطريق كانت شبه فارغة. ركنتها عند المدخل وواصلت العبور على رجلي لأن السيارات لا يمكن أن تعبر



دون مخاطر على الجسر وعلى المارة. الجسر الخشبي الذي عوض الجسر الحديدي المهدم، لا يتحمل ثقلاً كبيراً.

فجأة، عند المدخل بالضبط وأنا أضع الخطوة الأولى على المعبر، مرت سيارة عسكرية مسرعة بعد أن أحرقت الضوء الأحمر. كادت تسحقني. ارتعشت في مكاني. أغمضت عينيّ لكي لا أسقط على الأرض. سعدت فقط أنها لم تمسسني، وأني توقفت في اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة. ثم فجأة رأيت السيارة ترجع إلى الوراء مخلفة في طريقها فوضى عارمة في حركة المرور. نزل منها عسكري وهو يتحسس سلاحه الذي رسم شكلاً صليبياً على صدره. كانت كلماته قاسية.

- خراء... وين عينيك؟ كان من المفروض نعفس على ريك مثل القملة. مرة ثانية اشتر عينين. من أين خرجت؟ من مغارة. تعلمي شوية حضارة.

كل شيء كان مقلوباً بما في ذلك أنا، فقد كنت على رأسي. لم يترك لي العسكري حتى فرصة الاعتذار منه، مع أن الضوء كان أحمر بالنسبة له. ثم ركب الشاحنة العسكرية وتركني أمام بركة الماء التي تفاديتها بتوقفي. لم يلتفت نحوي. لم يسأل حتى ما إذا كنت على قيد الحياة أم جرحت. تأكد فقط من أنني مازلت أتنفس، وأني كنت خائفة من سلاحه. لقد شممت رائحة

فمه الكريهة وعرقه الحاد وهو يشتمني. وجدتُني بين يدي امرأة مسنة كانت تحاول مع ابنتها أن تهون عليَّ وتهدئ من روعي. وضعتْ بعض العطر الحاد على وجهي. عرفت أنه بلوم بلوم الذي يوضع عادة على جثث الموتى، لكي يزيل روائحها. كنت ميتة ووجهي لا دم فيه. قالت:

- يا بنتي كدتِ تُقتلين. أنت من دخل في السيارة. رأيتك. ذهبتِ نحوها وكأنك كنت تريدين الانتحار. حافظي على نفسك. مازلت صغيرة.

- كيف أنتحر يا يما وأنا بهذا العمر؟. ما شبعت الحياة بعد. كان الضوء أخضر. وكان يُفترض أن أمر قبله. لم أعرف بأنه كان بكل ذلك القدر من القتل، الذي يجعله يحرق الضوء الأحمر؟

- يبدو أنك غريبة على هذه الأرض؟ لم يعد أحد يحترم الأضواء. الأضمن أن تنتظري حتى تفرغ الطريق وتقطعين، وإلا يمكن أن تجرك أية سيارة مجنونة في طريقها. العسكري ما عنده حتى ذنب، حتى هو في حالة خوف من كل شيء. هو أيضاً عنده بيت وأم وأب وزوجة ينتظرونه. يداري الموت بكل الوسائل بما في ذلك إظهار قوة لم يعد يملكها. الإنسان لازم يكون عاقلاً ولا يتهور أو يلعب بروحه.

- طيب يا يمّا أنا مش قطة وإلا قنينة! أنا ابن آدم! كان من المفروض أن يتوقف ويعتذر بدلاً من أن يشتمني. أو حتى يقترح علي الذهاب إلى المستشفى!

- ههه المستشفى يقع وراء المعبر السابع، ولا يوجد به أي دواء. كل الصيدليات إما أحرقت أو توقفت عن العمل لسبب أو لآخر. ربي يجيب الخير يا ابنتي. حافظي على نفسك. كان يفترض أصلاً أن لا تخرجي في هذا الوقت نحو الجسر. رجال بشلاغمهم يخافون من هذا المكان.

- ... ...

هربت كل كلماتي. رجال بشلاغمهم يخافون من هذا المكان. معها حق. لماذا خرجت في هذا الوقت بالذات؟ فكرت لحظتها أن أعود إلى سيارتي وأقضي بقية الليل مع أصدقائي في ديبو- جاز الذين فضلوا العمل بحكمة للتحضير لمهرجان الجاز في أفريقيا الجنوبية على حضور العرض. دجو لم يعجبه كلياً ذلك البهرج. كرر كلمته المعتادة: فستي في فستي[118]. ولم يتبعوا غوايتي لأنه ولا أحد كان يعرف حرائقي. المرأة العجوز هدأتني قليلاً، لا أعرف بأي سحر. كنت أغلي لإحساسي الكبير بالظلم.

---

(118) كذب في كذب.

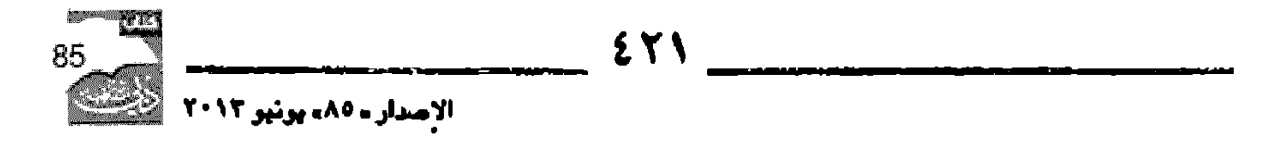
قبل أن أقطع الجسر، أغمضت عيني قليلاً لكي لا أُبقِي من مشهد البؤس إلا ما أشتهي. حاولت أن أنسى الشاحنة العسكرية وأغرق في كتلة ضباب الجسر الذي مُنِعت فيه السيارات غير الضرورية من المرور لهشاشته.

أغمضت عيني لكي أتجاوز ألمي ووجه ديف وحيف الزمن. ولكن حضوره كان طاغياً ولم أملك شيئاً لمقاومته. لماذ للفقدان كل هذا القدر من الحضور الشهي؟ تساءلت دون الرغبة في البحث عن إجابة.

كل شيء كان يشبه الدوار. ديف. الموسيقا. الضباب. أعالي الجسر المدوخة.

" مع الكأس الأولى ارتسمت في ذهن ديف أولى الكلمات.

- نحن نحب الرقص أيضاً... دن... دن... دن... ونحب شرب بيرة تانغو... دن... دن... لا ليس هكذا، ثقيلة قليلاً... في بلادنا الغالية...
- كلمة الغالية ثقيلة أيضاً... الجميلة أحلى... ألم تر دهشة الضباب... مع أننا نكره الرصاص والحرب ونحب الحياة...
- براڤووو... هي بالضبط ما كان ينقصني. نحن أيضاً نكره الحرب... ونحب التانغو... وجدتهااااا... وجدتهااااا... راحت عليك يا عزيزي أرخميدس. «



أفتح عينين متعبتين بصعوبة. أشعر بالغبن. أرسم ابتسامة خجولة وخائفة وأنا أقطع معابر الجسر، مع تلويحة طيبة للحرس الوطني الذي لا يأبه بي كثيراً، ربما بسبب هندامي الغربي. ألبس كاب سوداء. وقبعة حمراء. وكوفية بيضاء ناصعة مثل الثلج، ولباساً تحتياً بلون بنفسجي يتماوج بين الفاتح والغميق. أعرف أن فاوست يحب هذا اللون كثيراً، وسيسعده ذلك عندما يراني. كنت أيضاً أحمل مطرية تعبث بها الرياح والأمطار وبي كما تشاء في أعالي الجسر. منذ زمن طويل لم أقطع هذا الجسر الذي يقود نحو جنوب المدينة حيث تتربع الأوبرا الوطنية بكل ثقلها وهندستها الإيطالية.

كان الضباب كثيفاً. أبدو لهم على الجسر مجرد ظل هارب، لكن ملامحه الأنثوية واضحة. غلاف شفاف كان يغطي الجسر في جزئه العلوي. حاولت أن أنسى صوري القاسية. خلتني فجأة في عمق غولدن بريدج في سان فرانسيسكو[١١٩]. يسحرني بجبروته وجماله وتوغله الدائم في عمق ضبابه. يتكون لدينا الإحساس ونحن نقطع هذا الضباب كأننا داخل غلالة شفافة. ديف، على الرغم من أحاسيسه الرهيفة، كنت كلما أظهرت له رومانسيتي المعاندة، ونحن على هذا الجسر بالذات، أعادني إلى الحقيقة التي كانت عيناي ترفضان رؤيتها: من يقف

(١١٩) Saint Francesco / Golden Bridge.

وراء الزجاج ليس كمن يقف خلفه في العراء. واحد يعاني من تخمة الحياة وفيض الشمس الذي يدخل إلى كل زوايا بيته، والآخر يتضاءل أمام تخمة الموت والرطوبة الخانقة. جربي المبيت ليلة واحدة في بيوت القصدير التي يتوالد فيها الموت اليومي وسترين كيف أن رومنسيتنا جميلة وقاهرة. بيتي ليلة واحدة في العراء وسترين إذا ما كنت ستحبين المدينة على هذه الصورة وتعشقين هذا الجسر الذي يربط شمال المدينة بجنوبها في ألق غريب يعطينا الإحساس بأننا نصعد نحو الله ثم ننزل إلى جنة الأرض. ربما لهذا أيضاً لم نبق مع بعض أنا وديف. هو اختار الغوص في الحياة حتى الموت بكل تفاصيلها اليومية، وأنا اخترت أوهامي الجميلة والقاتلة. أحياناً أتساءل بخوف إذا لم يكن فيّ الشيء الكثير من فيرجي؟ قطعت الجسر بسلام. تفاديت الدخول إلى بار أبي نواس الذي كان يتلألأ بأضوائه الناعمة. يُرى من بعيد وهو أول مكان بعد معاناة الجسر. كُتِب تحت بار أبي نواس بحروف لاتينية ضوئية خجولة اسمه القديم Bar le Marquis de Sad. واجهتني المكتبة الملتصقة بمقهى ستاريوك الذي لا أحبه ولا أدخله. مكتبة[١٢٠] Les Beaux arts. هي آخر ما تبقّى من معالم المدينة القديمة. أو على الأقل هذا ما كنت

(١٢٠) مكتبة الفنون الجميلة.

أظنه. فاجأتني اللافتة الموضوعة على واجهتها : تصفية Liquidation. حيطان للبيع. كتب رخيصة. تنفست رائحة البحر بحنين كبير. تذكرت والدي حينما كان يأخذني إلى الساحل. نمر أولاً على مكتبة الفنون الجميلة. نشتري آخر الإصدارات الأدبية، ثم نقضي اليوم كله في البحر. لا نشوي من السمك إلا ما نصطاده. كنتُ كلما تحرك أمامي، رأيت زوربا. وكان يعرف ذلك. مرة فجأني وقال لي: انظري. رفع رأسه إلى السماء، ويدأ يدور على الرمل، يدور بلا توقف. تحوم على رأسه الكثير من النوارس المأخوذة برقصته، وبرائحة السمك التي كانت تملأ يديه وألبسته، لأنه كان ينظف الأسماك الكبيرة على الساحل قبل أن نعود إلى البيت. رقص ورقص حتى بدا لي زوربا حاضراً أمامي بشاربيه الطويلين. رقصة زوربا. تأكد لي يومها أني لم أخطئ في والدي حينما منحته لقب زوربا. عندما تعب، شرب بيرة تانغو ونام على الرمل مثل الطفل. وربما داخ. غطيته بالفوطة، ورفعت رأسه قليلاً، بينما انغمست مع النوارس أطعمها سمكاً طرياً مما اصطاده بابا زوربا وأتسابق معها على الساحل الممتد على مرمى العين. كنت أسعد مهبولة على البحر. كان الساحل خالياً. خالياً إلا مني ومن زوربا الذي أعدت اكتشاف طفولته.

كنت غارقة في اللون الأزرق الذي يكسو المكتبة كلها. إذاً لم أدخلها بعفوية! لجاذبية الأزرق شيء في الغواية. كانت رائحة البحر تدخل من النافذة حتى رفوف الزاوية. أخذت رواية كافكا على الساحل لموراكامي، وأخذت أيضاً التحول أو المسخ لكافكا. اشتهيت إعادة قراءته. رأيت الجميلات النائمات. لياسوناري كواباتا. غلبتني ضحكة ملأت قلبي. رأيت الشيخ الساحر إيغوشي وهو يبحث عن لذة هاربة، في بيت غامض، أمام شابة مدهشة، لكنها نائمة بسبب المخدر القوي. يتذكر شبابه ونساءه ونعومة طفولته وهو على حافة الموت. ضحكتُ لأني في لحظة من اللحظات رأيت أيضاً فاوست شبيهاً لإيغوشي. لكن إيغوشي كان أجمل، ووفياً لحياته حتى في شيخوخته. انتابتني رجفة انطلقت من الأعماق وشعرت بها تستقر في عيني لهباً حارقاً قبل أن تنزلق نحو رجلي اليمنى التي ارتفعت من تلقاء نفسها. رأيت فجأة فاوست الذي باع نفسه للشيطان يتحول إلى غريغوري سامسا. كان المسكين يرتعش تحت حذائي الخشن. التقت عيني بعينيه، ورأيت في لحظة هاربة كل الخوف الذي سكنه بقوة. بضربة جافة نزلت بأسفل حذائي عليه حتى شعرت به يلتصق كلياً بالأرض. ضغطت مرة أخرى حتى سمعت شيئاً يكسر تحتي.

كانت قوقعته الصلبة وأجنحته التي لم يستعملها للطيران، قد التصقت بالأرض واختلطت مع اللزوجة التي يلتصق بها من حين لآخر على الحيطان. لم أقتل غريغوري سامسا لأني يوم قرأت التحوّل لأول مرة تعاطفت معه كثيراً. لم أقتل حبيبي فاوست. لكني قتلت نفسي. وربما قتلت صرصوراً قبيحاً كان ينام في داخلي. وربما قتلت فاوست، أي فاوست، يبيع نفسه للشيطان.

بدت اللطخة واضحة عندما سحبت حذائي. ركضت نحوي صاحبة المكتبة السيدة الصينية وهي تعتذر:

- هذه الصراصير كارثة. فعلنا كل شيء للتخلص منها، لكنها من حين لآخر تبهدلنا أمام زبائننا الأوفياء والطيبين. معذرة.

- لا شيء. قتلت فاوست. فاوست الحقيقي الذي باع نفسه للشيطان.

لا أدري لماذا أجبتها بتلك الطريقة. ضحكت السيدة الصينية.

- قصدك مفيستوفيليس، فهو من يستحق ذلك لأنه هو سبب اللعبة كلها.

- وفاوست مسؤول أيضاً. لأنه لم يكن واضحاً مع نفسه.

- على كل لم تقتلي في النهاية إلا صرصوراً بشعاً.

ولو أني لا أقتلهم. ألقي عليهم القبض وأرميهم في الحديقة وأتركهم هناك يختارون نهاياتهم، الموت برداً أو الدفن في مجرى ما.

اشتريت كتبي وأنا أشعر ببعض الانتشاء.

وصلت مبكراً إلى الأوبرا التي كانت لا تزال مغلقة على الرغم من أن ساحة المسرح كانت شبه ممتلئة. دخلت إلى بار الأوبرا. كان الناس منغمسين في الألعاب. اخترت الزاوية الأقل اكتظاظاً. بدا لي في لحظة من اللحظات، كأني كنت في مدينة أخرى لا أعرفها. لا أدري إذا ما كانت هي الصدفة أم الحقيقة! كانت الموسيقا هادئة. أعتقد أنها كانت لستراوش الدانوب الأزرق. سمعت شاباً يقول لصديقته التي تواجهه بعينين غبيتين فارغتين.

– هل تعرفين الدانوب الأزرق؟

– ماركة عطور هههههه؟

ضحكت ببلادة. وجاراها في ضحكتها متفادياً إحراج بلادتها.

– لا. أتحدث عن هذه الموسيقا. مش على الفاضي ألمانيا هي أهمّ دولة أوروبية. لو فقط كانت النازية رحيمة شوية، لتغيرت البشرية نحو الأفضل. لكن المهبول انتاع هتلر كان

يريد كل شيء أو لاشيء، في وقت قصير وضد العالم كله. الكبار هكذا، لا يقبلون بأنصاف الحلول.

– يا يما! هتلر! هذا غول في هيئة بشر.

– الذين وقفوا في وجهه لم يكونوا ملائكة. أحقادهم لم تكن أقل من جرائمه. يقتلوننا اليوم ويلصقون لنا التهم التي يشاؤونها. حكم الأقوى حبيبتي.

كدت أصرخ في وجهه: يا حمار والملايين التي سرق منها حياتها لا تساوي الشيء الكثير بالنسبة لك؟ اطلب بيرة كما كان يفعل أبي كلما نزل إلى بار أو مقهى. يضحك عندما تنهره أمي:

- صحتك.

- أتدرب. على الأقل برفع كأسي عالياً، عندما أقابل ربي أعرف واش أقول له، وإلا سأكون عاجزاً عن الكلام. والله لا يحب الصامتين القانتين.

تسأله أمي بلغتها الفرنسية الأنيقة وعفويتها.

- من هم القانتين يا خويا زبير؟

يضحك طويلاً وهو يشرب دفقة كبيرة من بيرة تانغو:

- اللي يقبضوا القنوتا. ما يعرفوا يديروا والو. الحيط الحيط لا يتحركون. ما يقتلوا ما يحييوا.

- هاذو هم القانتين؟

- نعم. أصحاب القنوتا. أي الزوايا. يسمونهم اليوم الحيطيست، الذين لا متكأ لهم إلا الحيطان.

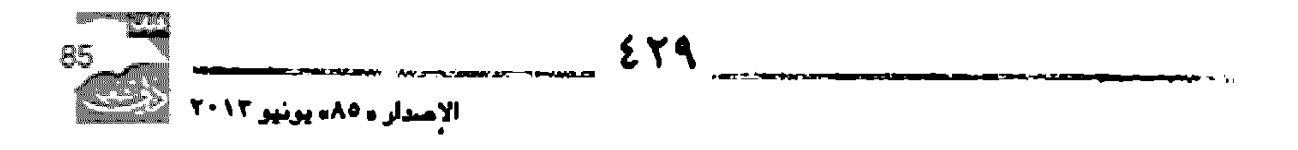
عرفت طبعاً أنه كان يعني أمي التي كانت وقتها تفكر في التقاعد نهائياً بعد أن أصبحت المدينة خطيرة عليها. والتهديدات ضد الأجانب ومدرسي اللغة الفرنسية، تزداد كل يوم أكثر.

للمرة الثانية طلبت بيرة من النادل، كأنه لم يسمعني.

- بيرة خويا من فضلك. تانغو لو سمحت.

سمعني، متأكدة من ذلك، لكنه تظاهر بالانشغال بزبائن آخرين. أخيراً جاءني ووجهه أحمر من شدة الارتباك، بعدما قام شاب طويل القامة، أشقر قليلاً، بشعر ملفلف مثل الخواتم الكثيفة. قال له شيئاً في أذنه اليسرى لم أعرفه. بدا عليه نوع من الانزعاج، ولكن يبدو أنه انصاع لأمره اضطراراً. لم يقل شيئاً. وضع بيرة تانغو أمامي بنوع من العنف ثم غرق في الدوران حول الطاولات، والاستجابة للزبائن الذين كان أغلبهم يطلب بيرة مضغوطة.

مرّ بذهني أن أقوم من مكاني وأغسل النادل وأبهدله. لكن تدخل الشاب أوقف جنوني. أعرف أن بار الأوبرا، البيرة فيه



غير ممنوعة. حتى في أيام الحرب الأهلية، الوحيد الذي يبقي مفتوحاً حتى ساعة متأخرة في الليل، ولم يستجب لتخويفات القتلة. ولهذا كنت أجيئه براحة عندما أصاب ببعض القلق. كثيراً ما كنت في كل مرة، أصادف بعض الفنانين الذين يمر قدامهم العابرون، فيتصورون معهم، أو يستجيبون لهم بسخاء لتوقيع ما يريدون.

عندما انتهيت من كأسي الأولى، وشعرت ببعض الدفء، وبدأت أتأمل الأمطار التي كانت لا تزال تتساقط خيوطاً ناعمة من السماء. جاء نحوي الشاب الوسيم الذي كان قد عزّر النادل. كان يجلس في الطاولة المقابلة لي. وقف بالقرب مني. تأمّلني قليلاً مع ابتسامة أنيقة لم تترك لي فرصة لرفضه. ولأنه كان به شيء من فاوست، فلم أنهره. بدا لي كأنه يعرفني، أو رآني في مكان ما. تمتم بلباقة.

- ممكن أجلس.

- تفضّل.

- أعتقد أني أعرفك.

ضحكت.

- أنا مارغريت؟ وإذا حبيت أن تدقق أكثر، اسمي الثاني ياما.

- اسمك مستعار؟ كما أغلبية الممثلات؟

- لا اسمي الحقيقي. أنا صديقة فاوست وليد عمي غوته!

نظر إلى وجهي بسرعة ولكنه دخل عميقاً في منطقي، أو هذا ما شعرت به.

- عمي غوته... إيه ولمَ لا؟ مع أني أعرف أن غوته شاعر ومسرحي ألماني، ولكن! في هذه البلاد كل شيء ممكن. بلاد مفيستوفيليس.

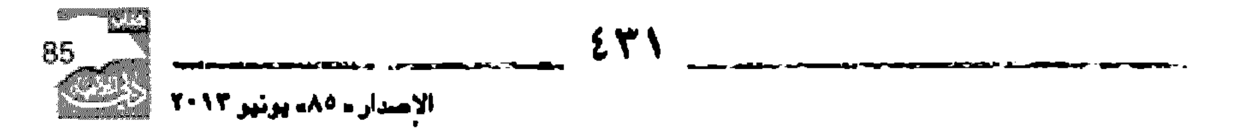
لم أخفِ دهشتي من شاب لا شيء يوحي فيه أنه يعرف تفاصيل الأشياء.

ثم من جديد هز رأسه قليلاً وهو يفكر. لم يدرك أنه كان يتكلم مع مجنونة لا تعرف كيف تعيش خارج مملكتها. ومع ذلك شعرت به يحمل في عينيه قدراً من الذكاء. فقد نجح في الامتحان الأول. الذين أصدمهم بجهلهم يخلون المكان بسرعة عادة. هو لم يفعل لأنه كان يعرف غوته.

واصل وهو بالكاد يكتم ابتسامة ملعونة ارتسمت في عينيه أكثر من شفتيه.

- اسمك لا يوحي بأنك من هذه البلاد. مارغريت؟ اللهم إذا انتحلتِ اسم غريتشن المسكينة.

- هكذا غلبتني يا صاحبي. باستا. أحييك. أنا وأبي وأمي وجدي من هذه الأرض المجنونة. والدي كان يحب امرأة في صغره اسمها مريم. عندما وُلدت مع أختي، توأمي، قسَم



علينا اسم مريم، هي سماها ماريا، وأنا ياما. عندما تجمع بينهما تصبحان: مارياما. مريم. وأنا لا أعرف الكثير عن نفسي. عشقت رجلاً مسرحياً أسميته فاوست فسماني غريتشن. مارغريت.

- عاشت الأسامي. ياما جاز. كنت أعرف أنك أنت هي. حاسة شمّي لا تخطئ إلا قليلاً. عازفة الكلارينات في فرقة ديبو- جاز؟ هل أخطات في ظني؟ لا أعتقد.

كدت أصرخ في وجهه فرحاً: الحمد لله لم تفقد هذه البلاد ذاكرتها.

- لم تخطئ. ولكني الآن أنا بعيدة قليلاً عن الفرقة.

- خسارة. حضرت سهرتين لكم منذ فترة بعيدة. الأولى في ديبو- جاز عندما تم ترميم المخزن، والثانية والكبيرة والعظيمة التي هزت أكثر من ألفي حاضر يومها، في صالة الماجستيك الجميلة، في عمق المدينة، وفي عز الأزمة. يومها هددوا بحرق القاعة لكن المدير كان رجلاً ونص. قال. افعلوا ما تشاؤون. السهرة ستتم ومن حق الشباب أن يفرحوا. الناس حضروا تحدياً بعد أسبوع من الملاسنات الإعلامية.

- يااااي... مازلت تقول الماجستيك وليس صالة الأطلس.

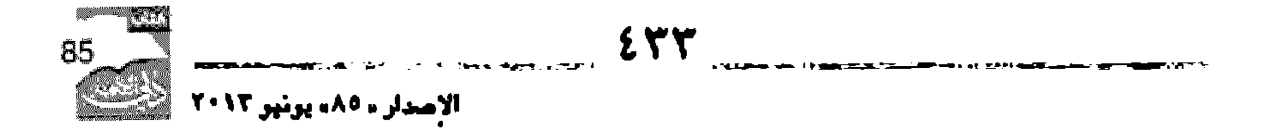
- الأطلس اسم سلسلة جبلية عظيمة، لها تاريخ كبير.

أوكي. يمكن أن يكون اسم أي شيء آخر، لا مانع لدي. لكن ليس قاعة سينما مثل الماجستيك، لها مسار مدهش. أقسم بالله أن من سماها الأطلس، لم يكن يعرف شيئاً عن السينما.

- سرقوا كل شيء جميل. صالة مدهشة. كان والدي يترحّم على صاحبها كلما تحدث عن الماجستيك. الله يرحم جوزيف سايبيرا[121]. كان مشبعاً ومجنوناً بالفن السابع. في زمن قياسي شيد واحدة من أجمل وأوسع وأحدث وأرقى صالات السينما في العالم، الماجستيك Le Majestic. مع ثلاثينيات القرن العشرين نفّذ حلمه المدهش الذي سكنه زمناً طويلاً. منح مدينة الجزائر أجمل وأكبر قاعة سينما، تستوعب ٤٠٠٠ شخص. لتنفيذ هذه المَعلمَة العظيمة احتاج إلى ١٥٠٠ متر مربع من الأرض، في حي باب الوادي. وجاء باليد العاملة المحترفة من أقاصي البلاد وإيطاليا. فكانت عاشر، أعظم قاعة سينما في العالم. بتقنية غريبة وفريدة في وقتها، أدهش كل عشاق الفن السابع. لا يوجد بصالة العروض أي سقف. العلو مفتوح كلياً على الفراغ، وعلى السماء وعطر البحر، بطول ٢٣ متراً في ١٣ متراً. في حالة الأمطار والرياح، تكفي دقيقة واحدة لتلتقي القطعتان المعدنيتان بصمت، وتنغلقان بإحكام،

---

(١٢١) Joseph Seiberras.



بدون حتى أن ينتبه الجمهور لذلك. تخيّل منصة قادرة على استقبال أكثر من ٤٠٠ ممثل وفنان ومسرحي! قاعة العروض كانت مجهزة بأحدث الوسائل. في عمق الماجيستيك، بار أنيق مطرز بكل الأشياء الجميلة والمنحوتات. اضطر سايبيرا إلى أن يستعين بالنحات المشهور علافيليب[١٢٢] لينمق الداخل وقاعة المعارض الفنية. ومع ذلك بقي فيه سخاء السينمائي الأصيل. فقد ظل سايبيرا مرتبطاً بالأعمال الخيرية، في حالة إصغاء لحاجيات المستشفيات والملاجيء ودور الأيتام من الأدوية. كانت الماجستيك قِبلة كبار الفنانين وعشاق الفنون، بالخصوص المضروبين على السينما. والدي عرفها في عزّها الأول، ودخل قاعاتها خلال الكثير من العروض المسرحية والموسيقية والسينمائية. عندما يحكي عنها بدفء عال، أشعر بغيرة كبيرة لأني لا أرى اليوم، على الرغم من كل تفاؤلي وحبّي لأرضي، أي ملمح مما كان يذكره، في ما كنت أراه في صالة الأطلس التي لا تبدو فقط ثقيلة ومتعبة، وفي أغلب الأوقات فارغة، ولكن أيضاً حزينة ومنفصلة كلياً عن تاريخ صاحبها طويلاً. عندي في غرفتي صورتان كبيرتان عنها.

- واااااو. أي حظ.
- الصورتان لوالدي، لا أدري من أين جاء بهما. ظل

(١٢٢) Alaphilippe.

محتفظاً بهما مدة طويلة في أرشيفه الخاص. الأولى صورة حقيقية عن صالة الماجستيك، باسمها الأصلي، كما كانت في بدايات القرن العشرين. بينما الثانية بها إعلان عن سهرة بول أنكا[١٢٣] ، تظهر فيها كل تفاصيل السهرة. الفنان. اليوم. الساعة. الفرقة. المرافقون. المشرفون. كلما رأيتهما بدا لي الزمن مختزلاً وقصيراً، وشعرت أن الدنيا ليست بخير.

- أنا أيضاً مندهش في كل ما تقولينه. كل واحد فينا يشعر بذلك المزيج من الفرح والمرارة القاسية. سعيد أن القاعة لا تزال قائمة ولو تحت مسمّى آخر، أطلس، ولكنها للأسف فقدت روحها نهائياً. من يعرف اليوم كل تلك القصص التي تنام في عمق الماجيستيك؟ هل تتصورين أن الأغطية المعدنية، من كثرة إهمالها تصدأت. وعندما رُمّمت الصالة، عوضوها بسقف اسمنتي ثابت.

نادى النادل باسمه للمرة الأولى. كدت أضحك ولكني تماسكت.

- خويا حبيب الله... ثلاثة تانغو وبسرعة.

ثم التفت نحوي. كان على وجهه بريق طفل على الرغم من خدوش السنوات القاسية.

- أتذكر عزفك الحنون، وأتذكر أيضاً صوت السوبرانو

---

(١٢٣) Paul Anka.

الجميلة صافو التي كانت قريبة منك ومتواطئة جداً معك. دجو. أنيس القيثاريست.

- وأنت ماذا تفعل في الحياة؟

- لا شيء. كاتب نصوص مسرحية فاشل على طول الخطّ. كنت في المسرح الهاوي قبل أن تُحلَّ فرقتنا بسبب صعوبات مالية كثيرة، ونجد أنفسنا كل واحد في مكان. ربما مثلكم. ضيقوا علينا. لا قاعات، لا عروض، حتى اختنقنا من تلقاء أنفسنا. لا توجد رقابة رسمية في بلادنا ولكنها الرقابة الصامتة التي تطلق عليك النار دون أن تتمكن من الرد عليها. الرقابة الأكثر تخلفاً ويؤساً. وأنت؟ ماذا تفعلين حالياً؟

- أعود إلى الفرقة بهدوء. أعزف معهم في ديبو- جاز كلما كان الأمر ممكناً. هم يحاولون حالياً أن يتجددوا. فيهم شباب مدهش حقيقة. أنا سعيدة أن ديبو- جاز لم تمت. لكن عملي الأساسي صيدلانية. بالعربي الفصيح فرماسيانة ههههه...

- مليح أنهم لم يموتوا وقاوموا الانكسار الذي عمّ كل شيء. سأحضر احتفالية الجاز الوطنية هذه السنة فقط لأعاود العلاقة مع هذا الفن النبيل والاحتجاجي ضد كل يقين موسيقا. تمنيت دائماً أن أحضر مهرجانات الجاز الكبيرة

كمهرجان سان فرانسيسكو، مهرجان مونتريال، فستيفال فيينا للجاز وغيرها ولكن الإمكانات اليوم أصبحت لا تسعف. الكثير من الموسيقيين الكلاسيكيين الكبار استلهموا بعض عناصر موسيقاهم من هذا الفن الشعبي. موريس رافيل مع بوليرو وكونشيرتو اليد اليسرى[١٢٤]. وداريوس ميلهود في خلق العالم، فرانسيس بولانك في كونشيرتو على بيانو مزدوج وأوركسترا. وإيغور سترافانسكي في إيبوني كونشرتو. كارل جنكينز في صلاة الرجل المسلّح[١٢٥].. وغيرها. حتى في الفن التشكيلي، هنري ماتيس[١٢٦] مثلاً كان مؤمناً بالجانب العفوي لهذا الفن. فقد أصدر في ١٩٤٧ كتاباً من الرسومات المائية أسماها جاز Jazz ، ونيكولا دو ستايل[١٢٧] رسم الكثير من وجوه الجاز ونواديه. جون ميشيل باسكيا[١٢٨] أيضاً، رسم في لوحاته احتفاليات كبار أسماء الجاز مثل شارلي باركر، نات كينغ كول، ليستر يونغ، ميل ديفس[١٢٩] وغيرهم.

---

(١٢٤) Maurice Ravel et ses Boléros.

(١٢٥) Darius Milhaud et la Création du monde, Francis Poulenc et son Concerto pour deux pianos et orchestre, Dmitri Chostakovitch et sa Suite pour orchestre de jazz, Igor Stravinski et son Ebony Concerto, Karl Jenkins avec la Messe de l'Homme Armé.

(١٢٦) Henri Matisse.

(١٢٧) Nicolas de Staël.

(١٢٨) Jean-Michel Basquiat.

(١٢٩) Les grands noms du jazz: Charlie Parker, Nat King Cole,

أغمضت عيني قليلاً وأنا أستمع لتفصيلات كلامه. عندنا مثل جميل يقول: العود اللي تحقره يعميك. سعدت أنه لا يزال على هذه الأرض الغامضة من يحب الجاز ويركض وراءه، بينما يعتبره بعض عميان القلب، فن الانحراف بامتياز. الغريب أني شعرت براحة استثنائية. فجأة ونسيت حادثة السيارة العسكرية التي كادت تقتلني، واكفهرار وجوه حرس الجسر، والنادل الغبي الذي رفض، بقرار دماغي متخلف، أن يلتفت نحوي عندما طلبت بيرة تانغو.

- واااااو!! تدهشني يا عزيزي. أنا معك في كل ما قلته.

في مثل هذه الحالات تحتاج الفرقة إلى شخص يضحّي بكل شيء، وقته وماله وحياته، وإلا يسقط كل الصّرح الذي بُنِيَ في لحظة واحدة. من حظ ديبو- جاز وجدت شخصاً متفانياً مثل دجو الذي استطاع أن يجدد الفرقة ويمنحها حياة جديدة.

- ديميس روسوس ههههه... صاحب اللحية الكثة.

ضحكت. أتقن الصورة بقوة. ديميس. في هذا الرجل شيء منّي. هو أيضاً يبدو أنه مصاب بجنون تغيير الأسماء. دميس الضخم وذو الأصول الإغريقية يشبه حقيقة دجو. فوجئت أني لم أسبقه لهذا؟

Lester Young, Miles Davis...

- هو عينه. رجل في قمة الوفاء. أساعدهم أنا أيضاً من حين لآخر قدر ما أستطيع.

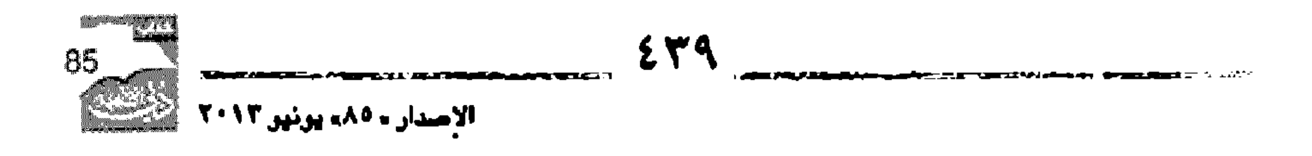
فجأة حدثت حركة غريبة وضجيج في الخارج. كان المشهد واضحاً من وراء زجاج بار الأوبرا. كان الأطفال يتقاتلون ويترافسون بالقرب من الأوبرا. بمجرد أن وصلت السيارة السوداء، حتى أحاطوا بها من كل الجهات. كل واحد يريد أن يكون هو الأقرب.

- ماذا حصل؟

كلمت الشاب الذي ظل أيضاً منهمكاً في المشهد ويريد أن يخرج من الزجاج ليلامس تفاصيل المعركة التي كانت تدور رحاها تحت أمطار، كثيفة ورياح قوية في الخارج.

- لا شيء. الفنان الجديد اللي جابوه من إسبانيا. يبدو عليه أنه طيب وساذج. يستعملونه مثل الخرقة البالية ثم يرمونه. أنا هنا لأرى مسرحيته لعنة غرناطة وأستفيد من توقيعه هههه. تخيلي لا يوجد أي محل. العرض الأول بيع كلياً. حتى الكراسي الإضافية. الألف كرسي كلها بيعت وربعها محجوز سلفاً لوزير الثقافة والسياحة وحاشيته المباركة.

- أنا هنا أيضاً لرؤية لعنة غرناطة. ثم أني أتمنى أن



أقرأها. قرأت له الكثير. قال في أحد حواراته: من يقرأني عليه أن يقتنع للمرة الأخيرة بأنه في الأدب ولا شيء غير الأدب أنا فيه مجرد صورة عابرة أو شخصية وهمية. أتمنى أن نجد ذلك في مسرحيته.

- كله فيستي يا أختي ياما. تحبين الحقيقة. أنا أيضاً من عمال المسرح. بعد دورة تعليمية استمرت سنة، وجدت نفسي مهندساً ومركب ديكور. كان عليَّ أن أفعل ذلك، بعد انهيار فرقتنا الهاوية. لم أحصل على أية دعوة لهذا العرض. بطاقتي اشتريتها ولم تُصدق عليَّ. الوزارة لم تفعل مع أي شخص ما فعلته معه. محظوظ وزيادة. هو معروف أكيد. وتحصل على جوائز عالمية، ومرشح لجائزة المسرح العالمي، هذا كله يفترض أن يدفع به إلى التواضع. الذين عرفوه قبل سنوات الرماد، يقولون إنه كان موهوباً وبسيطاً، وكان مناضلاً ونقابياً أيضاً. لا يعرفون كيف قبل بهذا المهرجان الكاذب. هم في حاجة إلى من يبرر إخفاقهم في كل شيء، فكان مطيتهم الجميلة. ربما أخيب ظنك ولكن هذا رأيي ورأي الكثير من عمال المسرح من أصدقائه.

- لكنه فنان كبير، ومن حقّ دولته أن تهتم به.
- طبعاً. لكن أن يبقى في سموه العالي. على كلّ هو عاد عودة الفاتحين. إن شاء الله فقط تكون مسرحيته في مستوى ما ينتظره الجمهور منها. يقال إنه سيُعين مديراً للمسرح والأوبرا الوطنيين. أصبحت هذه الفرضية شبه مؤكدة. المدير السابق هلكوه واستنزفوه، حتى أصبح مثل الحطبة اليابسة. وهو مريض جداً. ولا يحضر أي نشاط منذ شهور. في مرة من المرّات قالوا إنه توفّي قبل تكذيب الوزارة. أشكّ في أنه سيتمكن من حضور هذا العرض.
- لا أعتقد أن فادي سيقبل. ليس إدارياً في النهاية هو فنان.
- في هذه البلاد، كلما حاولوا أن يغتالوا فناناً أو كاتباً، منحوه إدراة معقدة وأغرقوه في تسيير رواتب العمال وفي إضراباتهم الاجتماعية، حتى يصبح مكروهاً من الجميع. وينتهي به الأمر إلى المرض والذبول، ثم الموت البطيء. لقد حرثتُ كل مدن الجمهورية ومسارحها ليلاً نهاراً، وتعرّفت عن قرب على هذه الحقيقة القاسية والصعبة.

- أنت متشائم جداً.

ضحك من جملتي طويلاً. في محياه الكثير من النباهة والذكاء. عيناه تضحكان دائماً تلقائياً حتى عندما تكتم شفتاه الابتسامة. فجأة لمع وجه ديدالوس في عيني مثل خيط من النور.

- خلينا من ربّهم. تانغو أخرى؟ اشربي. اليوم خمر، وغداً خمر أيضاً هههههه. كل الناس الحيط الحيط. حشيشة طالبة معيشة. ليكن. أنا هنا. حي والحمد لله. سكرة وفكرة وتكركيبة مع الدروج. نسيت أن أقدم لك نفسي. أنا نور الدين. أو ديدي كما ينادينى أصدقائي المقربون.

ضحكت دون قصد. ربما لأن مفعول البيرة الوطنية تانغو كان كبيراً. في بلادنا لا نرقص التانغو ولا ندعو من نحبه لرقصة تانغو، ولكن نشرب تانغو ثم نسكر بسرعة. ربما ضحكت لهذا السبب الذي قد يكون بليداً. وربما لتلاقي تسميتي التي أعطيتها له ديدالوس باسمه ديدي. ضحك معي بعينيه وبكل حواسه. الغريب أن هناك في بعض الناس شيئاً غامضاً يؤهلهم لأن يكونوا أصدقاء بسرعة، والبعض الآخر نرفضه دون سبب ظاهر يتضح لاحقاً،

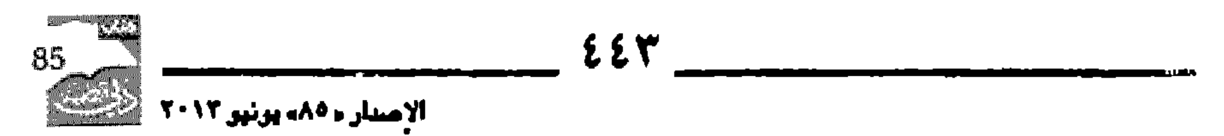
وقليلاً ما تخطئ حواسنا فيه. ديدالوس كان من النوع الأول. يمتلك قدرة غريبة لاختراق الغشاوات الوهمية، والحيطان التي نتستر بها تفادياً للبشر والخوف الذي تنشئه المدينة فينا كل يوم.

- أعرف لماذا تضحكين. تذكرت ديدي للشاب خالد ههههه.
- ههههه. لا أحب هذه الأغنية. أنا من عشاق لاكاميل[١٣٠]. ولكن يوم سمعت بأنه سرقها من الشيخة الرميتي وسجلها باسمه حزنت جداً. هي كانت امرأة هشة وذبل زمانها وهو كان في عز شهرته. أضحك ببلادة فقط ههههه. أحياناً لا نحتاج إلى سبب واضح لنضحك. ربما لأن كلمتك أعجبتني: سكرة وفكرة وتكركيبة مع الدروج. رأيتك وأنت في عز فرحك، تتدحرج من أعالي الأدراج حتى آخر درجة. تخيل، منذ اللحظة الأولى رأيتك تشبه شخصاً غريب الأطوار اسمه ديدالوس.
- هههههه. مليح ومناسب. أي حظ؟ ستيفان ديدالوس[١٣١]. تنقصني فقط دبلن وليلة صيفية من

---

(١٣٠) La Camelle.

(١٣١) شخصية Stephen Dedalus هو بطل رواية يوليسيس لجيمس جويس. Ulysses de James Joyce



سنة ١٩٠٤، والركض في خفاياها يوماً كاملاً، من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثالثة فجراً. وأحتاج إلى صديقي ليوبولد بلوم[١٣٢] بكل ثقله، لنغرق معاً في نقاش بلا حدود، حول جنون الحياة وهوس الجنس ورعشة الخوف. موافق. أنا ديدالوس المهبول هههههه

كدت أضحك مرة أخرى من طريقته المسرحية في الحديث. فوجئت من نباهة ديدالوس وسيره معي على الإيقاع الجميل نفسه. كان منتشياً ورائعاً. لم يكن شخصاً عادياً. حتى بدا لي، في لحظة من اللحظات، أني كنت في بار الأوبرا فقط لشرب كأس بيرة ولست ملتزمة بأي شيء آخر. ولا حتى بمسرحية حبيبي فاوست.

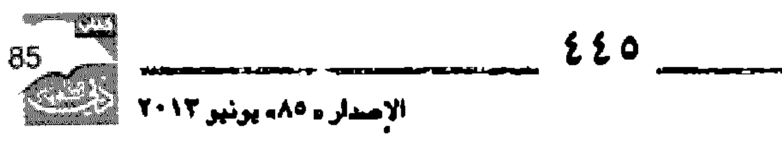
- ديدالوس حقيقي هههههه.
- هههه اسم جميل. خلاص سأتبناه بدءاً من هذه اللحظة.

لم أمانع ببيرة تانغو أخرى من يدي ديدالوس الطيب والرشيق. لم يكن يقول إلا حقيقة بتُّ أقاومها من أعماقي بلا نجاح كبير. بينما ظل نظري ونظر ديدالوس مشدودين إلى سيارة المرسيدس السوداء الثقيلة التي كان يتكئ عليها فاوست، الذي يظهر وجهه من حين لآخر بشكل

(١٣٢) Leopold Bloom.

واضح، من تحت المطرية الواسعة التي كان يثبتها أحد المرافقين على رأسه. وهو يوقع على كتب، ووريقات صغيرة للأطفال، وحتى على الصحف التي كانت تُقدَّم له. أو يحوطون به جماعياً لالتقاط صورة معه وهو ملتصق بالسيارة، محاولاً أن ينحني قليلاً مجاراة لقامات الأطفال القصيرة. الحراسة المشددة أبعدت عنه الكثيرين الذين بقوا على مسافة منه. أنا أيضاً فكرت في لحظة من اللحظات أن أركض نحوه وأرتمي في حضنه رامية عرض الحائط كل ما يمكن أن يقال عنه، ولكني تعقّلت لا أدري لأي سبب دفين! قوة داخلية منعتني من هذا الجنون الكبير.

في عمق التدافع رأيت امرأة كانت تعطيني ظهرها لم أعرف ملامح وجهها على الرغم من أن كل شيء بدا لي أليفاً فيها. كانت تحمل بين ذراعيها مولوداً ملفوفاً في ألبسة بيضاء وغطاء بلاستيكي، كانت تريد الوصول إلى فاوست الذي كان منشغلاً بالأطفال. كلما حاولت التقدم أرجعها المتدافعون والشرطة إلى الوراء. لدرجة أن الحارس الذي كان يصدها في كل مرة وهي تحاول أن تحدثه، رأيته يتكلّم في أذن فاوست الذي رفع رأسه قليلاً تجاهها ولكنه هز رأسه بالنفي. نفي ماذا؟ لا أدري ماذا قال له ولكن المرأة ظلت تتدافع باستماتة تحت



المطر رافضة الاستسلام، لكن دون أن تتمكن من العبور نحوه إلى أن يئست تماماً عندما رأته يمشي، ويندفن وسط شبكة الحرس المطوق له حتى ابتلعه باب الأوبرا الواسع، فتبعثر الأطفال في ساحة المسرح، ثم انطفأوا. كانت المرأة الحاملة للمولود تعطيني دائماً ظهرها، تنظر للمشهد ثم انسحبت بخطوات ثقيلة تحت المطر حتى اختفت من الجهة الخلفية من المسرح حيث الأدراج التي تصعد عالياً نحو مرتفعات المدينة القديمة. لا أدري لماذا تعاطفت معها؟ مع أنها كانت تشبه في كل شيء غريمتي ماسة، لم أتمكن من رؤية وجهها. لم أتذكر منها إلا لباسها الزهري. نزعت الفكرة من رأسي لأني افترضت أن ابنة أخته ربما هي الآن في دفء قاعة العرض مع الضيوف المخصوصين.

التفت ديدالوس نحوي. قرأ حزناً عميقاً في عيني. فاحتسى ما تبقى من كأسه بصمت.

كان المطر يتكسر على الزجاج بعنف كبير. وكان الضباب القادم من البحر المحاذي للأوبرا يغطي كل قبح الجهة الجنوبية من المدينة الجريحة، ويمنحها غلالة شفافة من البياض.

كنت سعيدة بالضباب الذي غلَف كل شيء نهائياً بحيث غاب فجأة، بضربة ساحر ماهر، الجسر الكبير، جسر العشاق، الأوبرا، الشرطة والناس الكثيرون. حتى وجه فاوست انسحب نهائياً من المشهد ولم يبق إلا الكم الهائل من البشر وهم يتزاحمون مثل موج البحر العاصف، عند مدخل الأوبرا.

تسليت ببيرة تانغو، الأخيرة التي أهداها لي ديدالوس وهو مشدود إلى ما كان يحدث أمام عينيه، قبل أن يعتذر لأنه مضطر للدخول على الرغم من أن كل شيء داخل المسرح، كان مهيئاً للعرض. نصحني بأن أنتظر قليلاً حتى يخف البشر قبل الدخول.

من وراء زجاج البار الدافئ، رأيت مدينة خائفة من المبهم حتى في سعادتها.

-٢-

لولا ديدالوس العارف بخبايا المسرح، ما تمكنت من الدخول إلى الأوبرا أبداً، حتى وأنا أحمل بطاقة، درجة بلكون لأني لم أعثر على غيرها في الإنترنت.

كان الازدحام جهنمياً. لم يخفَ أبداً على الرغم من انتظاري في بار الأوبرا. تساءلت في أعماقي عن مفعول الإعلام الوطني كيف يؤثر في الناس عندما يشاء. فقد جُنِّدت كل الأجهزة لذلك، ولا أدري أي حظ وأية نجمة لامسها فاوست. كان خائفاً من المجيء، وها هو يتحول فجأة إلى أيقونة وطنية جميلة. وجهه وهيأته جعلاه محبوباً في عين كلّ المارة.

في لحظة من اللحظات وأنا داخل الموجة البشرية تساءلت في داخلي: ما القوة الداخلية الدافعة لكل هؤلاء الناس لتحمل المطر والخوف والمجيء إلى هنا على الرغم من أن الحرب الصامتة لا تزال حية في حواس الناس شمالاً وجنوباً إذ يمكننا أن نفترض مثلاً بسهولة شخصاً يتماهى داخل هذا المدّ البشري، يضع قنبلته في المكان الذي يشاء ثم يعود إلى موقعه ويتأمل من داخل البيت المواجه للأوبرا، الانفجار المريع ويستمتع بمشهدية اللحم المتطاير والدم والرؤوس

المفلوجة. يمكنه أيضاً بكل بساطة أن يدخل في عمق الجمهور، وعندما يلاحظ في التفاتة أخيرة وخاطفة، إلى الوراء ثم إلى الأمام بأنه أصبح في الوسط تماماً ومحاطاً بكثافة بالناس، يضغط على حزامه الناسف. هذا وحده كان يمكن أن يجعل الناس يتراجعون عن المجيء نحو الأوبرا، ومع ذلك لا شيء من هذا حدث.

ما السر أو حتى ما المدهش في مسرحية تتحدث عن حرب أهلية مدمرة في مدينة غير مدينتنا؟ أو حضور شخص، أياً كانت قيمته، اختار المنفى الطوعي، طوال أيام النار والخوف، وجاء مرافقاً لمسرحيته، وليوقع كتابه لمحبيه؟ لا أدري! أعتقد أن كل شخص يحمل معه نجمته وغموضه وسرّه.

عندما رفعت رأسي لأتنفس قليلاً، بعد أن انسحب الضباب قليلاً، إذ شعرت باختناق كبير، لمحت الإعلان الضوئي الضخم عن المسرحية وصورة فاوست وهو يلوح بيد خفيفة، من عمق مسرح أجنبي، لجمهور لم يكن مرئياً. رأيت في عينيه لذة عشقية غريبة تشبه خزرة نارسيس وهو يتأمل وجهه في سطح الماء، ويرتفع نحو الأعالي. أذهلني وجه لوركا المدمى على الإعلان الثاني للمسرحية، فقد كانت هناك قرابة بينه وبين وجه فاوست. حتى الخط الذي كتب به عنوان المسرحية:

لعنة غرناطة، فقد كانت الأبجدية تسيل في شكل دموي، مشكِّلةً لطخات هنا وهناك على رماد الخلفية التي لم تكن كلياً بيضاء، بل كثيراً ما اخترق السواد جزءاً كبيراً من لوحة الإعلان. لكن عنف الألوان يجلب بالضرورة الناظر إليه.

تمنيت في لحظة من اللحظات أن يطلّ فاوست برأسه ويسحبني نحوه وسط هذا المد البشري. لكنه لم يقترح عليَّ حتى إمكانية انتظاره عند البوابة الخارجية لإدخالي برفقته، ووضعي في المكان الذي يليق بي وبه. لكنني عذرته لأنه منذ أن وطئت رجلاه هذه الأرض، لم يعد سيد نفسه.

فجأة حدثت فجوة صغيرة غير منتظرة، مر عبرها وزير الثقافة والسياحة وحاشيته. لا أدري كيف أحدثها الأمن وسط هذا المدّ البشري المتلاصق. في اللحظة نفسها التي التفتُّ فيها إلى الخلف لأرى إمكانية التراجع والعودة إلى بيتي وتفادي عبور الجسر ليلاً، لأني لم أكن قادرة على التقدم وأجراس العرض بدأت تدق، مما يعني أن المسرحية ستبدأ بعد قليل وكأنها كانت تنتظر فقط وصول الوزير، صاحب الحقيبتين أو القبعتين، كما يسمى. الجمهور المنتظر في الخارج كان أكثر من جمهور الداخل. في تلك اللحظة بالذات امتدت لي يد عرفتها من نعومة أظافرها إنها كانت يد ديدالوس الذي كان

بالداخل، وسحبني نحوه، وصعد جرياً نحو البلكون الثالث وهو يتنفس بصعوبة:

- بسرعة. سيبدأ العرض المسرحي الآن.

سمعت شتيمة قاسية وصلت إلى أذني في اللحظة التي وضعت فيها رجلي على درج الصعود:

- هذا مش مسرح. كل واحد يجرّ قحبته وراءه، ويتركوننا نحن ننتظر.

فكرت في الرجوع وأخذه من خناقه وألعنه وألعن المسرحية ومن نظَم اليوم كله. لكن لا أدري من أين نزلت عليَّ حكمة سقراط، ووجدت له كل الأعذار؟ كيف لامرأة تُسحب بيد مجهولة، مباشرة بعد مرور الوزير صاحب الحقيبتين، فتجد نفسها مع الأوائل، بينما ظل هو في مكانه ينتظر دور دخوله وبطاقته في يده؟ أو ربما لأنَّ ديدالوس الذي ظل يسحبني بقوة، لم يترك لي فرصة الالتفات.

لم أر في حياتي حضوراً مثل الحضور الذي انكب على مسرحية لعنة غرناطة. كانت السعادة والبهاء باديين على وجوه الناس قبل أن يفسد سوء التنظيم والفوضى كل شيء.

في الداخل أيضاً كان المسرح غاصاً بالحضور. كل واحد يحتل أكثر من ثلاثة كراسي في انتظار دخول صديقه أو



صديقته. طلب ديدالوس من شابة كانت تضع قبعتها على الكرسي الذي بجانبها أن تأخذها لأتمكن من الجلوس. كنت منهكة.

- سامية أختي يعيشك. وصلتْ السيدة اللي قلت لك عليها. شكراً.

- أوكي ديدي. مافيهش مشكل. جحيم هؤلاء الناس.

نزعت السيدة قبعتها الحمراء المموردة، فجلست. كانت ابتسامتها طيبة. بحثت بعيني عن ديدالوس، لكني لم أره. فقد كانت حركة البشر سريعة. تنفست الصعداء وانتظرت بهدوء انطفاء الأضواء. تأملت للحظة الكراسي الأولى، كانت كلها مشغولة بالرسميين. بانت لي صلعة صاحب الحقيبتين وقد استكان براحة.

تنفست قليلاً ثم أغمضت عيني. فجأة دخلت مقدِّمة الحفل لتحتل الركح. شابة كنت أراها من حين لآخر على شاشة التليفزيون تقدم برامج ثقافية فاشلة.

- سيداتي ساداتي. ها هي ذي البلاد تسترجع ابنها الضال.

شعرت برغبة فجائية في التقيؤ.

تذكرت القطن الذي في حقيبتي اليدوية. وضعت قليلاً منه بعد

أن لفلفته بين أصابعي حتى تصلب، في أذني لكي لا أسمع شيئاً. وبدأت أتسلى وأفترض من تلقاء نفسي ماذا كانت تقول ليصفق لها الناس بحدة. ولكني وجدت تسلية أخرى. كنت أعد لها كم مرة فتحت ذراعيها بشكل صليبي، وكم من مرة صفق لها الجمهور. وكم من مرة قام الجمهور من مكانه. كم من مرة توقف المايك، ورأيت مهندس الصوت يركض لتفادي أثر لارسن الذي يصمّ الآذان لأني رأيت جيراني من الحضور يغلقون آذانهم. أستطيع الآن أن أشحذ ذاكرتي جيداً لترتيب الأرقام. صفق الناس عشر مرات، ثلاث تصفيقات طويلة، وسبع تصفيقات انتهت بسرعة. عرفت ذلك طبعاً من حركة الأيدي. قاموا خمس مرات. واحدة طويلة افترضت أنها للسلام الوطني لأنها كانت في البداية. لم أسمع الزغاريد أبداً. وأربع مرات هي استجابة لشيء جميل. ثلاث مرات متتالية ركض مهندس الصوت لحل مشكلة صوتية ما. فتحت مقدمة الحفل ذراعيها ست مرات مع ابتسامة تحولت بسرعة إلى ضحكة مفتوحة كشفت عن فم واسع أكثر مما يجب. لم يكن جميلاً، وافترضت أن بعض الضحكات لم تكن في محلها لأن الجمهور لم يستجب لها.

ثم بسرعة نزعت القطن من أذني عندما رأيت المقدمة تمد

يدها إلى خلفية المسرح ليخرج منها فاوست بكل أناقته، تحت عاصفة من التصفيقات. كان يرتدي طاقماً خفيفاً أبيض قليلاً بعد أن نزع معطف الكاشمير الذي كان يغطيه وهو في الخارج. تمنيت أن لا يحكي كثيراً وحسناً فعل. بدا لي صوته ناعماً على عكس الصوت الذي سمعته وهو يعتذر لي في التليفون. الزكام أفقده وقتها كل نعومته التي أسمعها الآن. بحته كانت أيضاً جميلة عندما سمعتها لأول مرة. حتى أنّي لاحظت بعض الأنوثة الزائدة في سيولة كلماته، لكنه كان دافئاً وجميلاً.

- أرحب بكل الحضور. لا أثقل عليكم. أعتذر كثيراً للجمهور الذي بقي في الخارج لا ذنب لنا في ذلك. أشكر الجميع على محبتهم. أترككم مع مسرحية لعنة غرناطة. ليست غرناطة التي تعودتم عليها والتي بكينا كثيراً فقدانها. غرناطة تلك انتهت وعادت لأصحابها. ولكن غرناطة أخرى تشبه في كل شيء مدينتنا هذه. حتى لوركا الذي قتله الفرانكويون كما تعرفون، يشبه كثيراً الموجة الدموية التي سحبت وراءها خيرة فنانينا. لهذا، هذه المسرحية مهداة الليلة لهم جميعاً ولأرواحهم الزكية. نحن الذين كان لنا حظ الحياة والاستمرار، أصبح من الواجب علينا أن

نحافظ على الجمرة حية. أحيي كل مبادرات السلام التي تجري في البلاد، لكن السلام والذاكرة وجهان لشيء واحد: هذه الأرض الطيبة.

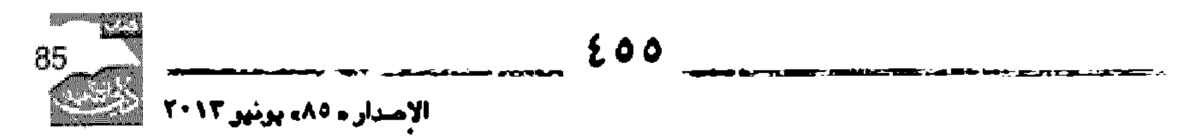
عاصفة من التصفيقات. لكنه رفع يده قليلاً ليواصل.

- يجب أن لا نتوقف عند هذه الحافة. مدينتنا التي كاد الرماد يلتهمها عادت إلى الحياة بفضل سهر العين الأمنية وجهود دولة ظلت....

من تلك اللحظة أعدت القطن إلى أذني. لم أسمع شيئاً مما قاله. ولم أر تصفيقاً كثيراً إلاّ صاحب الحقيبتين وهو يقوم وينزل فرحاً بما كان يقوله فاوست، ويعض المرافقين له. بل همهمات كانت ترسمها بعض الشفاه هنا وهناك بنوع من الملل. لم أنزع القطنتين إلا عندما انحنى قليلاً وانسحب من المنصة برفقة مقدمة الحفل، وانطفأ ضوء صالة العرض، ولم تبق إلاّ إضاءة الركح والزوايا.

فجأة لمع في ذهني جنوني القديم. الرغبة في القتل المقدس. لم أتفاد ضحكة انتابتني بشكل فجائي، وهي اللحظة التي فكرت فيها بقتله عندما أحرقتني الغيرة العمياء. كنت خارج أي عقل وأي نظام. وكان يمكن ليس فقط أن أخنق ابنة أخته، ماسة، ولكن قتله هو أيضاً.

تدريتُ وقتها على ضربة السّاموراي. رأيت السكّينة الحادة



وهي تنغرس في جسد فاوست، على مرتين متتاليتين. الأولى للقلب مباشرة. تقطع الأغشية كلها حتى الصلب منها، ولن تترك له فرصة للعيش، لأن السكّينة الحادة تخرج من الجهة الخلفية للظهر. رأيته ينحني من شدة الألم، لحظتها بالضبط جاءت ضربة السّاموراي الثانية، هذه المرة في البطن. لم تكن عمودية، ولكنها انحرافية قليلاً لتخترق المعدة، وتمزق عرضياً كل ما يحيط بها. ثم أرمي المعدن البارد وأضم حبيبي، بدمه الفائر، إلى صدري للمرة الأولى الأخيرة، وأبكي معه، وربما ذبحت نفسي بعدها على الملأ. لقد تدربت طويلاً مثلما يفعل السّاموراي، مع المعلم الصيني وعلى الوسادات التي في بيتي، وافترضتها فاوست الذي لن تنقذه مارغريت هذه المرة بطيبتها الدينية. ولن ينجو من مفيستوفيليس الذي يكون قد انتقل إلى أعماقي بشكل أكثر انتقامية. كانت نتيجة التدريبات أن الوسادة تنكفئ إلى الأمام في الضربة الأولى التي يجب أن تكون حادة ومدروسة بقوة، وتهيئ الضحية للضربة الثانية دون أن يتمكن من المقاومة.

يتألم قليلاً. أرى سؤالاً غامضاً يرتسم في بؤبؤ عينيه المتعبتين. أضمه أكثر إلى صدري هو العاشق للمسرح التراجيدي وأتمتم في أذنه:

- أوريبيديس حبيبي. أنت تعرف أن عمر الحب الكبير قصير. وها أنا ذي أختصره لكي لا نتعذب كثيراً ولا نكره بعضنا بعضاً أكثر. قدرنا شبيه دائماً بما نكتبه. أرأيت لم ينفعك أي شيء أمام قدر أعمى. لن يغار منك، بدءاً من هذه اللحظة، لا أسخيلوس[١٣٣] ولا غريمك سوفوكليس[١٣٤] لأنه لا أحد يملك جرأة موتك هذه. مُتَّ كما كتبتَ عن نهايات أبطالك. هاجرتَ حبيبي هرباً من أثينا باتجاه مقدونيا نحو بلاط الملك أرخيلاووس[١٣٥]، ولكن ذلك لم يمنعك من الموت بالشكل التراجيدي الذي في رأسك. لا أحد غيري يعرف كيف متَّ؟ سيقولون إنك متّ في ظروف غامضة ولن يتجرأ أحد أن يقول إن امرأة من بني الأرض قتلت إلهاً هدّ كل شيء إلى أن وصل إلى حيطان الحب فهدّها هي أيضاً، لكنه نسي أن على الحيطان سقف ثقيل سقط عليه بمجرد انهيار هذه الأخيرة. نم حبيبي. لم أبدع لك إلا ما اشتهيته أنت نفسك في كتاباتك.

يتمتم بصعوبة بعد أن فاض الدم من جانبي فمه:

---

(١٣٣) Eschyle.
(١٣٤) Sophocle.
(١٣٥) Archélaos.



- كنت أعرف أن ذلك سيحصل في يوم من الأيام، ولكن ليس الآن. فأنا أراك وألمسك للمرة الأولى. يا مجنونة لماذا فعلتِ هذا كله في حبيبك. عبث. عبث.

- لأني فقط أريد أن يكون حبيبي لي. سأعيش معه هناك في سماء مرصعة بالنجوم والغيوم الملونة بكل ألوان الحياة. سأكون بعيدة عن جنونهم جميعاً. ألم تقل يا قلبي:
Heureux l'homme fortuné, instruit du divin" mystère, qui, sanctifiant sa vie, se fait 75)... " Que ma-l'âme d'un fervent ! " (72 vie s'écoule vers la beauté, que jour et nuit, dans la pureté, avec piété, j'adore les dieux, rejetant les pratiques contraires à la 1010)... « Le dieu hait celui-justice " (1007 dont le désir n'est point, dans la clarté du jour, dans la douceur des nuits, de goûter le bonheur et de vivre, de tenir, en sage, son cœur et son esprit bien loin des mortels (424 trop subtils « (428-).(١٣٦). ردّد هذه الأناشيد معي يا قلبي ولنترك للكورس الجنائزي الذي يقتفي خطى هذا الألم ونحن نسير نحو السماء، إنشاده ليحمل روحينا على كفيه.

- مهبوووولة. لم يكن يوريبيديس عاشقاً للغيب

---

(١٣٦) Euripide. les Bacchantes.

والمبهم. لا يوجد وراء سمائك وغيومك إلا الثقب الأسود الذي لا نعرف متى يبتلع هذه الأرض، ونحن معها كمن يسترجع ملكاً قديماً سرق منه. لماذا....

- كلهم ماتوا حبيبي، وكان يجب أن نموت نحن أيضاً. قيس وليلى. عنترة وعبلة. روميو وجولييت. تريستان وإيزول سعيد وحيزية. كارمن وحبيبها. البشرية لا تصنع أقدارها العظيمة إلا في التراجيديات العظمى. ألم تقل هذا الكلام؟

الصمت الكلي. ما عدا بعض الاحتجاجات التي كانت تصل في شكل همهمات من الخارج، كلما سُمِع صوت يخترق الصمت الذي فرضته لعنة غرناطة.

عندما انطفأت الأضواء نهائياً وبدأ العرض، توقفت عن هذياني الذي سكنني زمناً طويلاً.

-٣-

كان قلبي يردح في صدري.

- واش يا أختي؟ نباتوا هنا. تقدّمي شوية من فضلك.
- أحاول أن أتقدم، لكن الله غالب الناس كثيرون كما ترين.
- هم لا يستحون. م يحشموش. العيب فيك. أنت تركتيهم يمرّون قبلك. لا يحترمون شيئا. الليل طاح علينا وحابين من هذا المخلوق يوقّع لنا مكتوبه لعنة غرناطة.

مخلوق؟ مكتوبه؟

سبقني سؤال جاء من تلقاء نفسه، لم أفترضه من قبل وأنا أسمع كلمة مخلوق التي بدت لي في غير مكانها. وكلمة مكتوب بدل كتاب؟ لا نقول عن فنان كبير بقامة فاوست، المخلوق!

- هل تعرفينه يا أختي؟

سألتها بشكل مهذب حتى لا تأكلني. كان يبدو عليها متوفزة.

- أكثر من المعرفة. أحبه. صديقي وغالي عليَّ.
- صديقك؟

- في الفيسبوك. تعارفنا منذ أكثر من سنة. رجل طيب وكلامه ناعم.

- هاااه. جميل.

شعرت براحة داخلية غريبة. لا أعتقد أن ذوق فاوست الرفيع ينحط إلى هذه الدرجة نحو بقرة هولندية شقراء، بضرع كبير وعينين صغيرتين لا تشبهان في شيء عيون البقر التي أحبها لاستدارتها وسوادها.

- قرأتِ له من قبل.
- شفته في التلفزيون. سأحاول أن أقرأ لعنة غرناطة. أعجبني هذاك السبنيولي اللي قتلوه مسكين، بصح ما عرفتش وعلاه قطعوه؟ ما دار لهم والو. حرام عليهم. والله ربي ما يسامحهم. جاوْوه حتى البيت وأخرجوه. وسيدنا علي كرم الله وجهه يقول: لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أهلها. الله يلعنهم ويحرقهم.
- ماشي سيدنا علي اللي يقول ولكن ربي هو اللي قال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[١٣٧]»

(١٣٧) الآية رقم 27 من سورة النور..

- كيف، كيف يا أختي. الكل إسلام.

ثم سألتني عن اسمي بلا مقدمات.

- زُليخة.

أول اسم مرّ برأسي. لم تكتم سخريتها.

- زُليخة؟ مممم... في عصرنا نحتاج إلى أسماء تمشي مع الموضة. لو كان حولته إلى زوزو أفضل. اسم الإنسان هو عنوانه.

- وأنت أختي واش اسمك؟

- رقيقة قمر الزمان.

لا أدري لماذا ولكني كدت أنفجر ضحكاً. كتمت كل أنفاسي وزممت فمي، كما يحدث معي عادة.

- رقيقة وقمر الزمان ياااااه. أي حظ؟ عاشت الأسامي. سأغير اسمي أنا أيضاً.

- زوزو مليح. ليست عملية صعبة. خذي شاهدين من الطريق عمّري عليهم بشوية دنانير، سيتبعانك مثل كلبين أليفين، وروحي للقضاء، وارفعي مذكرة تغيير اسم، مثلما فعلتُ. حقك الطبيعي.

- من الغد إن شاء الله سأغير زليخة بزوزو.

تمنيت لو كان صديقي ديدالوس هنا ليضحك معي. كتمت

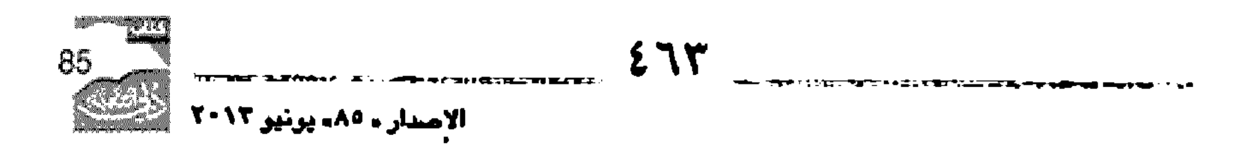
ما كان في داخلي من سخرية، وواصلت تدحرجي نحو فاوست الذي كان لا يزال بعيداً. يبدو أنّ الصالة كلها كانت معنية بلعنة غرناطة.

لا أدري كيف فعلت السيدة رقيقة قمر الزمان، رأيتها قد ابتعدت عني إلى الأمام بسرعة، لأجد نفسي في احتكاك جسدي مع امرأة أخرى ظلت ملتصقة بي، ومن حين لآخر تنظر إليَّ من رأسي حتى إخمص قدمي. سألتني وكأنها في الأمن، تريد مني أوراقي.

- وأنت؟
- نعم.
- تعملين في المسرح الوطني؟
- لا. راقصة باليه ومغنية سوبرانو.

لم أفكر في الردّ مطلقاً، جاء تلقائياً. أحتاج إلى ذلك القدر من الجنون، وعدم الجدية، لأتحمل البؤس الذي كان يحيط بي، وأختصر المسافات التي بدا لي كأنها كانت تطول.

- مليح. حابّة أجري معك حوارين، واحد لجريدة الأمة، والثاني لجريدة البقعة، حول رأيك في المسرحية وعملك المزدوج. الأمة جادة، أما البقعة تحب الشطّاحات والرقّاصات.



- في هذه الزحمة؟
- الوقفة والمغزل. الوقت كالسيف إذا ما تقطعوش يقطعك.
- واااااو. أول مرة أسمع هذا المثل العربي يتحوّل إلى مثل شعبي. طيب تفضلي.
- الاسم الكريم.
- نورمال. واسمي الفني عشق.
- يااااااه ما أحلاه اسم نورمال. وحتى عشق ما عندي نقول فيه.

ثم فتحتْ مسجلها الصغير وقربته من فمها وبدأت تقول مقدمتها: نلتقي اليوم مع راقصة الباليه العالمية المعروفة التي أدت أدواراً كبيرة ومميزة وانتزعت إعجاب العالم برقصها الباليه الجديد. وهي اليوم هنا لتشاركنا حفلاً عظيماً قليلاً ما رأيناه، والذي يبيّن أن البلاد لا تزال بكل الخير. وأن أعداء الأمة الذين يروجون لفكرة الحرب الصامتة والخطيرة باءت مخططاتهم بالفشل الذريع.

انتظرت طويلاً قبل أن تعطيني الكلمة وسعدت أن طوال تقديمها، تقدم الكثيرون. لا أدري ماذا هذيت. لكني قلت جملاً لا روابط لها وكانت سعيدة جداً بذلك. حتى اقترينا من

فاوست الذي رفض أن يحاورها طالباً منها أن تأخذ موعداً مع ملحقته الصحفية التي كانت في الخلفية ويجانبها طفل صغير لم يتجاوز ست سنوات. كان الصغير يجري ويرقص ويقلد حركات الباليه.

أصبح فاوست على بعد ملمس من أصابعي. لكن الرؤوس العديدة التي كانت قبلي، كانت تحول بيني وبينه. فجأة سألته امرأة كانت على بعد مسافة قريبة مني بحيث أسمعها جيداً. التقت لحظتها عيني بعينه، ولكن انشغاله بالمرأة التي كانت بالقرب منه منعه من التدقيق في وجهي.

سألتْهُ بأناقة قارئة مدمنة عليه بعد أن وقَعَ لها المسرحية:

- ما هو عنوان كتابك القادم.

لمعت عيناه العاشقتان بنور حاد لا يملكه شخص آخر غيره. ثم أشرقت ابتسامته الجميلة التي لم تفقد ألقها على الرغم من علامات العمر والتعب الباديين عليه. لقد وقّع أكثر من ألف نسخة لأن الأبواب الخارجية فتحت وسمح للجميع بالدخول لشراء المسرحية وتوقيعها.

- كتابي القادم. سيكون عنوانه: خيانات ورقية. وهو في مسار امرأة الظل. عن امرأة تحب كاتباً وتريده بقوة، وتشتهي قتله لأنه يخونها في كل كتاب مع امرأة افتراضية.

مع أن الكتابة هي حياة موازية لا حقيقة لها إلا جنونها الخفي الذي لا يدركه إلا العشاق والمهابيل ههههه

- لكن عشيقاتك كثيرات وهذا سيغضب زوجتك.

- ههههه. لا. زوجتي تعبت مني منذ سنوات، وطلقتني هههه. معها حق. لا ألومها أبداً. لو بقيت معي كانت قتلتني، أو على الأقل كرهتني.

- كيف إذاً تقتل كاتبها المفضل؟

- الأمر ليس صعباً. قتل شخص معروف هو أسهل من شربة ماء. بعد نهاية العرض المسرحي التراجيدي، تخرج امرأة من بين جمهور الحاضرين. تأتي نحوه. يظنها من أجل سؤال فني متعلق بالعرض، ولكنها تسكن سكينة حادة بالضبط في قلبه. ويتوقف العرض على هذا المشهد.

- واااااووووووو.

فجأة جمد كل شيء فيَّ. شعرت أنه يريد أن يوصل كلامه لي وأنه قد عرفني من خلال صوري على الفيسبوك. ارتعبت من هواجسي. كيف عرف أني كنت أفكر في قتله؟ سنعاود كرة الغضب. في المرتين اللتين التقت عيناي بعينيه، لم يتوقف كثيراً. مع أني أشبه إلى حد بعيد صورة الفيسبوك. ثم أني أرتدي ما اشتهى رؤيته عليَّ، اليوم تحديداً.

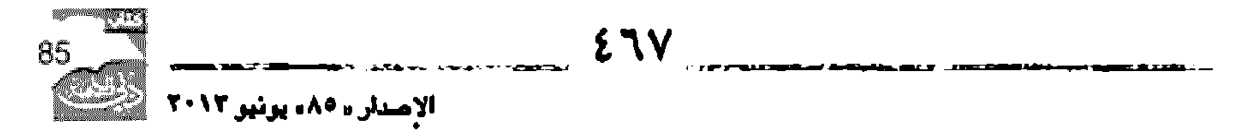
مع ذلك كله، شعرت بفرح داخلي. أخيراً سيكتب فاوست عن حبيبته التي أغضبها لدرجة التفكير في الجريمة العشقية؟ انتابتني نوبة من الخجل احمر لها وجهي بقوة. لقد أصبح فاوست على بعد نسمة. عليّ أن أتماسك فهو في مكان عام وحراسه كثيرون ولن أخلّ بكل هذا النظام وهذا الترتيب المحكم. شممت عطره. باكو رابان١٣٨. لاحظت أنفاسه. رأيت حتى البنس الذي على صدره، وجه رئيس الجمهورية. رأيت ثقل هالة التعب التي ارتسمت تحت عينيه، لكنها لم تمح دوائر النور التي كانت في عمق عينيه.

التفتّ نحو الفراغ لتفادي وجهه. كنت أحضن إلى صدري كتاب رسائلي له: ٧٧٧ رسالة إلى فاوست. هكذا أسميته. كلها رسائلي. أجمل وأنبل ما فكرت في إهدائه. لا يمكن أن لا يعرفني. هو يعمل على تطويل "سوسبنس" اللقاء الأول كما في الأفلام العاطفية. كل شيء يشي بي. عطري. لباسي. وكتاب على صدري كما أخبرته، لكي لا يخطئني من بين جموع عشاقه.

كان التدافع ورائي قد بلغ أشده. تمنيت لحظتها أن أهرب ولكني لم ولن أستطيع. سحب بلطف مسرحية: لعنة غرناطة،

---

(١٣٨) Pacco Rabane.



من يدي وهو يتأمل ملامحي التي لم تذكّره بأي شيء. ربما الإرهاق الشديد. كنت متأكدة من أنه سيسألني السؤال الذي انتظرته طويلاً: ياما؟ فراشة مملكة مارك زوكيربيرغ الزرقاء. لكنه سألني سؤالاً مسطحاً كان يطرحه على الجميع:

- الاسم الكريم.

- ياما. ياما. يااااااماااااا

ضحك.

- سمعتك من اللحظة الأولى.

سألني مرة أخرى دون أن يرفع رأسه عن الكتاب:

- ياما. اسم جميل. ما مصدره.

- هههههه. لابد أنك سمعت به. كان والدي الله يرحمه. بابا زوريا يحب طفلة في صغره تدعى مريم. وأقسم أن يسمي مولوده الأول مريم. لكنه رزق من المرحومة أمي فيرجي، بتوأمين. وحتى لا يغضبني أو يغضب أختي، سمى الأولى ماريا والثانية التي هي أنا: ياما. عندما نقرأ الاسمين معا: يصبحان: ماريامـا، يعني مريم.

. ضحك قليلاً مفرجاً عن أسنان رقيقة مثل أسنان فأر. لكن لا شيء أثار انتباهه لا اسم والدي الذي عزاني فيه،

ولا اسم أمي التي علق صورتها على واجهته زمناً طويلاً، ولا حتى اسمي. لا يمكن للتعب أن يسطح الإنسان إلى هذه الدرجة، اللهم إلا إذا أصيب بالزهايمر، في وقت مبكر، وهذا طبعاً ليس حال فاوست.

- أسماء غريبة، لكنها جميلة. والدك معه حق.

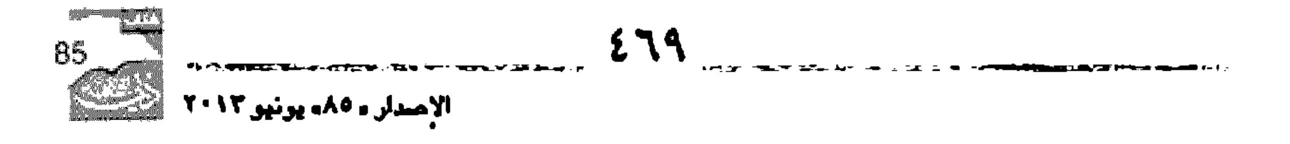
- أكثر من هذا. سميت حبيبي الذي يحب المسرح، فاوست. فاووووووست

ضحك مرة أخرى.

- لابد أن يكون صديقك محظوظاً. كيف وجدتِ مسرحية لعنة غرناطة؟

- ستقرأ رأيي في الفيسبوك الليلة إذا وصلتُ إلى بيتي في الشمال بخير، لأنه عليَّ أن أتخطى الحواجز الكثيرة، والجسر الكبير المليء بالعسس الذين لا نعرف لهم هوية. البلاد ليست هادئة كما توحي مسرحيتك في الأخير. بل الأمر أكثر تعقيداً.

- ومع ذلك يجب أن لا نقدس الموت اليومي لأن ذلك سيرجعنا حقيقة إلى الموت المقدس الذي لا ينتج إلا الموت ولا شيء آخر. والفنان ينتصر للحياة. على كل أفضّل أن أسمع رأيك مكتوباً. أسلمك "إيمايلي"، فأنا



أشتغل به. لا حساب لي في الفيسبوك. لا أعرفه أصلاً ولا أحبه أيضاً. يبدو لي خفيفاً كثيراً. ربما لم أصل بعد إلى إدراك جدواه.

دار العالم كله في ثانية في رأسي.

أخذتني فجأة رجفة داخلية وأحسست بالدوار، ولكني اتكأت على المقبض الذي كان يفصل الجمهور عن الكاتب. بقيت لثوان أسأل نفسي إذا ما كنت أمام حقيقة أم في عمق دوار كابوس بلا حدود.

- لم أفهم جيداً. لا تملك حساب فيسبوك؟ غريب. إذاً أنت لا تعرف عشاقك ومحبيك. ولا مملكة الفراشة ولا هموم فاوست. ولا النساء اللواتي يتقاتلن عنك غيرة.

- حقيقة لا أفهم جيداً في الفيسبوك. تصلني فقط أصداؤه من حين لآخر. للفيسبوك أصحابه، من لهم بعض الوقت على الأقل. هناك صفحات كثيرة لا شأن لي بها. صفحة واحدة نبهتني لها زوجتي، يديرها شاب من العائلة ينقل فيها كل أخباري ونشاطاتي. له اتصال مع زوجتي. صفحته ليست مؤذية أبداً. يمكنك أن تتحدثي مع كاميليا، زوجتي ووكيلتي الأدبية والفنية. هي هنا مع ابني.

ثم التفتَ نحو المرأة التي كانت لا تزال منشغلة مع الصحفيةَ التي أجرت معي حواراً غريباً. كدت أصرخ حتى ينفجر كل شيء فيّ ولكني زممت فمي. كل شيء كان يبدو لي في حالة دوار دائم. لم أترك المقبض الحديدي لكي لا أسقط. بلعت كلماتي التي جفّت طوال السنوات الثلاث الماضية.

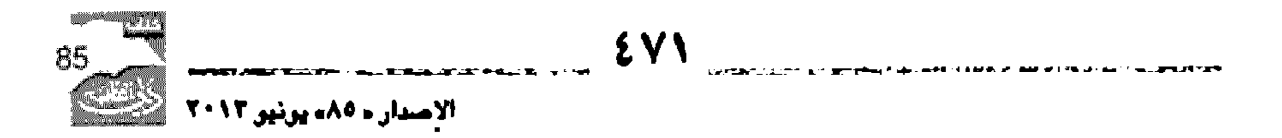
- هل تعرف أن هناك امرأة مأخوذة بك، تراسلك منذ أكثر من ثلاث سنوات على الفيسبوك؟

- معجبة؟

- يبدو... يعني...

شعرت بجرح كبير ينفتح فيَّ. التفتَ نحو الفراغ لكي أبكي، ولكني لم أجد فراغاً صالحاً لشجني. كنت خائفة فقط من الانفجار والجنون. ارتعبت من نفسي لأول مرة. لم يفهم فاوست؟ شيئاً من كلامي. كان يشيخ أمامي بسرعة غريبة حتى أصبح في عمر إيغوشي[١٣٩] الذي كان يشتهي النوم بالقرب من الجميلات دون أن يحرّك حواسهن ويطفئ سيجارته حتى قبل أن يدخل إلى غرفتهن. لا أعرف ما هي العلاقة الغريبة التي أدخلتني فجأة في حالة تحلل سريعة أنا أيضاً. رأيت العجوز

(١٣٩) Eguchi, in Kawabata, Les Belles endormies.



إيغوشي يأتي للمرة الأولى إلى بيت الجميلات النائمات، ليرتاح قليلاً. فالمكان كان يسمح للبالغين جداً بحق النوم بمحاذاة امرأة جميلة بعد أن يأخذ منشطاً جنسياً دون أن يجبر أو يوقظ الجميلة من نومها. رأيت إيغوشي ينام ويستيقظ بلا جدوى، كمن يستيقظ من غفوة كبيرة ومن غباوة بلا حدود. ثم يبدأ في عملية التحلل والتلاشي.

كانت الدمعة الحارقة على الحافة. بدأت أستعجل خروجي من هذا المكان. أحلم فقط بأن ألملم قصاصات أوراقي الصغيرة التي تراكمت منذ أكثر من ثلاث سنوات في درجي السري، أو مقبرتي الصغيرة كما أسميه. أُجمع كراساتي الطفولية التي لا تزال تعبق بحبر سنة أولى حب، المعطر بالشوق والبنفسج. أنتشي على الرغم من جرحي. ثم أتمدد في غفوة الفراش الذي جمعنا في حلمي العديد من المرات في مملكة مارك زوكيربيرغ الزرقاء، حيث تداخلت في العديد من المرات، الألوان والصرخات والضحكات. ثم أرفع رأسي نحو الدرج العالي وأنظر إلى ميراث أمي: كل سيمفونيات كامي سان سونس Camille saint-Saens، بالخصوص Suite Algerienne. أغمض عيني كي لا أرى شيئاً آخر ولا حتى وجه فاوست، ينغص عليَّ صفائي وقراري. وأحلم

للمرة الأخيرة بأرضي المسروقة التي قال عنها كامي سان سونس: كم أنت شهية يا أرض البرتقال. وكم أنت بعيدة مثل نسمة الفرح. أسمع أنينه، ربما للمرة الأخيرة مغمضة العينين، فتنتابني حياتي كلها برياحها وعواصفها وعطورها ورعشاتها غير المحسوبة. أرى الرمال الدافئة وهي تتعالى على كثبان الصحراء التي هربتُ نحوها العديد من المرات لأعثر قليلاً على نفسي ولكني لم أجد إلا يباس الشمس والأفواه الناشفة. أرى الثلوج التي غطت قبور أجدادي البربر في الأعالي درءاً لسلطان القتلة والنبش. ألمس وجوههم. اشتهي أن أسالهم عن الخراب الذي تركوه وراءهم، ولكني أرفض أن أوقظهم من رقدتهم الهانئة الأبدية بعد حياة قاسية قضوها في الحروب والمقاتلات المتتالية. أسمع النداءات من جديد. رأسي تكاد تنفجر إلى ذرات صغيرة لا يجمعها شيء. تنتابني تراتيل إيفا ماريا التي كانت تأتي الليلة أيضاً من كنيسة قريبة. أغمض عيني أكثر وأتمادى في ظلمتي البهية التي تمحو كل ما لا أريد رؤيته. غبي من يسمع الموسيقا مفتوح العينين لأنه لن يرى شيئاً، لن يشمّ شيئاً، لن يسمع شيئاً، لن يتذوق شيئاً، لن يلمس شيئاً. للموسيقا عطر وملامح نصنعها بأنفسنا. لهذا مذاق البرتقال أحياناً، وعطر الحبر الأول، وملمس الحرير، وشكل

النور، وهسيس الهبل.

- سيّدة ياما... فيه شيء؟

أخرجني صوته من غفوتي وموسيقاي.

هل يعقل؟ أكاد لا أصدق؟

- ما الذي لا يصدق؟

- الشخص الذي يرد في مكانك على رسائل الفيسبوك؟

- أعتقد أن اسمه رحيم. هو اختار أن يرد من تلقاء نفسه قبل أن يطلب المساعدة من كاميليا. جهد كبير يبذله في نشر كل ما يتعلق بي. يجد متعة في عمله الثقافي هذا. وهو من يشرف على حسابي. لا يقوم بأي شيء آخر ما عدا نشر المتابعات والحوارات والتوجيه. يتابع كل ما أكتب، وكل ما يُكتب عنّي. جهد مضن. أسمع ذلك كثيراً من زوجتي، وأيضاً من أصدقائي المتابعين لعملي.

- رحيم ينتحل اسمك يا سيد فادي؟

لا أدري كيف خرجت كلمة فادي لتضع حداً نهائياً بين عقلي وجنوني، وردمتُ بسرعة غريبة، تحت آلاف الأطنان من التربة الجافة، فاوست المسكين.

- رحيم في الحقيقة هو ابن عمي، مع أني لا أتذكره جيداً. عندما هاجرت إلى غرناطة هرباً من الحرب الأهلية،

تركته ورائي صغيراً. فأصبح اليوم شاباً ديناميكاً ومتحركاً. ريما تمكنت من رؤيـة العائلة في اليومين القادمين قبل عودتي إلى إشبيلية لمتابعة رحلة لعنة غرناطة.

- والذين يحبونك، متى تخصص لهم وقتاً؟

- كلهم هنا. أعتقد. ثم أنا أنوي البقاء في البلاد بعد الانتهاء من تنقلاتي مع المسرحية بالخصوص مهرجان بايروت، في ألمانيا. تعبت من الهجرة وأشتهي أن يكبر ابني على أرض أجداده هنا معي، وهناك في إسبانيا مع كاميليا. لنا في غرناطة وإشبيلية بعض الحق هههه.

للمرة الثانية أشعر ببرودة المعدن بين يدي. ماذا لو كانت سكّينة السّاموراي معي؟ الضربة الأولى عمودية للقلب، والثانية جانبية للبطن. أغمضت عينيَّ لكي لا أرى مشهد الدم. كنت سأقتل رجلاً لا علاقة له بكل ما يقوله عنه الآخرون. تذكرت تدريباتي على إتقان ضربة الساموراي. مرّت على ذهني في شكل صور متسارعة كان من الصعب عليّ القبض عليها.

استلمتُ الكتاب من يديه، وهو يسألني بابتسامة أنيقة:

- ياما، هل تعملين في المسرح؟

- لا. عازفة كلارينات في فرقة جاز، ديبو- جاز.

تكويني في الصيدلة ولهذا في عز الخوف، عدت إلى مهنتي الأساسية صيدلانية. فرماسيانة بلغة أهل البلاد. قلت ربما الناس في حاجة للدواء أكثر من أي شيء آخر. لكنني لم أقطع مع ديبو- جاز.

- أنا أيضا تكويني في الأصل طبي، فهربت من مهنة لم أكن مهيأ لها. ديبو- جاز أسمع عنها. ربما حالفني الحظ يوماً أسمعك وأنت تعزفين. من يدري العالم صغير جداً.

- أكيد سيد فادي. أعتذر أخذت من وقتك الكثير.

كنت على حافة البكاء، ولكني كنت متماسكة بقوة.

التفتّ. رأيت وجهاً غاضباً لامرأة تنتظر دورها، كادت أن تنفجر. كانت مثل ضفدعة.

تمتمت وأنا ألمس يده الناعمة. كم كنت وحيدة في ذلك الفراغ؟

- مع السلامة. مبروك مرة أخرى على لعنة غرناطة. ساقرأها بحب. وأراسلك على الميل.

- ممتن لمحبتك وحضورك. سعيد بالتعرف عليك من القلب.

خرجت بسرعة من الزحام بعد أن وضع في عمق كفي بطاقته الخاصة من جديد، وكأنه نسي أنه سبق أن سلمها لي. كتبت

على ظهرها تليفوني وإيميلي، وأرجعتها له.

- أعطيتني بطاقتك.
- عذراً سيدة ياما. أنا متعب. لم أرتح منذ شهر.
- ... ...

كنتُ عاجزة عن الردّ.

لا أدري لماذا تذكرت المرأة الغارقة تحت المطر، التي كانت تعطيني ظهرها، ورضيعها بين ذراعيها. شبهتها في لحظة من اللحظات بماسة قبل أن تنطفئ من وراء ظهر المسرح، المؤدي إلى الدروج التي تصعد نحو الفراغ.

طردت كل أفكاري الجهنمية. خرجت بسرعة.

عندما التفت للمرة الأخيرة نحوه، وعلى الرغم من انهماكه في كتابة الإهداءات، التفتَ هو أيضاً نحوي وودّعني بعينيه، وبابتسامة لأول مرة أراها وألمسها وأتذوقها أيضاً. كان بسيطاً وجميلاً وأنيقاً، لكنه لم يكن لي. كان لامرأة أخرى. لنساء أخريات، ولكن ليس لي. شيء مرّ كان في فمي. لم أكن حاقدة عليه. تذكرت مرة أخرى الوسادة التي تدربت عليها طويلاً وأتعبتني كثيراً. ضربتان جافتان. الأولى في القلب. وعندما تنكفئ الضحية إلى الأمام، تأتي الضربة الثانية في البطن التي تنهي أي حظ في الحياة.

ابتسم مرة أخرى إذا صعب على عينيه أن تتفادياني. فكرت

في أن أرجع نحوه بسرعة، وأعتذر منه لاحتمال ارتكاب جريمة في حقه، لكنه سرعان ما انهمك من جديد في توقيعاته وسعادته.

لأول مرة أتجرأ لفعل شيء رأيته دائماً مستحيلاً.

شيء واحد كان في رأسي، أن أركض نحو البيت وأستعيد كل شيء. لم يكن فاوست حتى لزوجته. لم يكن لأحد، لأنه كان مجرد لغة مثل حفنة ثلج، تحسها، ولكنك لن تشكل بها شيئاً أي شيء تريده، لأنها تذوب بسرعة حتى قبل أن تدرك استحالة استمرارها.

أغمضت عيني. خرجت كلمة غريبة مني شعرت بثقلها الكبير: هل يعقل؟

اتكأت على عمود الأوبرا الرخامي لكي لا أسقط على الأرض من جديد. انتابتني كلماته مثل موجة عاتية أو رياح ساخنة، فنشف فجأة ريقي، وأغرقتني في رملها لدرجة أني أغمضت عيني من شدة الألم:

- اغمضي عينيك الآن وحاولي أن لا تفكري في أي شيء إلا في حبك.
- يا مهبول وهل أنا قادرة على التفكير في شيء آخر غيرك؟ أنا فيك كلياً. ها عيناي قد انغلقتا من تلقاء

نفسيهما من شدة الإرهاق والتعب.

- تمددي أكثر على الكرسي.
- ها أناذي قد تمددت. صورة والدي التي على الحائط غامت نهائياً وأصبحت مكسوة بغلالة شفافة تشبه الغيمة، لكنني أعرف أنه وراءها بكل أناقته.
- ارسمي شكلاً ملوناً بآلاف التدرجات مثل قوس قزح، وحاولي أن تملأي البياضات باللون الذي تشائين. اغمسي أصابعك في الألوان ثم بعثريها مثل الذي يحمل حفنة من النجوم ويطوح بها عالياً ويتأملها بعشق وهي ترتسم في السماء المظلمة لتنيرها.
- ها أناذي قد فعلت.... ياااااه يا حبيبي ما أشهى هذه السماء. سماء واسعة وجميلة تأتي نحوي بكل ألقها وجمالها وبهائها. أسكنها لأنها الوحيدة التي تشبه أعماقي.
- اغمضي عينيك أكثر. تنفسي بهدوء داخل هذه الألوان المشبعة بالنور.

أغمض عيني أكثر. بسرعة أتمادى في اللاشيء. هلام من البياض. أتلاشى.

وأنا أضع الرجل الأولى في الشارع، بالضبط في اللحظة التي

فتحت فيها عينيَ، رأيت المدينة والضباب الذي نزل بكثافة حتى غطى قبة الأوبرا، وحركة الناس العادية وبار الاوبرا الذي بدأ رواده مغادرته. فجأة رأيت امرأة تبكي. تعطيني ظهرها. تلبس لباساً زهرياً في يدها الرضيع نفسه. ألم تنتفِ وراء المسرح؟ كانت برفقة شرطي كان يدفع بها إلى الأمام، لإبعادها عن المكان. بعد لحظات رأيت الشرطي يعود وحيداً وهو يتمتم بحنق مع صديقه الواقف بجانبي عند مدخل الأوبرا: مخصوصة عقل. مجنونة. يا خويا. هبّلتنا. تقول إن فادي خالها، وهو يقول إنه لا يعرفها. تريد أن تدخل بالقوة. سيرجع لها عقلها بعد قليل عندما تأكل الزرواطة، وتذوق لسعة برودة الإسمنت ليلة بكاملها. صماطة. كنت أرتجف. قلبي تحوّل إلى خرقة بالية كانت تسد شلالات الدم لكي لا تتحول إلى هدير يغرق المدينة كلها. سمعت بعد ذلك صوت محرك سيارة الشرطة وهي تخترق الشارع الرئيسي بزمّورها الأمريكي. تتماهى أضواؤها الزرقاء الدائرية مع الضباب، مثل منارة بحرية، حتى تندفن فيه نهائياً.

وحيدة بيتم قاتل. جندي مهزوم في معركة لا يعرف كيف دخلها ولا كيف خرج منها.

أتمادى في غفوتي وأنا في عمق الشارع الخالي، ليس بعيداً عن الأوبرا التي لم تبق إلا أضواؤها مشتعلة بعد أن غادرها أغلب الناس بسرعة. شيء غريب ينهض في داخلي، يشبهني في كل تفاصيله، ولكنه مشتت ولم أعد قادرة على لملمته. أقتل من الآن؟ فاوست. مفيستوفيليس؟ هل أحرقهما معا وأستحم برمادهما، لنسيان كل ما حدث بيننا جميعاً. عليَّ أن ألملم نفسي ذرة ذرة وأعيد تركيبها وهندستها.

أتمايل. أتدحرج قليلاً، وأتمكن أخيراً من الابتعاد حيث لا عطر إلا عطر البحر الذي كانت رائحته تأتي من الميناء القديم المواجه للأوبرا. لا شيء ورائي الآن سوى باب مغلق على أثقاله، وأمامي ليل من الصعب عليَّ تحمل ظلمته القاسية .

لن ألملم شيئاً. سأترك كل التفاصيل مبعثرة كما في بدء الجنون. أفتح فقط عينيَّ ملء اتساعهما لكي أرى كل شيء ولا شيء، وأمشي نحو البحر ... أمشي على البحر... أمشي في البحر... واااااااو.....

-٤-

رميت كل شيء في الميناء القديم. بقيت غصة واحدة فيَّ وكان عليَّ أن أصفي حسابي معه نهائياً.

أخرجت الآيفون. وفتحت على الفيسبوك وعيناي مرتشقتان على صورة فادي المعلقة على واجهة البرلمان المواجه للبحر، وهو يحيي الحضور رافعاً يده إلى السماء.

فجأة لمع اسمه على الآيفون بأسرع مما توقعت. فجأة وجدتني في فصل مسرحية كوميدية هذه المرة.

- كيفك فاوووووست حبيبي. أريد أن أعتذر منك أني لم أحضر مسرحيتك. متعبة جداً. أنت تعرف أني أمر بظروف خاصة ومرة. أنت أيضاً لم تكن لطيفاً معي، لولا صوتك الذي أعادني إليك؟

بدأت الكلمات تنهمر كمطر من الجراد.

- مليح وأنت، ياااااه لو فقط كنتِ هنا؟ بحثت عنك في كل مكان. ولكني للأسف لم أرك، وكنت حزيناً جداً لغيابك. كانت لحظة مدهشة. غمرني فيها الجمهور بحبه.

- تليفوني معك. كان يمكن أن تكلمني. هل تعرف أنك قتلتني؟ ماذا تفعل الآن؟ سمعت من أصدقائي أن العرض ألغي

بسبب وصول طائرتك متأخرة!

- غير صحيح. تأخّر العرض ساعة فقط عن الوقت الرسمي. أفكر فيك وأكتب لك؟ وأعيشك في هذا الفضاء الجميل وأنا الآن في المسرح وقد انتهى العرض اللحظة. ساحة المسرح غاصة بالناس.

التفتّ نحو الساحة، كانت فارغة إلا من بعض القطط التي كانت تتقاتل على أكياس الزبالة.

لماذا صمتّ حبيبتي؟

- أفكر فيك أيضاً وأحلم برؤيتك يوماً.

- ياااااه؟ كيف يا ترى سيكون ذلك اليوم؟

- لم أفهم لماذا لم تأتِ؟ ربما كنا التقينا لأول مرة. أنت لا تعرفين إلا الغضب والنقد والملاحظات؟ ها أنا ذا هنا. ركضت نحوك من مدينة المنافي لأصل إليك، لكنك فضلت أن تبقي بعيدة. يااااه كم خسرنا في هذه الحياة القلقة. قلت لك من زمان: لنا كل الموت لننام يا عزيزتي، لماذا نقضي الحياة كلها في العبث؟

- هل تدري؟ اللحظة بالضبط مرت ثلاث سنوات، وعشرة أشهر، وتسعة وعشرون يوماً، وستّ ساعات، وأربع وخمسون ثانية، اللحظة، على لقائنا الأول في مملكة زوكيربيرغ. كان

يجب أن نحتفل بذلك ونشرب مع بعض حتى الجنون. ماذا تفعل الآن؟

- محاط بأناس كثيرين، أوقع لهذا ولذاك في الساحة العامة. الحراس يزعجونني، ولكني أتدبر أمري جيداً للحظات. أوقع المزيد من النسخ حتى لا أغضب جمهوري. سأراك في آخر الليل، وأحكي لك عن كل تفاصيل العرض. لا وقت يا عمري. مضطر للعودة الآن إلى النّزل. السيارة تستعد للإقلاع. يسبقها شرطيان على دراجتين ناريتين ضخمتين، بأضواء كثيفة باتجاه الشيراتون. أكلمك أول ما أصل. تمنيت أن أبقى أكثر في ساحة المسرح، ولكن...

- أيعقل؟

- نعم معقول ونصف. الناس كثر مثل الذباب. حزين لغيابك.

فجأة شغلت محدد المكان في الآيفون، الذي يرسم خارطة المكان، وتفاصيل الزمن والشوارع. لمع اسم الشارع وحتى الأوبرا. شارع البحر، أوبرا العاصمة.

لم أنتظر كثيراً، لمع اسمه من جديد:

- خريقتني؟ أينك الآن بالضبط؟

- تريد أن تعرف فاوستي الحبيب؟ في عمق حزني. وأنت أينك؟

- جهازك يظهر لي أنك في الأوبرا، في شارع البحر؟
- الآيفون. جهاز بليد مثلي. لا يعرف بالضبط رأسه من رجليه.

كان بي شيء من الدوار كثيراً ما يقودني إلى درجة عليا من الانتشاء أو الغضب. هذه المرة لا أعرف إذا ما كنت منتشية أم مجروحة، لكن شيئاً ما فيَّ كان يفرحني ويجعلني أشفق على رحيم الذي كلما تكلم شعرت به يدخل تحت الأرض عميقاً. ألم يكن هو أيضاً ضحية لحرب مجنونة ويحتاج إلى أن يجد مكاناً ليس من السهل العثور عليه؟ تمنيته أن يصمت فقط، ربما استطعت انتشاله أو على الأقل تركه في مكانه. كان داخل رمال مبتلعة، كلما تحرك قليلاً، زاد دخوله في أعماقها.

- بجد؟ ياما، أينك حبيبتي؟
- أيعقل أن تكون إلى هذه الدرجة، قد بعت نفسك للشيطان. ألست أنت القائل: لا. لن أقبل بالعودة إلى أحضانه القاتلة. ميفيستوفيليس Méphistophélès يريدني وأنا أريدك. ها أنت بدأتِ تتخلين عني، وها الشيطان الذي اشترى مني روحي يرفرف بأجنحة قوية من حديد. أسمع قرقعة أصواتها القاسية.
- لم أفهم قصدك؟
- لا تخف فاوستي العزيز لقد أنقذتك صلواتي في المرة

الأولى. في المرة القادمة لن أكون موجودة لأني سأكون في أرض أخرى. ألم تقل لي وأنت تستسلم لميفيستوفيليس الذي اشترى منك روحك: الأنوثة الأبدية تسمو بنا das Ewig- » Weibliche zieht uns hinan „ ولكن يبدو يا عمري أنها سحبتك نحو عالم صعب عليك. أشفق على قلبك.

- ماذا بقي من هذه الأنوثة الهارية وأنت بعيدة؟
- لا شيء. معك حق.
- لا. أنتِ؟
- احترقتْ أجنحتي. لم أعد قادرة على الطيران.

لم أعد قادرة يا عزيزي رحيم. كدت أنطق باسمه لكني مرة أخرى أشفقت على حاله، وربما على حالي أيضاً لأني في الأعماق كنت منهكة. هززت رأسي عبثاً. قبل أن أغلق الآيفون الذي كان في يدي، رأيت الكلمات تتسارع حبيبتي.... لا.... عمري..... ردي... الأنوثة الأبدية تسمو بنا das Ewig- » Weibliche zieht uns hinan „ سأجعلها كذلك يا قلبي. سأجعلها كذلك...

انتابني سؤال مجنون، ولكني سرعان ما دفنته لكي لا يأكلني شجني. لم يكن مهماً أبداً. ولهذا تفاديته.

كنت ملفوفة في خراب بلون الليل. ليس المزعج حرق

الجناحين. كل أجنحة العشاق محروقة سلفاً، في مكان ما، وإلا لعاشوا سعداء، ولكن أن تحرق جناحيك وأنت تركض بسعادة نحو حتفك وحبك للحياة، هذا ما يصعب تحمله. هو المصير عينه الذي ينتظر كل فراشة تشتهي أن تسرق قليلاً من شعلة الحياة.

هذه المرة ضربة السّاموراي جاءت في الفراغ، وربما من غيري.

هكذا يفترض أن تكون الضربة لتلتحم الحياة بالموت للمرة الأخيرة.

- ألوووووووو أنت هنا؟ ألوووووو
- لا حبيبي. لم أعد هنا. خرجت نحو البحر.
- في هذا الليل.
- في هذا الخوف. العزلة تبدع فيه كل شيء بما في ذلك الجنون. أعتقد أننا كلنا مجانين كل واحد بقدر ما. أبي كان مجنوناً لأنه غادر الأمن الذي كان فيه وركض مثل الفراشة تماماً نحو الموت. أمي كانت حرقتها أكبر، فقد أشعلها عن آخرها رجل ميت. جنت في عزلتها. حبيبي رايان ركض نحو الخيول فقتله حبه لها. الأمرّ من ذلك كله، لا رماد لرايان لكي



أدفنه. أختي كوزيت تحولت إلى نفسها في عزلتها وأضرمت النار في كل ما يحيط بها. المشكلة هي أن النار مستها هي أيضاً. فاوست حبيبي اختار موته بيده. رمى بشعلة زوس نحو الآخرين ورفض كبرياء الفراشة، بأن تحترق على أن تتراجع وتدفع بغيرها نحو حمم البركان. وأنت حبيبي...

- أنا فاوست.
- فاوست عمري. أنت أيضاً مثلنا جميعاً، لست أنتَ. واحد من هذه السلسلة التي تبحث لها عن مأمن قبل الحريق الذي سيأخذ في مسالكه الملتهبة كل شيء. كل شيء بلا استثناء.

كتمت كل أنفاسي، ثم أغلقت الآيفون نهائياً. محوته في اللحظة نفسها من كل عناويني، وبعثت به إلى فراغات جحيم مملكة مارك زوكيربيرغ. كل شيء اندثر بما في ذلك غبار جسد الفراشة الملون، في ثانية واحدة. شممت رائحة الحرق تصعد مني. شيء واحد فيّ كان يحزنني، يفتح عيني نهائياً على المبهم. لم يكن العالم أزرق، ولكنه كان ضبابياً جداً ونديّاً، يبرد بسرعة إلى أقل من الصفر، ويصعد في حرارته إلى الدرجة المائة، حيث كل شيء يغلي بقوة.

- إلى الجحيم مفيستوفيليس.

لا أدري كيف خرجت جافّة، من فم بلا ريق ولا لسان.

فجأة هدأ كل شيء، حتى المدينة. لم أكن في حاجة لوضع القطن في أذني لتفادي صرخاتها الليلية.

لا شيء إلا قطرات المطر الخشنة.

رنّ التليفون مرة أخرى. عرفت أنها رنة دجو.

- تروحي معنا لأفريقيا الجنوبية لمهرجان الجاز؟ وضعناك في القائمة. نحتاجك. رتبت كل شيء مع شادي قبل قليل. سيكون سعيداً هو أيضاً برؤيتك.

بحة دجو لا تخفى على أحد. كدت أقول له: لا. أشتهي أن أبقى في هذه الأرض إلى أن أحترق للمرة الأخيرة. ولكني قلت العكس. أية قوة داخلية كانت في عز حرائقها دفعتني إلى ذلك؟

- أذهب معكم إلى آخر الدنيا.

- ياما. نحن في بداية الدنيا. لا تشيخنا الله يرضى عليك. هههههه

لم أسمع إلا كلمته المعتادة التي يقفز على إثرها عالياً، رافعاً يده اليمنى انتشاء وإعلاناً عن الانتصار:

– واااااااووووووو... أسعد إنسان في الدنيا.

في اللحظة ذاتها، تذكّرت كلمات فيرجي وهي تضحك مني بأعلى صوتها.

– ياما... أنت أسوأ مني. تحبين صورة.

- أحب رجلاً بطوله وعرضه.

- لا طول ولا عرض له. صورة ملصقة في ذهنك، وأنت من يعطيها كل أبعادها. مجرد وَهْم.

- لكنه موجود يا يمًّا.

- في رأسك. اليقين الوحيد هو رجل الغياب. ظل. لون. ولا شيء آخر... »

ألم تكن أمي محقَّة يوم نصحتني بالابتعاد عن وَهْمِ فاوست أو رجل الغياب كما أسمته؟

ليس مهماً. لا خوف الآن. المطر أجمل، وندى البحر ساحر.

-٥-

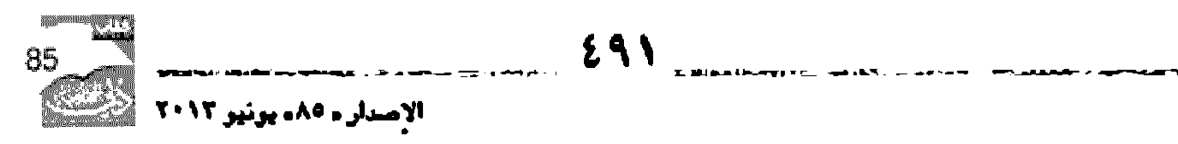
آخر الحافلات الموصلة إلى الجسر، توقفت. ولا أثر للتكسيات. بدأت مرة أخرى كتل الضباب القادمة من الجهة البحرية، تغطي الشوراع، ثم المدينة. لم تعد إلا أضواء المحلات الخافتة والملوّنة هي ما يُضيء الأرصفة والأزقة التي تصعد عالياً بخوف، لتخترق عمق المدينة.

كانت هشاشتي مصابة في الصميم، ولم يكن لي من دواء إلا الرياح التي بدأت تكنس المدينة بمن فيها. الأوراق وما تبقى من الأتربة التي تنام منذ زمن تحت الأقواس، في الشوارع الخلفية. بدا لي وأنا أتدحرج كالقشة، أني سمعت رشقات رصاص تأتي من بعيد، بالقرب من جسر العشاق، الذي دشنه أول رئيس جمهورية منتخَب ديمقراطياً في تاريخ البلاد، قبل أن يُغتال بعد يومين من التّدشين.

كتل الضباب التي أصبحت أكثر كثافة، كانت تعطي للمدينة شاعرية خاصة وخوفاً ضامراً، وتخبئ كل عيوبها القديمة والجديدة وشقوق بناياتها المتهالكة. لا أدري ما الذي قادني نحو مدينة دبلن(١٤٠) برفقة ستيفان ديدالوس(١٤١) وليوبولد

(١٤٠) Dublin.

(١٤١) Leopold Bloom et Stephen Dedalus.



بلوم[142] في ليلة لم تكن جميلة ولا مريحة. أصلاً لا أعرف كيف أحكم عليها! كنت أعبر معهما دروب المدينة بملائكتها وشياطينها وحتى أشباحها الخفية، وهما منهمكان في نقاش لا ينتهي عن الحياة والجنس والخوف من الصباح حتى فجر اليوم التالي بلا توقف. شعرت بألفة كبيرة تجاه يومهما الطويل ١٦ يونيو ١٩٠٤ وكأنني كنت أعرفه بكل تفاصيله. كان لا يزال أمام ليلي الكثير من الوقت لنسيان جرحي أو لإنهائه بالشكل الذي يروق لي.

زادت كثافة الضباب كأن يداً قوية زرعته فجأة في الأمكنة التي كنت أعبرها. غرقت المدينة كلياً أو بشكل شبه كلّي. من حين لآخر تخرج سياره فتصعد بصعوبة، نحو الأعالي، فتغيب في ثانية، في عمق الضباب. أو يظهر شخص يعطي بعض الألفة للمكان الموحش والجميل، يمشي ملتصقاً بالحائط، خائفاً من الصّمت ومن ظلّه.

عندما تعبت، عدت باتجاه ساحة الأوبرا، ربما وجدت هناك سيارة. تركت البحر ورائي. بدت لي هي أيضاً غارقة في عمق ستائر من البياض. لم تكن إلا بعض أضواء واجهتها مشتعلة مما كان يخفي كل الخدوش التي سكنتها على مدار نصف قرن من استقلال البلاد. لم أرها منذ مدة. كانت أمي العاشق

---

(١٤٢) بطلا رواية يوليسيس لجيمس جويس. Ulysses de James Joyce

للأوبرا، هي صاحبة المبادرة دائماً لزيارتها. فيرجي كانت لا ترافق بابا زوريا إلا للاستمتاع بالأوبرا. سمعت صوتها الذي جاءني من بعيد وهي تلتصق به وتقول له: شوف زبير خويا. عندك مهمة مخبرية في فيينّا، أنت تنشغل بهمومك وأدويتك ومخابرك، وأنا أذهب إلى الأويرا مع الأولاد. فرصة. رأيت أنهم يعرضون باليه الفراشة. تمنيت رؤيتها منذ زمن بعيد. أتذكر جيداً أويرا فيينا التي زرتها مع فيرجي وبابا زوريا. لم يكن ليلتها العرض، في مدينة يسرقها الجمال ودهشة الضباب وعطر المطر، لا طويلاً ولا مملاً. كان بفصلين فقط وأربع لوحات لماري تاغليوني[143] وموسيقا جاك أوفنباخ[144] . قصة فارفيلا[145]، الخادمة الشابة، وحبها المجنون للأمير دجالما[146] لكن العجوز الشمطاء الجنية العمياء بغيرتها من حبهما، تحاول أن تدمرهما لأنها لم تحصل من الأمير على القبلة التي تعيد لها شبابها. فحولت فارفيلا إلى فراشة. في نهاية الباليه، يحترق جناحا الفراشة فتتحوّل إلى راقصة باليه، لتتزوج مع حبيبها. فارفيلا تركت وراءها أقداراً

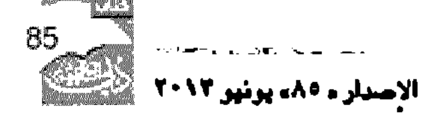
---

(١٤٣) Marie Taglioni

(١٤٤) Jacques Offenbach.

(١٤٥) Farfalla.

(١٤٦) Djalma.



مجنونة وغريبة. أول من أدى دور فارفيلا هي إيما ليفري[١٤٧]، تُوفِّيت في حادث تراجيدي في السبعينيات. فقد كان مصيرها هو نفسه مصير فراشتها فارفيلا. احترقت في ١٥ نوفمبر ١٨٦٢ في أحد التدريبات في الأوبرا. لم تنتبه في لحظة سهو. مسّ لباسها العريض، اللّمبة الزيتية التي كانت تنير الرّكح، فاحترق اللباس ليشمل جسدها كله. جرت داخل المسرح بلا جدوى، حتى أدركها رجال المطافئ، لكن النار كانت قد انتشرت في اللباس كله. توفيت بعدها متأثرة بحروقها العميقة. جزء من لباسها وحزامها محفوظان في متحف الأوبرا حتى اليوم. رأيتهما مع فيرجي ويابا زوربا، بينما فضلت كوزيت ألعاب الحديقة مع إحدى صديقات أمي.

تذكرت ٧٧٧ رسالة إلى فاوست. فكرت أن أطوّح بها عالياً ولكني لم أتجرأ. لم أجد الشجاعة الكافية للقيام بذلك. كنت أبحث عن شيء غامض كان ينبت فيَّ قوياً كالطحالب، وبارداً كسكّين السّاموراي.

عندما رفعت رأسي، وأنا أدخل في الشارع الرئيسي بدا لي فجأة كأني رأيت أخي رايان بجانب برميل من القمامة كانت النار مشتعلة فيه. كان يحاول أن يتدفأ مع شخصين. على الرغم من الضباب، بدت ملامحه واضحة بعض الشيء، وظله

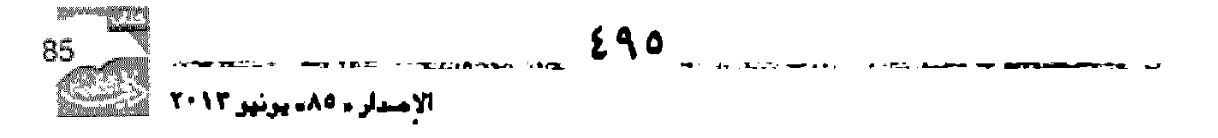
(١٤٧) Emma Livry.

أيضاً. أغمضت عيني قليلاً. ثم فتحتهما. هو. كدت أصيح رايــاااان. ولكني تمالكت قليلاً قـواي. رحت بـاتجاهه وأنـا أحاول أن لا أصدق. عندما اقتربت منهم قلتُ بصوت هامس: رايان؟ هرب منّي داخل كتلة الضباب. لعنت الشيطان. لم يكن هناك أحد. بينما بقي الشخصان يتدفآن بالنار. عندما وصلتُ، سألتهما عنه ولم أشعر بأي خوف منهما:

- هل تعرفانه؟
- لا. لأول مرة نراه.

تمتم الأول. بينما أضاف الثاني:

- هذه ثالث مرة. ليس من المدينة. يبدو أنه هـارب من العدالة. يقول إنه كان في شبكة مخدرات. وأنت واش تعرفين عليه؟ كأنك كنتِ في مسرحية لعنة غرناطة؟
- نعم. بدا لي كأني أعرف هذا الشاب. يشبه شخصاً في العائلة.
- واش هذه الهيلولة اللي دايرينها على هذا المخلوق العجيب؟ هل عنده كل هذه القيمة؟
- يقولون. المسرحية لا بأس بها.
- كنت أحب المسرح من بكري، من وقت الماجستيك الله يرحمها، ولكن منذ أن قتلوا كل شيء، البشر والعمران، ما عدتش نروح.



- الماجستيك. إيه.

خرجت الكلمة مني بحسرة، بينما انهمك الرجلان في التدفؤ بالنار.

فجأة تذكرت مخطوطة ٧٧٧ رسالة إلى فاوست التي كانت معي. لم تعد تصلح لأي شيء. أخرجتها. نظرت إليها للمرة الأخيرة. ثم وبلا أدنى تردد، رميتها في عمق النار. وقفتُ بجانبهما حتى امتدت ألسنة اللهب إلى المخطوطة، فصعدت منها أدخنة سوداء ورماد كثيف. وعندما مست النار الحروف الخبيئة بدأت تصفو وتتحوّل إلى شعلات زرقاء وصفراء وحمراء، شعرتُ فجأة بخفة في وزني وروحي وثقل كل ما كان يحيط بي. خرجت مني لعنة حارقة لم أرتّب لها سلفاً.

Au Diable Faust et Méphistophélès[١٤٨].

- كيف كانت المسرحية؟ هبلونا بهذه غرناطة؟
- لا بأس. كان يفترض أن يسميها لعنة فاوست؟
- انتاع وجهه؟ فاوست بعيد عليه.

ردّ الرجل الذي سألني عن المسرحية، قبل أن يواصل:

- يا بنتي هذه الهيلولة تبين أنهم جابوه باش يخدمو به. دخلوه في الجوقة.

لم أرد. تركتهما بعد أن تمنيت لهما ليلة سعيدة.

---

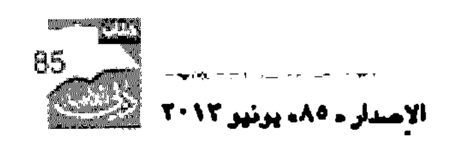
(١٤٨) إلى الجحيم فاوست مفيستوفيليس.

لم آبه لرشقات الرصاص التي كانت قريبة بعض الشيء. مشيت في شارع الأوبـرا الطويل. قلت ربما وجدت سيارة هـاربة تـأخذني نحو شمال المدينة، ومن هنـاك استقلّ سيارتي التي تنتظرني خلف الجسر. لم أكن في حاجة إلى من يذكرني، ولا حتى رشقات الرصاص، بأن الحرب الأهلية انتهت وأن الحرب الصامتة تزداد ضراوة منذ مقتل أول رئيس منتخب بعد تدشينه جسر العشاق. كنت أحتاج إلى أن أعيش. أن أنسى أن حرباً كانت في الخارج سكنت عزلتي ودماغي.

كان الليل هو عصياني الأكبر في هذه المدينة التي كانت تموت كل يوم قليلاً.

بـدأت الأمطار التي ازدادت ضراوة، تزيل تخفف من كتل الضبـاب. بعض العابرين تخبأوا في المطاعم والبـارات اليتيمة المفتوحة. فضّلت أن أمشي تحت المطر حتى أجد تاكسي تأخذني نحو الجسر. ربما لأول مرة أحس بنفسي خارج كل قيود اللغة وزرقة مارك زوكيربيرغ الآسرة، وأني أصبحت بشراً حقيقياً.

كان المطر يسقط وكنت أمشي وأستحم بدفئه. لم تكن هناك قدرة على توقيف جنوني. كنت فراشة بجرح صغير يكاد لا



قدرة على توقيف جنوني. كنت فراشة بجرح صغير يكاد لا يظهر. غمرتني الألوان الكثيرة من كل الجوانب. كانت تلفني وتغطيني مثل ستائر من نور. كانت شمسي وليست الشمس العادية تخرج من غلافها. غرقت في اللون الأزرق الذي يميل نحو الأخضر و البنفسجي الذي كان يأتي من مزيج الألوان التي غيَّرها الضباب الممزوج بالمطر. تأكدت لحظتها أنها الجنة. جنتي. كنت خفيفة جداً حتى أني شعرت بنفسي أطير، وأسمع الأصوات التي لم أعرف منها إلا صوت أمي فقط. ثم... من بعيد سمعت صوتي ماشاهو وسيليني يخترقان الظلام ليسكنا قلبي نهائياً.

المطر يزداد كثافة والضباب يخف والشارع يطول.

كان المطر يغسلني وكنت سعيدة بذلك.

نسيت المطرية بالضبط عند حافة فادي، الرجل الذي وقّع لي كتابه قبل أن ينهمك مع غيري. تذكرت قبعتي الحمراء. أخرجتها من حقيبتي اليدوية ووضعتها على رأسي. شعرت فجأة بدفء غريب. وظللت أمشي. أمشي. كم كانت قوية رغبتي في المشي، في عمق كل الأشياء الجميلة التي رميتها خطأ ورائي. كان المطر يسقط وشيء مثل النور يكبر في داخلي.

وضعت السماعتين في أذني لم أعد أسمع إلا هسيس المطر

وعينين غامضتين لحبيب ظل هارباً مثل حبات المطر. كنت أمشي تحت المطر ولا شيء يهمني سوى أناشيد كيني دجي التي كانت تكبر، وموسيقا In the rain تملأ قلبي وكل حواسي. لم أعد أشعر بعدها بالليل، ولا بالخوف، ولا بما كان يحيط بي. كنت في عمق حبات المطر، أتلون بألوانها، وأنساب مع مائها، بدفء كبير. كنت أمطر من الداخل شيئاً غريباً قريباً إلى اللذة منه إلى الألم والحنين. رأيتي فجأة أركض وأركض في حديقتنا، قبل أن أستسلم لذراعي بابا زوريا، مثل الطفلة الصغيرة وأنام على قلبه. كان يغيب كثيراً، لكنه كلما عاد إلينا كنا نمتلئ بحضوره. كنت مدلعته. كان يقول لرايان ولأختي كوزيت: ماريا ورايان وفريجة في عين وياما في العين الثانية. رأيت أمي وهي تستسلم لي كطفلة صغيرة عندما غضبت من تصرفاتها عندمت صرخت في وجهها وانا أقول لها بأنها كانت تعيش حياة موازية. رأيتها وهي تبكي من الحرارة التي اجتاحتني وأنا صغيرة، وهي تدفئني، وتأتيني بالثلج والليمون. بكت الليل كله، حتى رأت عينيَّ ترمشان بسعادة. رأيت حبيبي رايان وهو يستسلم لي في سجنه، في حيرة لم يكن يعرف سرّها. لا أدري لماذا مازلت على يقين من أن رايان لا يزال حياً، في مكان ما، بعد احتراق مستشفى

الأمراض العقلية، والسجن معاً. وهو يمد رأسه إلى صدري وأحس بدمعه القوي: يااااااه ياما أختي... لوتدرين كم توحشت صدر أمي، ولكني لا أستطيع. كم اشتقت إلى حديقة بيتنا وإلى الفراشات والعصافير في فصل الربيع. لقد ذهب الربيع يا ياما. وحدك قادرة على فهم هذه النار التي تشتعل في داخلي منذ عشر سنوات. لم أعد أستطيع فعل أي شيء نحونا. هي أكبر مني ومن قوتي.

عدّلت السماعة قليلاً. كانت موسيقا كيني دجي تتمادى فيَّ. عندما انتهت موسيقا المطر احتلت محلها موسيقا أرق كانت تأتي من رأسي وقلبي. كنت أتمادى في نشيدي الخفي الذي امتص عزلتي وخوفي وقلقي وحتى ليلي، فجأة وضع ديف يده في يدي ومشينا تحت المطر. سمعت صوته يأتي ملوناً بأجنحة الفراشات. كان ندياً مثل المطر. هل حقيقة ركضنا طويلاً وتحدينا مغالق المعابر والجسور وكدنا نُقتل ليلتها على أيدي الحرس الأعمى. كان الرصاص يمر ليس بعيداً عن رؤوسنا ونحن نركض ونندفن داخل الضباب. بتنا تلك الليلة المجنونة على حافة الساحل الجنوبي من المدينة. لأول مرة أمنح صدري لرجل ينام عليه لساعات. كنت حبيبته وسريره. كم أصبح ذلك العالم اليوم بعيداً. عندما فتح ديف عينيه المتعبتين المثقلتين بشيء غامض هو بين الواقع وحلم

غريب، سألني وهو يرسم ابتسامة جميلة. هل حقيقة جرينا على الجسر طويلاً وغرقنا في الضباب الذي كانت تلونه أضواء المدينة المنكسرة. هززت رأسي فقط بأن نعم. نظر إلى الشمس التي كانت تصعد بصعوبة من وراء الجبال الغربية: ياما. أحبك ولكن.... يبدو أننا لا نصلح لهذا العالم يا عمري. لا مكان لهشاشتنا. لقد فشلنا في كل شيء حتى في أن نحب أنفسنا قليلاً. اعطيني يدك أحتاجك الآن قليلاً. أسكنيني في قلبك. أو طوحيني من هنا نحو أعماق البحر، ربما صادفت أمي فأعود نحوها للمرة الأخيرة. الحياة لم تكن طيبة معنا. لم تكن طيبة أبداً.

كانت تمطر في كل حواسي حتى توقفت الأغنية وتخلصت من السماعتين.

لأول مرة أحس بنفسي خارج كل قيد، وأني أصبحت امرأة من مطر وكلمات وحرائق.

شيئاً فشيئاً بدأ المطر يخف دون أن يتوقف نهائياً. بدأ هواء بحري بارد يأتي باتجاه قلبي ويداعب وجهي وعيني وشفتي، ويوقظني من غفوتي ليضعني أمام طفلة كانت شغوفة بالألوان والموسيقا والحياة. فجأة انتابتني، داخل همس المطر الذي كان لا يزال ينهمر في داخلي، الأغنية التي وُلدت من موت لم يحدث وحياة ظلت زمناً طويلاً معلقة في الفراغ،



كنا نغنيها في فرقتنا ديبو- جاز وتحولت مع الزمن إلى نشيد للحياة وللشباب المنكسر، بعد أن فشل نهائياً في أن يجد وطناً بديلاً.

تسرق منا الأحلام

عبثاً نبحث عن سفن تقتلنا.

عن رياح تعصف بحواسنا وشمسنا.

في بلادنا نحب الرقص أيضاً.

نحب التانغو كثيراً.

لكن لا أحد يدعونا للرقص على جسر العشاق.

التانغو ليس للأغنياء فقط،

نشرب بيرة تانغو ونتنتشي.

ونرقص مع الأشباح على جسر الموتى.

لا أدري إذا ما كنت سعيدة أم في أقاصي حزني، لكن المؤكد أن شيئاً ما كان يحترق فيّ ويتحول في داخلي إلى كومة من الرماد.

فجأة توقفت عند قدمي سيارة صغيرة. ماروتي. سيارة الفقراء كما يسميها سكان المدينة. عرفتها من سطحها وصغر

حجمها. رمادية اللون. نسميها في شمال المدينة سيارة امرأتي أي سيارة زوجتي هههه. كانت تنزلق على شارع الأوبرا الطويل، بهدوء مثل السلحفاة. ربما كانت الوحيدة في تلك اللحظة لأني لم أر غيرها. قبل أن أسمع صوتاً يأتي من أعماقها، شممت رائحته التي كان بها عطر بيرة تانغو القوية، بمجرد أن فُتح زجاج السيارة.

- تفضلي ياما. ليل دبلن بارد وحزين ولكنه جميل هههه

كانت نبرات الصوت مألوفة وبها بحّة جميلة. ركبتُ بلا تردد وأنا أنضح بابتسامة سكنت فجأة دمي ووجهي. لم أستطع أن أكتم ضحكتي.

- هههه ديدالوووووس؟ من وين خرجت لي يا المهبووول؟

- في بلادنا نحب الرقص ونكره الحروب أيضاً، ونحب التانغو كثيراً...

- التانغو ليس للأغنياء فقط، نشرب بيرة تانغو وننتشي. ونرقص مع الأشباح على جسر الموتى.

Dans notre si beau pays, nous aimons la danse

Nous aussi, on deteste les guerres

On aime le Tango

Le tango n'est pas l'apanage des aisés

On prend une bierre Tango, on voit mieux la vie

Et on danse avec les chimères, sur le pont des morts

باريس/ دبي شتاء ٢٠١٣

شكر وعرفان

بدأت أشعر، في السنوات الأخيرة، بأن مساعدة الكثير من المختصّين لي، في مهامي الروائية، دين على عاتقي. فكلما كتبتُ رواية جديدة شعرتُ بثقل هذا الواجب الذي عليّ تأديته. فقد ساعدوني بقوة وبلا مسبقات. وهذه الرواية، كغيرها من النصوص السابقة، تدين لجهودهم بالكثير. أدرك سلفاً أن الرواية، وهي تصوغ مخيالها الخاص ومساراتها المعقّدة، من الأنانية بحيث لا تنصف أحداً، أحياناً حتى كاتبها، ومع ذلك، فلولا هذه الأيادي الكريمة والخفية، في شتّى المجالات، لما جاءت الرواية بالشكل الذي أريدَ لها أن تكون عليه.

شكري اليوم يذهب نحوهم جميعاً ونحو غيرهم ممن لم أذكر أسماءهم

- الفنان، الأستاذ امحمد بن قطاف، مدير المسرح الوطني، الذي فتح لي دائماً ليس فقط أبواب المسرح/ الأوبرا، ولكن كواليسه السرية أيضاً، فمنحني فرصة التعرف على الخفايا السرية التي لا يراها الجمهور العادي، منذ عملي بالتلفزيون الوطني لإنجاز حصصي الثقافية، ثم لاحقاً، عندما بدأت أشتغل على هذه الرواية، لأن جزءاً من أحداثها يدور داخل الأوبرا الوطنية.
- الفنان بن حلاق أنيس، العازف المميز على القيثارة الجافة والكهربائية، ورئيس فرقة الجاز بارادوكسيكال- بروجيكت Paradoxical-Project، بباريس، التي توصلت إلى دمج الكثير من الطبوع الموسيقية العالمية، بما فيها العربية، داخل بنية ومقاسات الجاز الموحدة. معلوماته الفنية الكثيرة والدقيقة أفادتني في بناء عناصر الرواية في جانبها الموسيقي المتعلق بالجاز.



- الفنانة شانتال غاليسو، العازفة على الكلارينات، والنشيطة في فيستيفال الجاز في سان جيرمان ديبري Saint-Germain-Des-Près بباريس، التي تعتبر نفسها سليلة جهود أستاذها الروحي الكبير جون-كريستيان ميشيل، الكلارينيتست الفرنسي والعالمي المعروف، الذي مزج موسيقا الجاز بالموسيقا المقدسة، فأنتج نموذجاً مميزاً. لشانتال أدين بالكثير من المعلومات الموسيقية الخاصة بآلة الكلارينات التي ورد ذكرها على مدار هذه الرواية.
- الدكتورة سهام شرّاد التي استفدت كثيراً من ملاحظاتها ومساعداتها الصيدلانية. ناهيك عن كونها متخصصة في موضوع الأدوية ومركباتها، فهي قارئة نهمة واستثنائية للرواية. العملة النادرة في عالمنا الذي تقتله غباوة التخصّص الضيّق. فقد وفرت لي الكثير من الوثائق الخاصة بمهنة الصيدلة وضوابطها القانونية والعمل المخبري وطرائقه، المفيدة لمسارات هذه الرواية، من خلال حوارات طويلة استمرت كل فترة كتابة هذا النص.
- الدكتور رشيد زهّار، الإطار في بيوتيك التابعة لمجمّع صيدال الطبّي، على المعلومات التي وفرها لي حول محكمات إطارات صيدال، وحرب استيراد وتسويق الأدوية التي لا تبتعد كثيراً عن ممارسات المافيا. لا يزال رشيد يظن، وإلى اليوم، أن كل الحملة ضد صيدال كان القصد من ورائها، فتح سوق الأدوية على مصراعيه في وجه الخواص الذين تحولوا إلى لوبي قوي يحدد طبيعة الأدوية التي يجب تصنيعها أو استيرادها.

واسيني الأعرج - سيرة ذاتية

I الاسم والمولد:

- واسيني الأعرج Waciny Laredj
- مواليد ٨-٨-١٩٥٤ بتلمسان، الجزائر.

II العمل الأكاديمي

- بروفيسور بجامعة السوربون، باريس من ١٩٩٤ إلى اليوم
- أستاذ التعليم العالي منذ سنة ١٩٨٩ بجامعة الجزائر المركزية.
- أستاذ زائر بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس (UCLA)، بأمريكا ١٩٩٩-٢٠٠٠
- خريج جامعة وهران (الجزائر)، الليسانس، كلية الآداب واللغات.
- خريج جامعة دمشق، ماجستير: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر.
- خريج جامعتي باريس ودمشق، دكتوراه دولة: نظرية البطل في الرواية العربية.
- أشرف على فرقة البحث الجامعية: حول الرواية والأشكال السردية ١٩٨٨ ١٩٩٣.
- عضو المجلس العلمي من سنة ١٩٨٧ إلى ٢٠٠١.
- أشرف على وحدة الأدب المغاربي بجامعة الجزائر المركزية ٢٠٠٧-٢٠٠٩.
- أسهم في مناقشة العديد من الأبحاث العلمية والفكرية في الجامعات الجزائرية والعربية والأوروبية المتخصصة في السرديات والمسرح والشعر.

III النشاط الأدبي والثقافي

- أدار اتحاد الكتاب الجزائريين من سنة ١٩٩٠ إلى سنة ١٩٩٤ كنائب للرئيس وكمؤسس و مشرف على مجلة الاتحاد: المساءلة.
- عضو مؤسس لجمعية الجاحظية، الثقافية والأدبية برفقة الروائي الراحل الطاهر وطار ونخبة من الكتاب.
- أشرف على إصدار السلسلة الأدبية «أصوات الراهن» باتحاد الكتاب الجزائريين والتي تهتم بالتجربة الأدبية الشابة في الجزائر.

• ساهم في العديد من الندوات العربية و العالمية المتعلقة بموضوعات الكتابة، وظيفة الكاتب، السرد، تحديات الفكر العربي، العولمة و الثقافة، المثاقفة، الحداثة، الأنا و الآخر و غيرها من موضوعات العصر في بلدان عربية و أجنبية كثيرة: (الجزائر، المغرب، تونس، مصر، ليبيا، سوريا، لبنان، الأردن، السعودية، الكويت، الإمارات العربية، البحرين، عمان، إيطاليا، فرنسا، هولندا، الولايات المتحدة، إسبانيا، بريطانيا، بلجيكا، سويسرا و غيرها...)

• أعد وأنتج حصة أهل الكتابAhl el kitab التلفزيونية التي تهتم بوضعية الكتاب و المقروئية في الجزائر والوطن العربي والتي بثت في التلفزيون الجزائري من سنة ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٢.

- أنتج سلسلة الديوان Diwanالتلفزيونية والتي تحاول أن تنجز أنطولوجيا مرئية عن الكتاب العرب منذ بداية القرن العشرين. وقد تم إنجاز أكثر من عشرين شريطاً وثائقياً مطولاً.

• أنجز ثلاثية تلفزيونية وثائقية حول تاريخ النخب الثقافية في الجزائر (٢٠٠٤-٢٠٠٥).

• ترأس لجنة التحكيم للمسرح المحترف، الجزائر ٢٠٠٧.

• ترأس اللجنة العلمية للمسرح المحترف: فلسطين في المسرح، ٢٠٠٩.

• عضو الهيئة الاستشارية العليا لجائزة الشيخ زايد للكتاب من ٢٠٠٧-٢٠١٠.

• كما شارك في ترأس أو عضوية العديد من لجان تحكيم أدبية وفكرية عربية وعالمية: جائزة الأدب المتوسطي (فرنسا)، جائزة الدولة في الكويت، جائزة الدولة للآداب في سلطنة عُمان، جائزة الرواية العربية، جائزة الأكاديمية العربية الأوروبية (فرنسا) ...

١- الأعمال الروائية:

• البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل)، دمشق ١٩٨٠، الجزائر ١٩٨٢.

• وقع الأحذية الخشنة، قصة مطولة، ١٩٨١.

• ما تبقى من سيرة لخضر حمروش، دمشق ١٩٨٢.

• نوار اللوز، بيروت ١٩٨٣، الجزائر ١٩٨٦ و٢٠٠١. ترجمت إلى العديد من اللغات.

- أحلام مريم الوديعة، بيروت ١٩٨٤، الجزائر ١٩٨٧ و ٢٠٠١.
- ضمير الغائب، دمشق ١٩٩٠ و الجزائر ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية.
- الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية، دمشق و الجزائر ١٩٩٣. ترجمت إلى الفرنسية.
- الليلة السابعة بعد الألف: المخطوطة الشرقية، دمشق ٢٠٠٢.
- سيدة المقام، ألمانيا ١٩٩٥ و الجزائر ١٩٩٧ و ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية وغيرها.
- حارسة الظلال، دار مارسا &إيدن، باريس ١٩٩٦. صدرت بالفرنسية ثم بلغات أخرى.
- ذاكرة الماء، ألمانيا ١٩٩٧ والجزائر ١٩٩٩ و ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية والإيطالية.
- مرايا الضرير، باريس ١٩٩٨ بالنسبة للطبعة الفرنسية.
- شرفات بحر الشمال، بيروت والجزائر ٢٠٠١. ترجمت إلى الفرنسية وغيرها.
- طوق الياسمين، المركز الثقافي العربي، الرباط وبيروت ٢٠٠٤.
- كتاب الأمير، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٥، صدرت بالعربية ولغات أخرى.
- سوناتا لأشباح القدس، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٨ ترجمت إلى الفرنسية وغيرها
- أنثى السراب، دبي الثقافية، ٢٠٠٩، دار الآداب ٢٠١٠.

ـ البيت الأندلسي، دار الجمل، بيروت ٢٠١٠. ترجمت إلى الفرنسية و غيرها

- جملكية آرابيا، دار الجمل، بيروت ٢٠١١.
- أصابع لوليتا، دبي الثقافية ٢٠١٢، دار الآداب، بيروت ٢٠١٢
- رماد الشرق، دار الجمل، يسروت ٢٠١٣.

<u>٢ـ الدراسات الأدبية والنقدية</u>

- اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ١٩٨٦.
- النزعة الواقعية الانتقادية في الرواية الجزائرية، دمشق ١٩٨٧.

- الجذور التاريخية للواقعية في الرواية، بيروت ١٩٨٨.
- أتوبيوغرافيا الرواية، سلسلة دراسات، بيروت ١٩٩٠.
- ديوان الحداثة، في النص الشعري العربي. اتحاد الكتاب الجزائريين ١٩٩٣.
- الشعر الجزائري، طبعة فنية فاخرة، مزدوجة اللغة، خاصة بسنة الجزائر بفرنسا قام بتخطيطها الفنان الكبير: رشيد قريشي. مجمع النصوص الغائبة (أنطولوجيا الرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للطباعة للإشهار، الجزائر ٢٠٠٨.
- على خطى سرفانتس في الجزائر طبعة فاخرة، صدرت في إطار الجزائر عاصمة عربية للثقافة. ٢٠٠٧ـ٢٠٠٨.

IV. الجوائز الأدبية العربية

تحصّل على الكثير من الجوائز منها:

١ـ الجائزة التقديرية الكبرى الممنوحة من طرف رئيس الجمهورية، سنة ١٩٨٩.
٢ـ جائزة الرواية الجزائرية على مجمل أعماله، سنة ٢٠٠١.
٣ـ جائزة التلفزيون الأولى للحصص الثقافية الخاصة، عن البرنامج الثقافي التلفزيوني: أهل الكتاب سنة ٢٠٠١.
٤ـ جائزة قطر العالمية للرواية عن روايته: سراب الشرق. (٢٠٠٥)
٥ـ جائزة المكتبيين الجزائريين عن روايته: كتاب الأمير. (٢٠٠٦)
٦ـ جائزة الشيخ زايد للآداب، عن روايته: كتاب الأمير. (٢٠٠٧)
٧ـ بوردو للصداقة الفرنسية الجزائرية عن روايته: كتاب الأمير. ٢٠٠٧
٨ـ الكتاب الذهبي في المعرض الدولي عن روايته: سوناتا لأشباح القدس (٢٠٠٨)
٩ـ الدرع الوطني لأفضل شخصية ثقافية لسنة ٢٠١٠ الممنوحة من اتحاد الكتاب الجزائريين.
١٠ـ جائزة أفضل رواية عربية لسنة ٢٠١٠ بحسب التقويم الإعلامي والصحفي الوطني والعربي عن روايته: البيت الأندلسي.

المحتويات

الرقم الدولي

ISBN978-9948-494-42-3



ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للروائي الجزائري الأستاذ واسيني الأعرج، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاريعنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري



واسيني الأعرج

85

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع


روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية